ندوة دولية

فقه المقاصد والحكم

في فكر بديع الزمان النورسي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلية الشريعة /جامعة القرويين - المملكة المغربية
و مركز بحوث رسائل النور باستانبول

ندوة دولية

فقه المقاصد والحكم

في فكر بديع الزمان النورسي

أكادير ، (المملكة المغربية)
٥ – ٦ ربيع الأولى ١٤٢٩ هـ
١٣ – ١٤ مارس ٢٠٠٨م

كلمة السيد رئيس جامعة القرويين

في ندوة : فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي

كلية الشريعة – أكادير

أيها السادة:

يسعدني في البداية، وأنا افتتح أشغال هذا الملتقى المبارك أن أشكر كل الذين لبوا الدعوة للمشاركة في هذه الندوة العلمية التي تمت بتعاون بين كلية الشريعة بأكادير التابعة لجامعة القرويين، وبين مركز الثقافة والعلوم باستانبول حول : **فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي.**

ومما يزيد ني بهجة وسرورا أن يشارك في هذه الندوة المباركة إلى جانب الباحثين المغاربة عدد من الباحثين الوافدين من مختلف البلاد الإسلامية وهو ما يؤكد وحدة الثقافة الإسلامية والاهتمام بقضاياها لدى جميع الشعوب الإسلامية والشعور المشترك بإبراز مكانتها في ماضيها المجيد وما يجب بذله من الجهود في سبيل دراستها وتوجيهها حاضرا ومستقبلا لتكون لها الفعالية المرجوة والإشعاع اللائق بها وبالشعوب التي تمثلها والتي هي عمدتها في الفكر والعلم ومشاركتها الفعالة في المسيرة الحضارية الحديثة.

إن مسؤولية جسيمة تطوق عاتق علماء المسلمين، الذين يدركون شساعة العالم الإسلامي وأهمية الشريعة الإسلامية وثقافتها التي فتحت معينها الفياض للإنسانية كلها، وأصبحت كل البلاد الدنيا مناخا واحدا يعبق بتاريخ هذه الشريعة

السمحاء فاستفادت منها هذه الشعوب وأفادت كما هو الشأن في إفريقيا وأسيا وأوربا وكل بقاع العالم.

إن التطلع إلى مستقبل الثقافة والفكر الإسلامي هو شاهد قوي على عودة الوعي بالكيان الثقافي الإسلامي في المواكبة لوعي صريح بالواقع الإسلامي المعاصر، والتي تعتبر هذه الندوة المباركة الدليل القاطع على المشاركة الجادة في فتح نقاش علمي جاد وللتعمق في التعريف بالقضايا الفكرية المعاصرة للكشف عن الوجه الحقيقي لثقافتنا الإسلامية المعاصرة لأننا في الظروف التي يعيشها العالم اليوم نسعى إلى تضافر جهودنا من أجل تجاوز كل المشاكل التي يعيشها واقع الإسلام اليوم. والوقوف في وجه الذين يحاولون استغلال الخلافات الثقافية والدينية لأحداث الشقاق بين الشعوب. ومثل هذه اللقاءات هي أحسن تعبير عن هذه الجهود التي ترمي إلى توحيد صفوف الشعوب الإسلامية وخلق تعاونها وتآزرها فيما بينها.

إن التعاون على تنظيم هذه الندوة العلمية بين مؤسستين عريقتين: جامعة القرويين ومركز الثقافة والعلوم باستانبول : تعملان على ترسيخ أصول الشريعة الإسلامية في عصرنا. والعمل على الحفاظ على التراث الإسلامي، بالعناية ودراسة ما أنتجه علماؤنا ومفكرونا خلال العصور الطويلة المتعاقبة من خلال مناهجها الدراسية في مختلف التخصصات الشرعية واللغوية التي تهتم بتدريسها، أو من خلال الندوات التي تنظمها، وتتوخى من خلالها رصدا اهتمام العلماء من المفكرين الباحثين لبلورة البحث الرصين في قضايانا المعاصرة في إطار الشريعة الإسلامية ومدى فاعليتها في التنمية الاجتماعية والاقتصادية في مواجهة التحديات المعاصرة والمستقبلية، مما يحقق تطلعنا نحو المستقبل العلمي الزاهر الذي يستفيد منه العالم الإسلامي في نهضته الحديثة ببوابته الفكرية الراسخة التي تفتح أمام الأجيال اللاحقة مجالات العلم والمعرفة للمساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية الحديثة. دون أن تتخلى عن

أصالتها وضوابطها الثابتة لتؤدي دورها في خلق تواصل روحي وثقافي لتوحيد العالم الإسلامي.

ولا يخامرني أدنى شك في أن تعاوننا اليوم مع مركز الدراسات باسطنبول سيثمر نتائج ايجابية ستكون بحول الله نبراسا علميا قويا يستنير به الباحثون المهتمون في مجال الفكر المقاصدي.

أيها السادة :

إنني أجدد الترحاب بضيوفنا الكرام الوافدين علينا من مختلف البلاد الإسلامية ومن مختلف جهات المملكة، ولا يفوتني كذلك أن أشكر جميع الذين ساهموا وقدموا الدعم لإنجاح هذه التظاهرة الفكرية، وفي طليعتهم السيد : عامل عمالة انزكان أيت ملول ، والسادة رؤساء الجماعات المحلية بالعمالة، ورئيس الغرفة التجارية والخدمات بأكادير، والسادة المنتخبون والسلطات المحلية، وكل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاح هذا العمل العلمي المبارك.

بارك الله في جهودكم العلميـة تحت القيـادة الرشيدة لراعي العلم والعلماء جلالة الملك محمد السادس، أيده الله ونصره الذي مافتئ يدعو إلى التمسك بالدين الإسلامي الحنيف خدمة لمصلحة هذه الأمة.

وأتمنى لأشغال ندوتكم كامل التوفيق والسداد.

والسلام عليكم

رئيس جامعة القرويين

د/ علي الصقلي

كلمة عميد الكلية

في الجلسة الافتتاحية لندوة:

فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي

أيها السادة....

إنها لمناسبة عظيمة هذه، ونحن نعيش هذا الحدث العلمي المتميز، المتمثل في تنظيم هذا الملتقى الدولي الكبير حول فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي، الذي جاء ثمرة تعاون وتشارك بين إحدى كليات جامعة القرويين العريقة، ومركز الثقافة والعلوم باستانبول العتيد.

ويطيب لي بهذه المناسبة، أن أتقدم بأحر عبارات التقدير إلى السادة الأساتذة الباحثين القادمين من خارج الوطن، أو من مختلف الجامعات المغربية، وأن أتوجه إليهم باسمي الخاص وباسم أطر الكلية بأصدق عبارات الشكر والامتنان على استجابتهم لدعوتنا للمشاركة في هذه الندوة، كما أرحب بكل الضيوف الذين شرفونا بالحضور في هذه القاعة.

إن هذه الندوة تدخل في إطار البرنامج العلمي الموازي للعمل الأكاديمي الذي سطرته الكلية برسم السنة الجامعية الحالية وهي تتناول بالدرس والتحليل فكر وحكم أحد أبرز معالم الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي.

ويدخل هذا ضمن اهتمام ووعي القائمين على شأن البحث العلمي في هذه الكلية بأهمية الأنشطة الثقافية والندوات العلمية في مجال الفكر، وحرص الكلية الشديد على تهيئ الظروف وتوفير الوسائل المتاحة لتحقيق الهدف المنشود المتمثل في تدعيم الثقافة الإسلامية والبحث في العلوم الشرعية.

وليس هذا غريبا عن كلية الشريعة، فهي من جامعة القرويين التي ظلت منارا للعلم والعرفان، يقصدها الراغبون في الاغتراف من علومها من مختلف أقطار العالم منذ زمن بعيد وفي شتى ميادين العلوم والمعرفة، ولا تزال إلى اليوم تؤدي وظيفتها، وتؤدي رسالتها، من خلال الكليات التابعة لها الموزعة عبر التراب الوطني ومن بينها هذه الكلية العريقة المتجدرة في قلب سوس العالمة، والتي حملت على عاتقها نشر التعليم الديني، وتطوير البحث العلمي في مجال العلوم الشرعية في الجهة وعبر التراب الوطني.

إن الاهتمام بفكر الأشخاص المرموقين أمثال بديع الزمان النورسي، الذين يمثلون نماذج فكرية متميزة، ويعتبرون قمما شامخة في الاستقامة والتنوير، يندرج ضمن التواصل الفكري بين الأجيال، ويشكل مظهرا مشرقا من مظاهر نضج الفكر، ووضوح الرؤية وبعد النظر.

وهذا ما تريد هذه الندوة العلمية أن تؤكده من خلال التعاون المشترك بين كلية الشريعة ومركز الثقافة والعلوم باستانبول، باختيار موضوع فقه المقاصد والحكم في فكر هذا العالم الجليل: بديع الزمان النورسي لأنه ليس شخصية عادية، بل هو عالم فذ متميز، وهو ما سيكشف عنه السادة العلماء الأجلاء، والأساتذة الباحثون الذين شاركوا في هذه الندوة، وأغنوا بأبحاثهم القيمة محاورها. بتسليط الضوء على جوانب مشرقة من فكر هذه الشخصية المرموقة.

ولاشك أن هذه الندوة بذلك ستنكت على الإجابة عن سؤال كبير حول واقع التراث الإسلامي ومكانته أمام هذا التطور الهائل في مجال البحث العلمي في مختلف المعارف والعلوم الإنسانية. مع البحث عن أواصر الارتباط وأسباب التواصل بين تراثنا الإسلامي الأصيل، وهذه المجالات المعرفية التي فرضتها الحضارة العصرية في المجتمعات الإنسانية.

إن مثل هذه الأسئلة ومثيلاتها مطروحة للبحث في ندوتكم هذه، ونحن على يقين أنكم ستتدارسونها، وستعمقون البحث فيها. خاصة وأنه قد شارك فيها

مجموعة من خيرة الأساتذة والباحثين المتخصصين وطنيا ودوليا تجمعهم الغيرة على الشريعة الإسلامية والرغبة في تطوير البحث في علومها.

فتمنياتنا لكم بالتوفيق والسداد، ونحن على يقين أنكم بأعمالكم في هذه الندوة ستضيفون لبنة أخرى في بناء صرح الثقافة الإسلامية وتبرهنوا على أن تراثنا الإسلامي الأصيل، بقدر ما هو متجدر، قابل لمسايرة مستجدات العصر في مختلف العلوم والحضارات، واستيعاب مختلف المناهج دون أن يفقد أصالته.

كما نغتنم هذه المناسبة السعيدة لنعبر عن خالص الشكر والعرفان للسيد عامل صاحب الجلالة على عمالة انزكان أيت ملول، الذي مهد لنا الطريق بكل التشجيعات والتسهيلات المتمثلة في الدعم الذي مافتئ يقدمه لهذه المؤسسة في مختلف المناسبات، كما ينصرف الشكر والتقدير إلى السيد النائب البرلماني رئيس غرفة التجارة والصناعة والخدمات بأكادير الذي يؤازرنا في كل مناسبة، ولم يتأخر في تقديم العون والمساعدة لدعم أعمالنا العلمية وتظاهراتنا الثقافية.

والشكر كذلك موصول إلى رئيس المجلس الجماعي لايت ملول ، الذي شمل هذه المؤسس برعاية خاصة، فكان سندنا ومعيننا في كل أنشطتنا، ولا نستثني في هذا الشأن كل الجماعات المحلية بعمالة انزكان أيت ملول التي تولي هذه المؤسسة عناية كبيرة ، ولا يسعنا إلا أن نشكر رؤساءها والقائمين على مصالحها.

وإنني في الختام أوجه شكري وامتناني لكل من ساهم من قريب أو بعيد في إعداد هذه الندوة وإنجاحها من المسؤولين في الكلية أساتذة وإداريين أو من ضيوفها الذين تحملوا أعناء السفر من خارج الوطن ومن داخله لإثراء البحث والنقاش في هذا الموضوع الهام.

وكل من ساهم من خارج الكلية من السلطات المحلية والهيآت المنتخبة والأشخاص من قريب أو بعيد، لان الهدف نبيل وهو خدمة تراثنا الإسلامي في النهوض بوطننا العزيز، حتى يكون كما يصبوا إليه عاهلنا المفدى صاحب

الجلالة والمهابة محمد السادس حفظه الله ونصره وأقر عينه بولي عهده الأمير الجليل مولاي الحسن، وشد أزره بصنو ه السعيد المولى الرشيد وسائر أفراد الأسرة الملكية الكريمة انه سميع مجيب، وبالاستجابة جدير.

والسلام عليكم

العميد

أ. د. الحسين أفا

٢٠٠٨/٠٣/١٣

من نافلة القول: إن المغرب وتركيا يربطهما أكثر من رابط، غير أن ما يجول بالخاطر في هذه الفرصة هو استشراف النظر المقصدي الأكثر دلالة وعمقا من بعض هذه الروابط؛ وهنا يجوز الظن بأن من حكمة البارئ الحكيم أن بوأ هذين البلدين مبوأ جغرافيا قاصدا، إذ جعل كلا منهما يأخذ هذا البحر الأبيض من أحد طرفيه، ومكنه من أحد مضيقيه، مضيقي طارق والبوسفور. وعلى قنطرتيهما وعبر عبابهما عبرت رسالة النور الأولى ـ قبل رسائل النور ـ إلى عالم أوربا المظلم، فاقتسم الرباطان هذا الشرف إذ تولاه فاتحان من بنيهما، فاتح عاصمة القوط طارق بن زياد، وفاتح عاصمة الروم محمد الفاتح...ولئن توقف الزحف البشري عند تخوم باريس من الغرب وتحت أسوار فيينا من الشرق، فإن الزحف النوري عم القارة العجوز وأيقظها من سباتها الطويل فاقتبست من شعلة علوم حضارة الإسلام الإنسانية ما بنت به أسس حضارتها المادية الطاغية، معرضة ـ في الوقت ذاته ـ عن الروح والهدى الموجه والمسدد لمسيرة هذا العلم، ثم كالت لأساتذتها المسلمين سوء كيلة تمثلت فيما أسمته حروب استرداد الأوطان، ثم أضافت على ذلك علاوة حروب الاستعمار، فنشرت الجهل والظلم، وعملت على تجفيف ينابيع القيم والتدين...

في هذا الخضم ـ وإجراء للنواميس والقوانين المطردة ـ انبعث لهذه الأمة من يجدد لها أمرها، من المشرق ومن المغرب، وكان منهم الأستاذ بديع الزمان النورسي، { ١٨٧٦- ١٩٦٠}، الذي ساقه القدر ليؤدي رسالة "إنقاذ الإيمان" في عصر أله الطبيعة والمادة والقوة... وكان من منهجه أن اتخذ القرآن مرجعه في محاكمة أفكار عصره، وخاطب في الإنسان ضميره كما جادله في عقله؛ ليبرهن للعالم أن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها. وقد

خلدت هذه التجربة الغنية في آلاف الصفحات المعروفة في العالم باسم رسائل النور.

وإن من حق هذه الطائفة المجددة أن تؤثث ذاكرة أمة ما زالت ترنو للانعتاق، ونظن أن في تجربة الأستاذ النورسي دروسا لكثير من الاتجاهات الإصلاحية والتغييرية في عالم الاسلام اليوم، سواء أقرأناه سعيدا القديم أم سعيدا الجديد.

أما هذه الندوة فقد آثرت أن تتذكر هذا العلم من مدخل معرفي، وأن تقارب تجربته مقاربة علمية، فاقترحت في تناغم مع رغبة مركز الثقافة والعلوم بإسلامبول ـ أن يبحث الفكر المقاصدي في تراث الأستاذ النورسي، استعادة لفكر الرجل من جهة، وخدمة للمسار العلمي للكلية من جهة أخرى، لا سيما وهذا الباب لم يطرق من قبل. والمرجو من هذه الفرصة المتاحة لتبادل الرأي والنقاش أن تفتح في علم المقاصد أفقا إضافيا ...ومما يحمل على هذا المطمح تجاوب ثلة من العلماء والباحثين من بلاد مختلفة مع طرح الندوة، كل منهم نظر إلى الفكر الحكمي والفقه المقاصدي من زاوية تخصصه؛ عقديا ، أو شرعيا، أو أخلاقيا، أو تربويا واجتماعيا ، أو اقتصاديا،

وإن اللجنة المنظمة لتقدر جهودهم، وتشكرهم على تواصلهم وإبداعهم، وترجو أن يعم النفع بعلمهم، وتتمنى لكل شهود هذا المحفل العلمي متعة كاملة، فأهلا بالجميع وسهلا.

اعتبار المآل واستشراف المستقبل
عند بديع الزمان النورسي

د. عبد الكريم عكيوي
كلية الآداب – أكادير- المغرب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته الطيبين وأهل بيته الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، والتابعين لهم ومن تبعهم بإيمان إلى يوم الدين. أما بعد، فإن الغرض من هذا العرض الكشف عن منهج في المعرفة الإسلامية، أصله في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، سار عليه المحققون من علماء الإسلام واعتمده أهل التربية والسلوك، واهتدى به أهل السياسة وتدبير الشأن العام. وقصدنا خاصة أن نبرز معالم هذا المنهج عند أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، الداعية المربي الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الكردي المتوفى عام ١٩٦٠ م، والذي كان له ولدعوته بالغ الأثر وجميل الفائدة على بلده تركيا ثم سائر بلاد الإسلام التي امتد إليها إشعاع رسائله ودعوة طلبته من بعده. إن من يتأمل حياة هذا الرجل لابد أن يأخذ العجب بقلبه وعقله، عندما يرى ما كان عليه من الإخلاص لدعوته والتجرد الكامل لنشر هداية القرآن الكريم وإنقاذ الإيمان في النفوس وتجديده في القلوب بعد أن كاد يندثر بسبب رياح عاتية هبت على العالم الإسلامي في عصره تبتغي نشر الإلحاد وتزيين التحلل من الدين والفضيلة. وقد ذاق رحمه الله من أجل ذلك أصناف العذاب من السجن والنفي والبعد عن الأهل والأحبة.

وقد كان له رحمه الله منهج واضح في العلم والعمل استخلصه من خبرته في الحياة وتقلبه بين الأفكار المتداولة في عصره، ومن مجاهدته في مواجهة قضايا الحياة وخطوب الزمان، ومن إدمانه على تدبر القرآن الكريم وطلب الأنس والسلوان منه دون سواه. وهذا المنهج واضح من خلال " رسائل النور " التي أودعها خلاصة تجربته في تدبر القرآن الكريم وتنزيل هديه على أحوال الحياة المتجددة.

ومن معالم مسلكه في الفكر والدعوة، التي تبدو للناظر الباحث في رسائل النور، منهج التدبر في حقائق الحياة والتأمل في دقائق الأمور لمعرفة وجه الحكمة في ذلك كله. إن الكون كله في النظرة النورسية من أصغر أجزائه إلى أكبرها، من الذرات إلى المجرات –بأجسامه ومعانيه، بأشباحه وأرواحه،كل ذلك– بمنزلة ألسنة ناطقة بحسب حالها. فهي ليست مجرد أشكال هندسية، وأجسام متحركة، وأرقام محدودة، إنما حقيقتها أكبر من ذلك وأعمق.

وفي سعيه رحمه الله لمعرفة وجه الحكمة، وعمله على ربط كل مسألة بحكمتها، كان ينظر في القضية حتى إذا استوعبها ونفذ إلى حقيقتها، عبر منها إلى امتدادها عبر الزمان وتصورها في سيرها في مستقبل الأيام، مقارنا بين أحوال الحاضر والمستقبل، بين الحال والمآل.

وهذا المنهج حاضر عند علماء الإسلام، خاصة عند علماء أصول الفقه في الأصل الذي سموه "اعتبار المآل". وقبل استخلاص معالمه عند النورسي أرى من الواجب أن أقدم له بخلاصة موجزة جامعة لقضاياه عند علماء الأصول.

اعتبار المآل عند علماء أصول الفقه

إن "اعتبار المآل" من أمهات القواعد المعتمدة عند النظر في النصوص الشرعية بقصد العمل بها وتنزيها على محالها. وقد وضع الأئمة هذا الأصل بعد تدبر نصوص الوحي وتتبع موارد الأحكام، فتبين أن الشريعة وضعت لحكم وغايات في العاجلة وفي الآخرة، فاهتمت بالوسائل الموصلة إلى هذه الحكم

بل جعلت لهذه الغايات أثرا في حكم الوسائل المفضية إليها. فالشارع الحكيم يعطي للعمل والوسيلة حكم الوجوب القطعي إذا كانت تؤول إلى مصلحة عظيمة، وينزل عن ذلك كلما نزلت المصلحة عن هذه المرتبة، ويعطيها حكم المنع قطعا إذا كانت تؤول إلى مفسدة عظيمة. ولهذا كانت مآلات الأفعال وما يترتب عنها في العاجل والآجل محل نظر وموضع عناية عند المجتهدين، لأنها مما يتوقف عليه حكم الأفعال التي يأتيها المكلفون ، ولهذا قرر علماء الأصول ضرورة اعتبار ما سيؤول إليه الحكم المأخوذ من النص الشرعي، فقالوا: إن مآلات الأفعال معتبرة شرعا. وفي معنى ذلك يقول الشاطبي :" النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا... وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل."[١] فالمجتهد حين يجتهد ويفتي عليه أن يقدر مآلات الأفعال التي هي محل حكمه وإفتائه، وأن يقدر عواقب حكمه وفتواه، وألا يعتبر أن مهمته تنحصر في إعطاء الحكم الشرعي. بل مهمته أن يحكم في الفعل وهو يستحضر مآله أو مآلاته ، وأن يصدر الحكم وهو ناظر إلى أثر أو آثاره." [٢]

إن المجتهد أو المفتي عندما ينظر في النازلة ويلتمس لها الأدلة من الشريعة، لا يقتصر على بيان الدليل أو النص الوارد في المسألة، وإنما عليه أن يقدر ما سيؤول إليه العمل بمقتضى ذلك الدليل أو ذلك النص، من خلال نظره في ظروف الزمان والمكان وقرائن الحال وكل ما يحيط بالنازلة وبصاحب النازلة. ولهذا فإن اعتبار المآل يأتي عند العمل بالنصوص وتنزيلها على محالها، فهو من مناهج تنزيل نصوص الوحي على الوقائع والحوادث. وهذا يميزه عن مجال آخر قبل هذا وهو مجال النظر في نصوص الوحي لفهم مراد الشارع منها وبيان

---

(١) "الموافقات" ١١٠/٤. (تحقيق الخضر حسن – حسنين مخلوف. دار إحياء الكتب العربية. بيروت. بدون تاريخ.)

(٢) " نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي" أحمد الريسوني ص: ٣٥٣. (ط١، ١٩٩١م، هيرندن، فيرجينيا. المعهد العالمي للفكر الإسلامي).

الدلالات الصحيحة لها من غير وجود نازلة ومن غير بيان محل العمل بهذه النصوص.

وهذا ما سماه الشاطبي الاقتضاء التبعي لما قال: " اقتضاء الأدلة للأحكام بالنسبة إلى محالها على وجهين: أحدهما الاقتضاء الأصلي قبل طرء العوارض وهو الواقع على المحل مجردا عن التوابع والإضافات، كالحكم بإباحة الصيد والبيع والإجارة وسن النكاح... والثاني: الاقتضاء التبعي وهو الواقع على المحل مع اعتبار التوابع والإضافات كالحكم بإباحة النكاح لمن لا أرب له في النساء، ووجوبه على من خشي العنت... وبالجملة ، كل ما اختلف حكمه الأصلي لاقتران أمر خارجي"[٣] فقد جعل الشاطبي هنا من أسباب تغير الحكم الأصلي اعتبار مآل الإبقاء على الحكم الأصلي، وذكر من أمثلة ذلك قبل طرء العوارض، سن النكاح، وهو ما يستفاد من نصوص الوحي، لكن لما طرأت العوارض ودخل هذا الفعل مجال العمل وتمحضت مآلاته في بعض الأحوال وعند بعض الأشخاص، تغير الحكم الأصلي، فصار النكاح واجبا على من خشي العنت، ومباحا لمن لا أرب له في النساء. وهذا مؤيد لما سبق أن اعتبار المآل يكون عند تنزيل نصوص الوحي على محالها.

ويعد المباح أوسع مجال لاعتبار المآل بالنسبة للمكلف، فالواجب والمندوب مأمور بهما لمآلها إلى المصلحة، والحرام والمكروه وقع النهي عنهما لمآلهما إلى المفسدة. فالفعل في هذه الأحكام الأربعة ظاهر المصلحة أو ظاهر المفسدة، وبقي أعمال ليست في ذاتها ظاهرة المصلحة ولا ظاهرة المفسدة، وإنما تحتمل الأمرين ويتجاذبها الجانبان، وقد تؤول إلى مصلحة وقد تؤول إلى المفسدة، وهذا العمل الذي يصدق عليه هذا الوصف هو المباح، وقد ترك الشارع أمر تقدير مآله إلى المكلف لأنه ليس منضبطا. وهذا سبب اختلاف الأئمة في المباح إلى فريقين، الأول يقول بأن المباح مطلوب الترك والثاني يقول

---

(٣) " الموافقات" ٤٧/٣.

إنه مطلوب الفعل. وهذا بناء على اعتبار مآل المباح، فمن نظر إلى ما يمكن أن يؤول إليه المباح من المفسدة قال بتركه، ومن رأى ما يحتمل أن يؤول إليه من المصلحة قال بإتيانه، وكلاهما صحيح لأن المباح يتجاذبه الأمران، لكن الخطأ في قصر المباح على جانب دون الآخر، ولهذا رد الشاطبي المذهبين معا، لأن المباح لا يبقى على أصل واحد، وإنما تختلف مآلاته بحسب الملابسات والمؤثرات، فقد تدخل عليه مؤثرات تصيره مذموما، وقد تدخله مؤثرات تدخله في جانب طلب الفعل. ولهذا قال الشاطبي: "إن المباح يصير غير مباح بالمقاصد والأمور الخارجة"[٤] فقد يكون واجبا إذا كان خادما لأصل ضروري لأنه يؤول إلى المصلحة، فالتمتع بما أحل الله من المأكل والمشرب والملبس واجب في حدود ما يحفظ الحياة، فإذا تجاوز ذلك إلى حد المبالغة والإسراف كان مكروها أو حراما. وعلى هذا قسم الشاطبي المباح إلى أربعة أقسام هي: ١) مباح بالجزء مندوب بالكل كالتمتع بالطيبات فيما زاد عن الضرورة فهو بحسب الجزئية مباح وبحسب الكل مندوب -٢) مباح بالجزء واجب بالكل كالأكل والشرب والبيع والشراء وسائر الحرف والمهن والصنائع، فهي من ناحية الجزء مباحة، واجبة بحسب الكل لأن تركها جملة يؤول إلى المفسدة -٣) مباح بالجزء مكروه بالكل مثل التنزه وسماع الغناء المباح وسائر أنواع اللّهو واللعب المباح، فإذا فعل يوما أو في حالة ما فلا حرج وان فعل دائما كان مكروها لأنه يؤول إلى الغفلة عن الواجبات وترك الجد -٤) مباح بالجزء محرم بالكل مثل الإدمان المفرط على اللّهو واللعب حتى يصير حرفة لأنه يؤول إلى أن يكون عمره كله لعبا ولهوا.[٥] وظاهر أن هذه الأقسام كلها إنما هي باعتبار ما يؤول إليه الفعل المباح في أصله قبل طرء العوارض والملابسات، لأن المباح هنا يكون وسيلة، والوسيلة لها حكم الغاية التي تؤول اليها، ولهذا قالوا إن ما يفضي إلى

---

(٤) الموافقات ١٢٨/١ (تحقيق عبد الله دراز. دار المعرفة بيروت. بدون تاريخ).
(٥) ينظر : الموافقات ٨٥/١ . "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي" ص: ١٦٥١٦٦.

الحرام حرام، وما يفضي إلى المكروه مكروه وما يتوقف عليه الواجب أو المندوب فهو واجب أو مندوب.[٦] فالبيع مثلا في أصله مباح، لكنه إذا تعلق بأمر اضطر إليه المسلمون صار واجبا في حق البائع، والنكاح أيضا إذا كان المرء لا ينفك عن الزنا إلا به وكان قادرا عليه فهو واجب عليه، وان كان لا يخاف العنت وكان سيضر بالمرأة لعاهة أو عدم نفقة كان حراما، ولهذا قالوا إن النكاح تتجاذبه الأحكام الأربعة.

ومن أمثلة اعتبار المآل في المباح عند الفقهاء قول فريق منهم بكراهة الزواج من الكتابية مع أن الآية صريحة في إباحته حيث قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة: ٥). وسبب ذلك أن هذا المباح قد يؤول في بعض الحالات وبعض البلدان وبعض العصور إلى مفسدة مثل فتنة الأزواج في دينهم، والإعراض عن زواج المسلمات. ويصدق هذا على عصرنا أكثر من غيره، فقد أصبح الزواج من الكتابيات يؤول في الغالب إلى مفاسد ومحرمات، منها صرف الزوج المسلم عن دينه، وعلى نشأة الأبناء بلا دين، وهذا ثابت بالمشاهدة والمعاينة.

اعتبار المآل عند النورسي

إذا كان اعتبار المآل قد اصطبغ بصبغة أصول الفقه فظهر كأنه منهج مقصور على النظر في خطاب الشارع بقصد تنزيله على محله، فإن النورسي منحه صفة العموم والشمول فجعله منهجا في الحياة كلها، وظهر عنده خاصة في جانب التربية وترسيخ الإيمان والسلوك، بالإضافة إلى فروع الشريعة من العبادات والمعاملات.

---

(٦) ينظر: "نظرية التعقيد الفقهي" د. محمد الروكي ص: ١٤٥١٤٩. (ط:١ – ١٩٩٤م. منشورات كلية الآداب بالرباط. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء).

اعتبار المآل في فقه الخطاب الشرعي وتنزيله على محله

في فقه الخطاب الشرعي وتنزيله على محله فإن النورسي ممن يرى أن الأفعال التي تنزل في درجتها عن الوجوب إلى الندب، وخاصة إلى الإباحة، لابد فيها من اعتبار الآثار التي سيؤول إليه العمل بها ولا يقتصر على ما يترتب في الحال. وهذا يختلف باختلاف مراتب المكلفين وأحوالهم وما يحتف بهم من الظروف. وهذه القاعدة لم يفصح عنها النورسي صراحة في شكلها النظري، وإنما تستنبط من تصرفاته وما اختاره في مسلكه في العلم والدعوة، والسلوك والتربية. وأظهر مثال على ذلك ما اختاره من حياة العفة والكف عن الزواج مع تنصيصه على سنيته، ثم منع تعميم هذا الحكم على غيره. ووجه ذلك أنه رحمه الله وضع لنفسه هدفا عظيما ومقصدا ساميا جمعه في إنقاذ الإيمان وإظهار حقائق القرآن. ثم رأى أن بلوغ هذه الغاية عسير لأن دونها حواجز كثيرة ومعوقات كثيفة. فكيف يخلص إلى غاية عظيمة هي قوام أمة كاملة، وخصومها قد جمعوا العدد والعدة وأحكموا القبضة على البلاد والعباد، وجردوا حملات ووقفوا أموالا لتزيين الباطل ونشر الإلحاد، ونصبوا المشانق لمن خالف سبيلهم ؟ وكيف السبيل إلى ذلك والأمة في ركود فكري وسياسي؟ فهذه هي الظروف التي حفت بالنورسي وهو يضع غايات في حياته. فبعد طول نظر وتأمل وتفكير رأى أن هذه الغاية لا تنال إلا بالتضحية والصبر والمصابرة وركوب المعاناة. وفي إعداد نفسه لهذه المعاناة رصد كل ما يمكن أن يكون سببا لانكسار المرء أمام معاناة الحياة أو سببا لغياب الإخلاص عنه، فظهر له أن التعلق بالدنيا ومحبتها والتنعم بأذواقها مما يسجن النفس ويضعفها عن المقاومة والمغالبة وينال من صفاء الإخلاص، ولهذا حمل نفسه على التجرد من نعيم الدنيا فاختار طريق العفة في أقوى درجاتها فلم يقبل حتى الهدية. ثم رأى أيضا أن محبة الأهل والأولاد والحدب الأبوي عليهم مما يحمل على ذلك فوضع لنفسه حكم الكف عن الزواج. ومما يدل على هذا أن هذه المسألة كانت حاضرة عنده

دائما، فكان كلما وجد نفسه مسجونا أو منفيا يحمد الله على صحة مسلكه، لأنه ليس له من الدنيا ما يتعلق به ليداري ويداهن من أجل بقائه.

وفي وجه امتناعه عن الزواج يقول: "في الوقت الذي يلزم لصد هجوم زندقة رهيبة تُغير منذ أربعين سنة، فدائيون يضحّون بكل ما لديهم، قررت أن أضحي لحقيقة القرآن الكريم ... فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقي، ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الوقتي – مع علمي بأنه سنة نبوية – بل لو وُهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسي مضطرة إلى التخلي عنهن جميعاً، لأجل تلك الحقيقة، حقيقة القرآن. لأن هذه المنظمات الملحدة الرهيبة تشن هجمات عنيفة، وتدبر مكايد خبيثة، فلابد لصدها من منتهى التضحية وغاية الفداء، وجعل جميع الأعمال في سبيل نشر الدين خالصة لوجه الله وحده، من دون أن تكون وسيلة لشيء مهما كان ... لذا تركت عادة الزواج الذي أعلم أنها سنة نبوية لئلا ألج في محرمات كثيرة، ولكي أتمكن من القيام بكثير من الواجبات وأداء الفرائض، إذ لا يمكن أن تقترف محرمات كثيرة لأجل أداء سنة واحدة."[(٧)] ويعلم النورسي أن هذا المسلك قد يلقى من يعارضه بدعوى مخالفته للشريعة، ولهذا أورد من الأدلة ما يجعل هذا المسلك من روح الشريعة. من ذلك أن تاريخ المسلمين يشهد على عمل كثير من علماء الإسلام بمنهج اعتبار المآل في الأعمال خاصة في قسم المباح، فكفوا عن المباحات من الدنيا وكفوا عن الزواج.[(٨)] وإن من كان في مثل مقامه خاصة فيريد أن يكون دليلا على الله في مثل زمانه، لا يعتبر خارجا عن الشريعة إذا كان قصد مثل قصده. يقول رجه الله : " فلابد أن الذي يعمل لأجل سعادة باقية، لكثير جداً من المنكوبين، ويحول بينهم وبين السقوط في هاوية الضلالة، ويسعى لتقوية إيمانهم، خدمةً للقرآن والإيمان خدمة حقيقية، ويثبت

(٧) كليات رسائل النور: الملاحق / ملحق أميرداغ/٢، ص: ٤٠١ .

(٨) ذهب الخطيب البغدادي إلى كراهة الزواج لمن سيشغله عن العلم. وصنف الشيخ عبد الفتاح أبو غدة كتابا في " العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج".

تجاه هجمات الإلحاد المغير من الخارج والظاهر في الداخل، أقول لابد أن الذي يقوم بهذا العمل العام الكلي - وليس عملا خاصاً لنفسه - تاركاً دنياه الآفلة، لا يخالف السنة النبوية بل يعمل طبقا لحقيقة السنة النبوية." [٩] وليس هذا عنده مسلكا عاما إنما هو استثناء من الحكم الأصلي بحسب مقام الشخص وأحواله. ولهذا ينبه طلبته خاصة لهذه القاعدة في قوله:

"لا نقول لطلاب النور: تخلوا عن الزواج، دعوه للآخرين ولا ينبغي أن يقال لهم هذا الكلام. ولكن الطلاب أنفسهم على مراتب وطبقات. فمنهم من يلزم عليه ألا يربط نفسه بحاجات الدنيا، قدر المستطاع، في هذا الوقت، وفي فترة من عمره، بلوغاً إلى التضحية العظمى والثبات الأعظم والإخلاص الأتم. وإذا ما وجد الزوجة التي تعينه على خدمة القرآن والإيمان، فبها ونعمت، إذ لا يضر هذا الزواج بخدمته وعمله للقرآن. ولله الحمد والمنة ففي صفوف طلاب النور كثيرون من أمثال هؤلاء، وزوجاتهم لا يقصرن عنهم في خدمة القرآن والإيمان، بل قد يفقن أزواجهن ويسبقنهم لما فطرن عليه من الشفقة التي لا تطلب عوضاً، فيؤدين العمل بهذه البطولة الموهوبة لهن بإخلاص تام." [١٠] فهذا مثال لحضور منهج اعتبار المآل عند النورسي في مجال الأحكام التكليفية في حكم المباح خاصة.

اعتبار المآل في التربية والسلوك

يبقى مجال التربية والسلوك أبرز مجال أعمل فيه النورسي هذا الأصل. وقد اهتدى النورسي إلى ذلك من خلال تدبره لآي القرآن الكريم وطول تفكره في أحوال الكون والإنسان. فمن القضايا التي أخذت بعقله وسيطرت على تفكيره مسألة الزمان. فالزمان قيد تخضع له كل المخلوقات، فالإنسان والكون بجميع أجزائه الكبيرة والصغيرة، كل ذلك يجري عليه الزمان ضرورة، فهو تحت

(٩) كليات رسائل النور: الملاحق ملحق أميرداغ/٢، ص: ٤٠٢.
(١٠) كليات رسائل النور : الملاحق/ ملحق أميرداغ/٢ ص ٤٠٢ – ٤٠٣ .

سلطانه اضطرارا. ومن آثار ذلك نفاذ الزوال إليها وجريان الفناء عليها. ومعنى هذا أن الحياة حلقات متوالية يؤدي بعضها إلى بعض ويتوقف بعضها على بعض. وإن حياة الإنسان تدل على هذا بوضوح- إن أحوال هذه الدنيا - لا قرار فيها ولا ثبات، كلها تقلبات تلحّ على فكر الإنسان بهذا السؤال: "إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنّا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألا يمكن أن يحل البقاء بهذا الفناء؟!" (١١)

فالعمر ليس على صفة واحدة وإنما محطات متسلسلة تؤدي كل منها على التي تليها ضرورة. فالطفولة تؤدي إلى الشباب، والشباب إلى الرشد، والرشد إلى الكبر والكبر إلى الهرم، ولا يعقب الحياة إلا الموت. فلماذا لا يتخلف الترتيب ولو مرة واحدة، أو عند شخص واحد على الأقل؟ إنه قانون مطرد قطعا لأنه من آثار اسم الله المحيي واسم المميت واسم القهار وغيرها من أسماء الله الحسنى التي من آثارها حركة التجدد في الكون في كل لحظة.

والفائدة التي أقامها النورسي على هذه الحقيقة في مجال التربية والسلوك هي أن كل لحظة من لحظات حياة الإنسان تتوقف في صفتها على استحضار المكلف للحظة التي تؤول إليها. فليس سواء في الحال والسلوك من يحيى مستحضرا مستقبل أيامه ومن يحيى غافلا عنه.

ولهذا فإن مآلات الأحوال ومستقبلات الأيام والحياة ملك على النورسي أقطار نفسه وتفكيره، فكان مستحضرا لها مستشرفا لتفاصيلها، فكثيرا ما تجده يتحدث عن المآلات كأنه يراها في شاشة معنوية منصوبة أمامه، وأحيانا ينتقل بنفسه وبالقارئ معه في سفر خيالي إلى بعض محطات المستقبل فيستشرف كل التحولات ويصور جميع الصفات التي تؤول إليها الأحوال. فالقوة مآلها الضعف، والغنى مآله الفقر، والشباب مآله الهرم والشيخوخة، وجمال الصورة مآله قبح الهرم، وفتوة الجسم مآلها العجز، والحياة مآلها الموت، والوجود مآله

---

(١١) كليات رسائل النور : الكلمات ، ص ٢٣ .

الزوال، والحياة الدنيا مآلها الفناء، والدار الدنيا كلها مآلها ومنتهاها إلى الآخرة، فالدار الآخرة إذن غاية كل شيء ومستقبل كل مخلوق، وكل مستقبل من هذه المستقبلات إنما هو اقتراب منها وإيذان بدنوها.

والغرض المقصود من هذا أن يحصل الجمع في التفكير بين الحال والمآل، فالوقوف عند الحال وحده قصور. فعلى هذا النحو تحدث النورسي في رسائله عن الإنسان والحياة، فلا يذكر الشيء إلا مقرونا بمآله ولا اللحظة من الحياة الخاصة للفرد المكلف أو للحياة العامة في الكون إلا مستحضرا مآلها، لما في ذلك من التربية للمكلف. من ذلك مثلا أنه لما كان في السجن دخل في لحظة تفكير عميق يتأمل فيها شاشة معنوية أوحت له بها مشاهد الشباب فلنستمع إليه يحكي هذه الحادثة ذات العبرة له ولغيره، يقول: "كنت في أحد أيام عيد الجمهورية جالسا أمام شباك سجن "أسكي شهر" الذي يطل على مدرسة إعدادية للبنات.. وكانت طالباتها اليافعات يلعبن ويرقصن في ساحة المدرسة وفنائها ببهجة وسرور، فتراءت لي فجأة على شاشة معنوية ما يؤول إليه حالهن بعد خمسين سنة، فرأيت أن نحواً من خمسين من مجموع ما يقارب الستين طالبة يتحولن إلى تراب ويعذبن في القبر، وأن عشرة منهن قد تحولن إلى عجائز ذميمات بلغن السبعين والثمانين من العمر، شاهت وجوههن وتشوه حسنهن، يقاسين الآلام من نظرات التقزز والاستهجان من الذين كنّ يتوقعن منهم الإعجاب والحب، حيث لم يصنّ عفتهن أيام شبابهن!.. نعم رأيت هذا بيقين قاطع، فبكيت على حالهن المؤلمة بكاء ساخناً أثار انتباه البعض من زملاء السجن، فأسرعوا إليّ مستفسرين.فقلت لهم: "دعوني الآن وحالي... انصرفوا عني". أجل، إن ما رأيته حقيقة وليس بخيال، إذ كما سيؤول هذا الصيف والخريف إلى الشتاء، فإن ما خلف صيف الشباب ووراء خريف الشيب، شتاء القبر والبرزخ. فلو أمكن إظهار حوادث ما بعد خمسين سنة من المستقبل مثلما يمكن ذلك لحوادث الخمسين سنة الفائتة - بجهاز كجهاز السينما - وعرضت

حوادث أهل الضلالة وأحوالهم في المستقبل، إذن لتقززوا ولتألموا ولبكوا بكاء مراً على ما يفرحون منه الآن ويتلذذون به من المحرّمات في الوقت الحاضر." [١٢] ونظر مرة من نافذة السجن إلى ضحكات البشرية المبكية، ثم نظر إليها من خلال عدسة التفكر في المستقبل والقلق عليه، فانكشف أمامه نظر خيالي عبر عنه بقوله: "مثلما تشاهد في السينما أوضاع الحياة لمن هم الآن راقدون في القبر، فكأنني شاهدت أمامي الجنائز المتحركة لمن سيكونون في المستقبل القريب من أصحاب القبور.. بكيت على أولئك الضاحكين الآن، فانتابني شعور بالوحشة والألم. راجعت عقلي، وسألت عن الحقيقة قائلاً: ما هذا الخيال؟ قالت الحقيقة: إن خمسة من كل خمسين من هؤلاء البائسين الضاحكين الآن والذين يمرحون في نشوة وبهجة سيكونون كهولاً بعد خمسين عاماً، وقد انحنت منهم الظهور وناهز العمر السبعين. والخمسة والأربعين الباقية يُرمَون في القبور. فتلك الوجوه الملاح، وتلك الضحكات البهيجة، تنقلب إلى أضدادها. وحسب قاعدة (كل آت قريب) فإن مشاهدة ما سيأتي كأنه آتٍ الآن تنطوي على حقيقة، فما شاهدته إذاً ليس خيالاً." [١٣]

وتحت هذا الأصل حمل المصائب التي تنزل بالإنسان على أنها من رحمة الله لأنها تحمل المبتلى على التفكر في المآل واستحضار المستقبل، وإن العافية قد تكون بلاء وفتنة لما تسببه من توهم الأمن والسلامة فتحصل الغفلة عن المآل وينسى المستقبل. فعن المرض والصحة يقول وهو يخاطب المريض: "فحاول التجمل بالصبر والثبات أمام هذا المرض، حتى تتحقق لك الإفاقة والصحوة؛ إذ بعد أن ينهي المرض مهامه سيشفيك الخالق الرحيم إن شاء"... إن قسماً من أمثالك يزعزعون حياتهم الأبدية بل يهدمونها مقابل متاع ظاهري لساعة من حياة دنيوية، وذلك لمضيهم سادرين في الغفلة الناشئة من بلاء الصحة، هاجرين

---

(١٢) كليات رسائل النور : الشعاعات، ص ٢٤٧ .

(١٣) كليات رسائل النور : اللمعات، ص ٤٤٦ .

الصلاة ناسين الموت وغافلين عن الله عز وجل. أما أنت فترى بعين المرض القبرَ الذي هو منزلك الذي لا مناص من الذهاب إليه، وترى كذلك ما وراءه من المنازل الأخروية الأخرى، ومن ثم تتحرك وتتصرف على وفق ذلك. فمرضك إذاً إنما هو بمثابة صحةٍ لك، والصحة التي يتمتع بها قسم من أمثالك إنما هي بمثابة مرضٍ لهم"(١٤) فعلى هذا المشرب فالصحة مرض والمرض صحة.

وبهذا المشرب الخاص أيضا فإن الموت - وهو أكبر المصائب- يغدو ذا وجه منور جميل، وما ذلك إلا باستحضار مآله وما يعقبه. إن الموت – باعتبار المآل – ليس فناء نهائيا ولا فراقا سرمديا، وإنما هو تسريح من مهمة، وإعلان عن إنهاء وظيفة التكليف في الدنيا، واستبدال دار بدار وحياة بحياة، وتسريح من سجن الدنيا، واستراحة من أعباء الحياة وتخلص من بلائها، ووصال مع الحبة ممن رحل إلى عالم البرزخ، من الأجداد والآباء، والصالحين من عباد الله، ويكفي من هذا الوصال الوصال مع سيد البشر ورأس الأحبة عند المسلم محمد رسول رب العالمين ﷺ، وأعظم من هذا كله أنه دخول في رعاية الله تعالى الودود. فالموت في ظاهره زوال وفناء، لكن باعتبار مآله طريق البقاء وسبيل الوصال مع أعظم الأحبة، وعبور نحو الجمال الباقي في كنف رحمة الخالق العظيم ورؤية وجه الجليل الجميل حيث قمة السعادة وغاية اللذة،(١٥) وهذا كله مجموع بإيجاز وإعجاز في قول الرسول ﷺ: "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه."(١٦)

ومن آثار هذا المسلك أيضا عند النورسي أن نعيم الدنيا ولذاتها ليس مقصودا لذاته، لأنه ليس جمالا حقيقيا وإنما هو لذة متوهمة، ودليل ذلك أنه ليس نعيما خالصا وإنما مشوب بمشقة العيش وخطوب الحياة، ولأنه زائل فان

---

(١٤) كليات رسائل النور : اللمعات ، ص ٣١٩ .

(١٥) ينظر:"نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور" د. عبد الكريم عكيوي. ضمن أعمال ندوة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر: "النورسي نموذجا" ص٧٥ – ٧٦ .

(١٦) صحيح البخاري، كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

وحقيقة الجمال تقتضي البقاء وليس الزوال. ومعنى هذا أن نعيم الدنيا ليس مقصودا في الخال لأنه غير خالص، ثم لأنه قد يورث عذابا غامرا وشقاء سرمديا مثل نزوة يقضي بها لذة عابرة تورث أمراضا جسدية ونفسية وعقلية، وتؤول إلى عذاب في الآخرة. وليس من الجمال واللذة شهوة يسيرة عابرة تؤول إلى شقاء عظيم دائم. فلم يبق لنعيم الدنيا من مقصد في الحال إنما المقصد منه المآل. فالإنسان في الدنيا يرشح نفسه ويعدها لكمال الجمال وتمام السعادة عند رؤية الله تعالى الجليل الجميل في بحبوحة الجنة، ومن رحمة الله به أن جعل له لذة الدنيا بمنزلة قبس يسير وظل حقير من اللذة من أجل التذكير وفتح الشهية إلى هذا المقام.(١٧) وهذا هو الوجه المحبوب شرعا من الدنيا لأنه يجعل لذات الدنيا طريقا سالكا إلى مرضاة الله تعالى ويجعل الدنيا معرضا لتجليات أسماء الله الحسنى وإظهار آثارها الجميلة. يقول النورسي :" أما محبتك للدنيا محبةً مشروعة، أي محبتك لها مع التأمل والتفكر في وجهيَها الجميلين اللذين هما: مزرعة الآخرة ومرآة التجليات للأسماء الحسنى فإن نتيجتها الأخروية هي أنه: سيُهَب لك جنة تسع الدنيا كلها، ولكنها لا تزول مثلها، بل هي خالدة دائمة. وستظهر لك في مرايا تلك الجنة تجليات الأسماء الحسنى بأزهى شعشعتها وبهائها، تلك التي رأيت بعض ظلالها الضعيفة في الدنيا. ثم إن محبة الدنيا في وجهها الذي هو مزرعة للآخرة، أي باعتبار الدنيا مشتلاً صغيراً جداً لاستنبات البذور لتتسنبل في الآخرة وتثمر هناك، فان نتيجتها هي: أثمار جنة واسعة تسع الدنيا كلها... ولما كانت محبتك للدنيا ليست لذلك الوجه المذموم الذي هو رأس كل خطيئة، وإنما هي محبة متوجهة غلى وجهَيها الآخرين أي إلى الأسماء الحسنى والآخرة، وقد عقدت - لأجلهما - أواصر المحبة معها وعمّرت ذينك الوجهين على نية العبادة، حتى كأنك قمت بالعبادة بدنياك كلها.. فلابد أن

---

(١٧) ينظر: "نحو نظرية إسلامية للجمال" ضمن أعمال ندوة: "الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر" ص ٥١ – ٥٢ .

الثواب الحاصل من هذه المحبة يكون ثواباً أوسع من الدنيا كلها، وهذا هو مقتضى الرحمة الإلهية وحكمتها." [١٨]

ولعل قائلا يقول أليس التفكر في هذا المآل له مفاسد لأن فيه شؤما من الحياة والمطلوب التفاؤل وتحريك قوى الإبداع والعمل في الدنيا؟ إن النورسي يسعف في الجواب فيبين أن هذا المشرب وحده هو الذي يورث التفاؤل واللذة ويمنح القوة المعنوية الكافية للحياة. ويكفي من ذلك أن النورسي نفسه بعد أن سلك هذا المسلك كانت حياته كلها حياة جد وعمل وصبر وصابرة وتحمل للمعاناة، مع لذة نفسية وروحية غامرة. فلنستمع إليه وهو يصف الفائدة التي حصلت له من اعتبار هذا المآل. فبعد أن وجد نفسه وحيدا منفيا في بارلا، ممنوعا من التواصل مع الناس، يعاني آلام المرض والشيخوخة والغربة، يذهب ويجيء في وديان بارلا حزينا وحيدا، إذا بنور من أنوار القرآن الكريم يعلو قلبه لما قرأ قول الله تعالى: ﴿كلُ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجههُ لهُ الحُكمُ واليه تُرجعون﴾ (القصص: ٨٨). ففكر في مآله ومآل الدنيا كلها فوجد اللذة والسلوان قال رحمه:

"أجل!. رأيت نفسي بسرّ هذه الآية الكريمة، وعبر تلك الوديان الخالية، ومع تلك الحالة المؤلمة، رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى ..*الأولى*: رأيت نفسي كشاهد قبر يضم خمساً وخمسين سعيداً ماتوا ودفنوا في حياتي، وضمن عمري الذي يناهز الخامسة والخمسين سنة. *الثانية*: رأيت نفسي كالكائن الحي الصغير جداً – كالنملة – يدب على وجه هذا العصر الذي هو بمثابة شاهد قبر للجنازة العظمى لمن هم بنو جنسي ونوعي، والذين دفنوا في قبر الماضي منذ زمن آدم عليه السلام. *أما الثالثة*: فقد تجسّمت أمام خيالي – بسرّ هذه الآية الكريمة – موت هذه الدنيا الضخمة، مثلما تموت دنيا سيارة من على وجه الدنيا كل سنة كما يموت الإنسان.. وهكذا فقد أغاثني المعنى الإشاري للآية الكريمة ﴿فإنْ تَوَلوا فَقُل حَسبيَ الله لا الهَ إلاّ هو عليهِ توكلتُ وهو ربُّ العرش العظيم﴾ (التوبة:

---

(١٨) كليات رسائل النور: الكلمات ، ص ٧٧٧ – ٧٧٨ .

١٢٩) وأمدني بنور لا يخبو، فبدد ما كنت أعانيه من الحزن ... واهباً لي التسريَ والتسلي الحقيقي. نعم لقد علمتني هذه الآية الكريمة أنه مادام الله سبحانه وتعالى موجوداً فهو البديل عن كل شيء، وما دام باقياً فهو كافٍ عبده، حيث إن تجلياً واحداً من تجليات عنايته سبحانه يعدل العالم كله، وإن تجلياً من تجليات نوره العميم يمنح تلك الجنائز الثلاث حياة معنوية أيما حياة، بحيث تظهر أنها ليست جنائز، بل ممن أنهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الأرض فارتحلوا إلى عالم آخر." (١٩) فقد منحه هذا المآل قوة معنوية عظيمة يعلو بها على الدنيا ويقوى بها على كل ما يلتبس بها من المشاق والمعاناة. ويزيد في الإفصاح عن هذه الفائدة فيقول: " ليرحل مَن يرحل يا إلهي فأنت الباقي وأنت الكافي، وما دمتَ باقياً فَلَتجلٍّ من تجليات رحمتك كافٍ لكل شيء يزول، ومادمتَ موجوداً فكل شيء إذاً موجود لمن يدرك معنى انتسابه إليك بالإيمان بوجودك ويتحرك على وفق ذلك الانتساب بسر الإسلام، فليس الفناء والزوال ولا الموت والعدم إلاّ ستائر للتجديد ، وإلاّ وسيلة للتجول في منازل مختلفة والسير فيها.. فانقلبتْ بهذا التفكير تلك الحالة الروحية المحرقة الحزينة، وتلك الحالة المظلمة المرعبة إلى حالة مسرّة بهيجة ولذيذة، والى حالة منورة محبوبة مؤنسة، فأصبح لساني وقلبي بل كل ذرّة من ذرات جسمي، يردد بلسان الحال قائلاً: الحمد لله. ولقد تجلى جزء من ألف جزء من ذلك التجلـّي للرحمة بهذه الصورة." (٢٠)

استشراف المستقبل

ومن منهج النورسي أيضا استشراف المستقبل عن طريق التدبر في أحوال الحاضر وتحكيم سنن الاجتماع وقوانين المعاش، ومحاولة الاهتداء إلى ما تؤول إليه الأحوال. ففي غمرة التحولات التي حصلت في الدولة العثمانية نهاية

---

(١٩) كليات رسائل النور: اللمعات ، ٣٧٥ – ٣٧٦ .

(٢٠) كليات رسائل النور : اللمعات ، ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين من إعلان الدستور ورفع شعار الحرية، كان للنورسي نظر دقيق إذ وهي أن هذا التحول إنما هو سير نحو العلمانية لأن الحرية في ظل تلك الظروف لا تعني سوى شيئا واحدا هو التحلل من الدين. ولهذا أعلن عن نتيجة نظره فقال مستشرفا مستقبل العالم الإسلامي ومستقبل أوروبا بالنسبة لعصره:

"كان سعيد القديم يخبر طلابه - في مؤلفاته القديمة - .... ويقول لهم مكرراً: ستحدث زلزلة اجتماعية بشرية عظيمة، زلزلة مادية ومعنويةً.... حتى إنه في السنة الأولى من عهد الحرية سأل الشيخ بخيت - مفتى الديار المصرية - سعيداً القديم: ما تقول في حق هذه الحرية العثمانية والمدنية الأوربائية؟ فأجابه سعيد: إن الدولة العثمانية حاملة بدولة أوروبائية وستلد يوماً ما، وإن أوروبا حاملة بالإسلام وستلد يوماً ما." (٢١) وبالنسبة لحركة الإصلاح في العالم الإسلامي فإنه من خلال نظرة فاحصة يحكمها الإنصاف والتجرد عن العواطف، رأى أن الركود الفكري والعلمي والسياسي والاقتصادي في العالم الإسلامي في عصره أكبر من أن يتم إصلاحه في ظرف وجيز، فخلص إلى أن التغيير المنشود لن تكتحل عينه برؤيته وشهوده، فخبر حال عصره، ووضع نفسه موضعها، وجعل غايته أن يبذر بذور الربيع، أما نموها واستواؤها فذلك ليس له وليس مما ينال في زمنه أو قريب منه، لكنه آت، لأن زمانه زمان الغرس وسيأتي الحصاد في زمانه، لكن لا حصاد من غير غرس، لأنه كما قيل :

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط في زمن البذر

وكما قيل أيضا:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وقد عبر النورسي عن هذه الحقيقة وهو يحاور نفسه وهي تعاني الألم والحسرة من هذه الحقيقة المرة فقال: "ماذا أفعل؟ إن قدري دفعني إلى هذه

---

(٢١) كليات رسائل النور : الملاحق ، ملحق أميرداغ/٢، ص: ٣٨٦

الدنيا في زمان غير زماني... إنه شتاء الإسلام الكابي الحزين، لا حيلة لي إلا أن أبذر بذور الربيع القادم الذي لا يريد أن يبصره هذا العصر. وحين تنبت هذه الزهور وتتسنبل ويأتي ربيعها أكون قد فارقت الدنيا، لكني سوف أتنسم نسمات ربيع الإسلام وأنا راقد في قبري. فاستشراف مستقبل الإسلام هو عزائي وسلوتي في غربتي." فكأنه هنا يستعمل معنى إشاريا لحديث النبوي : ﴿إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ﴾.[٢٢]

ومن حكمة النورسي وعمله بمنهج المقاصد والغايات، استشرافه لمستقبل دعوته ومآل فكره ورسائله التي تفانى في نشرها هو وطلبته. فقد خبر رحمه الله طلبته فرأى شدة محبتهم له وقوة تعلقهم برسائل النور بسبب ما وجدوا فيها من السلوان الفكري والروحي، و آنس منهم حسن الخلق وعلو الهمة والتفاني في أنوار الهداية القرآنية التي أشربتها قلوبهم من خلال رسائل النور، ورغبتهم الشديدة في نشرها وتبليغا، ومن خلال كل ذلك تصور مآل دعوته ورسائله بعد موته وهو ما عبر عنه بقوله: " أما من حيث العمل للقرآن فقلد وهب لي الله سبحانه وتعالى إخوانا ميامين في العمل للقرآن والإيمان، وستؤدى تلك الخدمة الإيمانية عند مماتي في مراكز كثيرة بدلا من مركز واحد. ولو أسكت الموت لساني فستنطلق ألسنة قوية بالنطق بدلا عني وتديم تلك الخدمة. ...فآمل أن يكون موتي كذلك وسيلة لخدمة القرآن أكثر من حياتي" [٢٣]

هذه بعض معالم اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند النورسي، في مجال فهم الخطاب الشرعي وتنزيله على محله، وفي مجال التربية وترسيخ السلوك، وفي مجال السياسة وعلم المستقبليات .

*****

---

(٢٢) مسند أحمد، مسند أنس بن مالك.

(٢٣) كليات رسائل النور : المكتوبات ، ص ٥٤٩ .

وأختم هذا العرض بموقف روحي رقيق للنورسي، في لحظة تأمل وتفكر، وقد رأى ملامح وجهه وجسده يسري فيها الزمان وتقدم العمر، فجعل يستحضر مآله المحتوم، فرحل بعقله وقلبه وخياله إلى بعض محطات مستقبل حياته ووجوده، في مناجاة رقيقة في منازل القربى إلى ربه تبارك وتعالى. وفي سبب كتابته لتضرعه هذا يقول: "إني قد أكتب تضرّع قلبي إلى ربّي مع أن من شأنه أن يُستَر ولا يُسطَر، رجاءً من رحمته تعالى أن يقبل نُطق كتابي بدلاً عني إذ أسكت الموت لساني.. نعم، لا تسع توبة لساني في عمري القصير كفارة لذنوبي الكثيرة، فنطقُ الكتاب الثابت الدائم أوفى لها. فقبل ثلاث عشرة سنة وأثناء اضطراب روحي عارم وفي غمرة تحول ضحكات "سعيد القديم" إلى بكاء "سعيد الجديد" أفقت من ليل الشباب على صبح المشيب فسطرت هذه المناجاة باللغة العربية." فيقول رحمه:

يا ربي الرحيم ويا إلهي الكريم!

قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراتها في يدي إلاّ آثام مؤلمة مُذلة، وآلام مضرّة مُضلة، ووساوسُ مزعجة معجزة، وأنا بهذا الحمل الثقيل، والقلب العليل، والوجه الخجيل متقربٌ – بالمشاهدة ، بكمال السرعة بلا انحراف وبلا اختيار كآبائي وأحبابي وأقاربي وأقراني - إلى باب القبر، بيت الوحدة والانفراد في طريق ابد الآباد، للفراق الأبدي من هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة بالمشاهدة، ولا سيما الغدارة المكارة لمثلي ذي النفس الأمارة.

فيا ربي الرحيم ويا ربي الكريم!

أراني عن قريب لبستُ كفني وركبت تابوتي، وودعت أحبابي، وتوجهت إلى باب قبري، فأنادي في باب رحمتك: الأمان الأمان يا حنان يا منان، نجني من خجالة العصيان.

آهٍ.. كفني على عنقي، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي إلى باب رحمتك أنادي: الأمان الأمان يا رحمن يا حنان، خلصني من ثقل حمل العصيان.

آهٍ.. أنا ملتف بكفني وساكن في قبري وتركني المشيعون، وأنا منتظر لعفوك ورحمتك.. ومشاهدٌ بأن لا ملجأ ولا منجأ إلاّ اليك، وأُنادي: الأمان الأمانَ من ضيق المكان، ومن وحشة العصيان، ومن قبح وجه الآثام. يا رحمن يا حنان.. يا منان.. ويا ديان نجني من رفاقة الذنوب والعصيان..

الهي! رحمتك ملجئي ووسيلتي، وإليك أرفع بثي وحزني وشكايتي.

يا خالقي الكريم، ويا ربي الرحيم، ويا سيدي، ويا مولاي.. مخلوقك، ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز، الغافل الجاهل، العليل الذليل، المسيء المسن، الشقي الآبق، قد عاد بعد أربعين سنة إلى بابك ملتجأً إلى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات مبتلى بالأوهام والأسقام، متضرعاً إليك.. فإن تقبل وتغفر وترحم فأنت لذاك أهلٌ وأنت أرحم الراحمين والاّ فأيّ بابٍ يُقصد غير بابك.. وأنت الرّبُ المقصود والحق المعبود. ولا اله الاّ انت وحدك لا شريك لك.. آخر الكلام في الدنيا وأول الكلام في الآخرة وفي القبر: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله. " [٢٤]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(٢٤) كليات رسائل النور : اللمعات ، ص ١٩٦ – ١٩٨ .

رؤية مقاصدية للقرآن الكريم

عند بديع الزمان النورسي

د. عبد الهادي الخمليشي
دار الحديث الحسنية بالرباط

مقدمة

كان النورسي من عجائب الزمان، فلقبه علماء عصره ببديع الزمان، وعلى سبيل التواضع والمشاكلة اعتبر نفسه «بدعة الزمان»، لم يكن النورسي ليرضى لنفسه بلقب لا يربطه بالقرآن لذلك كان يلقب نفسه بـ«خادم القرآن» لقّب نفسه بذلك في آخر محكمةٍ له عندما قال للحاكم: "أنا لست إلا خادماً عاجزاً للقُرآن والإيمان وليس عندي ما أقوله سوى هذا"[1].

إنه بكلامه هذا لخص لنا من يكون بديع الزمان وخادم القرآن النورسي، ولم يطلقه ليروى من بعده افتخارا، بل قام بحقه وبرهن على ذلك قولاً وعملاً، فقد رفع لواء الدفاع عن الإسلام والقرآن بالقرآن، وما رسائل النور إلا نتاج ذلك الجهاد من أجل إحقاق الحق وإعلاء الكلمة وتحقيق السعادة في الدارين، والنهوض بأمة الإسلام، فظل خادماً للقرآن مدى عمره المبارك.

لم يكن النورسي ينظر إلى القرآن على أنه كتاب مقدس يتبرك بتلاوة آياته فحسب، بل ككتاب طوى بين دفتيه أسرار الكون والكائنات، لا سبيل إلى معرفة

---

(١) سيرة ذاتية: ٦٦.

الكون المسطور إلا من خلال الكون المنظور، والعكس صحيح[٢]. لذلك لم يكن لخادم القرآن مصدر يعتمد عليه، ولا مرجع يستند إليه، ولا أستاذ يتلقى منه إلا القرآن الكريم، في كل ما يعرض له.

ونظرته هذه للقرآن قادته إلى أن يفهم القرآن ويفسره بتفسير فيه من الخصائص ما لا يوجد لغيره من التفاسير أهمها ما قدمناه من أن القرآن الكريم كان هو وحده معلم النورسي ودليله، لا يغادره إلى غيره، لذلك أتى تفسيره يختلف شكلا ومضمونا ومنهجا عن التفاسير التي بين يديه، فرسائل النور تفسير للقرآن وإن لم تبد كذلك فهي كما وصفها: "رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر[٣].

وبيان ذلك أن التفسير إما تفسير الكلمة والجملة، وإما إثبات الحقائق الإيمانية للقرآن الكريم إثباتاً دامغا بالحجج العلمية والبراهين العقلية ولا شك أن تفسير النورسي من هذا القبيل.

وإذا كان القرآن في نظر النورسي انعكاسا لأسرار الكون وفهرسا لها، فإن الإنسان: "هو ثمرة شجرة الخلق، والفهرست الكوني الجامع، العاكس الأكمل للأسماء الحسنى، الساعي لتحقيق رغبة البقاء الكامنة في فطرته، المشاهد عبودية الكائنات باستخلافه في الأرض؛ عبادةً كليةً لله الواحد الأحد"[٤]. وهو المتقلد للإمامة الكونية، ومن ثمَّ فهو المعني بالقرآن والموحى إليه به، فبه يَعرف الكون، وبه يهتدي في بناء الحياة التي تربطه بهذا الكون، وأن الغاية القصوى من خلقه

---

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ص١٤٣، مختارات من المثنوي العربي، ص٦١.

(٣) سعيد النورسي الملاحق – قسمطوني، ص ٢٢٠ ، كتاب : بديع الزمان سعيد النورسي للأستاذ إحسان قاسم الصالحي ص١٦٠.

(٤) ينظر: بديع الزمان سعيد النورسي الكلمات، ١/٦٣-٦٤-٤١٨-٢٠٤-٨٢٨-٨٢٩. الشعاعات ٢٧٢/٤. إشارات الإعجاز، ٥/ص٢٦-١٤٩-١٦٢-٢٢٢، اللمعات، ١٢/٣-١٢٧-٥٠٩-٥٩٣. المكتوبات، ٢/ص٤٧٣-٥٧١.

هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات[٥]، لكل ذلك كانت نظرة التفسير عند النورسي نظرة تتمثل الكلي والمقاصدي، لا التجزيئي.

لقد وضع النورسي للقرآن مقصداً أصليا، ومقاصد تبعية، وبطبيعة الحال، الكلام عن هذه الوحدة القرآنية لا تخلو من إعجاز فالإعجاز هو حمال المقاصد.

أولا – الإعجاز حمال المقاصد عند النورسي:

لا تجد كتابا للنورسي إلا وهو تفسير من ناحية، ولم يخل كتاب له من بيان مناحي الإعجاز في القرآن الكريم، بل إنه أفرد في الإعجاز كتابا سماه "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز". ألفه وهو يخوض غمار الحرب العالمية الأولى في جبهات القتال، وهو على وجازته تفسير للقرآن، وتحفة رائعة في مناحي إعجازه[٦]، وكذلك هي رسائل النور "تفسير قيم للقرآن الكريم، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي..."[٧]، إلا أن نظرة النورسي للإعجاز القرآني مختلفة، لا يقف عند الإعجاز اللغوي كما نجده عند جمهور المفسرين الذين يستنطقون لغة القرآن، ويقفون على أسرارها الكامنة في دقة النظم، وحسن الاختيار، وجودة التصوير، وروعة البيان فحسب، بل يتعداه إلى إبراز الإعجاز الكامن في المعاني، واستخراج المقاصد المتوخاة منه والكامنة فيه[٨].

وقد ذكر النورسي مقدمة لبيان إعجاز نظم القرآن في اثنتي عشرة مسألة تتضمن مواصفات مهمة للكلام البليغ؛ وذلك لأنَّ النورسي يرى أنه أعظم الوجوه في إعجاز القرآن[٩].

---

(٥) بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات،ص ٢٧٩-٢٩٢-٢٩٣، الإشارات مرجع سابق، ص٢٣٨.

(٦) طبع سنة ١٩١٨م

(٧) الملاحق – قسمطوني، ص ٢٢٠ ، كتاب بديع الزمان سعيد النورسي، ذ إحسان قاسم الصالحي، ص١٦٠.

(٨) ينظر ذو الفقار: مجموعة المعجزات الأحمدية، لبديع الزمان النورسي.

(٩) تنظر التفاصيل في كتاب الإشارات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص١١٨-١٢٥.

وهي تشير إلى كيفيات نظم الكلام وهيئاته ومستتبعاته، وترمز إلى لوازم الغرض والمقصد وتوابعه وفروعه، كما أن أصل الكلام يشير إلى ذلك، وهو دليل غناء الكلام وثرائه وسعته، وسأورد في هذه الورقة ثلاثة نماذج :

١/ النظم القرآني والمناسبة:

من أسباب علو الكلام حسب النورسي أن يتسلل إلى المقاصد التي تتدلى على المقام والغرض، وأن يكون مستعدا لاستنباط كثير من الفروع والوجوه كقصة موسى مَثلاً، وسُلاَلة هذا الكلام تقتضي أن تكون المعاني والحسِّيات؛ ممتزجة تتحد، أو مختلفة تنتظم. فيجذب المركزُ القوَّةَ من الأطراف، ومن السلاسة أن يتعين المقصد ويتظاهر ملتقى الأعضاء ويؤكد النورسي على ترابط أجزاء الكلام بعضه ببعض أثناء تفسيره، بمناسبات ثلاث:

أ: مناسبة الآية لما قبلها.

ب: النظم بين جملها.

ج: النظر بين الهيئات جملة جملة[١٠].

ولا شك أن ملاحظة الترابط بين الآية يقوى وحدة الموضوع، ويبرز إعجاز القرآن، وقوة النظم.

٢/ الحكمة القرآنية في التكرار:

ومن عبقرية النورسي أنه استثمر إيرادات الخصوم على القرآن لتكون دليلا على إعجازه، فدعوى التكرار في القرآن الكريم، على سبيل المثال مدخل من مداخل خصوم الإسلام في الطعن على القرآن الكريم، وقد أخرجها النورسي في وجه بديع من أوجه الإعجاز القرآني، وأظهر أن للتكرار حكمة، فالقرآن كتاب ذكر ودعاء ودعوة، والذكر يكرر والدعاء يردد والدعوة تؤكد، وكل سورة "قرآن صغير" فلهذا أدرج أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سُوَرِه، فسهل السَّبِيلَ

---

(١٠) بديع الزمان سعيد النورسي، الإشارات ص ١١٨- ١١٩.

لكل أحد دون أن يحرم أحدا؛ فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى، وعليه فلا تكرار في القرآن: فلكل آية حد ومطلع، وسياق وسباق ولحاق، ولكل قصة وجوه وأحكام وفوائد ومقاصد، فتذكر في موضع لوجه وفي آخر لوجه آخر، وعلى هذا لا تكرار في السورة(١١).

٣/ الفاصلة القرآنية:

أفرد النورسي رحمه الله مبحثا خاصا لبيان الوجه المعجز للفاصلة القرآنية، ويطلق عليها "الخلاصات" و"الفذلكات"، وقرر أنها إما تتضمن الأسماء الحسنى أو معناها، مثل(١٢): "عليم قدير"، وإما أنها تحيل قضاياها إلى العقل وتحثه على التفكر والتدبر فيها، مثل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران:١٣)، وإما أنها تتضمن قواعد كلية من مقاصد القرآن فتؤيد بها الآية وتؤكدها كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات:٥٨)، فهي مظهر معجز للقرآن الكريم، ومن خلال استعراضه لفواصل القرآن خرج بهذه النتائج:

١- القرآن يبسط أفعال الصانع الجليل ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار الأسماء الإلهية، أو يثبت مقصداً من مقاصد القرآن الأساسية، مثاله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٩).

٢- القرآن يذكر بعضا من المقاصد الجزئية ليحولها إلى قواعد كلية، فيثبت ذلك المقصد الجزئي ويؤكده بالأسماء الحسنى. مثاله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة:١).

---

(١١) بديع الزمان النورسي: رسالة الثمرة، ص ٨١ وانظر الكلمات ص ٢٦٥-٢٦٦، ٢٥٨-٢٣٨، المكتوبات ص ٢٦٧-٢٦٨، الإشارات ص ٣٩، مختارات من المثنوي العربي ص ٨٨.

(١٢) الكلمات ص : ٤٨٥.

فالنورسي ينظر للفاصلة نظرة شمولية، فيذكر مناسبتها لآياتها، ويدلل على آثارها الإيمانية الفعالة على نفس وعقل ووجدان الإنسان، وذلك من خلال التعريف بأسماء الله وصفاته، وبيان آثار الصنعة الإلهية في الأنفس والآفاق وهذه المقاصد العامة الكلية لها آثار عديدة بالغة الوقع في حياة الناس على اختلاف أجناسهم وثقافتهم واعتقاداتهم. لأنها مدعمة بالعلم التجريبي، الذي يمكن أن يعتبر من شروطه ألوان تفسير الخطاب الشرعي. وهو ما يعرف بالتفسير العلمي. ويخلص من ذلك إلى اعتبار أن فلسفة أوربا ومدنيتها الحديثة قد غُلِبت أمام إعجاز حكم القرآن العلمية والعملية.

ثانيا – المقاصد القرآنية عند النورسي

ينبذ النورسي فكرة أن القرآن كتاب مقدس يستحيل الارتقاء إليه والمثول بين يديه، ولا يمكننا فهمه وإدراك مراميه، وقد أصبح الملتزمون بهذه الفكرة يدافعون بإصرار عن أن السابقين قد حلوا المشاكل كافة، وما علينا إلا إدراك ما توصلوا إليه؛ فأركان الدين وأحكامه الضرورية نابعة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المفسرة له وهي تشمل تسعين بالمائة من الدين، أما المسائل الأخلاقية التي تحتمل الاجتهاد فلا تتجاوز العشرة منه، فالبون إذن شاسع بين أهمية الأحكام الضرورية والمسائل الأخلاقية. فلو شبهنا المسائل الاجتهادية بالذهب لكانت الأحكام الضرورية وأركان الإيمان أعمدة من الألماس، ترى هل يجوز أن يوجه الاهتمام إلى التي من الذهب أكثر من تلك التي من الألماس؟

إن الذي يسوق جمهور الناس إلى الإتباع وامتثال الأوامر، هو ما يتحلى به المصدر من القدسية والتي تدفع جمهور الناس إلى الانقياد أكثر من قوة البرهان ومتانة الحجة، فينبغي إذن أن تكون الكتب الفقهية بمثابة وسائل شفافة – كالزجاج – لعرض قدسية القرآن الكريم وليس حجابا دونه أو بديلا عنه"[١٣].

---

(١٣) بديع الزمان سعيد النورسي صيقل الإسلام ، ص٣٤٦.

وفي دعوته إلى الرجوع إلى القرآن واستمداد المقاصد يقول: "إن ذهن الإنسان ينتقل من الملزوم إلى اللازم وليس لازم اللازم – كما هو مقرر في علم المنطق– ولو انتقل فبقصد غير طبيعي، فالكتب الفقهية شبيهة بالملزوم والقرآن الكريم هو دال على تلك الأحكام الفقهية ومصدرها، فهو اللازم، والصفة الملازمة الذاتية للقرآن الكريم هي القدسية المحفزة للوجدان؛ فلأن نظر العامة ينحصر في الكتب الفقهية فحسب، فلا ينتقل ذهنهم إلى القرآن الكريم إلا خيالا، ونادرا ما يتصورون قدسيته –من خلال نظرهم المنحصر– ومن هنا يعتاد الوجدان التسبب، ويتعود على الإهمال فينشأ الجمود"(١٤).

إدراك المقاصد القرآنية

– صرح النورسي بخصوص إدراك المقاصد القرآنية بما مضمونه:

ولما كان المخاطب بهذا الكلام بشرا، لبس القرآن أسلوب البشر الممزوج بحسياته المسمى "التنزيلات الإلهية إلى عقول البشر"(١٥)... ألا تراك إذا حاورت صبيا تتصبى له، ولما كان المقصد من إنزال القرآن إرشاد الجمهور عوام لا يرون الحقائق المحضة والمجردات الصرفة عراة عن متخيلاتهم ألبس الله تعالى بلطفه وإحسانه لباس مؤلوف؛ لتحسن ألفتهم(١٦).

فقرر النورسي أن القواعد الكلية من مقاصد القرآن تحيل قضاياها إلى العقل وتحثه على التفكر والتدبر فيها لتؤكد وتؤيد بها النص القرآني.

وقد بسط جملة من القواعد الكلية من مقاصد القرآن نذكر منها ولا نعددها(١٧):

١– القرآن يبسط أفعال الصانع الجليل ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار الأسماء الإلهية، أو يثبت مقصدا من مقاصد القرآن الأساسية.

---

(١٤) بديع الزمان سعيد النورسي صيقل الإسلام، ص ٣٤٨.
(١٥) الكلمات، ص ٢٨٢. المكتوبات، ص ٢٤٠،٢٣٨.
(١٦) الإشارات، صص ٢٠٢– ٢٠٤.
(١٧) الكلمات، ص٤٨٤. المكتوبات، ص٢٤٢. مختارات من المشنوي العربي، ص٥٧.

٢- وقد ينشر بدائع صنعه تعالى ثم يلفها و يطويها في الخلاصة ضمن الأسماء الإلهية، أو يحيلها إلى العقل.

٣- وقد يفصل القرآن في ذكر أفعال الله ثم يوجزها في الخلاصة، فهو بتفصيلها يورث القناعة والاطمئنان، بإيجازها يسهل حفظها وتقييدها.

٤- وقد يذكر القرآن المخلوقات الإلهية مرتبة بترتيب معين، ثم يبين به أن في المخلوقات نظاما وميزانا، يريان ثمرة المخلوقات وكأنه يضفي نوعا من الشفافية والسطوع على المخلوقات التي تظهر منها الأسماء الإلهية المتجلية فيها.

٥- وقد يذكر القرآن الجزئيات المادية المعرضة للتغير والتي تكون مناط مختلف الكيفيات والأحوال .

٦- وقد ينشر القرآن أحكام الربوبية على الكثرة الواسعة المنتشرة ثم يضع عليها مظاهر الوحدة ويجمعها في نقطة توحدها كجهة وحدة بينها أو يمكنها في قاعدة كلية .

٧- وقد يذكر القرآن الآية لتبين الأسباب وإن بدت في الظاهر والوجود متصلة مع المسببات إلا أن بينهما في الحقيقة وواقع الأمر بونا شاسعا جدا بحيث لا طاقة لأعظم الأسباب أن تنال إيجاد أدنى مسبب.

٨- وقد يذكر القرآن أفعال الله الدنيوية البديعة كي يهيئ الأذهان للتصديق ويحضر القلوب للإيمان بأفعاله المعجزة في الآخرة وقد يذكر العكس.

٩- وقد يذكر القرآن بعضا من المقاصد الجزئية ليحولها إلى القواعد كلية، فيثبت ذلك المقصد الجزئي ويؤكده بالأسماء الحسنى.

١٠- وقد يذكر القرآن ما اقترفته يد الإنسان من سيئات فتزجره زجرا عنيفا ثم تخمنها ببعض من الأسماء الحسنى .

فالنورسي ينظر لهذه القواعد الكلية نظرة شمولية ويدلل على آثارها الإيمانية الفعالة على نفس ووجدان الإنسان، وذلك من خلال التعريف بأسماء الله وصفاته، وبيان آثار الصنعة الإلهية في الأنفس والآفاق.

- ويبين النورسي أن القرآن لا يمكن أن يقاس بكلام آخر، فمنابع علو طبقة الكلام وقوته وحسنه وجماله أربعة(١٨):

المتكلم: من قال: وهو الله .

المخاطب: لمن قال - المناسبة وسبب النزول.

المقصد: لِمَ قال - الغاية من الحكم.

المقام: فيم قال - اعتبار الحياة.

وبإنعام النظر في منابع القرآن تدرك درجة بلاغته وحسنها وسموها وعلوها .

وتستخلص نظرية المقاصد عند النورسي في النص القرآني. من الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة لأن المفسر يضع عصارة فكره في الأجزاء الأولى من التفسير، ولأن النورسي لم يفسر في الإشارات إلا الفاتحة و ثلاثا وثلاثين آية من سورة البقرة (١٩).

تنوع المقاصد القرآنية

اعتبر النورسي القرآن قد أفاض من خزينة معانيه مصادر جميع المجتهدين، وأجرى من بحر علمه إضافة لعلوم الشريعة الحكمة الحقيقية لدائرة الممكنات، والعلوم الحقيقية لدائرة الوجوب، والمعارف الغامضة لدائرة الآخرة.

لقد جمع القرآن المباحث الكلية لما يخص الإنسان ووظيفته، والكون وخالقه، والأرض والسموات، والدنيا والآخرة، والماضي والمستقبل، والأزل والأبد، فضلا عن مباحث مهمة أساسية ابتداء من خلق الإنسان من نطفة إلى

---

(١٨) الكلمات: الكلمة الخامسة والعشرون: القرآن الكريم لا يقاس بغيره، ص٥٠٠.

(١٩) ينظر كتاب: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز.

دخوله القبر، ومن آداب الأكل والنوم إلى مباحث القضاء والقدر الجامعية الخارقة لمقاصد القرآن ومسائله ومعانيه وأساليبه ولطائفه ومحاسنه حقا إن جميع هذه الأجناس المختلفة الكثيرة في موضع واحد من دون أن ينشأ منه اختلال نظام أو اختلاط وتشوش إنما هو شأن نظام إعجاز قهار ليس إلا[٢٠].

بناء نظرية المقاصد عند النورسي

إن المتتبع لأقوال وآراء النورسي في المقاصد القرآنية، بالجمع بين عباراته المتفرقة يمكن تحديد المعالم الكبرى التي جزم بها في الموضوع، إلا أن القارئ يقع في حيرة بالغة حين يرغب في تحديده وجوه المقاصد القرآنية عند النورسي فيجده يقرر أحيانا أنها أربعة[٢١]، ويذكر في موقع آخر أن المقصد الأساس واحد وهو الوحدانية[٢٢]. ويشير في موقع آخر للمقاصد الحكمية[٢٣]. فما هو مراد النورسي بالمقاصد القرآنية؟

يتبين لمن يتبع كلام النورسي أن المقاصد عنده نوعان: مقصد عام أو كلي ومقاصد تبعية أو جزئية، وهو في بنائه للتفسير يستحضر هذه المقاصد عند كل فهم لآية، فيربطها بمقصدها، ثم يعقبه ويبينه من خلال الجزئيات المندرجة تحته، فهو يهتم في التفسير بالمبنى والمعنى والمعارف اللغوية والعقلية والذوقية الكلية والجزئية. والتي كشف بها المقاصد القرآنية التي عنت له.

وسائل النورسي إلى المقاصد:

يتوسل النورسي في استخراج المقاصد بمنهج فريد انتحاه والتزم به في تفسير آي القرآن الكريم واعتبار مقاصده، لما يترتب على هذا المنهج من السعة والشمول في اعتبار المقاصد، فيضع شروطا لكل قول ووجه في فهم الآية: حتى

---

(٢٠) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ص٨٨١،٤٦٧،٤٥١..

(٢١) إشارات الإعجاز مرجع سابق، ص ٤٠.

(٢٢) اللمعات، ص٤٠. الكلمات، ص٢٦٤-٨٨١. المكتوبات، ص ١١٨-١٤٣.

(٢٣) الكلمات، ص ٤٥١- ٤٦٧- ٨٨١.

لا تكون مدخلا لأصحاب الأهواء ومدعاة لهم إلى إبداء أي قول[٢٤]. ومن وسائله في التفسير اعتماد:

- **التفسير الكوني للقرآن:**

يركز النورسي على التفسير الكوني للقرآن. فالقرآن في نظره لا يفهم إلا على ضوء كتاب الكون، وكتاب الكون لا يفهم إلا على أسس القرآن، والنورسي أكد على هذه الحقيقية أو هذا الأساس في فهم القرآن فيقول: إن القرآن المقروء هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه، لهذا الكون البديع، الذي هو قرآن عظيم منظور[٢٥].

يفهم من كلام النورسي في هذا الوجه أن القرآن الكريم وحدة واحدة، يصدق بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا، وليس فيه موطن شبهة أو اختلاف.

- **اعتماد وحدة القرآن وسبب نزوله:**

نزل القرآن منجما في ثلاث وعشرين سنة، ومع ذلك فإنه من التلاؤم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة. ونزل منجما في تلك المدة لأسباب نزول مختلفة. ومع ذلك فإنه يظهر من التساند التام كأنه نزل لسبب واحد، وجاء جوابا عن سؤال واحد، ومبينا لأحكام حوادث متعددة متغايرة، ومع ذلك فإنه يظهر الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة. ونزل متضمنا لتنزلات كلامية إلهية في أساليب تناسب أفهام مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلقي متخالفة متنوعة مع أنه يبين من سلالة لطيفة وتماثل جميل كأن الحال واحدة والفهم واحد.

وجاء مكلما متوجها إلى أصناف متعددة متباعدة مع المخاطبين مع أنه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الأفهام كأن المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كل صنف أنه مخاطب وحده بالأصالة ونزل هاديا وموصلا إلى

---

(٢٤) الكلمات، ص٨٨١.

(٢٥) الكلمات، ص١٤٣. مختارات مرجع سابق، ص٦١.

غايات إرشادية متدحرجة متفاوتة مع أنه يبين الاستقامة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأن المقصد واحد[٢٦].

فالقرآن يرى جميع الدساتير التي تحقق الشريعة سعادة الدارين ويبينها مع بيانه كل ركن من أركان الإيمان الستة بالتفصيل وكل ركن من أركان الإسلام الخمسة بقصد وجد ومحافظا على الموازنة فيما بينها جميعا مديما تناسبها؛ فينشأ من منبع الجمال والحسن البديع الحاصل من تناسب مجموع تلك الحقائق وتوازنها إعجاز معنوي رائع للقرآن، ومن هنا ندرك أن علماء الكلام الذين رجحوا العقل على النقل عجزوا عن أن يوضحوا ما تفيده عشر آيات من القرآن الكريم وتثبته إثباتا قاطعا بما يورث القناعة والاطمئنان[٢٧].

- **فهم القرآن من طرف العامة:**

ذهب النورسي إلى أن الألفاظ القرآنية قد وضعت وضعا دقيقا بحيث أن لكل كلام بل لكل كلمة بل لكل حرف بل حتى السكوت له أحيانا وجوها كثيرة جدا، وتمنح هذه الوجوه المتعددة كل مخاطب ما يحتاجه ليأخذ نصيبه وحظه من أبواب مختلفة[٢٨] .

ويسوق النورسي لذلك مثالا بقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ (النبأ: ٧) بأن لفظ هذه الآية يحمل وجوها للمخاطبين.

فالعامي حصته منها أنه يرى الجبال كالأوتاد المغروزة في الأرض كما هو ظاهر أمام عينه. والشاعر حصته منها أنه يتخيل الأرض سهلا منبسطا وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة ضربت على الأرض وزينت الخيمة بمصابيح وأن الجبال تتراءى وهي تملأ دائرة الأفق وتمس قممها أذيال السماء وكأنها أوتاد تلك الخيمة العظيمة. والبدوي يتصور سطح الأرض كصحراء واسعة وكأن

---

(٢٦) بديع الزمان سعيد النورسي ، الكلمات ص ٤٨١-٤٨٢.

(٢٧) نفسه ص :٥١٢-٤٨٢.

(٢٨) الإشارات، ص٤٩. الثمرة، ص٨٣. الكلمات،ص٤٧٨. المكتوبات، ص٢٣٨-٢٤٠.

سلاسل الجبال سلسة ممتدة لخيم بأنواع شتى. والجغرافي يرى كرة الأرض عبارة عن سفينة تمخر عباب بحر المحيط الهوائي وإن الجبال أوتاد دقت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة. أما المتخصص في أمور المجتمع فيرى أن الأرض عبارة عن مسكن وإن عماد هذه الثلاثة هو الجبال لأن الجبال مخازن الماء مشاطة الهواء حامية التراب من استيلاء البحر والتوحل، ويفهم الفيلسوف من لفظ هذه الآية أن الامتزاجات والانقلابات والزلازل التي تحصل في باطن الأرض تجد استقرارها وسكونها بظهور الجبال(٢٩).

- **الكشف عن سر الاختلاف في تراكيب القرآن الكريم:**

اعتبر النورسي أن تراكيب القرآن وأسلوبه تناسب درجات الناس وطبقاتهم في الفهم. فقد سئل النورسي عن سر اختلاف المفسرين في وجوه تركيب القرآن فقال: إن من وجوه إعجاز القرآن نظمه وسبكه في أسلوب ينطبق على إفهام عصر فعصر وطبقة فطبقة (٣٠).

فالقرآن قد حافظ على شبابيته وفتوته فخاطب كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر من العصور وكأنه توجه توجها خاصا إلى تلك الطبقة بالذات. إذ لما كان القرآن ذا خطاب عالمي متوجها إلى كل طبقات البشر للإيمان بمعرفة الله، ناسب أن يكون الدرس الذي يلقيه موائما فهم كل منها، فكل طائفة تأخذ حظها، ولا يدع القرآن أحدا محروما من إعجازه (٣١) وتلك التنزلات الإلهية إلى عقول البشر لتأنيس الأذهان أو المتنوعة بتنوع أساليب التنزيل(٣٢).

١- المقصد الأصلي العام:

يذهب النورسي إلى أنه "لولا القرآن لما أسلم الناس"(٣٣)، لذلك فالمقصد

---

(٢٩) الكلمات، صص ٤٥٢-٤٥٣.

(٣٠) بديع الزمان سعيد النورسي: الإشارات ص ٤٩ الثمرة ص ٨٣.

(٣١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات ص ٤٧٨، المكتوبات ص ٢٣٨-٢٣٠.

(٣٢) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات ص ٤٧٨، المكتوبات ص ٢٣٨-٢٣٠.

(٣٣) المكتوبات: المكتوب ١٩. صقيل الإسلام ، ص ٣٤٨-٣٤٩.

الأصلي من إنزال القرآن هو: هداية الناس، لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويربط ذلك بواقع الأمة الغارقة في بحار التبعية والانسلاخ، ليؤكد في كل محطة أن هاجسه الأول هو جمع شمل الأمة الإسلامية؛ لأنه كان يشعر بأن الأخطار محدقة بها، وأن فكرها هو المستهدف، لذا قام بتسويِّر ذلك الفكر برسائل النور لتكون الحصن الواقي للإسلام ولتربي جيلاً مؤمناً بمبادئه وشموليته.

يقول في إحدى المحاكمات العقلية في معرض حديثه عن مقصد الدين: "المقصد الحقيقي للشريعة هو الإرشاد والتعليم"[٣٤]، وهو يتوافق مع ما صرَّح به في غير موضع من أن القرآن الكريم كتاب هداية في مقصده الأسمى، يدل على الله ويهدي إليه، ويرشد الناس إلى ما يصلحهم في المعاش والمعاد فأمعن النظر فيه، واستعمل التأويل سبيلا لاستخراج المقاصد القرآنية، فمعنى تفسير القرآن عنده استنباط واستخراج التوجيهات الهادية في القرآن، وهي ما يعبر عته بالحكم المقاصدية. فتراه لذلك يحدد للقرآن ست جهات من شأنها أن توصل إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة، وهي[٣٥]:

الجهة الأولى: وهي نقطة استناده، وهي الوحي.

والجهة الثانية: وهي سعادة الدارين، يستهدفها، فقد امتدت ارتباطاته وعلاقاته بالأبد والآخرة.

والجهة الثالثة: وهي إشارة الإعجاز الظاهر.

والجهة الرابعة: وهي أعمدة البراهين الرصينة والدلائل الدامغة.

والجهة الخامسة: وهي استشهاد الوجدان حتى ينطلق من إعجابه "تبارك وتعالى" بما ينفح من نفحات روحية للقلب.

والجهة السادسة: وهي استنطاق العقول وتصديقها.

فإذا كان القرآن الكريم الذي هو المصدر الأول والأساس لمنظومة النورسي الفكرية؛ يحدثنا عن قضية (الاستخلاف) الرباني للإنسان قبل قصة خلقه؛ فلا

---

(٣٤) بديع الزمان سعيد النورسي: محاكمات عقلية، المناظرات: ١٤٢.

(٣٥) الكلمات، ص: ٦٦-٦٧-١٦١-٢٤٨-٢٤٩. الآية الكبرى، ص٨٧.

يكون خلق آدم عليه السلام؛ إلا من بعد ما قدرت له وظيفته الكونية؛ ذلك أن قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)؛ واقع قبل خلق آدم عليه السلام؛ لأن القرآن يقص علينا أن هذا الإخبار كان قبل ذلك، كما في سورة (ص). قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩)، وقال عز وجل في بيان علة الخلق: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود: ٧) إن معنى ذلك عند الأستاذ سعيد النورسي إذن؛ أن الوجود الإنساني كله، حتى في أدق تفاصيله، لا يمكن فهمه إلا من خلال هذا المنظور الكوني للإنسان! وهذا هو الجديد الذي يمكن أن نزعم أن بديع الزمان قد تقدم به كمفتاح لفهم ما الإنسان؟ على سبيل التفسير التدبري للقرآن الكريم، والقراءة الكونية لآياته. ومن هنا أيضا يمكن القول: أن بديع الزمان قد جاء بمفهوم قرآني للإنسان. فبنى عليه - تقريبا - كل نظرياته النورية للكون والحياة والمصير.

ويبين النورسي ذلك بقوله: أيها الإنسان! المقصد الأسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه مظاهر الربوبية، وإن الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات، والنتيجة: ما دامت الآيات التي تخص معجزات الأنبياء عليهم السلام لها نوع خاص من الإشارة إلى خوارق التقدم العلمي والصناعي الحاضر، ولها طراز من التعبير كأنه يخط أبعد الحدود النهائية لها. أو حيث أنه ثابت قطعا أن لكل آية دلالات على معان شتى بل هذا متفق عليه لدى العلماء... ولما كانت هناك أوامر مطلقة لاتباع الأنبياء والاقتداء بهم، لذا يصح أن نقول: إنه مع دلالات الآيات المذكورة على معانيها الصريحة هناك دلالات مشوقة بأسلوب الإشارة إلى أهم العلوم البشرية وصناعاتها[٣٦].

---

(٣٦) بديع الزمان سعيد النورسي: محاكمات عقلية، المناظرات ص: ١٤١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٥١٥، الإشارات، ص ٢٣٨.

٢- مقاصد تبعية:

أبدع النورسي في إثبات الحقائق الإسلامية وجعلها من مقاصد القرآن التي تغياها، وأجملها رحمه الله في أربعة مقاصد: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة(٣٧)، يترجمها من خلال صور عقلية، وخيالية في آن واحد يحقق من خلالها المتعة والوجدانية والإشباع والإقناع العقلي في نفس الآن.

أ/ التوحيد

التوحيد هو المقصد الأسمى من تكوين الكون وخلق الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:٥٦)، والقرآن حسب النورسي، في جزء مهم منه يسعى إلى إثبات مفهوم الوحدانية، ويستثمر سعيد النورسي ذلك في بناء الصور العقلية لبنائها، فهو يرى أن انتساب كل موجود لنوع ما هو أهم دليل على وحدانية الله، وذلك لأن كل موجود له علاقة بالوحدانية من زاوية وحدة النوع؛ يعني هناك تظاهر للوحدة في كل نوع، وإذا وضعنا مبدأ "الواحد لا يصدر إلا من واحد" تظهر وحدانية الخالق، كما أن تشابه الموجودات في مختلف الوجهات وعلى رأسها الخلق يشير إلى أن خالقها واحد"(٣٨)، واستنبط كل ذلك من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الانبياء:٢٢)، كما أقر الدليل الذي ذكر في القرآن حول أسس الوحدانية، والذي سماه علماء الكلام بدليل التمانع، وحسب هذا الدليل فإن النظام الموجود في الكائنات يخضع لإرادة واحدة(٣٩).

وبمثل هذا المنهج قرر سعيد النورسي مقصد التوحيد، باستخراج الصور العقلية من الأدلة القرآنية، واستخدامها جميعا، فما من أمر من أمور التوحيد إلا

---

(٣٧) بديع الزمان سعيد النورسي : الإشارات ص٣٠.

(٣٨) بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي العربي ص ١٢٤، الكلمات ٦٠٦ ص-٦٢٢، المحاكمات العلقلية ص١١٩، الشعاعات، ص١٧-١٩، المكتوبات ٢٨-٢١٣..

(٣٩) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ص٢٣٧. الشعاعات، ص١٢٨، واللمعات ص١٨٠.

ومعه دليل على إثباته سواء كانت تلك الأدلة شرعية نقلية، أو أدلة عقلية، أو فطرية مستقاة من واقع الحياة المعيش، وهو يرجح الاستدلال بالأثر على المؤثر، لأنه أسلم من الشبهات وأصوب، في عصر اتخذ المادة أساسا لكل شيء، ومن هنا ساق النورسي الأمثلة المادية كدليل على المسائل القلبية الإيمانية لترسيخها وتثبيتها.

ب/ النبوة:

من المفارقات التي تستوقف الباحث في تراث النورسي أنه يرى: "من الواجب إثبات النبوة من الأدلة العقلية لا من الأدلة النقلية"(٤٠)، مع إثباته مبحث النبوة من مقاصد القرآن الكريم، وحل هذه المفارقة جلي إذا استحضرنا ما أثبتناه في التوحيد من عمل النورسي على استخراج دلائل التوحيد والنبوة من القرآن وسوغها في قالب عقلي، فهو يدعو إلى عدم مقارعة منكري النبوة بالأدلة النقلية، لأنهم ببساطة لا يومنون بقدسية النصوص القرآنية ولا بصدقها، وبالتالي فمحاججتهم بها كالرقم على الماء، وفي مقابل ذلك يصرح بأنه "يمكن استخراج أكثر من ألف معجزة من القرآن"(٤١)، مما يوحي بأن النبوة شغلت جزءا مهما من الوحي، أما عن طبيعة استدلاله للنبوة، فهو يرى أن النبوة هو تظاهر للألوهية، وقيَّمها على أنها مؤسسة واجبة للارتفاع والسمو عن دركة الحيوانية(٤٢).

ج/ العدالة :

يذهب النورسي إلى أن العدالة هي تجل لاسمي الله الحكم العدل، وإقرار حقيقة العدالة غاية قرآنية حضرت في أكثر من آية، بل إن أحكام الشريعة

---

(٤٠) بديع الزمان سعيد النورسي: الاشارات، ص٣١٠ –٣١٢، محاكمات مرجع سابق، ص ١٢٢ –١٢٧ .

(٤١) بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي النوري، ص ٢٢. محاكمات عقلية ص١٤٧، المكتوبات ص٨٤.

(٤٢) نفسها.

مجتمعة إنما شرعت في إطارها، ولذلك هو ينظر إلى أن الشريعة الإسلامية تتسم بالشمول، بقوانينها الدقيقة الغزيرة، وبالعدل؛ بقيامها على الحق والعدل، والواقعية؛ لأنها أدارت خُمس البشرية على اختلافها منذ أربعة عشر قرنا، والأصيلة؛ لأنها من أصل مغاير ومعدن آخر ومطلع مختلف مع دعاء روما وفلسفتها[٤٣].

ويثبت ذلك من خلال تصوره لحكمة القرآن الكريم، من حيث تقبلها لمنطق "الحق" نقطةَ استناد في الحياة الاجتماعية، بدلا من منطق "القوة"، نقطة التفلت المتسلسل في الانهيار الاجتماعي، وتجعل تحقيق: "الرضى الإلهي" غاية الغايات، بدلا من السعي وراء "المنفعة"، وتحدد دستور "التعاون" أساسا في الحياة، بدلا من دستور "الصراع"، وتلتزم برابطة "الدين"، بدلا من "العنصرية" و"القومية السلبية"، وتجعل غايات الحد من "تجاوز النفس الأمارة" و"دفع الروح إلى معالي الأمور"، و"إشباع مشاعرها السامية" لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية"[٤٤].

إن تحقيق العدالة الاجتماعية مقصد قرآني أصيل مرتبط بالألوهية إذ هو تجل لاسمين من أسماء الله، والنبوة إذ عن طريقها سنت القوانين، وتحقيقها مفض إلى السعادة بعد الحشر في الحياة الثانية.

د/ الحشر:

شأن مقصد الحشر كسابقيه التوحيد والنبوة مقصد غيبي، سلك فيه النورسي مسلك الاستدلال العقلي المستخرج من الأدلة النقلية، بأسلوب يقرب المعاني إلى الأذهان من خلال الصور والحكايات التي تدل على الحقائق الصادقة فقوله تعلى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:٥٠). منطو على دليل عقلي، لوجود

---

(٤٣) بديع الزمان سعيد النورسي: اللمعات، ص ١٥٨.
(٤٤) بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ص ١٤٥.

إحياء بعد الموت في الواقع المعيش، فالأرض تموت وييبس عشبها، وتغور عينها، ويتشقق أديمها، فتصبح أرضا مواتا، لا تنبت كلأ، ثم تحيا بعد أن تمسها رحمة من السماء، فإذا هي مخضرة رابية. ونفس الأمر بالنسبة للإنسان، فبعد أن يموت ويرم الجسد وتأكله الأرض، تصيبه رحمة من السماء فيحيى من جديد، كما أنشئ أول مرة، وفي تسلسل عقلي بديع يسترسل النورسي في ربط المقاصد بعضها ببعض فيقول إن وجود الكائنات يوجب، وجود الله كما أن وجود الله يوجب وجود عالم الآخرة(٤٥)، ولا شك أن عالم الآخرة هو عالم جزاء، والجزاء يكون عن العمل، والعمل دنيء وسام، ولا مجال للمعرفة إلا بالنبوة. وهكذا.

وبعد أن ذكر للأدلة الموجودة في القرآن الكريم حول وجود الآخرة تناول الأدلة الأخرى المذكورة في كتب علم الكلام، وبين أن عدم مكافأة المطيعين ومعاقبة العاصين، وعدم تحقيق العدالة في الدنيا، ووجود غريزة العيش إلى الأبد عند الإنسان، وكون قسم من أسماء الله تتعلق بعالم الآخرة، وقول جميع الأديان السماوية بحدوث اليوم الآخر، هي من الأدلة التي توجب عالم الآخرة، وبين أن العقل أيضا يرى أن الآخرة ممكنة، ومقابل ذلك، فهو على حق عندما يرى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لن يتخلصوا من الأزمة المتولدة من إحساسهم بالفناء الأبدي، وأن المؤمنين سيعشون بعيدين عن الأزمة سعيدين بالفرح المتولد من إحساسهم بالعيش الأبدي(٤٦).

٣- الحكم القرآنية:

لا تنفصل الحكم عند النورسي المقاصد فمنهجه في التفسير القائم على الأسئلة الأربعة يفضي بالضرورة إلى استخراج المقصد والحكمة، ، فعند كل آية يتساءل النورسي: عن المتكلم: من قال؛ وهو الله، وعن المخاطب: لمن قال؛ المناسبة وسبب النزول، وعن المقصد: لم قال؛ الغاية من الحُكم، وعن المقام:

---

(٤٥) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ص ٥٧٤. إشارات الإعجاز، ص ٦٢.

(٤٦) بديع الزمان سعيد النورسي، اللماعات، ص٣٣٧.

فيم قال؛ أي اعتبار الحياة. والسؤال الثالث يجتمع فيه المقصد والحكمة، وقد يتحدا أحيانا، وتتبين الحكم القرآنية عند النورسي باعتبار أن حِكَمَه ليست على درجة واحدة لكل الناس، ولكن حِكَمَه تخص كل طبقة من طبقات الناس في كل عصر من العصور. ويذكر أن هناك سبعة وجوه كلية، وأحيانا عشرة وجوه باعتبار طبقات الناس[٤٧].

ويصل في تفسيره إلى أن صفة الحكمة الحقيقية مثلاً تستند إلى اسم (الحكيم)، ومادام حكيما فأفعاله مصونة عن العبث، فلابد من حكمة في طي كل حكم، وقد التزم النورسي بإبراز الحكم عند بيان الأحكام، فتحريم الربا لحكمة، وتشريع الزكاة لحكمة، وإقرار الحدود لحكمة، يقول: وجوب الزكاة له حكمة عظيمة ومصلحة عليا لأن الزكاة هي الواسطة للتعاون المأمور به بل وهي الواسطة لجريان مادة الحياة بين البشر[٤٨]، ويرى أن كل مشكلات المجتمع نابعة من عدم التنظيم الاقتصادي، لأن العالم مخلوق من قبل صانع حكيم؛ وشرع الأحكام لتؤدى ضمن نظام وحكمة، من دون اختلاط ولا تجاوز[٤٩].

وعلى هذا النهج سارت رؤية النورسي للمقاصد القرآنية، والتي كانت نتيجة طبيعة لدرجته العلمية، وثقافته الواسعة التي قادته إلى رؤية مقاصدية للقرآن الكريم تميز بها واستثمرها في حياته للدفاع عن المبادئ التي آمن بها وسخر حياته من أجلها رحمه الله تعالى.

ويمكن أن نجمل القول فيما خلصت إليه هذه الورقة المختصرة في خاتمة البحث.

---

(٤٧) المكتوبات، ص٢٥٣.

(٤٨) بديع الزمان سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص ٥٤.

(٤٩) اللمعات، ص٢١٥.

خاتمة:

بعد أن رتعنا في رياض الروح مع هذا الإمام الجليل تبين لنا أن مقاصد القرآن عند النورسي هي القضايا الكبرى والحقائق الإسلامية العظمى التي قصد القرآن إقرارها، وإقناع الناس بها، بأسلوب يختلف بحسب اختلاف المتلقين له، وقد تنبه النورسي إلى طغيان النزعة المادية التي كان يعيشها العالم في زمانه ولا زال، فقد سعى إلى بلورة الأدلة القرآنية في قالب عقلي، وأضفى عليه لمسة روحية، ونفحه بنفاحات نورية، فأقنعت العقل وأشبعت الروح وأنعشت القلب، ولا يعني اقتصارنا على تلكم المقاصد - الأصلية أو التبعية أو الحكم- على سبيل الحصر فدون الحصر خرط القتاد، وإنما على جهة التمثيل، وإلا فيمكن اعتبار الإيمان بالله تعالى، وعقيدة البعث والجزاء، والآيات الكونية التي أيد الله بها رسله، والخوارق الحقيقية والصورية عند الأمم، وعاقبة الكافرين بالآيات والمنكرون للمعجزات ، وختم النبوة وانقطاع الخوارق بها، والإيمان بالقدر، والسنن العامة، والسعي نحو كمال النفس الإنسانية، والإصلاح القرآني، وكونه وسطا جامعا لحقوق الروح والجسد، ومصالح الدنيا والآخرة، وغاية الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالإيمان الصحيح، وكون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر، وكونه يسر لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعنات، ومنع الغلو في الدين، وإبطال جعله تعذيبا للنفس، وقلة تكاليفه وسهولة فهمها. والإرشاد إلى الإصلاح المالي، وتأصيل قواعد السلم والحرب، وإعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية وهلم جرا من القضايا من مقاصد القرآن التي قصد إقرارها، واستخرجها بديع الزمان، وخادم القرآن سعيد النورسي، نور الله ضريحه كما نور العقول برسائل النور.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز. بديع الزمان النورسي - ألفه وهو يخوض غمار الحرب العالمية الأولى في جبهات القتال وهو تفسير للقرآن ويعد تحفة رائعة على رغم وجازته- طبعة سنة ١٩١٨م. تحقيق إحسان الصالحي، طبعه دار سوزلر، باستانبول ١٩٩٤م.

الآية الكبرى، بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان الصالحي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٣م.

٣. بديع الزمان النورسي سيماء الشكل والصميم، عشيراتي سليمان، دار نسل ،٢٠٠١م.

٤. بديع الزمان النورسي واثبات الحقائق الإيمانية، د. عمار جيدل،٢٠٠١، شركة نسل.

٥. بديع الزمان النورسي؛ رسالة الثمرة، ترجمة إحسان الصالحي ١٩٨٢ مطبعة الزهراء، الموصل.

٦. بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نسل للطباعة، ١٩٩٥م.

٧. التبيان في الاعراب القرآني لأبي البقاء العكبري.

٨. سيرة ذاتية (إعداد وتحقيق) استعراض لحياته الطويلة والمليئة بالأحداث الكبيرة وهي قراءة حقيقية للزمن الذي عاشه النورسي، كانت متفرقة في ثنايا تأليفاته فأُعدت وجُمعت وحُققت في كتاب سمي سيرة ذاتية, بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نسل للطباعة، ١٩٩٥م.

٩. الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نسل للطباعة، ١٩٩٥م

١٠. صيقل الإسلام، بديع الزمان سعيد النورسي، (رسائل النور) ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نسل للطباعة، ١٩٩٥م.

١١. الكلمات. بديع الزمان سعيد النورسي، (رسائل النور) ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نسل للطباعة، ١٩٩٥م. طبعة دار سوزان باستانبول، ١٩٩٢م.

١٢. اللمعات، إشارات الإعجاز، بديع الزمان سعيد النورسي، (رسائل النور) ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نسل للطباعة، ١٩٩٥م.

١٣. المثنوي العربي، بديع الزمان سعيد النورسي، (رسائل النور) تحقيق إحسان قاسم الصالحي, سوزلر للطباعة، ١٩٩٥م.

١٤. محاكمات عقلية في التفسير والبلاغة والعقيدة أو صيقل الإسلام. بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي، بغداد، المكتبة الوطنية، ١٩٩٠م.

١٥. المكتوبات وتضم ٣٣ مكتوباً، بديع الزمان سعيد النورسي؛ عني بتصحيحها وبتبييضها وبترجمتها عن التركية الملا محمد زاهد الملا زكردي، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٥.

١٦. ذو الفقار: مجموعة المعجزات الأحمدية والقرآنية، بديع الزمان سعيد النورسي، عني بتصحيحها وبتبييضها وبترجمتها عن التركية الملا محمد زاهد الملا زكردي، بيروت، دار ابن زيدون، ١٩٨٧م.

أهمية بحث المقاصد في بعث الفعالية الإيمانية في رسائل النور

أ. د عمار جيدل
جامعة الجزائر

تعدّ رسائل النور موسوعة في بيان مقاصد القرآن الكريم، وقد جعل الأستاذ النورسي (رحمه الله) مجموع رسائله (رسائل النور) مخزنا رصينا للدلالة على المقاصد في كلياتها وتفاصيل جزئياتها المتعلّقة بشعاب الحياة؛ فلم يكن الحديث عن المقاصد لغو كلام أو تسويد صحائف، بل كان حديثا في لبّ لباب رسالة الإسلام، ذلك اللُّبَّ الذي يؤسس للفعالية ويقتصد في الطاقات بصرف الإرادات على وفق ما مُنِحت من استعدادات إلى بعث الحياة في حياتنا، ونقلنا من مسالك العبثية إلى نهج الفعالية الإيمانية، مجمل القول الآنف الذكر،يؤكّد أنّ لرسائل النور أهمية كبيرة في بعث الفعالية الإيمانية، وعرض تفاصيل القول في المسألة، يفرض بحث موضوعنا الموسوم بـ

" **أهمية بحث المقاصد في بعث الفعالية الإيمانية في رسائل النور** "

يفرض العرض المنهجي للموضوع الالتزام بالخطة المبيّنة فيما يأتي:

❖ **أهمية بحث المقاصد أبعادها.**

أولا: الأهمية الإيمانية للمقاصد.

- يوضّح طريق العروج للآخرة.

ثانيا: الأهمية النفسية

ثالثا: الأهمية الحضارية من خلال التشجيع على العمل والبذل المستمر.

١ - إيجاد دافع التضحية. ٢ - تحمّل تبعات السير في مسلك الإيمان.

رابعا: التطعيم أو التحصين ضد الغفلة العامة

خامسا: المقاصد و صناعة الوعي الإيجابي.

١- تنبيه المخاطب٢- التخلّق بالأخلاق الإلهية ٣- التنبيه العلمي والمنهجي: أ - الكشف عن أهمية الكتاب الكريم

ب - التنبيه إلى البعد المنهجي

٤ - السننية في التفكير

أ - رؤية أثر الحكمة ب - تيسّر تفسير سير الحياة وتنظيم الكون

سابعا:أهمية المقاصد في التأسيس للبعد الاجتماعي

١- الكشف عن قيمة الإنسان. ٢- طريق جلب السعادة الدنيوية.

٣– عنصر قوّتنا المادية والمعنوية. ٤- اكتشاف حكمة الوظيفة.

٥ - التعرّف على الحكمة

❖ **مفسدات فاعلية المقاصد**

١- النظر إلى الكون من زاوية الشرك. ٢- حصر الهمّة في الاستفادة الشخصية. ٣- التعلّق بالدنيا ومفاتنها. ٤- الإغراب في الأسلوب والمضامين. ٥- الابتعاد عن المقاصد الشرعية سبب في تذكية الصراع. ٦- التأهّل لنيل العقوبة. ٧- التحوّل السلبي. ٨- إهمال التكليف.

الفعالية الإيمانية ليست كلمات جوفاء تردد هنا وهناك، كما أنّها إن جُعِلَتْ شراكا (مصيدة) للنيل الدنيا فإنّها ستكون خسرانا في الدنيا والآخرة، ذلك أنّ المقاصد الإيمانية عنوان الآخرة المؤسسة لصلاح الدنيا، أما الانحراف بها عن مقاصدها؛ فلن يحقق مقاصدها لا في الآخرة ولا في الدنيا، مهما طال رحلة التمويه، وما يزيد طول رحلة الدنيا بعنوان الآخرة إلاّ ضياعا للطاقات والأوقات

والأشخاص،من هنا كان بحثنا في الفعالية الإيمانية الإيجابية المنبعثة من مقاصد القرآن الكريم في رسائل النور.

يفرض عرض المسألة المركزية المبيّنة في مستهل البحث، التركيز على بيان مرادنا بالفعالية الإيمانية، فعالية الإيمانية بالاختصار المركّز استصحاب أبعاد الإيمان في شعاب الحياة؛ فلا يِرى من تجلت فيها الفاعلية الإيمانية إلاّ حيث يريد الشارع الحكيم، ويفتقد ضرورة في موارد الشبهة فضلا عن مواطن الحرام، ذلك هو لُبُّ الفعالية الإيمانية، وهذا له صلة وثيقة بالتشبّع القلبي والعقلي والنفسي بالمقاصد، فبقدر تمكّنها من القلب والعقل والنفس يكون حضور تلك المعاني وأبعادها في شعاب الحياة، من هنا تبدو أهمية بحث المقاصد وأبعادها في رسائل النور.

أهمية بحث مقاصد أبعادها في رسائل النور:

بيّن من عنوان المقاصد أنّها تمثّل سيرا هادفا شاملا ومتكاملا، تعد مقاصدها الكبرى عُمُدَ الرسالة التي جاء بها العمل القاصد، وتمثّل تلك المقاصد في تفريعاتها العامة عملا شاملا يستغرق كل الميادين والمجالات التي تتوجّه إليها تلك الرسالة، كما أنّ تلك المقاصد الكلية وفروعها متكاملة تسعى إلى تحقيق مقصد كلي واحد، بحيث لا تنافر في أصولها وفروعها.

و كلّ ذلك يدل على أهمية المقاصد بالنسبة للإنسان (أصل المتوجّه إليه بهذه الرسالة)، وما دامت رسائل النور مستمدة من هدي القرآن، فإنّها اكتسبت منه ميزات الغائية والشمول والتكامل، فسيرها قاصد، ومسعاها شامل مستعد لتلبية حاجات الإنسان وفق استعداداته، كما أنّ ذلك المسعى متميّز بالتكامل بحيث ينتفي التنافر بين مضامين الخطاب من جهة ومختلف حاجات الإنسان من جهة أخرى.

نؤكّد في مستهل الحديث أنّ للمقاصد أهمية عظيمة بالنسبة للإنسان فتشمل مجموع أبعاده، يتجلى فيها الاهتمام بالأبعاد الإيمانية والنفسية والاجتماعية

والمعرفية والمنهجية، و...كما يظهر في مضمونها عنصر التكامل الذي يستغرق جميع ميادين استعدادات الإنسان وحاجاته، ومقصد تلك المقاصد تعبيد الإنسان لله بما يُيَسِّر له إحداث فعالية إيجابية في شعاب الحياة ، ومربط تلك الفعالية الإيمان،وقد كانت مقاصد رسائل النور خادمة لهذا المقصد الكلي بامتياز، وكان لهذا المقصد أبعاد نفسية وفكرية ومن ثمّ حضارية.

أولا: الأهمية الإيمانية للمقاصد:

رسائل النور في أصل وضعها رسالة إيمانية، بحيث يمثّل الإيمان مقصدا مركزيا بالنسبة إليها.

مبنى فاعلية المقاصد وحضورها في وعي المجتمع والأفراد الإيمان القطعي اليقيني بمصدر تلك المقاصد، وخاصة الكتاب الكريم المحفوظ بينهم، وللقطع بذلك بعد إيماني ظاهر، يسهم بل ويؤسس للخلفية الفكرية (العقيدية) لمجموع تصرّفات المسلّم بها، فقد كان ذلك الكتاب المحفوظ وما يزال المعلّم الأستاذ الذي شاهدناه وسمعنا خطابه، إذ لولاه لذهبت تلك المقاصد هباء منثوراً، كالكتاب المبهم الذي لا يُفهم معناه، ولا يبيّنه أستاذ، فيظل مجرد أوراق لا معنى لها!..[1]

ومردّ الفعالية يتجاوز مجرّد الإيمان "القطعي" - وفق ما شاع تداوله اجتماعيا، كأنّه تصريح قولي بحت لا أثر له على التصرّفات، كلمة صرف - الذي لا صلة له بتصرفات المؤمنين، ويفرض تجاوز هذا النمط من الإيمان، التأسيس للعمل بمقتضى المقاصد وأبعادها الإيمانية وفق امتداداتها المطلوبة في ميدان الفعل البشري، بحيث تستغرق جميع ميادين الفعل.

- **يوضّح طريق العروج للآخرة:**

تحدد المقاصد الأصلية مسالك الترقي في سلّم المعارف النورانية، وترسم خطط نيلها وسبل الترقي فيها، فهي مجليّة طريق العروج إلى الآخرة، ومن ثمّ

(١) الكلمات ١٣٢

وجب أن تكون محلّ عناية تحقيقا لتبليغها أو حماية وجودها في القلوب والعقول، مع عناية بمضامينها الاجتماعية، ولا يتوقّف تأثيرها عند حد الكشف عن المضمون وطرق التعلّق به، بل يتعدّاه إلى إيجاد محفّزات داخلية للتعلّق به وسبل مزاولته.

يقول بديع الزمان: "ففي الوقت الذي ينبغي أن يكون هذا (السعيد) المسعود موضع فخر واعتزاز بما بيّن للبشرية بنور القرآن المبين طريق العروج إلى أعلى مراتب المعرفة الإلهية، برسائل النور، قام أهل الشقاء بنقيض ذلك فتجرأوا على تسميمه مرات ومرات. وربما كان ذلك من مقتضيات الحكمة الإلهية حيث تنزل المصائب والبلايا على ورثة الأنبياء والصالحين كما هو ثابت في الحديث الشريف (أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل)، حتى رماه الصبيان بالحجارة حينما خرج من بيته يوما في قسطموني قاصدا التوضؤ من النبع، ولكنّه تحمّل وتجمّل بالصبر، ولم يحمل في صدره غير السلامة وفي قلبه غير الطهر لأولئك الصبيان، فلم يغضب ولم يحقد عليهم بل دعا لهم بالخير وقال: لقد أصبح هؤلاء سببا لكشفي سرا من أسرار آية جليلة في سورة "يس". ثم أصبح أولئك الصبيان بفضل الله وبركة الدعاء لهم، بعد ذلك يهرولون إلى الأستاذ أينما رأوه ويقبلون يده ويرجون منه الدعاء."[٢]

ثانيا: الأهمية النفسية

يمثّل العمل بالمقصد دافعا نفسيا قويا للاستزادة مما يجلب رضا الرحمن، ذلك أنّ "التعريف بحسب الغاية أولى، إذ العلم بالغاية يزيد شوق المحصّل، فبالتعلّق بعلم المنطق وهو من علوم الآلة متوقّف على تعريفه بحسب الغاية[٣] وهو بدوره متوقّف على معرفة وجه كونه آلة، وهذا متوقّف على الحاجة إليه،فجهة الحاجة تدفع إلى تحصيله، أي أنّ تعلّق الناس بعلم من علوم الآلة

---

(٢) سيرة ذاتية ٤

(٣) انظر صيقل الإسلام ٢٤٣

مترتّب على معرفة وجه آليته ووجه الحاجة غليه؛ فالجواب عن المقصد من تلك الآلة يحبّبنا في الآلة نفسها، لهذا كان اكتشاف المقصد دافعا نفسيا لتحصيل ما ينال به المقصد نفسه.

ومادامت الحاجة إلى الغاية ماسة لتعلّقها بكل مجالات حياة الإنسان المادية والمعنوية، كان العلم بالمقاصد الكلية النبيلة حافزا نفسيا قويّا لدفع العامل بها على الاستزادة من الخير ودفع الشر، كما أنّ الارتباط بالمقاصد التافهة يأسر المتعلّق بها، فيقع من جرّاء التعلّق بها على أم رأسه، فيتحوّل من رجل عزيز مكرّم إلى ذليل حقير، يشهد لهذا المعنى تحذير بديع الزمان الإنسان من جعل الحياة الدنيا غاية المقصد، فتفرغ في سبيلها الجهد، إنّك إن فعلت ذلك ورضيت به، فسوف تكون في حكم أصغر عصفور.(٤)

لهذا كانت أهمية المقاصد الجليلة النبيلة عظيمة في شحذ الهمم، كما أنّ التعلّق بالمقاصد التافهة يدمّر قوى الدفاع الذاتي، فيجعل النفس مهيّئة لقبول الاستخفاف والنذالة الفكرية والنفسية والاجتماعية.

يعود ما ناله المسلمون عربا وعجما من سعادة دنيوية إلى تسليمهم النفسي لأمر الله تعالى والرضا بقضائه وقدره، فقد كانوا يرون الحكمة في المقاصد الكلية، ويتلقّون دروس العبرة من الحوادث بدلاً من الرهبة والهلع منها.(٥)

ومن شواهد أهمية المقاصد النبيلة – في رؤيتها الكلية المتكاملة الشاملة – في التأسيس للبعد النفسي لمقاصد رسائل النور، قول النورسي: "رأيت عدداً من الأشخاص – من أهل التقوى – يرغبون في الدين ويحبّون أن يقيموا أوامره كي يوفّقوا في حياتهم الدنيوية ويفلحوا في أعمالهم. حتى أنّ منهم من يطلب الطريقة الصوفية لأجل ما فيها من كرامات وكشفيات. بمعنى أنّه يجعل رغبته في الآخرة وثمارها تكئة ومرتبة سلم للوصول إلى أمور دنيوية، ولا يعلم هذا أنّ

---

(٤) الكلمات ٢٠

(٥) صيقل الإسلام٥١٩

الحقائق الدينية التي هي أساس السعادة الدنيوية كما هي أساس السعادة الأخروية، لا تكون فوائدها الدنيوية إلاّ مرجحة ومشوقة، فلو ارتقت تلك الفائدة إلى مرتبة العلة لعمل البر، فإنها تبطله، وفي الأقل يفسد إخلاصه، ويذهب ثوابه. وقد ثبت بالتجربة أنّ أفضل منقذ من ظلم هذا العصر المريض الغادر المشئوم ومن ظلماته الدامسة، هو النور الذي تشعه رسائل النور بموازينها الدقيقة وموازناتها السديدة. يشهد على صدق هذا أربعون ألف شاهد."[٦]، ولا شكّ أنّ مردّ الاهتمام بالغاية النبيلة أو المقصد العظيم، يرجع في أصل فاعليته إلى البعد النفسي سواء أصاب الهدف أو أخطأه، كحالتنا المبيّنة في السابق، إذ المقصد النبيل يفرض أن يكون الهدف موافقا له، فالهدف في هذا المثال قد يؤثّر على أصل المقصد نفسه، من هنا وجب التنبيه إلى الصلة الوثيقة بين الأهداف النبيلة والمقاصد الكليّة، وأهمية البعد النفسي إقبالا وإدبارا ظاهر جلي.

ومن مظاهر البعد النفسي في درس مقاصد رسائل النور أنّ العمل بالمقاصد يدفع إلى التضحية، إذ يوجد العلم بها المؤسس للعمل بمقتضاها قوّة معنوية تساعد محصّلها على تحمّل التضحية، ودفع أشدّ الظلم النمرودي من أعداء الوطن والدين المستترين، ليس هذا فحسب، بل يجاوزه إلى تكييف تصرّفاته الغضبية ويضبطها بمقصد كلّي قوامه طلب رضا الله، فلا يواجه القوّة المادية بالردّ المادي التخريبي، مستمدا تلك القوّة المعنوية من القرآن الحكيم الذي علّمه تلك المعاني السامية، لأجل ألاّ يتضرّر تسعون بريئاً بسبب زنادقة ملحدين نسبتهم عشرة في المائة، ومن أجل المحافظة على الأمن والنظام في الداخل بقوته كلها، ومن أجل نصب حارس في قلب كل إنسان بدروس النور. ولولا ذلك، لانتقم الأستاذ النورسي - كما صرّح به - في يوم واحد من أعدائه الذين ظلموه مدة ثمان وعشرين سنة. فتراه لا يدافع ضد من يهين عزته وكرامته حفاظاً

---

(٦) سيرة ذاتية ٣٠٩

على الأمن من أجل الأبرياء، ويقول: أنا مستعد للتضحية بحياتي الدنيوية من أجل ملة الإسلام، بل حتى بحياتي الأخروية إن لزم الأمر.(٧)

كما أنّ استحضار المقاصد في النظر إلى النفس والمجتمع يزيد الإنسان تضحية وبذلا وعطاء، فيطرد النظر التفكير في العزلة والانزواء، ذلك أنّه إذا ما فكّر كلُ واحد بأن ينزوي في زاوية مظلمة ليأمن خداع النفس الأمارة بالسوء - تلك العدوة الكبرى- ويأمن مكر شياطين الجن والإنس، وانسحب إلى زاوية النسيان أو أراد أن ينسحب إليها، وأهمل ما حلّ بالعالم الإسلامي والإنساني حتى لم يعد ينفع أحدٌ أحداً، فالمطلوب أن نقوم بتبليغ إخواننا في الدين هذه الحقائق، لعل الله يعاملنا بفضله وكرمه بما يوافق جلال ألوهيته سبحانه. ولهذا من المفيد جداً صرف النظر عن أنفسنا في تلك الأزمنة.(٨)

تلك المقاصد التي تقرر في الإنسان بعدا نفسيا ظاهرا، يحسّسه بحقائق الفقر والعجز والحاجة إلى الحكيم الخبير الخالق الرازق، إنّ ما يوفقكم الله إليه بالعجز والفقر للوقوف بباب قصر القرآن العظيم والأخذ من خزينته الخاصة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فتستخرجون ما تشاهدونه - وما يؤذن لكم منها - من جواهر، الواحدة تلو الأخرى. وتتدبّرون فيها أنتم أولاً ثم تقولون: أيّها الناس! انظروا إلى المولى الكريم الذي فتح لكم أبواب مضيفه وخلق العوالم برحمته العميمة وبرأكم بحكمته وأرسلكم إلى هذا العالم.. ذلكم رب العالمين.. الذي بيّن لكم الحكمة في الخلق والقصد من مجيئكم إلى هنا، والمهمة التي كُلفتم بها، وكلّ ما تقتضيه العبودية من وظائف وخدمات.. وأمثالها من الأمور التي بيّنها قبل ألف وثلاثمائة سنة بوساطة رسوله الكريم ﷺ.

بلّغ الأستاذ تلك الأوامر الرفيعة وتلك الأحكام المقدّسة، وحثّ على التلاميذ على تبليغها بلسانهم بحيث يقدرون على فهمها، فإن بلّغوا ذلك

(٧) سيرة ذاتية ٤٦٣

(٨) الملاحق ٢٠

بإخلاص فسينفعون ذوي العقول والصواب وذوي البصائر والقلب، والمتمّعون بالإنسانية، وييسّرون لهم فهم الحقيقة ويردونهم إلى حظيرة الإيمان[٩]

ثالثا: الأهمية الحضارية من خلال التشجيع على العمل والبذل المستمر

تحفّز المقاصد مدركها عقلا وقلبا على البذل المستمر بالاستعداد للرحلة المقررة، الرحلة إلى الآخرة، ذلك أنّ الحكمة في إبهام أجَل الشخص وموتهِ "لينتظره دائماً فيستعدّ لآخرته" - الحكمة في إبهام الساعة - التي هي موتُ الدنيا لينتظرها أبناء الدنيا[١٠]، لهذا كان في خفاء الأجل مقصدا عظيما يبقي جذوة التعلّق بالخلاص متّقدة مهيمنة على كيان الإنسان، فتدفعه نفسيا للاستعداد السنني لنيل رضا الرحمن.

١ - إيجاد دافع التضحية:

كان النورسي مندفعا إلى التضحية في مباشرة التعامل مع الدنيا ومشاكلها في كنف نظرة تهيمن عليها العناية بالمقاصد السامية، فقد كان حينما اشتد خناق الأمراض وألوان الغربة وأنواع الظلم عليه، ووجد أن علاقاته تنفصم مع الدنيا لاح بين ناظريه أنّ الإيمان يرشده بأنّه مرشح لدنيا أخرى أبدية، وأنّه مؤهل لمملكة باقية وسعادة دائمة. ففي هذه الأثناء ترك كل شيء تقطر منه الحسرة ويجعله يتأوه ويتأفف، وأبدله بكل ما يبشّر بالخير والفرح ويجعله في حمدٍ دائم. ولكن أنّى لهذه الغاية أن تتحقق وهي غاية المنى ومبتغى الخيال وهدف الروح ونتيجة الفطرة، إلاّ بقدرة غير محدودة للقدير المطلق، يعرف جميع حركات مخلوقاته وسكناتهم قولاً وفعلاً، بل يعرف جميع أحوالهم وأعمالهم ويسجلها كذلك. وأنّى لها أن تحصل إلاّ بعنايته الفائقة غير المحدودة لهذا الإنسان الصغير الهزيل المتقلب في العجز المطلق، حتى كرّمه واتخذه خليلاً مخاطباً، واهباً له المقام السامي بين مخلوقاته.[١١]

---

(٩) الملاحق ٣٢
(١٠) انظر المثنوي العربي ٤٤٥
(١١) الشعاعات ٧٥

لقد وضعت الحكمة الإلهية ميلا وشوقا في الإنسان لإدامة النسل. ووضع أجرة لأداء تلك الوظيفة الفطرية، وهي اللذة. فالرجل ربما يتحمل مشاق ساعة لأجل تلك اللذة التي تدوم عشر دقائق - إن كانت مشروعة - بينما المرأة، تحمل في بطنها الطفل حوالي عشرة أشهر، مقابل تلك المتعة التي تدوم عشر دقائق، فضلا عما تتحمل من مشقات طوال عشر سنوات من أجل طفلها. بمعنى أن تلك اللذة التي تدوم عشر دقائق تزيل أهمية ذلك الميل الفطري، حيث تسوق إلى هذه المصاعب الكثيرة والمتاعب المستمرة.[١٢]

٢ - تحمّل تبعات السير في مسلك الإيمان

يسعف المرء بقوّة داخلية تدفعه إلى التحمّل باكتشاف جزء من حكمة الله في خلق الإنسان التي هي نقطة من بحر المقاصد، إذ أنّ كل إنسان في كلّ زمان ومكان، له نصيبه من المصائب الجارية إما قلباً أو روحاً أو عقلاً أو بدناً، ويعاني من العذاب والرهق ما يعاني، ولاسيّما أهل الضلالة والغافلين حيث إنّهم غافلون عن الرحمة الإلهية الشاملة والحكمة السبحانية الكاملة، فمن حيث إنسانيتهم وعلاقتهم بالبشرية يتعذّبون بالآلام الرهيبة المفجعة التي تعانيها البشرية في الوقت الحاضر، فضلاً عن آلامهم أنفسهم، ذلك لأنّهم قد تركوا وظائفهم الحقيقية وأمورهم الضرورية وأعاروا سمعهم بلهفة إلى مالا يعنيهم من صراعات سياسية وشؤون آفاقية، وحوادث خارجة عن طوقهم، ويتدخّلون فيها حتى جعلوا أرواحهم حائرة وعقولهم ثرثارة، وسلبوا من أنفسهم الإشفاق والرثاء عليهم، حسب قاعدة "الراضي بالضرر لا ينظر له" أي من يرضى لنفسه الضرر لا يستحق النظر إليه برحمة. فلا يُرثى لهم ولا يُشفق عليهم، فهم الذين قد سببوا نزول البلاء بهم.[١٣]

---

(١٢) الملاحق ٣٤١

(١٣) انظر الملاحق ٣٤١

النظر في الكون والحياة في إطار المقاصد الشرعية يسهم في الكشف عن الحكمة الإلهية الجزئية المتجلية في عالم الأشخاص والأشياء، فترى تلك الحقائق في كل حادثة وفي كل شيء، لمشاهدة الأمور بمنظار نور دروس الإيمان التحقيقي المتلقى من رسائل النور. وبذلك يشاهد في كل شيء كمال الحكمة الإلهية، وجمال عدالتها، ويستعينون بها على مجابهة المصائب - التي هي من إجراءات الربوبية الإلهية بالبشر - بالتسليم التام لأمر الله فيبدي الرضا به، ولا يقدّم شفقته على الرحمة الإلهية كي يقاسي العذاب والألم.(١٤)

تخرج تلك النظرة الإنسان من الغفلة عن سلطان الكون ومنظّمه، وبهذا يتحرر من عقلية الشاكي القائل بأن ماهية العالم المنظمة بدستور الحكمة الأزلية غير مستعدة لإنجاز الأمر الذي يطلبه، والشيء الذي يبغيه، والحالة التي يشتهيها، ولا يسمح به قانون الفلك المنقش بيد العناية الأزلية، ولا توافقه طبيعة الزمان المطبوعة بمطبعة المشيئة الأزلية، ولا تأذن له الحكمة الإلهية المؤسّسِة للمصالح العامة.. لذا لا يقطف عالمُ الممكنات من يد القدرة الإلهية تلك الثمرات التي نطلبها بهندسة عقولنا وتَشَهّي هوانا وميولنا. وحتى لو أعطتها لَماَ تمكن من قبضها والاحتفاظ بها، ولو سقطتْ لَمَا تمكّن من حملها. نعم لا يمكن أن تسكن دائرة عظيمة عن حركاتها المهمة لأجل هوى شخصي...(١٥)، فالإفادة من المقاصد يفرض الانسجام معها في سيرها الجزئي والكلي. ويسهم هذا الانسجام في خدمة الحياة الاجتماعية البشرية، ويعين الأخلاق والمثل الإنسانية، ويمهّد السبل للرقي الصناعي، ذلك أنّها في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هو خادم لحكمة القرآن، ولا يعارضها، ولا يسعه ذلك.(١٦)وسيفضي الأمر إلى التعلّق بالمعالي والمقاصد الكلية والغايات الرفيعة، فيبتعد المنشغل بالمقاصد الشريفة عن تنسيق الكلمات وتنظيم الألفاظ، ويجعل شغله الشاغل

---

(١٤) انظر الملاحق ١٥٣
(١٥) انظر الملاحق ٢٠٦
(١٦) انظر الملاحق ٢٨٦

إحياء الحس الديني والشعور الإيماني ومفهوم الفضائل والأخلاق أمنيته ومبتغاه بترسيخها في الأرواح والوجدان والأفكار لتنتقل عبر العصور والدهور للأجيال القادمة.[١٧]

يؤسس النظر في الغايات لقبول التنوّع كظاهرة إسلامية إنسانية، إذ لا يفسد التنوّع للود قضية، ذلك أنّ تصادم الآراء ومناقشة الأفكار لأجل الحق وفي سبيل الوصول إلى الحقيقة إنما يكون عند اختلاف الوسائل مع الاتفاق في الأسس والغايات، فهذا النوع من الاختلاف يستطيع أن يقدم خدمة جليلة في الكشف عن الحقيقة وإظهار كل زاوية من زواياها بأجلى صور الوضوح. ولكن إن كانت المناقشة والبحث عن الحقيقة لأجل أغراض شخصية وللتسلط والاستعلاء وإشباع شهوات نفوس فرعونية ونيل الشهرة وحب الظهور، فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار.[١٨]

النظرة الكلية الشاملة تبيّن مركزية الإنسان في الكون، ويشهد لهذا المعنى أنّ موجودات العالم قد صُممت بطراز يشبه دائرة عظيمة، وخُلقت الحياة لتمثّل نقطة المركز فيها، ثم نرى أن موجودات عوالم ذوي الحياة هي الأخرى قد أوجدت على شكل دائرة واسعة بحيث يتبوّأ الإنسان فيها مركزها، فالغايات المرجّوة من الأحياء عادة تتمركز في هذا الإنسان. والخالق الكريم سبحانه يحشّد جميع الأحياء حول الإنسان ويسخّر الجميع لأجله وفي خدمته، جاعلاً من هذا الإنسان سيداً عليها وحاكماً لها. فالخالق العظيم إذن لم يكتف باصطفاء الإنسان من بين الأحياء فقط،بل يجعله موضع إرادته ونصبَ اختياره.[١٩]

رؤية الكون في سياق نظرة مقصدية يسهم في تثبيت فكرة العدالة الكونية في النفس، يمكّن لمظاهرها العظيمة في الجوانب المادية والمعنوية من العقل والقلب.

---

(١٧) انظر سيرة ذاتية ٣٢
(١٨) انظر المكتوبات٣٤٧
(١٩) انظر المكتوبات

يضرب الأستاذ أروع الأمثلة لتحقيق ذلك الهدف، فيذكر بأسلوب تربوي لافت للانتباه؛ فيقول:انظر أيها الإنسان المعاند إلى ما أظهره السلطان من معجزات متنوعة في سائر الأماكن، فما رأيته هنا في المعرض، أوفي الميدان، أوفي القصر، من الأمور العجيبة له نماذج في كل مكان، إلاَّ أنه يختلف من حيث الشكل والتركيب، أيها المعاند ، أنعم النظر في هذا، لترى مدى ظهور اِنتظام الحكمة، ومبلغ وضوح إشارات العناية، ومقدار بروز أمارات العدالة، ودرجة ظهور ثمرات الرحمة الواسعة، في تلك القصور المتبدّلة، وفي تلك الميادين الفانية، وفي تلك المعارض الزائلة. فَمَن لم يفقد بصيرته يفهم يقيناً أنه لن تكون - بل لا يمكن تصور - حكمة أكملَ من حكمة ذلك السلطان ولا عناية أجملَ من عنايته، ولا رحمة أشمل من رحمته، ولا عدالة أجلّ من عدالته.... إنكار ذلك حماقة فاضحة، كحماقة من يرى ضوء الشمس وينكر الشمس نفسَها في رابعة النهار! ويلزم أيضاً القول بأن القائم بما نراه من إجراءات تتسم بالحكمة وأفعالٍ ذات غايات كريمة وحسنات ملؤها الرحمة إنما يلهو ويعبث ويغدر - حاشاه ثم حاشاه - وما هذا إلا قلب الحقائق إلى أضدادها، وهو المحال باتفاق جميع ذوي العقول غير السوفسطائي الأبله الذي يُنكِر وجودَ الأشياء، حتى وجودَ نفسه.[٢٠]

رابعا: التطعيم أو التحصين ضد الغفلة العامة

ينـدفع الإنسان إلى العمل بمقتضى القناعات المستفادة من المقاصد الشرعية، تلك القناعات المرتبطة بحكم لا حصر لها تحقق مجموعة لا حدّ لها من النتائج الإيجابية على تصرّف الإنسان، كالاستفادة منها في دفع الغفلة، فالحكمة المترتّبة عن المقاصد تدفع الغفلة العامة بتحقيق المراد من المقاصد نفسها في تصرّفات الإنسان، ولا ينال الإنسان المراد إلا إذا اكتشف طوره باكتشاف صلته بخالقه، وقبل ذلك معرفة خالقه الذي "لا يُسأل عما يفعلْ". فلا

(٢٠) انظر الكلمات٥٧

حقّ لشيء ولا لعلمٍ ولحكمةٍ اَن يَسأل عنه، إذ يتصرّف في مُلكه كيف يشاء وهو عليم حكيم. يعلم ما لا نعلم. فعدم علمنا بحكمةِ شيء لا يدلّ على عدمها. إذ شهود الحكمة في الأكثر المطلق شاهدٌ على وجود حكمة مستورة عنا هنا أيضاً.[٢١]، فوازن مثلا بين الأهلية والوحشية كَيْ ترى بعض حكمها ظاهرةً باهرةً.[٢٢]

لاحظ جيّدا حرصه على التنبيه العقلي والقلبي في قالب تذكير واحد، ولا شكّ أنّ الغرض الرئيس من التنبيه تحصيل دفع الغفلة وتأسيسا للحضور الباطني والظاهري للحقائق الإيمانية، وما يترتّب عليها من دفع الغفلة بجميع أبعادها وأنواعها (الفكرية والتربوية والاجتماعية...)

خامسا: المقاصد و صناعة الوعي الإيجابي:

تسهم معرفة المقاصد في صناعة وعي الإنسان بالكون ووظيفته إضافة إلى وظيفة الإنسان، نظره في الآفاق (الكون) والأنفس (الإنسان)، وفق المقاصد التي حدّدها له خالقه، فيكون المقصد في المسير شاحذا للّهمم ومنشّطا للعزائم، فيكتشف الإنسان قيمته بنسبة ماهيته.. وماهيته بدرجة همته.. وهمته بمقدار أهمية المقصد الذي يشتغل به.[٢٣] وبقدر علو المقصد تتعالى همّة الإنسان وتكبر وظيفته، إنّ الذي تسكن كيانه المقاصد السامية تصيّره بكرم الله ومنّه مرآة عاكسة للإسلام وحامي ثماره. ومثالاً مشخّصاً للأمة الإسلامية، إذ الهمّة تتعالى بعلو المقصد، والأخلاق تتسامى وتتكامل بغليان الحميّة الإسلامية.[٢٤] التي تصنعها المقاصد السامية في قلوب الملتزمين بمقتضياتها. وتنتهي بهم إلى مواقف اجتماعية تؤكّد التزامهم تجاه أمّتهم والأسرة الإنسانية. ذلك أنّ حياتهم التي تتوجه إلى مثل هذه الغايات المثلى، وهي الجامعة لمثل هذه الخزائن

---

(٢١) انظر المثنوي العربي ٤٤٦، ٤٥٠
(٢٢) المثنوي العربي النوري ٤٥١
(٢٣) صيقل الإسلام ٤٦٤
(٢٤) صيقل الإسلام ٤٦٤

القيّمة.. لا يليق عقلاً وإنصافاً أن تُصرف في حظوظ تافهة، تلبية لرغبات النفس الأمّارة، واستمتاعاً بلذائذ دنيوية فانية، فتهدر وتضيّع بعد ذلك.(٢٥)

سيدفع الإنسان إلى التعلّق بالمعالي إذا تمثّل ظاهرا وباطنا المقاصد الجليلة، وخاصة إذا نظر إليها من زاوية السرّ في وفرة الأجهزة التي منحت له وغناها، "إنّ حواسَّ الإنسان ومشاعره قد اكتسبت قوةً ونماءً وانكشافاً وانبساطاً أكثر، لما يملك من الفكر والعقل، فقد تبايَن كثيراً مدى استقطاب حواسه، نظراً لتباين وكثرة احتياجاته. لذا تنوعت أحاسيُسه وتعددت مشاعرُه.. ولأنه يملك فطرةً جامعةً فقد أصبح محوراً لآمالٍ ورغباتٍ عدة ومداراً للتوجّه إلى مقاصدَ شتّى..

ونظراً لكثرة وظائفه الفطرية فقد انفرجت أجهزتُه وتوسّعت.. وبسبب فطرته البديعة المهيّأة لشتى أنواع العبادة فقد مُنح استعداداً جامعاً لبذور الكمال، لذا لا يمكن أن تُمنح له هذه الأجهزة الوفيرة إلى هذه الدرجة الكثيفة لتحصيل هذه الحياة الدنيوية المؤقتة الفانية فحسب، بل لابدّ أنّ الغايةَ القصوى لهذا الإنسان هي أن يفي بوظائفه المتطلّعة إلى مقاصدَ لا نهاية لها، وأن يعلن عجزَه وفقره بجنب الله تعالى بعبوديته، وأن يرى بنظره الواسع تسبيحات الموجودات، فيشهد على ذلك ويطّلع على ما تمدّه الرحمة الإلهية من إنعام وآلاء فيشكر الله عليها، وأن يعاين معجزات القدرة الربانية في هذه المصنوعات فيتفكر فيها ويتأمّل وينظر إليها نظر العبرة والإعجاب.(٢٦)

تعلّق الإنسان بالمقاصد حين مباشرة العيش في الدنيا يسعفه في تجاوز الضغوط التي تعترض طريقه، فإذا اشتد خناق الأمراض وألوان الغربة وأنواع الظلم عليه، ووجد أنّ علاقاته تنفصم مع الدنيا، اكتشف أنّ مقصد الإيمان في مجمل مضامينه وتجلياته - وخاصة التوحيد والنبوة والحشر - يرشده بأنّه مرشّح لدنيا أخرى أبدية، وأنّه مؤهل لمملكة باقية وسعادة دائمة، ففي هذه الأثناء يترك

(٢٥) انظر الكلمات ١٤٠
(٢٦) الكلمات ٣٦٧

كلّ شيء تقطر منه الحسرة ويجعله يتأوه ويتأفف، وأبدله بكلّ ما يبشّر بالخير والفرح ويجعله في حمدٍ دائم. ولكن أنّى لهذه الغاية أن تتحقق وهي غاية المنى ومبتغى الخيال وهدف الروح ونتيجة الفطرة، إنّه لا طريق لتحصيلها إلاّ بقدرة القدير المطلق الذي يعرف جميع حركات مخلوقاته وسكناتهم قولاً وفعلاً، بل يعرف جميع أحوالهم وأعمالهم ويسجّلها كذلك. وأنّى لها أن تحصل إلاّ بعنايته الفائقة غير المحدودة لهذا الإنسان الصغير الهزيل المتقلّب في العجز المطلق حتى كرّمه، واتخذه خليلاً مخاطباً، واهباً له المقام السامي بين مخلوقاته[٢٧].

١ - تنبيه المخاطب

يتميّز الأستاذ بديع الزمان باستعمال النصيحة والموعظة المعروضة في قالب يمزج بين مخاطبة العقل والعاطفة، لهذا يركّز على لفت انتباه القارئ أو المسترشد إلى النظر في الآفاق والأنفس تيسيرا لتبليغ المعاني التربوية بمختلف أبعادها.

يخاطب قلب الإنسان وعقله، فيخاطبه في كنف استحضار المقاصد التي يتوخى خالقه تنبيهه إليها، ذلك أنّك أيّها الإنسان إن نظرت إلى الكون في كنف المقاصد تتنبّه إلى الشواهد الجزئية المتناثرة في الكتاب المنظور (الكون) بطريقة حكيمة، تؤيّدها الشواهد المبثوثة في الكتاب المسطور (القرآن الكريم)، "فهذه الخواتيم القرآنية التي تُمهَرُ بها الآيات مع تأييدها لآياتها، ترفع رأس المخاطب من الجزئي المشتّت غلى الكلي البسيط الواضح، ومن الجزء المفصّل إلى الكلّ المجمل. وتوجِّه نظره إلى المقصد الأعلى.." [٢٨].

٢ - التخلّق بالأخلاق الإلهية

النظرة المقصدية للكون والحياة وفق التصوّر الإسلامي المستفاد من رسائل النور تسعف متبنيها على تبني الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية، فتتعلّق الهمم بالتخلّق بالأخلاق الإلهية، "التي تعني التحلي بالسجايا

(٢٧) اللمعات ٣٨٩
(٢٨) المثنوي العربي النوري ٢٦٧

السامية والخصال الحميدة - التي يأمر بها الله سبحانه - وأن يعلم الإنسان عجزَه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى.[٢٩] ويتوكّل عليه حق التوكّل، التوكّل الذي يعني أخذ الأسباب، ذلك أنّ التوكل في ترتيب المقدمات كسل، بينما تفويض الأمر إلى الله في ترتّب النتيجة توكل يأمر به الشرع.[٣٠]

٣ - **التنبيه العلمي والمنهجي**

أ - **الكشف عن أهمية الكتاب الكريم**

ترمي المقاصد إلى إعادة القرآن الكريم إلى صدارة مصادر التوجيه المعرفي والمنهجي، إذ العلاقة بين المقاصد ومصدرها الأصلي والأساسي وثيقة لا تنفك، بحيث يعد فقده سببا في فقد أثر المقاصد نفسها في حياة الإنسان أو على الأقل يكون تغييبه سببا في اختلاف الأقوال والرؤى في مقاصد وجود الإنسان، لهذا كان حضور المقاصد في وعي المسلم حضورا للتوحيد في مضامينه المعرفية (توحيد المعارف التي تسعف في استيعاب الرؤية للآفاق والأنفس) من هنا يعمل على عودة القرآن إلى صدارة التوجيه، لأن "وجود ذلك المعلم الأستاذ الذي نشاهده ونسمع خطابه، إذ لولاه لذهبت تلك المقاصد هباء منثوراً، كالكتاب المبهم الذي لا يُفهم معناه، ولا يبينه أستاذ، فيظل مجرد أوراق لا معنى لها!.."[٣١]، ولهذا يمثّل القرآن الكريم مصدرا معرفيا أساسيا في معرفة مقاصد الخالق في خلق الخليقة من جهة، ووسائل تحقيق تلك المقاصد من جهة أخرى.

---

(٢٩) انظر الكلمات٦٤٢
(٣٠) انظر اللمعات ٨٧٠
(٣١) انظر الكلمات ١٣٢

ب - التنبيه إلى البعد المنهجي

ترمي رسائل النور في مقاصدها الفرعية إلى التربية المنهجية لطلاّبها، حتى ليغدو بالنسبة إليها التعلّق بالتفكير المنهجي من متطلّبات المقاصد الكلية من جهة مضمونها ثم من جهة تبليغها وتمكينها في المجتمع، لهذا تقرر الرسائل أنّ وسيلةً حقة (ولو كانت في باطل) غالبةٌ على وسيلةٍ باطلة (ولو كانت في الحق).[٣٢]

كما أنّه من الرتبة المنهجية أن يتعلّق الإنسان بالأسباب الموجبة لإيجاد النتائج المرتبطة بها ارتباطا سننيا (منطقيا)، فلا نرمي إلى الصعود باتّخاذ طريق النزول أو العكس، كما أننا لا يمكن أن نفتّش عن الفعالية بغير سبلها الموضوعية والسننية، الفعالية ترجع إلى التضحية والتضحية مصدر قوّتها القوة المعنوية التي توجبها، وبهذا الصدد يتساءل الأستاذ النورسي: "ما الحكمة في القوة المعنوية في تحمل هذا المضحي، لأشد الظلم النمرودي من أعداء الوطن والدين المستترين، وفي عدم مواجهته القوة المادية بالرد المادي التخريبي؟ فها أنا أعلن لكم ولأهل الوجدان كلهم جميعاً: إنّ القرآن الحكيم قد علّمه ذلك لأجل ألا يتضرر تسعون بريئاً بسبب زنادقة ملحدين نسبتهم عشرة في المائة، ومن أجل المحافظة على الأمن والنظام في الداخل بقوّته كلّها، ومن أجل نصب حارس في قلب كل إنسان بدروس النور. ولولا ذلك، لانتقمتُ في يوم واحد من أعدائي الذين ظلموني مدة ثمان وعشرين سنة.لهذا لا ترى الأستاذ مدافعا ضد من يهين عزته وكرامته حفاظاً على الأمن من أجل الأبرياء، ويقول: أنا مستعد للتضحية بحياتي الدنيوية من أجل ملة الإسلام، بل حتى بحياتي الأخروية إن لزم الأمر."[٣٣]

---

(٣٢) انظر اللمعات ٨٧١

(٣٣) سيرة ذاتية ٤٦٣

٤ - السننية في التفكير

النظر بعيني العقل والقلب في المقاصد المطلوبة أو المرسومة، يسعف المتأمّل في التأسيس للتفكير السنني، لحمة التفكير المنهجي، من هنا كان النظر في المقاصد بعين التأمّل مسعفا رئيسا في التأسيس للتفكير المنهجي، مثاله الامتثال والطاعة لقانون التكامل والرقي للصانع الجليل - الجاري في الكون على وفق تقسيم الأعمال - فرض وواجب، إلاّ أن الطاعة لإشارته ورضاه سبحانه الكامنين في ذلك القانون لم يوف حقها.علماً أن يد عناية الحكمة الإلهية - التي تقتضي قاعدة تقسيم الأعمال - قد أودعت في ماهية البشر استعدادات وميولاً، لأداء العلوم والصناعات التي هي في حكم فرض الكفاية لشريعة الخلقة "[٣٤].

كما يستفاد التفكير المنهجي من التنبيه المستمر إلى وجوب استصحاب التحليل السنني في التعامل مع الظواهر بجميع أشكالها وأنواعها، وخاصة المتعلّقة بمسائل الدين، فمنها إشارته إلى أنّ مما يشوش أفكار الظاهريين، ويخلّ بخيالاتهم، اعتقادهم أن دلائل صدق الأنبياء عليهم السلام، محصورة ضمن خوارق العادات. واعتبارهم أن جميع أحوال رسولنا الكريم ﷺ وحركاته - أو معظمها - لا بد أن تكون خارقة. وهذا ما لا يسمح به الواقع، لذا لا يستقيم ولا يصلح لهم ما يتخيلون. إذ أن اعتقاداً كهذا غفلة عظيمة عن سر الحكمة الإلهية في الوجود، وعن تسليم الأنبياء عليهم السلام مقاليد الانقياد إلى قوانين الله الجارية في العالم."[٣٥]

أ - رؤية أثر الحكمة

كما يسهم النظر إلى الكون - بما يتوزّع عليه من مقاصد كلّية وجزئية - في التأسيس لرؤية الحكمة الفائقة في الأفراد والجماعات بل وكل عناصر الكون

---

(٣٤) سيرة ذاتية ٥٠٣

(٣٥) صيقل الإسلام/محاكمات - ص: ٦٥

المادية والمعنوية، " أنظر، كيف تُنجز الأعمال هنا بحكمة فائقة وبانتظام بديع، وتأمّل كيف يُنظر إلى المعاملات بمنظار عدالةٍ حقّة وميزانٍ صائب."[(٣٦)]

ب - تيسّر تفسير سير الحياة وتنظيم الكون

تيسّر نظرة المقاصد المستفادة من القرآن الكريم المبثوثة في رسائل النور تفسير سير الكون فضلا عن نشأته ومصيره، فالنظر إليه في إطار المقاصد يؤكّد أنّ جميع عناصر الكون ومظاهرها المادية والمعنوية إنّما جعلت لخدمة الإنسان، لأنّ الإنسان هو أشرف الأسباب وأوسعها اختياراً وأشملها تصرفاً في الأمور، وهو في أظهر أفعاله الاختيارية، كالأكل والكلام والفكر - التي كلّ منها عبارة عن سلسلة عجيبة وفي غاية الانتظام والحكمة - ليس له نصيب منها إلاّ واحداً من مائة جزء من السلسلة.[(٣٧)]

إنّ البشر ثمرٌ لهذه الكائنات، فهو المقصود الأظهر لخالق الموجودات. والقلبُ كالنواة، فهو المرآة الأنوار، لصانع المخلوقات من هذه الحكمة. فالإنسان الأصغرُ في هذه الكائنات هو المدار الأظهرُ للنشر والمحشر في هذه الموجودات، والتخريبِ والتبديلِ والتحويلِ والتجديد لهذه الكائنات."[(٣٨)]

من هنا كانت جميع الأثمار وما فيها من بذيرات، معجزات الحكمة الإلهية، إنّها مظهر خوارق الصنعة الإلهية، تمثّل هدايا الرحمة الإلهية، وهي في ذات الوقت براهين مادية للوحدانية، وبشائر الألطاف الإلهية في الدار الآخرة، وشواهد صادقة بأن خلاّقها على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم؛ ولفت النظر إلى أي فرع منها يؤكّد تلك الحقيقة الناصعة، لاحظ إن شئت البذور والأثمار، فستراها مرايا الوحدة في أقطار عالم الكثرة، ترى فيها الكثرة في الوحدة[(٣٩)]، والوحدة في الكثرة.

---

(٣٦) الكلمات٥٠
(٣٧) الكلمات ٧٢٧
(٣٨) الكلمات ٧٣٢
(٣٩) الكلمات ٧٣٣

إنّ النظر إلى الكون من زاوية المقاصد الشرعية يسهّل فهم المعطيات الكونية، فالبذورُ والأثمارُ، والحبوبُ والأزهارُ معجزاتُ الحكمة، وخوارقُ الصنعة.. هدايا الرحمة، وبراهينُ الوحدة، وشواهدُ لطفِه في دار الآخرة، وشواهدُ صادقة بأنّ خلاّقها على كل شيء قدير وبكلّ شيء عليم. قد وَسِع كلّ شيء بالرحمة والعلم والخلق والتدبير والصنع والتصوير. فالشمسُ كالبذرة، والنجمُ كالزهرة، والأرضُ كالحبّة، لا تثقل عليه بالخلق والتدبير، والصنُع والتصوير. فالبذور والأثمار مرايا الوحدة في أقطار الكثرة، إشاراتُ القَدَر، رموزاتُ القُدْرَة بأنّ تلك الكثرة من منبع الوحدة، تصدُرُ شاهدةً لوحدِة الفاطر في الصنع والتصوير. ثم إلى الوحدة تنتهي ذاكرةً لِحكمة الصانعِ في الخلق والتدبير، وتلويحات الحكمة بأنّ خالق الكلّ- بكُلِّية النَظَر إلى الجزئي- ينظُرُ ثَمَّ إلى جزئه، إذ إن كان ثمراً فهو المقصود الأظهرُ مِن خلق هذا الشجر[٤٠]

النظر في مقصد التوحيد المبثوث في الكتابين المسطور والمنظور، ييسّر فهم الكون واستيعاب معانيه وحكمه، بخلاف الشرك الذي يجعل الكون مستعصيا على الفهم، " فيا مَن له أدنى شعور - ولو كشعرة - هل يمكن مشاهدة هذه السهولة المطلقة في الجود المطلق في رخيصية مطلقة ومع شهود هذه الحكمة العامة في الانتظام المطلق، أن يستند خلق الشيء كهذه الرمانة مثلاً إلى أسباب جامدة، لكن تجلب جهازات أكثر الأشياء لتصنيع ذلك الشيء الواحد الذي هو مثال مصغر لكل تلك الأشياء، وأن لا تكون لهذه الرمانة غاية إلاّ أكلها في دقيقة للذة حيوانية."[٤١]

ويسعف النظر في الدلالات الجزئية على الحكمة نفسها المستفادة من النظر في الكون، أنظر مثلا، كيف تساعد الحكمة التي وظّفت رأس الإنسان في حواسه، بوظائف عديدة، لو خصّصت لكل وظيفة منها في رأس الإنسان مقدار

---

(٤٠) الكلمات ٧٣٢

(٤١) المثنوي العربي ٤٦٧

خردلة لصار رأس الإنسان كجبل الطور"[٤٢]، والأعجب أن ترى الحكمة نفسها في جميع مظاهر الكون المادي، فترى دقّة الصنعة في الرمانة التي منتهى غايتها أكلك في لحظة غفل، فمحال ظاهر أن يثمر رأسك جبلاً من الأثمار، وأن لا يثمر مثل الجبل إلاّ ثمرة كرأسك.إذ يلزم حينئذٍ جمع نهاية الحكمة مع نهاية العبثية، وهو من أمحل المحال وأبطل الباطل، بل تلك الرمانة، كأمثالها تضمنت قصيدة في بيان الأسماء الحسنى، فأفادت معانيها، فوفّت فتوفّت فدفنت من فيك فيك."[٤٣]

أبصر في نفسك والكون الذي حولك بالمقاصد المبثوثة فيه، فترى العَدل الحاكم، هو الحكمُ الفرد، هو العادل الحكيم.. إذ هو الذي أسّس بنيان الكائنات، بمسطر المشيئة، بالحكمة النظّامة، أصول حكمته رابطة الموجودات، ففصّل الموجودات بدستور القضاء، بقانون القدر، قوانين القدرة، خيّاطة الصور، لقامة المصنوعات، فنظّم الكائنات بناموس السُنّة، بقانون العادات، نواميس السنّة، قوانين العادة، نظّامة المخلوقات، " إذ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد " في الأرض والسموات.. بتلطيف الرحمة، بتكريم العناية.. قد زيّن الكائنات.. نواميس الرحمة.. دساتير العناية.. حسّانة المصنوعات وزينة الموجودات.. فنوّر الكائنات.. بجلوة الأسماء تجلّي الصفات.. تظاهرات الأسماء.. في جَلوات الصفات.. نوّارة الموجودات.. في الأرض والسموات.[٤٤]

نرى بين دلالة الحكمة على المقاصد ودلالة المقاصد على الحكمة تداخلا كبيرا، بحيث تكون كل واحدة منهما طريقا للأخرى فالزهر والثمر، والحب والبذر، معجزات الحكمة، هدايا الرحمة، براهين الوحدة، بشائر لطفه،في دار الآخرة، شواهد صادقة، بأنّ صانعها بكلّ شيء عليم، على كل شيء قدير، وسع

---

(٤٢) المثنوي العربي النوري ٤٦٧
(٤٣) انظر المثنوي العربي النوري ٤٦٧
(٤٤) المثنوي العربي النوري ٤٧٣

كل شيء بالرحمة والعلم، باللطف والتدبير.[٤٥]، فتشاهد كل نوع من آلاف الأنواع الأحياء التي تزيد على خمسين مليوناً على الكرة الأرضية، يلبس أقمصته المزركشة المنسقة ويبدّلها كل سنة، بل لا يبقى جناح واحد وهو عضو واحد من مئات أعضاء الذباب الذي لا يعد ولا يحصى، لا يبقى هذا العضو هملاً ولا سدىً بل ينال نور القصد والإرادة والحكمة. مما يدل على أن الأفعال والأحوال الجليلة للكرة الأرضية الضخمة - التي هي مهد ما لا يحد من ذوي المشاعر وحضارتهم ومرجعهم ومأواهم - لا تبقى خارج الإرادة والاختيار والقصد الإلهي، بل لا يبقى أي شيء خارجها، جزئياً كان أم كلياً[٤٦]. والنظر في الكتاب المسطور يؤكّد الحقيقة نفسها لقد تحوّلت بذلك النور حركاتُ الكائنات وتنوعاتُها وتغيراتُها من العبثية والتفاهة وملعبة المصادفة إلى مكاتيب ربانية، وصحائف آياتٍ تكوينية، ومرايا أسماء إلهية. حتى ترقّى العالمُ وصار كتاب الحكمة الصمدانية[٤٧]، كما أن النظر في مقصد التوحيد ييسّر لك فهم تلك الحكمة المتناثرة بإحكام في الكل.

تقرر أبعاد المقاصد أنّ للمقاصد السامية حال التزام بها آثارا عظيمة على الإنسان، كما أنّ الغفلة عنها أو إهمالها المطلق يأسر الإنسان بمقاصد تافهة تدمّر حياة الفرد والمجتمع، من هذا المنطلق نركّز على الآثار الإيجابية للعناية الفعلية بالمقاصد السامية، كما سنوضّح خطر إهمالها على الإنسان والمجتمع والأسرة الإنسانية.

سابعا: أهمية المقاصد في التأسيس للبعد الاجتماعي

١ - الكشف عن قيمة الإنسان:

قيمة المجتمع من قيمة الإنسان، والمجتمع الذي لا قيمة للإنسان فيه لا يعير أي قيمة للمجتمع، ومبنى تلك القيمة المقاصد التي تتوخّى الرسالة تحقيقها،

(٤٥) المثنوي العربي النوري ٤٧٥
(٤٦) الكلمة الرابعة عشرة ١٩٨
(٤٧) الكلمات ٢٥٧

فإذا كانت المقاصد إنسانية كان المجتمع المنشود إنسانيا، ذلك أنّ قيمة الإنسان في الرسالة تتعلّق بمقاصدها فيه، لأنّه لا يمكن أن يكون شيء موهوم مبدءاً لحقيقة خارجية. فنقطة الاستناد والاستمداد حقيقتان ضروريتان مغروزتان في الفطرة والوجدان، حيث إنّ الإنسان مكرّم وهو صفوة المخلوقات، فلولاهما لتردى الإنسان إلى أسفل سافلين، بينما الحكمة والنظام والكمال في الكائنات يردّ هذا الاحتمال"، فالمقاصد المتجلية في الكتابين المسطور (القرآن الكريم) والمنظور (الكون بما فيه الإنسان)، تكشف عن أهمية الإنسان بالنسبة لرسائل النور إضافة إلى البعد الإنساني في المسعى الاجتماعي من جهة والوظيفة الكلية للرسالة التي تمثّلها رسائل النور من جهة أخرى.

وترجع القوّة المعنوية في رسائل النور إلى وجود محفّزات موضوعية فاعلة في إيجاد دافعية فعل الخير وحمايتها، فمثلا، كما أن وجود الجنة والنار ضروري في الآخرة فإنّ الغلبة المطلقة ستكون للخير وللدين الحق في المستقبل، حتى يكون الخير والفضيلة غالبين في البشرية كما هو الأمر في سائر الأنواع الأخرى، وحتى يتساوى الإنسان مع سائر إخوانه من الكائنات، وحتى يحق أن يقال في حقّه: " أنّه قد تحقق وتقرر سرّ الحكمة الأزلية في النوع البشري أيضاً."(٤٨)

٢ - طريق جلب السعادة الدنيوية:

من بين الأهداف التي ترمي إلى تحقيقها المقاصد بطريقة موضوعية، التأسيس لفاعلية حياة الإنسان المسلم من خلال ربطها بالمقاصد مع تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك المسعى، ولعلّ من الأهداف السامقة التي خدمتها مجموع المقاصد الكلية والفرعية رسم طريق جلب السعادة الأبدية كهدف نهائي للمسير البشري.

يعود ما ناله المسلمون عربا وعجما من سعادة دنيوية إلى تسليم أمرهم لله تعالى والرضا بقضائه وقدره، فقد كانوا يرون الحكمة في المقاصد الكلية، ويتلقّون دروس العبرة من الحوادث بدلاً من الرهبة والهلع منها.(٤٩)

---

(٤٨) صيقل الإسلام٥٠٤
(٤٩) صيقل الإسلام٥١٩

٣ – عنصر قوّتنا المادية والمعنوية:

تعدّ المقاصد الأصلية الخلفية النظرية لعنصر قوّتنا وفعاليتنا المادية والمعنوية في الحياة المعيشة، فمرد شجاعتنا وبطولاتنا على مرّ التاريخ التزامنا بمضامين الأوامر الإلهية، وقد ثبت ذلك بمنطوق القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح، وأيّدتها التجربة والحكمة الموزّعة كالدرر المنتظم في مساحات الكون المترامية الأطراف، إنّ راية الإسلام والتوحيد التي بين أيدينا على مرّ التاريخ كانت سببا قويّا في شجاعتنا وبطولاتنا[٥٠] المتناقلة جيلا عن جيل.

٤ - اكتشاف حكمة الوظيفة:

قراءة المقاصد بعين القلب والعقل يسمح باكتشاف حكمة وظيفة الإنسان على الأرض، لأنّه"لما توجّه نوع البشر نحو المستقبل سأل فن الحكمة المرسل من قبل الكائنات، ومن جانب حكومة الخلقة مستنطقاً: يا بني آدم!من أين؟ وإلى أين؟ ما تصنعون؟ من سلطانكم؟ من أين مبدؤكم وإلى أين المصير؟. فبينما المحاورة، إذ قام سيد نوع البشر محمد ﷺ وخطيبهم ومرشدهم: أيها السائل نحن معاشر الموجودات أتينا بأمر السلطان الأزلي، مأمورين ضمن دائرة القدرة الإلهية، وقد ألبسنا واجب الوجود المتصف بجميع صفات الكمال، وهو الحاكم الأزلي، حلة الوجود هذه، ومنحنا استعداداً هو رأسمال السعادة.. ونحن معاشر البشر ننشغل الآن بتهيئة أسباب تلك السعادة الأبدية.. ونحن على جناح السفر، من طريق الحشر إلى السعادة الأبدية. فيا أيتها الحكمة اشهدي وقولي مثلما ترين، ولا تخلطي الأمور بالسفسطة."[٥١]

ولا يتوقّف الأمر عند اكتشاف البعد الوظيفي بل يتعدّاه بالتنبيه إلى أصول السعادة الأبدية المخزونة في الالتزام بتلك المقاصد السامية، لأنّ لا يلتئم قبول

---

(٥٠) انظر صيقل الإسلام ٥٤٠

(٥١) صيقل الإسلام ١٥٨

العبث في الكون مع الثابت بشهادة العقل والحكمة والاستقراء ذلك النظام المتكامل الدال على السعادة الأبدية، لأنّ العدم يحيل كل شيء إلى العبث.[٥٢].

٥ - التعرّف على الحكمة

لا يكون النظر إلى الكائنات نظر حكمة، إلاّ إذا أبصرها الإنسان في إطار رؤية مقصدية، تحتكم إلى المقاصد المبثوثة في جميع مظاهر الكون، تلك النظرة التي تجعلك ترى الدنيا كأنّها شجرة عظيمة متناغمة، فكما أنّ الشجرة لها أغصان وأوراق وأزاهير وثمرات، ففي العالم السفلي - الذي هو شقّ من شجرة الخلقة - تشاهد أيضاً أنّ العناصر بمثابة أغصانه، والنباتات والأشجار في حكم أوراقه، والحيوانات كأنها أزاهيره، والأناسي كأنهم ثمراته، فالقانون الإلهي الجاري على الأشجار يلزم أن يكون جارياً أيضاً على هذه الشجرة العظمى، وذلك بمقتضى اسم الله "الحكيم"، لذا فمن مقتضى الحكمة أن تكون شجرة الخلقة هذه ناشئة أيضاً من نواة، وأن تكون النواة جامعةً نماذج وأسس سائر العوالم فضلاً عن احتوائه على العالم الجسماني، لأنّ النواة الأصلية للكائنات المتضمنة لألوف العوالم ومنشأها لا يمكن أن تكون مادة جامدة قط.[٥٣]

مفسدات فاعلية المقاصد

لا يستفيد المرء من معرفة المقاصد الحقّة من الخليقة ما لم يتحرّر عقلا وقلبا من مجموعة من المكدّرات المعنوية والمادية، لهذا لا تنفع المعرفة المجملة أو التفصيلية للمقاصد بتمكّن تلك المنغّصات من قلوب وعقول المكلّفين، بل ينبغي أن يحرر مدركها من الوقوع تحت طائلة موانع الاستفادة من إدراك تلك المقاصد الشرعية.

ذكر الأستاذ مجموعة لا يستهان بها من صوارف البال عن القراءة الموضوعية والإيجابية للكون والحياة، ولو أطلق الباحث لنفسه عنان بحثها

---

(٥٢) صيقل الإسلام١٦٠

(٥٣) الكلمات ٦٩٢

واستقصائها لما وسعته المجلّدات الطوال، لهذا سنقتصر في هذه العجالة على بعضها.

١ - النظر إلى الكون من زاوية الشرك:

يبطل الانتفاع بالمقاصد إذا نظر إلى الكون من زاوية الشرك، ذلك أنّ التدخّل العشوائي للشرك في أي موجود من الموجودات - مهما كان جزئياً - وفي أي كائن حي - مهما كان بسيطاً أو صغيراً - يفسد تلك الغايات، ويبطل تلك المقاصد، ويصرف الأذهان عن تلك الغايات، وعمن أرادها وقصدها، إلى الأسباب. وهذا ما يخالف ماهية الربوبية المطلقة تماماً ويعاديها. فلابد إذاً أن تمنع هذه الربوبية الواحدة المطلقة الشرك وصوره بأي شكل من الأشكال، فإرشادات القرآن الكريم الغزيرة المستمرة إلى التوحيد، وإلى التقديس والتنزيه والتسبيح، في آياته الكريمة، وفي كلماته، وحتى في حروفه وهيئاته، نابعة من هذا السر الأعظم.[٥٤]

تخيّل أنّه قيل للأرض التي هي جندي في جيش السماوات: ففي لا تتدخلي في أمر التناغم المحدد للوظيفة الجزئية في الإطار الكلي الشامل للمنظومة الفلكية، وأُحيل استحصال نتيجة الانتظام وذلك الوضع إلى السماوات نفسها، وسُلكت طريق الكثرة والشرك بدل الوحدة، يلزم عندئذٍ أن تقطع ملايين النجوم كل منها أكبر بألوف المرات من الكرة الأرضية، أن تقطع كل يوم وكل سنة مسافة مليارات السنين في أربع وعشرين ساعة.[٥٥]

ولا يبعد الكفر والمعصية عن أثر الشرك بسبب بعدهما عن المقاصد المعنوية والمادية الخاصة والعامة، إنّ الكفر والمعصية نوع من العدم والتخريب، فيمكن أن يحركهما الجزء الاختياري بأمر اعتباري، فيسببان نتائج مريعة. لأن الكفر وإن كان سيئة واحدة، إلاّ أنّه تحقير لجميع الكائنات بوصمها بالتفاهة

---

(٥٤) الشعاعات ١٩٤

(٥٥) انظر المكتوبات ٣٣٣

والعبثية، وتكذيب لجميع الموجودات الدالة على الوحدانية، وتزييف لجميع تجلّيات الأسماء الحسنى. فإنّ تهديده سبحانه وتعالى وشكواه باسم الكائنات قاطبة، والموجودات كافة والأسماء الإلهية الحسنى، كلّها من الكافر شكاوى عنيفة وتهديدات مريعة هو عين الحكمة وأنّ تعذيبه بعذاب خالد هو عين العدالة.(٥٦)

إنّ الكفر والضلالة تجاوز شنيع وتعدّ رهيب، وجريمة تتعلّق بجميع الموجودات. ذلك لأنّ أهل الكفر والضلالة يرفضون الغاية السامية لخلق الكائنات التي نتيجتها العظمى عبودية الإنسان وتوجّهه بالإيمان والطاعة والانقياد للربوبية الإلهية. فإنكارهم هذه النتيجة العظمى للكون - التي هي العلّة الغائية وسبب بقاء الموجودات - نوعٌ من تعدٍ على حقوق جميع المخلوقات.(٥٧)

٢ - حصر الهمّة في الاستفادة الشخصية:

يقوم الكون في عناصره المادية والمعنوية على التناغم الكبير بينها، ذلك التناغم الذي يرجع في كثير من عناصر فاعليته إلى شمول عناصره والتكامل بينها وفق جعل الله لها، لهذا تستحيل الاستفادة الاجتماعية من معرفة المقاصد إذا فَنيَ المستفيد في جهة استفادته وحصر ذهنُه في طريقها وينسى ما عداها وينظر إلى كل شيء لنفسه ويحصر العلة الغائية على ما يتعلق به، فإذاً لا مجازفة في الكلام الموجَّه إلى ذلك الشخص في مقام الامتنان بأن يقال: إنّ زحل الذي أبدعه خالقه لألوفِ حِكَمٍ، وفي كل حكمة ألوفُ جهاتٍ، وفي كل جهة ألوفُ مستفيدٍ العلة الغائية في إبداعه جهة استفادة ذلك الشخص(٥٨)، ومن هنا كان الإنسان من أظلم الخلق، فانظر ما أشدّه ظلماً ! فلشدّة حبّه لنفسه لا يعطي الأشياء قيمة إلاّ بمقدار خدمتها لنفسه، وينظر إلى ثمرتها بمقياس نفعها له،

---

(٥٦) الكلمات ٥٤٤

(٥٧) اللمعات ١٢٨

(٥٨) انظر إشارات الإعجاز ٢٢٤

ويظن العلّة الغائية في الحياة عين الحياة. متغافلا في ذلك عن مبادئ رئيسة مؤدّاها أنّ للخالق في كلّ حيّ حِكَماً تدق عن العقول.[٥٩]

٣ - التعلّق بالدنيا ومفاتنها

التعلّق بالدنيا يمنع من رؤية المقاصد الموزّعة بإحكام على الكون بعناصره المختلفة، إنّ المبتلى بحبّ هذه الحياة يحسبَ أنّ العلة الغائية في الحياة وبقائها، وأنّ كل ما أودعته القدرة الأزلية في جوهر الإنسانية وذوي الحياة من الجهازات العجيبة والتجهيزات الخارقة، إنّما أعطاها الفاطر الحكيم لحفظ هذه الحياة السريعة الزوال، ولأجل البقاء. كلا ثم كلا!. إذ لو كان بقاء الحياة هو المقصود من كتاب الحياة، لصار أظهر وأبهرُ وأنورُ دلائل الحكمة والعناية والانتظام وعدم العبثية بإجماع شهادات نظامات الكائنات، أعجَبَ وأغربَ وأنسَب مثال العبثية والإسراف، وعدم الانتظام وعدم الحكمة. كمثل شجرٍ - كجبل - ليس لها إلاّ ثمرة فردة كخردلة، بل يرجع إلى الحي من ثمرات الحياة وغاياتها بمقدار درجة مالكية الحي للحياة وتصرفه الحقيقي فيها. ثم سائر الثمرات والغايات راجعة إلى المحيي جل جلاله بالمظهرية لتجليات أسمائه، وبإظهار ألوان وأنواع جلوات رحمته في جنته في الحياة الأخروية التي هي ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية. [٦٠]

ويولّد التعلّق بالدنيا تبديل الغاية، فتصبح كالغاية المشهورة بين أهل الغفلة التي هي جهة استفادتنا منه، من الأكل وغيره، فأقل وأحصر، وأذلّ وأصغر من أن تكون غاية تامّة لخلقة الشيء، بل هي وسيلة إحدى غاياته.[٦١]

٤ - الإغراب في الأسلوب والمضامين

تلحق غرابة الأسلوب ضررا عظيما بالمقاصد والغايات النبيلة، فتكون سببا في عزوف الناس عن النظر إلى المقاصد نفسها، ولا يشفع لها سلامة النيات

(٥٩) المثنوي العربي النوري ٣١١
(٦٠) المثنوي العربي ١٩٣
(٦١) المثنوي العربي النوري ٤٦٦

وصحة الغايات، ذلك أنّ: "الانشغال بذلك المسلك الذي يفتح مغاليق تلك الأسرار الغيبية يلحق الضرر بالعمل لأسس الإسلام، لهذا كان العمل في مسلك الوضوح أهم من ذلك المسلك وأثمن منه وأقوم، وهو محور الحاجة العامة ويُسد الحاجة الماسة للجميع بالعمل لأسس الإسلام وهو خدمة خزينة الحقائق الإيمانية والاستفادة منها، من هذا المنطلق وُجّهنا إلى سلوك هذا الطريق، لأن الانشغال بذلك المسلك يجعل المرء يدع أعظم المقاصد وأجلّها - وهي الحقائق الإيمانية - في درجة تالية.[٦٢]

٥ - الابتعاد عن المقاصد الشرعية سبب في تذكية الصراع

الاختلاف في الالتزام بمقتضى المقاصد الشرعية كان وما يزال وسيبقى سببا في شرارة الفتن، ذلك أنّك لا تجد بين المتصارعين اتفاقا في المقصد ولا غاية، بل ليس على الكرة الأرضية نقطة تلاق لأفكارهم، ذلك لأنه ليس لأجل الحق، فترى فيه الإفراط البالغ دون حدود، مما يفضي إلى انشقاقات غير قابلة للالتئام. وحاضر العالم شاهد على هذا..[٦٣]

٦ - التأهّل لنيل العقوبة

يقع الإنسان جرّاء عدم انسجامه مع المقاصد الشرعية تحت طائلة استحقاق العقوبة الدنيوية والأخروية، لأن ذلك العاصي يستحق بلا ريب التهديد الرهيب كما يستحق أنواعاً من الوعيد المرعب[٦٤]، بسبب عدم التناغم مع المقاصد الشرعية في بعديها المادي والمعنوي.حتى تغدو المظالم التي يقترفها الإنسان عند خرقه الغاية من الخلق سببا في الغضب الإلهي والسخط الرباني، تلك المظالم التي تثير هيجان الكائنات والأرض والسماء والعناصر وتؤجج غضبها على مقترفيها.[٦٥]

---

(٦٢) الملاحق ١٤٨
(٦٣) المكتوبات ٣٤٨
(٦٤) الكلمات١٩١
(٦٥) انظر الشعاعات ٣٠٦ ، الكلمات ٥٢٩

٧ - التحوّل السلبي

"العقل عضو وآلة، إن لم تبعه - يا أخي - لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفس، فإنّه يتحوّل إلى عضو مشئوم مزعج وعاجز، إذ يحمّلك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ إلى درك آلة ضارة مشئومة، ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللّهو أو السكر إنقاذا لنفسه من إزعاجات عقله؟ ولكن إذا بيع العقل إلى الله، وأُستُعمل في سبيله ولأجله، فإنّه يكون مفتاحاً رائعاً بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فأينما ينظر صاحبه وكيفما يفكّر يرى الحكمة الإلهية في كل شيء، وكل موجود، وكل حادثة. ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشدٍ رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة".(٦٦)

الغفلة عن المقاصد الشرعية يوقع الإنسان فريسة لتحوّل - غير مقصود أحيانا - في الغايات والمقاصد، كاعتقاد عظماء الفلسفة وروادها ودهاتها، أمثال أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي بأن الغاية القصوى لكمال الإنسانية هي "التشبّه بالواجب"! أي بالخالق جلّ وعلا، فأطلقوه حكماً فرعونياً طاغياً، ومهّدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع من الشرك، أمثال:عَبدة الأسباب وعَبدة الأصنام وعبدة الطبيعة وعبدة النجوم، وذلك بتهييجهم "الأنانية" لتجري طليقة في أودية الشرك والضلالة، فسدّوا سبيل العبودية إلى الله، وغلّقوا أبواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المندرجة في فطرة الإنسان، فضلوا في أوحال الطبيعة ولا نجوا من حمأة الشرك كلياً ولا اهتدوا إلى باب الشكر الواسع.(٦٧)

---

(٦٦) الكلمات ٢٣
(٦٧) الكلمات ٦٤٢

إهمال المقاصد من الجماعة أو نسيانها يوقع الإنسان فريسة للأنانية، فتتحوّل الأذهان إلى أنانيات الأفراد وحامت حولها[٦٨] خادمة وخاضعة لمطالبها الآنية.

٨ - إهمال التكليف

المقاصد الكلية وضعت متكيّفة ومتناغمة مع معطيات الزمان وضرورات الظروف، وهذا يؤكّد بما لا يدع مجالا للشك أنّها وضعت في أصلها لمقاصد مرتبطة أساسا بحقائق التكليف، ذلك أنّ مقاصد التكاليف الشرعية طلب لتجلي المقاصد الكلية؛ فالمكلّف مطالب بتكييف نفسه مع الشريعة التزاما بأوامرها وتركا لما نهت عنه.

إنّ الغفلة عن المقاصد المبثوثة في الآيات المسطورة تكرّس إهمال التكاليف الشرعية المرتبطة أساسا بالابتلاء، ولمّا كان الابتلاء والاختبار من مقتضيات التكليف الإلهي المرتبط بالتأسيس للحرية - أساس التكليف - يرى الأستاذ أنّ المعجزة ليست مُرغِمةً على التصديق - أي سواء أراد الإنسان أم لم يرد -، ذلك أنّ سر الامتحان وحكمة التكليف يقتضيان معاً فتح مجال الاختيار أمام العقل من دون سلب الإرادة منه. فلو ظهرت المعجزة ظهوراً بديهياً ملزماً للعقل كما هو شأن البديهيات لما بقي للعقل ثمة اختيار، ولصدَّق أبو جهل كما صدّق أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ولانتفت الفائدة من التكليف والغاية من الامتحان، ولتساوى الفحم الخسيس مع الألماس النفيس[٦٩]، فالتسليم بالعدل الإلهي يفرض القول بالحرية ومقتضياتها المؤسسة لقبول فكرتي الحساب والعقاب.

الخاتمة:

حياتنا الاجتماعية والتربوية والفكرية غنية بنماذج الانفعال الكلامي و"الفعالية الكلامية"، ولكنّها – للأسف - بعيدة عن الفعالية الإيمانية المتجلية

---

(٦٨) انظر اللمعات٨٥١، المكتوبات٤١
(٦٩) المكتوبات ١١٨

في شعاب الحياة بكل مكوناتها (الاجتماعية، التربوية، الاقتصادية، السياسية، الرياضية،... الحضارية)، من هنا كان موضوع الفعالية الإيمانية المنبعثة من التشبُّع بمقاصد رسائل النور قلبيا وعقليا ونفسيا، فكرة حَرِيَة بالبحث والعناية، ولو لم يكن منه إلاّ بيان التوحيد والنبوة وطريق العروج للآخرة، لكان طريقا مُعَبَّدا للإحداث الفعالية الإيمانية في حياة المسلم، ويزيد المرء المسلم اندفاعا في هذا المسلك حين يعلم أنّ له أهمية معاينة لشحذ الهمم وصناعة الحضارة والتشجيع على البذل المستمر بإيجاد دافع التضحية، وتحمّل تبعات السير في مسلك الإيمان، ولا يحقق هذا المقصد إلاّ بالتطعيم أو التحصين ضد الغفلة العامة، وبهذا يسهم في صناعة الوعي الإيجابي، بتنبيه المخاطب، وتذكيره بضرورة التخلّق بالأخلاق الإلهية، وتمكينا لهذه المعاني تربي المقاصد المتشبّع بها على التنبُه العلمي والمنهجي، من خلال الكشف عن أهمية الكتاب الكريم، وسننية في التفكير بما ييسر رؤية أثر الحكمة، وتيسير تفسير سير الحياة وتنظيم الكون بيُسْر.

ومجموع ما سبق طريق بعث البعد الاجتماعي من خلال الكشف عن قيمة الإنسان، وتعريفه طريق جلب السعادة الدنيوية، وتعويده على اكتشاف عنصر قوّته المادية والمعنوية، وحكمة وظيفته في الكون، ومن ثمَّ التعرّف على الحكمة.

يتعيّن للحفاظ على الفعالية الإيمانية معرفة ما من شأنه إفساد تلك الفعالية، فحذّر من النظر إلى الكون من زاوية الشرك، أو حصر الهمّة في الاستفادة الشخصية، أو التعلّق بالدنيا ومفاتنها، كما يمكن أن يكون الإغراب في الأسلوب والمضامين مانعا من تحقيق الفعالية الإيمانية، ولا يبعد عنه الابتعاد عن المقاصد الشرعية لأنه سيكون سببا في تذكية الصراع والتأهّل لنيل العقوبة وسبيلا للتحوُّل السلبي المولّد لإهمال التكليف.

العدالة والسعادة

مقاربة لمفهوم المجتمع الفاضل
بين النورسي والفارابي والترمذي
على ضوء مقاصد الشريعة

د. خالد زَهْري
الخزانة الحسنية، الرباط

تـوطئـــة

تعتبر فكرة العدالة من أهم المقاصد العامة، التي تأسست عليها نظريات بديع الزمان النورسي. بيد أن هذه الفكرة، اختلفت؛ في تصوُّره؛ عن غيره من العلماء والمفكرين، لأنها اتخذت بُعْدا واقعيا، وأيضا ذوقيا عرفانيا، يصبو إلى إقامة مجتمع فاضل، يعيش فيه الإنسان الفاضل، ويتحقق فيه بالقرآن الكريم، قلبا وقولا وسلوكا.

إن فكرة العدالة، عند النورسي، تكاد تكون محاولة لإعادة الاعتبار لنظرية المدينة الفاضلة عند الحكيم الترمذي، بتجسيدها واقعا، وجعلها حقيقة ماثلة تعبر عن الشهود الحضاري للأمة الإسلامية.

فهل نجح النورسي في فكرته حول المدينة الفاضلة فيما فشل في تحقيقه أبو نصر الفارابي، الذي ظلت نظريته حبيسة الكتب الفلسفية؟

وهل كان النورسي أعمق في نظريته المقاصدية، بجعله الإنسان العادل؛ على غرار الحكيم الترمذي؛ هو محور المدينة الفاضلة، على النقيض من أبي نصر الفارابي الذي جعل محورها الإنسان الفيلسوف؟

وهل يمكن لنظرية النورسي أن تكون نبراسا لنا في واقعنا الحالي لبناء مجتمعات فاضلة يسودها السلم ويغمرها السلام؟

وكيف وظف النورسي مقاصد الشريعة في التنظير للعدالة والمجتمع الفاضل؟

هذه الأسئلة؛ وغيرها؛ سيتولى هذا البحث الإجابة عنها والتفصيل فيها.

محورية الإنسان في المجتمع الفاضل عند النورسي

يقول بديع الزمان سعيد النورسي: "إنه واضح جلي كوضوح النبات نفسه، وجميل كذلك كجمال النبات نفسه، تلك التسبيحات، التي يهمس بها كل نبات، في إشراق تبسمه، عند تفتح زهرة، ونضج ثمرة، وتسنبل سنبلة، لأنه بالثغر الباسم لكل زهرة، وباللسان الدقيق للسنبل المنتظم، وبكلمات البذور الموزونة، والحبوب المنسقة، يظهر النظام، الذي يدل على الحكمة[(١)].

"وهذا النظام، كما هو مشاهد في ثنايا ميزان دقيق حساس، يدل على العلم، ويبينه، ويبرزه. وذلك الميزان، هو ضمن الصنعة الدقيقة، التي تدل على المهارة الفائقة، وتلك الصنعة الدقيقة والنقوش البديعة، هي الأخرى، ضمن الزينة الرائعة، التي تبين اللطف والكرم. وتلك الزينة البهيجة، هي بدورها معبقة بالروائح الطيبة الفَوَّاحة، والعطور الزكية اللطيفة، التي تظهر الرحمة والإحسان"[(٢)].

ويقول: "أَمِنَ الممكن لحفيظ ورقيب، يحفظ بانتظام وميزان، ما في السماء والأرض، وما في البر والبحر، من رطب ويابس، فلا يغادر صغيرة، ولا كبيرة، إلا أحصاها، أن لا يحافظ، ولا يراقب أعمال الإنسان، الذي يملك فطرة سامية، ويشغل رتبة الخلفة في الأرض، ويحمل مهمة الأمانة الكبرى؟! فهل يمكن أن لا يحافظ على أفعاله، التي تمس الربوبية؟! ولا يفرزها بالمحاسبة؟! ولا يزنها

---

(١) الحكمة، عند النورسي، ملازمة للرحمة، والعناية، والعدالة.

(٢) كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط. ٤، ٢٠٠٤، ج. ١ (الكلمات)، ص. ٨٠٣.

بميزان العدالة؟! ولا يجازي فاعلها بما يليق به من ثواب وعقاب؟! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا"[٣].

نستشف من هاتين القبيستين أن المجتمع الفاضل، عند بديع الزمان النورسي، ليس فلسفة عائمة في الفضاء، ولا نظرية بعيدة عن التحقق، وإنما تستمد مشروعيتها من مقاصد القرآن والسنة، ومن النظام البديع والمحكم لهذا الكون.

لقد حَثَّنا القرآن الكريم، على ضرورة التأمل في هذا الكون، والبحث عن القوانين والسنن، التي تضبط مساره، ليس فقط لأجل التأمل، والتفلسف النظري، وإنما ليكون ذلك وسيلة لبناء المجتمع الفاضل، الذي يسير نظامه بإحكام وجمال، على غرار نظام الكون، وتبنى أركانه على المقاصد العامة، التي جاءت بها الشرائع، ولم تُمارِ فيها العقول.

وهنا، يظهر لنا الفرق بين نظرية المدينة الفاضلة، عند أبي نصر الفارابي، وبديع الزمان النورسي.

فالأول كان يريد أن يؤسس مجتمعا فاضلا على نظرية الفيض، بمعنى أن يكون هناك تكامل بين الجدل النازل والجدل الصاعد، بأن يكون الترتيب القائم في المدينة الفاضلة متبعا لترتيب العقول، التي فاضت عن العقل الأول.

بينما يرى النورسي، أن المجتمع الفاضل، لا يمكن أن يكون ذا أثر ناجح وناجع، إلا إذا كان مؤسسا على غرار نظام الكون، والذي اقتفى فيه أثر ابن رشد[٤]، حينما استدل على وجود الله، من خلال التأمل في هذا الكون، بموجب دليل العناية ودليل الاختراع[٥]. إلا أن النورسي يسمي الدليل الأول "دليل العناية والغاية"[٦].

---

(٣) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٨١.
(٤) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد الأندلسي، منشور مع "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" للمؤلف نفسه، مطبعة الجمالية، القاهرة، ط. ٢، ١٣٢٨ / ١٩١٠، ص. ٤٥ – ٤٩.
(٥) المثنوي العربي النوري، ص. ٤٢٨ – ٤٣٠.
(٦) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٢٨.

ولا غرو أن نقرر، أن مصطلح "العناية"، عند الفلاسفة، يكاد يكون مرادفا لمصطلح "مصالح الخلق"، عند الفقهاء والأصوليين.

فبديهي أن يكون التنظير الفلسفي؛ عند النورسي؛ مخالفا للتنظير الفلسفي عند المعلم الثاني، لأن المدينة الفاضلة؛ عند الثاني؛ مبنية على أسس يونانية، وبالأخص على أسس أفلاطونية، تستمد عناصرها من "جمهورية أفلاطون". بخلاف صاحبنا، الذي أسس مشروعه على أسس من القرآن والسنة.

إن القرآن الكريم، دعانا إلى التأمل في الكون، لبناء أي مشروع حضاري، لا التأمل في المُكَوِّن، إلا بالقدر الذي يكون له تأثير عملي على صعيد الواقع.

ومن خلال القبيستين المنقولتين عن النورسي، يمكن أن نقول: إن المجتمع الفاضل؛ عنده؛ ينبني على المقاصد العامة التالية: النظام، والحكمة، واللطف والكرم، والرحمة والإحسان، والجمال.

بيد أن هذه المقاصد برمتها، يمكن إجمالها في مقصدين أساسين، هما:

- العدالة الحقيقية؛
- والحرية الشرعية(٧).

وكما أن المدينة الفاضلة قامت على أساس من النظر والتأمل في هذا الكون البديع والجميل، فإنها أيضا قيست؛ عند النورسي؛ بالآخرة(٨).

وهذا يوضح لنا مقصدا من أهم المقاصد، التي بُنِيَ عليها مشروع النورسي، وهو السعادة. بمعنى، أن السعادة، التي ينالها المؤمن في الآخرة، بدخول الجنة، يجب أن تكون مقياسا يقاس عليه السعي لتحقيق السعادة في الدنيا.

ولذا، نجده يربط ربطا لزوميا، بين "استنباط أوامر [الله] ونواهيه، من كلامه الجليل، والسعي لنيل وسائل الوصول إلى السعادة الخالدة، التي فتح أبوابها؛ إلى الأبد؛ القرآن الكريم، ونور النبوة الساطع"(٩).

---

(٧) كليات رسائل النور، ج. ٤ (الشعاعات)، ص. ٤٢٥ – ٤٢٦.

(٨) كليات رسائل النور، ج. ٥ (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز)، ص. ٦١.

وهذا يدل على أن المجتمع الفاضل؛ عند النورسي؛ ينبني على أسس إيمانية، بل يمكن أن نقول: إن المجتمع الفاضل؛ عند النورسي؛ يهدف إلى تحقيق مقصد أساس، وهو ربطه بالآخرة[١٠]، أي: بالمقاصد الأصلية[١١].

وهذا يؤكد الأبعاد القرآنية والنبوية، الحاضرة في مشروع النورسي، بحيث يمكن أن نلاحظ، أن أركان الإيمان، يجعلها أساسا لبناء المجتمع الفاضل. فقد ورد في الحديث: "الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"[١٢].

وهذا واضح في مشروع النورسي، فهو يرى، أن الإيمان بالملائكة وبالآخرة، يحقق هذه السعادة[١٣].

وهنا، تظهر محورية الإنسان في هذا المشروع، مما يجعل أول قيمة تؤخذ بعين الاعتبار فيه، هو قيمة الإنسان[١٤]، حيث يضعه في صورة مقابلة للفاتحة: "كالفاتحة للقرآن، والإنسان للعالم"[١٥].

---

(٩) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٥٦٣.

(١٠) ولهذا يؤكد، أن "ثمار العبادة وفوائدها أخروية" (كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٣٥٦).

(١١) انظر الكلام على "المصالح والمفاسد الأخروية"، في "المرافق على الموافق في مقاصد الشريعة" لماء العينين بن محمد فاضل بن مامين (منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي: ٢٠ – مطبعة بني زناسن، سلا، ط. ١، ٢٠٠٥، ص. ١٦٧ – ١٦٨)، وانظر أيضا الكلام على "المقاصد الأصلية، والمقاصد التبعية"، في "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي" لأحمد الريسوني (منشورات "المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مختارات من الرسائل الجامعية: ١)، واشنطن - مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. ١، ١٤١١ / ١٩٩١، ص. ٢٧٥ - ٢٨١).

(١٢) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن عمر بن الخطاب. ورمز إليه السيوطي بالصحة (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ١٤١٠ / ١٩٩٠، ج. ١، ص. ١٨٥، الحديث ٣٠٩٢. وانظر أيضا "فيض القدير شرح الجامع الصغير" لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط. ١، ص. ١٣٥٦ / ١٩٣٨، ج. ٣، ص. ١٨٤).

(١٣) كليا ت رسائل النور، ج. ٥، ص. ٢٧٧.

(١٤) كليات رسائل النور، ج. ٥، ص. ٢٢٢.

(١٥) كليات رسائل النور، ج. ٥، ص. ٥٢.

فكما أن الفاتحة لها موقع الصدارة، في كتاب الله المقروء، فالإنسان؛ كذلك؛ يحتل موقع الصدارة، في كتاب الله المشهود، والذي يسميه النورسي: "كتاب الكون"[١٦]، و"قرآن الكون"، و"القرآن الكوني"[١٧].

بل يذهب إلى أن العالم مخلوق لأجل الإنسان[١٨]، و"أن الإنسان هو خاتمة شجرة الكون، وأجمع ما فيها من الصفات، وهو بذرتها الأصلية، من حيث الحقيقة المحمدية، وهو الآية الكونية الكبرى لقرآن الكون، بل هو الآية الحاملة لتجليات الأمم الأعظم في ذلك القرآن الكوني كآية الكرسي في القرآن الكريم، وهو أكرم ضيف في قصر الكون [...] وهو خليفة الأرض، والمفتش الباحث في مملكة الأرض، والمرسل من لدن سلطان الأزل والأبد، والعامل تحت رقابته..."[١٩].

ولا جرم أن هذه النظرة، تمثل توسيعا لنظرية المقاصد. بمعنى، أن الشريعة، إذا كانت معللة بجلب المصلحة ودرء المفسدة، فإن الكون، بما هو شريعة مشهودة، معلل أيضا بهما.

وإذا كان أرباب المقاصد، يذهبون إلى أن قصد الشارع من المصلحة الدنيوية دالٌّ على "كمال النظام، في التشريع"[٢٠]، فإن النورسي، يوسع هذا المعنى، ليجعل نظام هذا الكون دال على المصلحة الأصلية، أي: مصلحة الآخرة. فـ "الحياة الأخروية، والسعادة الأبدية، هي التي جعلت هذا النظام نظاما فعلا، وأعطت له معنى. لذا، فنظام العالم هذا، يشير إلى تلك السعادة الأبدية، وحياة الخلود"[٢١].

---

(١٦) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٢٢.
(١٧) كليات رسائل النور، ج. ٤، ص. ٢٧٢.
(١٨) كليات رسائل النور، ج. ٥، ص. ١٦٢.
(١٩) كليات رسائل النور، ج. ٤، ص. ٢٧٢ – ٢٧٣.
(٢٠) المرافق على الموافق، ص. ١٦٨.
(٢١) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٦٠.

مكانة "الفطرة" في المجتمع الفاضل

وانبناء المجتمع الفاضل؛ عند النورسي؛ على قيمة الإنسان، بتحصيل مقاصده في الدنيا والآخرة، يدل على أن المجتمع الفاضل، إنما هو مجتمع الفطرة، وبعبارة النورسي: "جامعية فطرة الإنسان"(٢٢).

ومجتمع الفطرة(٢٣)، يستلزم أنه أيضا مجتمع الكرامة(٢٤)، لأن بالفطرة والوجدان، يُكَرَّم الإنسان، "وهو صفوة المخلوقات. فلولاهما، لَتَرَدَّى الإنسان إلى أسفل سافلين"(٢٥).

وهنا أيضا، يتبين لنا الفرق بين مدينة الفارابي: مدينة العقل، ومدينة النورسي: مدينة الفطرة.

فقد آمن المعلم الثاني بضرورة "إعادة بناء السلطة المركزية، وبالتالي إعادة بناء المجتمع كله [...] على أساس العقل"(٢٦)، وبقدرة هذا العقل على تنظيم الحياة وضبطها، بالإخاء، والعدل، في مدينته، بل يمكن القول فيها: إن مدينة الفارابي هي مدينة العقل، وبعبارة الجابري: "مدينة العقل، التي تعكس، في نظامها وعلاقات أجزائها، أرقى ما يمكن أن يبلغه الإنسان العاقل، من مراتب، على سلم العقلانية"(٢٧).

ويربط النورسي قلب الإنسان بمعرفة الله(٢٨)، إيذانا منه بحضور العنصر

---

(٢٢) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٣٤٦.

(٢٣) يسميها "الفطرة"، و"الفطرة الشاعرة"، و"الوجدان"، و"وجدان الإنسان"، و"الوجدان الحي" (كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٢٢، ٤٣٠).

(٢٤) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٣٧٦.

(٢٥) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٣٠.

(٢٦) نحن والتراث لمحمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط. ٦، ١٩٩٣، ص. ٨٠.

(٢٧) بنية العقل العربي لمحمد عابد الجابري، سلسلة "نقد العقل العربي: ٢"، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط. ٣، ١٩٩٣، ص. ٤٥٣.

(٢٨) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٣١.

العرفاني في مشروعه، الذي نراه يقارب، في أغلب جوانبه، مشروع المدينة الفاضلة، عند الحكيم الترمذي.

وكما يوظف الحكيم الترمذي مسلكا قرآنيا، في البيان والتفهيم، وهو ضرب المثل[٢٩]، فكذلك جعله النورسي من أهم مسالكه، في الكشف عن الحقائق وبيان عمق المشاريع، التي يهدف إلى بيانها. فقد بَيَّنَ، "أن قلب الإنسان، مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد، فالعقدة الحياتية فيه، وهي معرفة الله تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشبعة في مواهبه، واستعداداته غير المحدودة، كلٌّ بما يلائمه. فتقطر فيها اللذة، والنشوة، وتزيدها قيمة وأهمية، بل تبسطها، وتصقلها"[٣٠].

وهذا هو الذي يسميه بـ "الإفهام والتعليم"، يقول: "أما بيان القرآن، في "الإفهام والتعليم"، فهو خارق، وذو لطافة وسلامة، حتى إن أبسط شخص عامي يفهم؛ بتلك البيانات؛ أعظم حقيقة، وأعمقها، بيسر وسهولة.

نعم! إن القرآن المبين، يرشد إلى كثير من الحقائق الغامضة، ويعلم الناس إياها، بأسلوب سهل وواضح، وببيان شافٍ، يراعي نظر العوام، من دون إيذاء لشعور العامة، ولا إرهاق لفكر العوام، ولا إزعاج له. فكما إذا حاور إنسان صبيا، فإنه يستعمل تعابير خاصة به، كذلك الأساليب القرآنية، والتي تسمى بـ "التنزلات الإلهية إلى عقول البشر"، خطاب ينزل إلى مستوى مدارك المخاطبين، حتى يفهّم أشد العوام أمية، من الحقائق الغامضة، والأسرار الربانية، ما يعجز حكماء متبحرون عن بلوغها بفكرهم، وذلك بالتشبيهات، والتمثيلات بصور متشابهات"[٣١].

---

(٢٩) ألف الحكيم الترمذي كتابا؛ في ذلك؛ يعتبر من أنفس ما أُلِّف في بابه، وهو كتاب "الأمثال من الكتاب والسنة" (تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٣٩٥ / ١٩٧٥).

(٣٠) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٣١.

(٣١) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٤٤٩ – ٤٥٠.

من ذلك، أن النورسي والحكيم الترمذي، اعتمدا على القلب، في المجتمع الفاضل، الذي يمكن القول فيه: إنه مدينة القلب، وبعبارة أخرى: مدينة التقوى(٣٢)، ما دام "أن حكمة خلق البشر، هي التقوى [...] وأن التقوى أكبر المراتب"(٣٣).

وبذلك نقول: إن النورسي والحكيم الترمذي، ابتغيا إعادة بناء السلطة المركزية، وبالتالي، بناء المجتمع كله، على أساسين متقاربين، حيث أسسها الأول على أساس الولاية، وأسسها الثاني على أساس الحقيقة المحمدية، وبعبارته: "إن أساس تلك الدعوى، وهو الحقيقة المحمدية، هي البذرة الأصيلة للكون، وسبب خلقه، وأكمل ثمرته، وأن رب العالمين جل جلاله، قد جعل تلك الشخصية المعنوية المحمدية داعيا رفيعا إلى سلطان ربوبيته، وكشافا صادقا لطلسم الكائنات ومُعَمَّى الخلق، ومثالا ساطعا لألطافه ورحمته، ولسانا بليغا لشفقته ومحبته، وأعظم مبشر للحياة الدائمة، والسعادة الأبدية، في العالم الباقي، وخاتم مبعوثيه، وأعظم رسله ﷺ"(٣٤).

ولا جرم أن هذا الفرق راجع إلى الفرق في مرجعية النورسي والحكيم الترمذي من جهة، ومرجعية الفارابي من جهة أخرى.

فالمرجعية اليونانية، تجعل للعقل الإنساني مقام الصدارة والحاكمية في السلوك، بخلاف المرجعية الإسلامية، التي لا تهمل العقل، لكنها لا تهمل أيضا عامل الفطرة: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٣٥).

---

(٣٢) انظر تفصيل ذلك في "نوادر الأصول في أحاديث الرسول" للحكيم الترمذي، تحقيق عبد الرحمن عميره، دار الجيل، بيروت، ط. ١، ١٤١٢ / ١٩٩٢، ج. ٤، ص. ١٩٥ – ٢٠٥، الأصل ٢٨٧.

(٣٣) كليات رسائل النور، ج. ٥، ص. ١٦٠.

(٣٤) كليات رسائل النور، ج. ٤، ص. ٦٦٨.

(٣٥) سورة الروم، الآية ٣٠.

ومن هذا المنطلق، يرى النورسي، أن "الفطرة الشاعرة، أو الوجدان، نافذة إلى العقل، ينشر منها شعاع التوحيد"[٣٦].

محورية النبي ﷺ في المجتمع الفاضل

ومن هنا، فإن قيمة الإنسان، تتفاوت بتفاوت مرتبته في الإيمان[٣٧]، يقول النورسي: "وحيث إن أشرف الموجودات هم ذوو الحياة، وأنبل الأحياء هم ذوو الشعور، وأكرم ذوي الشعور هم بنو آدم الحقيقيون الكاملون. لذا، فالذي أدى، من بين بني الإنسان المكرم، تلك الوظائف المذكورة آنفا، وأعطى حقها من الأداء، في أفضل صورة، وأعظم مرتبة من مراتب الأداء، لا ريب أنه سيعرج -بالمعراج العظيم- فيكون قاب قوسين أو أدنى، وسيطرق باب السعادة الأبدية، وسيفتح خزائن الرحمة الواسعة، وسيرى حقائق الإيمان الغيبية رؤية شهود. ومن ذا يكون غير ذلكم النبي الكريم ﷺ؟!"[٣٨].

وهذا التفاوت؛ مع ذلك؛ كان لأجل حكمة يريدها الله تعالى للإنسان، وبها يقوم نظام الحياة، لأنه يؤدي إلى التعاون. ومن هنا، يذهب النورسي إلى "أن دستور الحياة: هو التعاون"[٣٩].

وهذا التفاوت في المراتب، يهدف إلى بيان أن أعلى مرتبة، يجب أن تقاس بها كل المراتب، وبموجبها تتحدد أهمية الفرد، من حيث صلاحه داخل المجتمع، هي مرتبة الإنسان الكامل، يقول: "فلجامعية الإنسان، صار الإنسان الكامل سبب خلق الأفلاك علة غائية له، وثمرة له"[٤٠]. فالنبي ﷺ؛ إذن؛ هو ثمرة الكون، ومقصده[٤١].

---

(٣٦) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٢٢.
(٣٧) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٣٤٤.
(٣٨) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٦٩١.
(٣٩) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٣٤٩.
(٤٠) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٣١١.
(٤١) يعبر النورسي عن "المقصد" بـ "الباطن"، و"الثمرة"، و"الحقيقة"، و"الحكمة" (كليات رسائل النور، ج. ٢ (المكتوبات)، ص. ٩٤٠).

ولا جرم أن الإنسان الكامل، هو النبي محمد ﷺ. ولما كان غاية في ذاته، ومقصدا في خلق هذا الكون، فإن هذا النبي، هو الذي يجب أن يكون نموذجا أعلى في المدينة الفاضلة، مما يؤكد حضور المقاصد القرآنية في مشروع النورسي.

وهذا مبني على اعتباره "الحقيقة المحمدية، هي سبب خلق العالم، ونتيجته، وأكمل ثمراته"[٤٢].

فعندما نجعل الرسول الأكرم هو محور هذه المدينة، فإن هذا يعني أن هذه الشخصية العظيمة، يجب أن تكون النموذج الخليق بأن نتمثله في حياتنا الدنيوية. بمعنى، أن نستحضر الصفات الأخلاقية والعرفانية، التي حلاه الله بها في القرآن الكريم، فقال له: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: الآية ٤)، ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر﴾ (آل عمران: الآية ١٥٩)، الخ، مما جعله " -بالبداهة- أعظم من استوفى مهمة الرسالة بالقرآن الكريم، وأداها أفضل أداء، في أسمى مرتبة، وأبلغ صورة، وأحسن طراز، فلبى إرادة رب العالمين، في صرف وجه هذا الإنسان، من الكثرة، إلى الوحدة، ومن الفاني، إلى الباقي. ذلك الإنسان، الذي خلقه سبحانه ثمرة للعالم، ووهب له من الاستعدادات ما يسمع العالم كله، وهيأه للعبودية الكلية، وابتلاه بمشاعر متوجهة إلى الكثرة والدنيا"[٤٣].

إن هذا المجتمع الفاضل، يجب أن تحدده أخلاق الرسول ﷺ، وما تميزت به من أخلاق عظيمة، وأن يكون الصفح، واللين، والعدالة، أساسا في بناء المجتمع.

وهذا يبين لنا الفرق الشاسع، بين نظرية المجتمع الفاضل، عند النورسي، التي تجعل النبي الأكرم ﷺ ، هو محور هذا المجتمع، وبين نظرية المعلم الثاني، التي يرى فيها، أن محور المدينة الفاضلة، هو الفيلسوف.

---

(٤٢) كليات رسائل النور، ج. ٤، ص. ٦٥٥.

(٤٣) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٦٩١.

من هنا، يمكن أن نقول: إن مجتمعَ النورسي هو مجتمعٌ قرآني محمدي، على النقيض من مدينة الفارابي، التي هي مدينة فلسفية أفلاطونية.

ومما يؤكد حضور نموذج النبي الأكرم؛ عند النورسي؛ أنه جعل الحقيقة المحمدية، هي الخيط الدقيق والهامّ، الذي يجب أن نبحث عنه في مسيرة الصراع مع الحياة، وفي مشروع البناء والتأسيس(٤٤).

ومما يؤكد أيضا واقعية المجتمع الفاضل، عند النورسي، بجعل الإنسان يتبوَّأ فيه مقام المحوريَّة، أنه بنى هذا المشروع على فكرة بناء الحاضر بالإنسان، الذي لا ينظر في آفاق ضيقة، تتجاهل عنصر التسلسل الزمني، بل يرمي بالنظر في الماضي، ويستشرف المستقبل، يقول: "ومع ذلك، إن الإنسان ليس كالحيوان مبتلى بآلام الحال فقط، بل يضرب رأسه خوف المستقبل، وحزن الماضي، مع ألم الحال"(٤٥).

وعندما شبه النورسي الكونَ بالإنسان، فأطلق على الأول عبارة "العالم الأكبر"، وعلى الثاني عبارة "العالم الأصغر"، فقد كان مقصده من ذلك، تأكيد أن الإنسان هو محور هذا الكون. وهذه المحورية، هي مناطُ إضفاءِ القدرةِ الإلهيةِ هالةَ التقديس عليه، فكرَّمته، وفضلته على المخلوقات كافة، وسخرت له الكون طُرًّا. فهو أهم عنصر في العمران البشري، والمقصد الأسنى من حركة التشييد والبناء فيه. بل إن الشرائع ما أنزلت، إلا لوجود هذا الإنسان، باعتباره محل التكليف. وما قدمه علماء الأمة من اجتهادات في الدين، ما هو إلا بقصد خدمة هذا الإنسان وإضاءة الطريق له، بل إن الشرائع، ما أنزلت، إلا معلَّلة بجلب المصالح له، ودرء المفاسد عنه.

---

(٤٤) انظر الحقيقة المحمدية في "كليات رسائل النور"، ج. ١، ص. ٥٣٦، ٥٣٩، ج. ٢، ص. ٤٢، ٢٧٢، ٣١٤، ٣١٦، ٦٥٤ - ٦٥٥، ٦٦٦، ٦٦٨، ج. ٦، ص. ٤٢١ - ٤٢٢.

(٤٥) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٣٦١.

ولا جرم أن العمران البشري، لا يمكن أن تقوم له قائمة بدون حفظ الضروريات الخمس حفظا وعدما كما يؤكد ذلك ابن خلدون.

كما أن من مقاصد التشبيه المذكور، أن الإنسان يرتقي في إنسانيته بالقدر الذي يحاكي فيه مثالات الكون.

فالكون بديع وجميل، وكذا الإنسان يجب أن يكون جميلا في حركاته وسكناته، محاكيا بذلك جمال الكون، في نظامه وسيرورته.

والكون يتحرك بموجب العدل الإلهي، ولولا هذا العدل لاختل نظام الكون وفسد. وكذا الإنسان، لا يستقيم عيشه، إلا في مجتمع سليم منضبط بضوابط هذا المقصد العام، أعني: العدل.

وبناء على ذلك نقول:

من أهم المقاصد العامة، التي استظهر النورسي، في توضيحها وتقرير أصالتها: إقامة العدل ومجانبة الظلم، من أدنى شيء في الوجود إلى أعلاه. بل يجعل الفهم القاصر للأشياء، مع القدرة على النفاذ إلى أغوارها، موجبا للظلم. ويكون أدهى وأمر إذا كان يمارس، مع الوعي بأنه إفساد في الأرض. فيرى، أن "دفع الضلالة والفساد سهل ويسير، إن كانت آتية من الجهل. بينما إزالتها عسير جدا، إن كانت آتية من العلم"(٤٦).

ويذهب إلى ما أشرنا إليه آنفا، وهو انبناء الكون برمته على العدل، حيث يرى، أن انعدام العدل يستلزم الموت. فكما لا يمكن العيش بدون هواء، كذلك لا يمكن العيش بدون عدل، وبعبارته: "يلزم؛ عندئذ؛ إنكار الحقائق الأربعة: الحكمة، والعدالة، والعناية، والرحمة، التي هي عناصر قوية شاملة، كالنور، والهواء، والماء، والتراب، وإنكار وجودها الظاهر ظهور تلك العناصر"(٤٧).

---

(٤٦) كليات رسائل النور، ج. ٧ (الملاحق في فقه دعوة النور)، ص. ٢٣٥.
(٤٧) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٩١.

ومن هنا يقرر، أن غياب العدل، وانتهاك حرمة الدماء، والأموال، والأعراض، يستلزم فساد العمران.

وهذا يؤدي إلى استنتاج، أن النورسي، لا يعتبر العدالة قيمة أخلاقية، تصنَّف في جنب سائر القيم، بل يعتبرها بمثابة الخيط الرابط، بين كل القيم، ما دام الكون، لا يستقر، إلا بها.

فهي؛ بناء على ذلك؛ أم الفضائل، حيث بدونها، يحل الفساد في الكون، بدل النظام، والفوضى، بدل الاستقرار. وبكلمة: إنه يرى أن الانسجام هو عنوان العدالة(٤٨).

كما يوحي ذلك بأنه يعتبر الأخلاق من الضروريات، على خلاف ما ادعاه أبو إسحاق الشاطبي، الذي اعتبرها من التحسينيات.

وهذا يذكرنا بارتباط العدالة بالإبداع، عند أرسطو، حيث كان يرى، أن العدالة، تعني قيام كل فرد بوظيفته، التي يتقنها في المجتمع، دون تطاوله على الوظائف الأخرى، التي لا يتقنها، مما يجعل المجتمع عرضة للظلم، والفوضى، وانتهاك العدالة.

وقد خصص النورسي عدة مباحث، في "كليات رسائل النور"، لتقرير هذا المبدأ، وذلك حين شبه الإنسان (العالم الأصغر) بالكون (العالم الأكبر)، وعلق لكل عضو وظيفته، التي تليق به، مع تشبيهه بركن من أركان هذا الكون.

---

(٤٨) من مظاهر الانسجام، الذي يحرص عليه الصوفية، حرصهم على الحفاظ على نظام الكون، بأن لا يتميز الرجل، إذا حَلَّ ببلدة، عن أهلها بزي يخالف زيهم. وفي ذلك، يقول الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، في معرض كلامه على "منازل صون الأولياء": "فمن منازل صونهم: أداء الفرائض في الجماعات، والدخول مع الناس، في كل بلد، بزي أهل ذلك البلد..." (الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي، تحقيق عثمان إسماعيل يحيى، المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع معهد الدراسات العليا بالسربون - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٥/١٩٨٥، السفر ٣، الجزء ١٦، الباب ٢٣، ص. ١٥٨). ولا جرم أننا في أمس الحاجة إلى مثل هذا الفهم الدقيق لنصوص الشريعة ومقاصدها، إذ لا معنى لفرض الزي العربي، أو الباكستاني، أو غيرهما من أزياء الشعوب الإسلامية، على المجتمعات الغربية؛ مثلا؛ بدعوى أنها زيٌّ إسلامي.

صفة "الجمال" في مشروع النورسي

يعتبر النورسي من أبرز المفكرين، الذين لم يألوا جهدا في الكشف عن أسرار الشريعة ومقاصدها، وإبراز عناصر الجمال فيها، حيث قرر في رسائله، أن الشريعة معللة تعليلا عقليا، في العبادات والمعاملات، وأن من أهم مقاصد الشريعة، الأخذ بمقتضى اسم "الجميل"، وهو من أسماء الله الحسنى، حيث يرتبط الجمال بالإبداع والعلم، بل إذا غاب الجمال عن العلم، حَلَّ محله الجهل، "إذ حقائق الموجودات كلها، إنما هي أشعة اسم الله الحق، ومن مظاهر أسماء الله الحسنى، وتجليات صفاته الجليلة"[٤٩]، يقول: "حقيقة كل شيء، ماديا كان أو معنويا، وجوهريا أو عرضيا، وحقيقة الإنسان نفسه، إنما تستند إلى نور من أنوار أسمائه تعالى، وترتكز على حقيقته، وإلا فهي صورة تافهة، لا حقيقة لها"[٥٠].

ولا جرم أن هذه الفكرة، لا تعزب عن أغلب الصوفية، حيث ربطوا ربطا وثيقا، بين الجمال والعبادة، إذ ترتقي نحو الكمال بقدر ما تُشْرَب بالجمال.

من ذلك، أن محمد ابن سليمان الجزولي، يصف الصلاة على النبي ﷺ بالكمال، لاقترانها بالحسن والجمال. ومما قاله في ذلك: "صلى الله عليه وسلم صلاة مقرونة بالجمال، والحسن والكمال، والخير والإفضال"[٥١]، وأيضا: "اللّهم صل على سيدنا محمد الذي ملأت قلبه من جلالك، وعينه من جمالك، فأصبح فرحا مؤيدا منصورا، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله على ذلك"[٥٢].

إن الكلام على الفكر المقاصدي، عند النورسي، يعني تسليط الضوء على عناصر الجمال في الدين الإسلامي، على مستوى المعرفة، والأخلاق، والطبيعة.

---

(٤٩) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٥٥٥.
(٥٠) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ١٥٥.
(٥١) دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار لمحمد ابن سليمان الجزولي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص. ١٨٥.
(٥٢) دلائل الخيرات، ص. ١٠٥ – ١٠٦.

ومن أهم إنجازاته، تقريره أن وراء كل حكم شرعي علة. وكل علة؛ عنده؛ متلبسة بقيمة أخلاقية. مما يعني، أن أي حكم شرعي، إنما هو تمثُّل أخلاقي، تجاه الخالق، والذات، والخلق.

كما يربط بين معرفة المقاصد والإخلاص، وإن شئت قلت: يجعل معرفة الله ومعرفة المقاصد في طلق واحد.

ومن هنا، فإن إحياء فكر إسلامي من هذا القبيل، من شأنه الإسهام في خلق قيم إنسانية، تتعايش بمقتضاها كل الأمم، وتتآلف بها، وتنسجم بها كل المذاهب والديانات.

وبناء على ذلك نقول:

إذا كانت المنظومة الفارابية، تربط "بين ما بعد الطبيعة، والمدينة الفاضلة، ربطا محكما، لا يخلو من جمال، لتؤكد على وحدة الكون، وترابط أجزائه، وجمال بنائه، وضرورة تشييد صرح المدينة الفاضلة على غراره"[٥٣]، فإن حضور عنصر الجمال في مشروع المجتمع الفاضل، عند النورسي، يؤكد الأمر النبوي بوجوب الدعاء بأسماء الله الحسنى، كما ورد في الحديث النبوي، والتي تؤدي عمليا إلى التخلق بأخلاق الله. لقد قال الرسول ﷺ: "إن الله تعالى جميل، يحب الجمال"[٥٤].

يرى النورسي، أن صفة "الجميل"، هي أهم صفة إلهية، ومن أهم المقاصد الإلهية، لأنها تستوعب كل الصفات الأخرى، ولأنها تسري في كل صفاته، وأسمائه، وأفعاله، ولأنها من أهم المقاصد العامة، التي تبنَى عليها الحضارة، وتقوم عليها أسس المدينة الفاضلة.

---

(٥٣) بنية العقل العربي، ص. ٤٤٩ – ٤٥٠.

(٥٤) رواه مسلم، والترمذي، عن ابن مسعود، والطبراني في "الكبير"، عن أبي أمامة، والحاكم في "المستدرك"، عن ابن عمر، وابن عساكر، عن جابر وابن عمر. ورمز إليه السيوطي بالصحة (الجامع الصغير، ج. ١، ص. ١٠٧، الحديث ١٧٢٠. وانظر أيضا "فيض القدير"، ج. ٢، ص. ٣٢٤ – ٣٢٥).

إنها تعبير عن العشق الإلهي لهذا الكون، ولأن يكون المجتمع الفاضل على غرار جمال هذا الكون، وليكون مقصد أفراد هذا المجتمع الفاضل: التعاون، من أجل التحقق بصفة "الجمال"، والتخلق بأخلاق "الجميل".

وهذا يعني، أن وظيفةَ الإنسان، داخل المجتمع الفاضل، وظيفةٌ جماليةٌ. وهي تمثُّلٌ باسمٍ من أسماء الله الحسنى، وهو اسم "الجميل"، الوارد في الحديث النبوي المذكور.

والقصد من هذا التمثُّل، هو إعادة تنظيمه الحياة تنظيما جماليا، بحيث يسود فيها أهم المقاصد العامة، خاصة العدل، والمحبة، والسكينة، والطمأنينة.

وصفة "الجميل" ومحاسنها ملحوظة أيضا، في محاسن سائر صفاته سبحانه وتعالى وأسمائه، وبعبارة السهيلي: "إن ذلك بالنظر إلى جملة محاسن أسمائه، وصفاته، وأفعاله، فإنها كلها حسنة"[٥٥]. فكان الرسول الأكرم؛ "بالضرورة؛ أجلى مرآة، وأصقلها، لعكس محاسن جمال مالك العالم، ولطائف حسنه المنزه، كما تشير إليه آثاره البديعة"[٥٦]. وسُمِّيَ ﷺ الرسولَ الحبيبَ، "لأنه يحبب الله سبحانه إلى الخلق، بإظهار جمال أسمائه الحسنى"[٥٧].

ومن ملامح الجمال، في مشروع النورسي، أنه بناه على أساس العشق الإلهي[٥٨]، واعتبر المحبة، "هي أهم المقاصد الإلهية، في الكون، وأهم نتيجة لخلق العالم"[٥٩]. وهو؛ في ذلك؛ يوافق الحكيم الترمذي، الذي بنى مشروعه على الحب الإلهي[٦٠].

---

(٥٥) النور المستبين من أحاديث سيد المرسلين لمحمد بن علي دِنْيَة الرباطي، منشور مع "الأقوال الحسان الراقية في الأجوبة المختارة السامية"، و"السلسلة الذهبية من الحديث المسلسل بالأولية"، كلاهما للمؤلف نفسه، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ١٤٢٧ / ٢٠٠٦، ص. ١٣٠.

(٥٦) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٦٩٠.

(٥٧) كليات رسائل النور، ج. ١، ص. ٦٢.

(٥٨) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٣١.

(٥٩) كليات رسائل النور، ج. ٣ (اللمعات)، ص. ٥٥٩.

(٦٠) انظر تفصيل الكلام على المحبة وعلاقتها بالحكمة، وبخلق الإنسان، عند الحكيم

إنها رغبة أكيدة، وسعي عرفاني، من أجل إحياء عصر النبي ﷺ، وبناء أمة على منهاج النبوة والخلافة الراشدة.

وهذا المنزع الجمالي، من أهم مقومات مشروع الحكيم الترمذي أيضا، من خلال وصفه للصراع بين الخير والشر، الذي يستلزم الصراع بين الجميل والقبيح، كما سنرى بعد حين.

التعاون والتعارف في المدينة الفاضلة

افتقر تصور المعلم الثاني؛ في تمثيل المدينة بالإنسان؛ إلى الواقعية، حيث إنه استبعد عنصرا أساسا، وهو عوامل الصراع، التي لا يخلو منها كائن حي في هذا الكون. فقد قال، في تعريف "المدينة الفاضلة": "المدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح، الذي تتعاون أعضاؤه كلها، على تتميم حياة الحيوان، وعلى حفظها إليه"[٦١].

والملاحظ، أنه ركز؛ في هذا التعريف؛ على جانب الحفظ، في التعاون على التنظيم والتتميم. وهذا وجه واحد فقط، من وَجْهَي التعاون، حيث يكون المعلم الثاني، قد غفل عن الوجه الآخر، وهو التعاون على درء ما يهدم ذلك النظام، ويحول دون حفظه.

لقد أخذ بعين الاعتبار جانبا واحدا من جوانب التعاون[٦٢]، وهو "التعارف"[٦٣]. بيد أن النورسي، استحضر جانبَي "التعارف" و"الدفع"، بمعنى أنه

الترمذي، في:

- Gobillot (Geneviève), Un penseur de l'amour (Hubb), le mystique Khurasanien al-Hakîm al-Tirmidhî, Studia Islamica, fasc. LXXIII, 1991, pp. 25-44.

وانظر أيضا المحبة عند الصوفية في :

- Nwyia (Paul), Exégèse coranique et langage mystique, Beyrouth, 1970, pp. 285 -286.

(٦١) آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي، تحقيق القدس للدراسات والبحوث، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د. ت.، ص. ١٨٤..

(٦٢) انظر تفصيل الكلام على "أخلاق التعاون"، و"أخلاق التعارف"، في "الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري" لطه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط. ١، ٢٠٠٥، ص. ٦٦ - ٧٤.

(٦٣) تأمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا

راعى مقاصد الإسلام في التنظير للمدينة الفاضلة، على المستويين الوجودي والعدمي.

أما من حيث "التعارف"، فمن ملامحه، أنه يشبه الروابط الاجتماعية بـ "روابط تربط الجندي بفصيله، وفوجه، ولوائه، وفرقته، في الجيش. وله واجب ووظيفة، في كل منهما. كذلك، كل إنسان، في المجتمع، له روابط متسلسلة، ووظائف مترابطة. فلو اختلطت هذه الروابط والوظائف، ولم تعيّن، ولم تحدّد، لما كان هناك تعاون، ولا تعارف"(٦٤).

ويعتبر دستور المدنيّة، "في الحياة: التعاون، بدل الصراع والجدال. والتعاون، من شأنه التساند والاتحاد"(٦٥). ويرى، أن من مقاصد الحج، "توحيد الأفكار بالتعارف، وتشريك المساعي بالتعاون"(٦٦).

وأما من حيث "الدفع"(٦٧)، فإنه يتخذ مساره الطبيعي بداعي الفطرة. فَبِهِ تحافظ المجتمعات على عزتها وكرامتها، لأن "الميل الفطري لا يقاوم"(٦٨)، و"الهيجان الفطري، لو تعرض له ظلم الكافر البارد، لفتت كل شيء أمامه"(٦٩).

ويضرب مثلا؛ على ذلك؛ بالدجاجة، التي يتحول خوفها وجبنها إلى جسارة فائقة، حفاظا على فراخها، إذا هاجمهم الجاموس الضخم، وبالعنز، الذي ينقلب خوفه، المضروب به المثل، إلى دفاع ومقاومة، تحركهما شجاعة خارقة، عند مهاجمة الذئب له(٧٠).

وقبائل لتعارفوا﴾ (سورة الحجرات، الآية ١٣).

(٦٤) كليات رسائل النور، ج. ٨ (صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم)، ص. ٣٣٥.

(٦٥) كليات رسائل النور، ج. ٨، ص. ٣٥٩.

(٦٦) كليات رسائل النور، ج. ٨، ص. ٣٦٥.

(٦٧) تأمل قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز﴾ (سورة الحج، الآية ٤٠).

(٦٨) كليات رسائل النور، ج. ٨، ص. ٣٦٦.

(٦٩) كليات رسائل النور، ج. ٨، ص. ٣٦٦.

(٧٠) كليات رسائل النور، ج. ٨، ص. ٣٦٤ – ٣٦٥.

وهذا المنحى، الجامع بين عنصري "التعاون" و"الدفع"، يوجد أيضا في فكر الحكيم الترمذي، من خلال الصراع، الذي يصوره، بين القلب والنفس وجنودهما، في "كتاب غور الأمور"(٧١).

ولمّا اعتمد المعلم الثاني على عنصر واحد؛ وهو "التعارف"؛ جاء تنظيمه لأجزاء المدينة جامدا، ويفتقر إلى النشاط والحيوية. فهو يرى، أن أهل كل مرتبة، يخدمون المرتبة الأعلى، وكل مرتبة مخدومة من المرتبة الأسفل منها، إلى أن يصل الأمر إلى الأسفلِين، الذين يَخْدُمون، ولا يُخْدَمون(٧٢)، وأن "الأفعال والسنن موزعة في المدن والأمم، على ترتيب، وتستعمل استعمالا مشتركا"(٧٣).

أما النورسي والحكيم الترمذي، باستحضارهما عنصر "الدفع"، إلى جانب عنصر "التعارف"، فقد أوجدا حركة ودينامية، بحيث إن الصراع، لا يخضع لنمط واحد في الترتيب، بل لأنماط مختلفة، بل قد تكون متباينة.

السعادة في المجتمع الفاضل

يرى النورسي، "أن السعادة، تكون سعادة، عندما تصبح عامة للكل، أو الأكثرية"(٧٤). وسبق أن ذكرنا، أن السعادة؛ عنده؛ من أهم مقاصد المجتمع الفاضل، وأن السعادة الكبرى، التي ينالها المؤمن في الآخرة، بدخول الجنة، يجب أن تكون مقياسا تقاس عليه سعادة المجتمع الفاضل.

---

(٧١) كتاب غور الأمور للحكيم الترمذي، تحقيق ج. جوبيو، منشورات "المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة" في "حوليات إسلامية"، المجلد ٢٨، ١٩٩٤.

(٧٢) آراء أهل المدينة الفاضلة، ص. ١٨٥ – ١٨٩. "كتاب الملة" ونصوص أخرى، لأبي نصر الفارابي، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ط. ٢، ١٩٩١، ص. ٦١ – ٦٦. وقد نقل صدر المتألهين الشيرازي ذلك نقلا حرفيا (المبدأ والمعاد لصدر المتألهين الشيرازي، تصحيح جلال الدين الآشتياني، مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلامي، قم، ط. ٣، ١٤٢٢، ص. ٦١٥).

(٧٣) إحصاء العلوم للفارابي، تحقيق عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. ٣، ١٩٦٨، ص. ١٢٥.

(٧٤) كليات رسائل النور، ج. ٨، ص. ٣٧٥.

ومن هنا، يعتبر المدنيَّة الغربية مدنية زائفة، وأن السعادة، التي تدعيها، مزيفة، لأنها "لأقل القليل من الناس"[٧٥].

و"المدنية، التي تأمرنا بها الشريعة الغراء، وتتضمنها"، يجب أن تقوم على أسس ودستور، لتحصيل السعادة الحقيقية.

أما أسسها، فهي:

١ - الحق بدلا من القوة؛

٢ - العدالة والتوازن؛

٣ - الفضيلة بدلا من المنفعة؛

٤ - المحبة والتجاذب؛

٥ - الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدلا من العنصرية؛

٦ - الأخوة الخالصة؛

٧ - السلام والوئام؛

٨ - الذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب.

وأما دستورها، فهو:

١ - التعاون بدل الصراع والجدال؛

٢ - التساند والاتحاد؛

٣ - الهدى بدل الهوى.

أما الفارابي، فيرى أن "العلم المدني، يفحص أولا عن السعادة"[٧٦]، وأنها تُنال بطريقين[٧٧]:

---

(٧٥) كليات رسائل النور، ج. ٨، ص. ٣٥٧.

(٧٦) كتاب الملة، ص. ٥٢.

(٧٧) - للفارابي رسالة موسومة بـ "رسالة في التنبيه على أسباب السعادة" (عيون الأنباء، ج. ٣، ص. ٢٣١. عقود الجوهر، ص. ١٣٠)، وتعرف أيضا بعنوان "التنبيه على سبيل السعادة" (تاريخ بروكلمان (الأصل الألماني)، ليدن، ١٩٤٣، ج. ١، ص. ٢٣٣. دائرة

– أولهما: "هو العقل، واستكمال النفس حقيقتها بالمعرفة النظرية"(٧٨): المعرفة بمبادئ الموجودات، ونظام الكون، والعقول المفارقة، إلخ"؛

– ثانيهما: "الطبيعة الاجتماعية للإنسان، فالسعادة لا يمكن أن تحصل له، إلا إذا كان يعيش في مجتمع، وكان هذا المجتمع فاضلا"(٧٩). ولذا، جعل كتابه،

المعارف الإسلامية (الأصل الفرنسي)، ليدن – باريس، ١٩٦٥، ج. ٢، ص. ٧٩٩)، وبعنوان "التنبيه على تحصيل سبيل السعادة" (ملحق تاريخ بروكلمان (الأصل الألماني)، ليدن، ١٩٣٧، ج. ١، ص. ٣٧٦). ولعلها هي "كتاب في السعادة الموجودة"، الذي ذكره القفطي في "تاريخ الحكماء" (تحقيق Julius Lippert، ليبزيج، ١٩٠٣، ص. ٢٧٩). كما نسب إليه هذا الأخير رسالة، ذكر أن الفارابي سماها "نيل السعادات" (تاريخ الحكماء، ص. ٢٨٠)، ولعلها هي "كتاب تحصيل السعادة" (تاريخ بروكلمان، ج. ١، ص. ٢٣٣)، باعتبار أن "النيل" و"التحصيل" كلمتان مترادفتان.

(٧٨) بخلاف ابن سينا، الذي "يربط السعادة باللذة، التي تحصل للنفس، عند تحررها من البدن" (بنية العقل العربي، ص. ٤٥٢). ونجد ابن الدباغ يجمع بين رأيي الحكيمين: الفارابي، وابن سينا، حيث اعتبر أن تحصيل السعادة، يكون بالمعرفة النظرية، وبالتحرر من البدن، عن طريق القرب من الله تعالى، يقول: "ولذة النفس الإلهية، في تحصيل المعارف الربانية، والانتعاش بالعلوم الدينية، والقرب من الحق تعالى، ومحبته" (كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، تحقيق هـ. ريتر، دار صادر، بيروت، د. ت.، ص. ٤٠). وممن تأثر بأفلاطون، في نظريته حول السعادة، أبو الحسن العامري (آفاق الفكر السياسي عند أبي الحسن العامري لعلي فريدوني، تعريب نوال خليل، مؤسسة دار معارف الفقه الإسلامي، قم، ط. ١، ١٤٢٦ / ٢٠٠٥، ص. ٥١ – ٥٤).

(٧٩) بنية العقل العربي، ص. ٤٥٢. وانظر تفصيل ذلك، في: "آراء أهل المدينة الفاضلة" (ص. ٨٠). "فصول منتزعة" لأبي نصر الفارابي (تحقيق فوزي متري نجار، دار المشرق، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٢، ص. ٤٥ – ٥٠)، كما يُنظر "الفلسفة السياسية عند الفارابي" لعبد السلام بنعبد العالي (دار الطليعة، بيروت، ط. ٤، ١٩٩٧، ص. ١٠٣ – ١١٠)، و"أرنالديز" و"فوزي النجار" في:

- Arnaldez (Roger), l'âme et le monde dans le système philosophique de Fârâbî, Studia Islamica, fasc. XLIII, 1976, p. 61.
- Najjar (Fauzi M.), Fârâbi's political philosophy and shî'ism, Studia Islamica, fasc., XIV, 1961, p. 72.

والأمر نفسه، نجده عند مسكويه، حيث اعتبر أن سعادة البدن والنفس، تحصل "بالأشياء النافعة في الوصول إلى الحكمة الأبدية" (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠١، ص. ٩٠)، وأن السعادات الإنسانية، "لا تتم إلا بالأفعال البدنية، والأحوال المدنية، وبالأعوان الصالحين، والأصدقاء المخلصين" (تهذيب الأخلاق، ص.

الموسوم بـ "فصول منتزعة"، مشتملا "على أصول كثيرة، من أقاويل القدماء، فيما ينبغي أن تدبر به المدن، وتعمر به، وتصلح به سيرة أهلها، ويسددوا به نحو السعادة"[(٨٠)].

ويمكن أن نضيف طريقا ثالثا، وهو مكارم الأخلاق. فقد روي عنه، أنه قال: "من لا يهذبُ علمُهُ أخلاقَهُ، في الدنيا، لا يسعد نفسه في الآخرة"[(٨١)]، وأنه قال: "تمام السعادة بمكارم الأخلاق، كما أن تمام الشجرة بالثمرة"[(٨٢)].

بيد أن السعادة بمكارم الأخلاق، داخلة في الطريق الثاني للسعادة، إذ لا يمكن أن نتصور مجتمعا فاضلا بدونها.

ومن تجليات المدينة الفاضلة، أن يكون رئيسها الأول فاضلا، كما هو مؤدى قول الفارابي: "والرئيس الأول، إن كان فاضلا، وكانت رئاسته فاضلة في الحقيقة، فإنه إنما يلتمس، بما يرسم من ذلك، أن ينال هو، وكل من تحت رئاسته، السعادة القصوى، التي هي؛ في الحقيقة؛ سعادة"[(٨٣)].

---

١٦٧). وهذا ليس بغريب، إذا علمنا أن مسكويه متأثر بفلسفة الفارابي (دائرة المعارف الإسلامية، ج. ٢، ص. ٧٩٨).

أما صدر المتألهين الشيرازي، فقد نقل نظرية الفارابي نقلا حرفيا، من "آراء أهل المدينة الفاضلة" (المبدأ والمعاد، ص. ٦١٥ – ٦١٨).

(٨٠) فصول منتزعة، ص. ٢٣.

(٨١) تاريخ الحكماء (نزهة الأرواح وروضة الأفراح) لشمس الدين الشهرزوري، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ط. ١، ١٣٩٨ / ١٩٨٨، ص. ٣٠١.

(٨٢) تاريخ الحكماء (نزهة الأرواح وروضة الأفراح)، ص. ٣٠٢. هذا، وقد ألف الفارابي مؤلفات في الأخلاق، منها "كتاب تفسير قطعة من كتاب الأخلاق لأرسطاليس" (الفهرست للنديم، ضبطه يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ٢، ١٤٢٢ / ٢٠٠٢، ص. ٤٢٣)، وذكره جميل بك العظم بعنوان "شرح مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس" (عقود الجوهر، ص. ١٣١). ولعله هو "كتاب الأخلاق"، الذي ذكره القفطي، في "تاريخ الحكماء" (ص. ٢٧٩).

(٨٣) كتاب الملة، ص. ٤٤.

وشرط المدينة، لكي تكون فاضلة، تلازم طريقَي السعادة: الأول والثاني، "فالمعرفة بمراتب الموجودات، ليست ضرورية فقط لسعادة النفس سعادة عقلية فردية، بل هي ضرورية أيضا، لتوفير شرط آخر ضروري للسعادة، هو بناء المدينة الفاضلة، التي يجب أن تحكي، في نظامها وتسلسل مراتبها، نظام الكون وتسلسل مراتب أجزائه. ومن هنا، كانت المنظومة الفارابية موجهة الوجهة، التي تجعلها تقدم النموذج المثالي للمدينة الفاضلة: مدينة العقل"(٨٤).

ولا يماري النورسي في تحصيل مقصد السعادة، بطريق العقل، حيث يجعل دليل العناية – وهو من أهم الأدلة العقلية - "يبشر بقدوم السعادة الأبدية"(٨٥)، ويعتبر أن من يحصر غاية الحياة في الملذات الجسدية وشهوات الدنيا، مستخِفّ بنعم الله الكبرى، ومنها نعمة ما يسميه "إحسان العقل"(٨٦).

أما الحكيم الترمذي، فيرى للسعادة طرقا، هي:

- القلب، واستكمال النفس حقيقتها بالحكمة البالغة؛

- اللذة، التي تحصل للنفس، عند إذعانها لسلطان القلب، وتحررها من الشهوة؛

- العيش في مجتمع فاضل، يحرسه الأبدال، ويضع نظامه الأولياء، ويحكمه السلطان، الذي هو ظل الله في أرضه، ويشرف على مراقبته الخاصة من أوليائه.

وإذا كان الفيلسوف؛ عند الفارابي؛ "هو وحده الذي يستطيع أن يبني دولة العقل"(٨٧)، فإن الممهِّد لظهور المهدي المنتظر عند النورسي(٨٨)، والولي عند

---

(٨٤) بنية العقل العربي، ص. ٤٥٣.

(٨٥) كليات رسائل النور، ج. ٥، ص. ٦٢.

(٨٦) كليات رسائل النور، ج. ٣، ص. ٥٦٠.

(٨٧) نحن والتراث لمحمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط. ٦، ١٩٩٣، ص. ٨٠.

(٨٨) انظر تفصيل ذلك، في "كليات رسائل النور"، ج. ٢، ص. ١٢٢، ج. ٣، ص. ٣٠، ج. ٦، ص. ٤٤٦، ج. ٧، ص. ١٩٥ – ١٩٦، ٣١٤ – ٣١٧.

الحكيم الترمذي[٨٩]، هما وحدهما، القادران على بناء دولة تتحقق فيها مقاصد الإيمان والتقوى.

العدالة في المجتمع الفاضل

يرى النورسي، أن مقصد العدل، الذي يقوم عليه نظام هذا الكون البديع، إنما يراد به، أن يكون مثالا لنظام الحياة، لدى بني البشر، كما سبق أن ألمحنا إلى ذلك، في صدر هذا البحث.

أما الحكيم الترمذي، فيظهر انشغاله الكبير بهذا المقصد، من خلال ذكره لوجوه "السواء"، إذ جعلها برمتها تصب في هذا المفهوم، وهي: العدل، لا إله إلا الله، الوسط، الظاهر، الشرع، قصد الطريق، الإنصاف[٩٠].

فمن أهم المقاصد، التي تضبط المجتمع، وتضمن له الاستقرار، مقصد العدالة. وقد عقد في ذلك أصلا، في "نوادره"، وسمه بـ "الأصل الثاني والثلاثون والمائة: في بيان صفات ولاة الأمور العادلين"[٩١].

وعلة إقامة السلطان هي العدل، يقول: "فإنما أعطي السلطان على أن يأخذ للضعيف من القوي، ولولا ذلك، لم يُحْتَج إلى السلطان. فإذا فعل ذلك، فقد تمسك بالذي أعطى على هيئة ما أعطي، فأديمت له قوة ذلك الذي أعطى. وإذا ضيع ذلك، فقد ضيع سلطانه، وذَلَّه. فكيف يبقى معه قوة؟!"[٩٢].

إنه يعتبر السلطان ضرورة وجودية، حيث لا يمكن تدبير الأمة، والقيام بشؤون الدولة، ما لم يكن عادلا[٩٣].

---

(٨٩) انظر علاقة الولاية بالسياسة، عند الحكيم الترمذي، في "الحكيم الترمذي : الفقيه الناقد"، لكامل محمد محمد عويضة، ضمن سلسلة "أعلام الفقهاء والمحدثين"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ١٤١٣ / ١٩٩٣، ص. ٨١ – ٨٨.

(٩٠) تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي، تحقيق حسني نصر زيدان، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٨٩ / ١٩٦٩، ص.٢٧ – ٢٩.

(٩١) نوادر الأصول، ج. ٢ ، ص. ١٢٤، الأصل ١٣٢.

(٩٢) نوادر الأصول، ج. ٢، ص. ١٢٥، الأصل ١٣٢.

(٩٣) يؤكد أرسطو أيضا "ضرورة اعتبار الحاكم، لا يمكن أن يدبر المدينة، ما لم يكن عادلا"

وليس مقصد العدل ضروريا، في استقرار البلاد ودوام السلطان وحسب، بل إنه أصل يقوم عليه الكون كله: "لأن العدل صلاح الأرض، والجور فسادها. وبالعدل قامت السماوات والأرض"[٩٤].

فبالعدل يحاكي عالم المُلْك مثالات عالم الملكوت.

وبما أن مشروع النورسي والحكيم الترمذي مشروع أخلاقي، فإنهما ربطا ربطا لزوميا، بين العدل، والمحبة، وحُسْن الخلق. فيرى النورسي، أن نقطة استناد "المدنيَّة، التي تأمرنا بها الشريعة الغراء، وتتضمنها": "هي: الحق، بدلا من القوة. والحق من شأنه: العدالة، والتوازن. وهدفها: الفضيلة، بدلا من المنفعة. والفضيلة من شأنها: المحبة، والتجاذب"[٩٥].

أما الحكيم الترمذي، فقد بيَّنَ - في معرض كلامه على صنائع المعروف، وأن العدل من أبرزها - أن "صنائع المعروف، لا تكون، إلا من حسن الخلق. ومن حَسَّنَ الله خُلُقَهُ، أحبه. ومن أحبه الله، ألقى محبته على قلوب عباده"[٩٦].

الأبعاد المُلْكية والملكوتية في مشروع المجتمع الفاضل

يقسم المعلم الثاني الاجتماعات الإنسانية إلى: كاملة، وغير كاملة. أما الكاملة، فيقسمها إلى: عظمى، ووسطى، وصغرى.

العظمى هي: "اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة"، والوسطى هي: "اجتماع أمة في جزء من المدينة"، والصغرى هي: "اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة".

وأما غير الكاملة، فهي "أهل القرية، واجتماع أهل المحلة، ثم اجتماع سكة، ثم اجتماع في منزل، وأصغرها المنزلة"[٩٧].

(مفهوم المدينة في "كتاب السياسة لأرسطو" لحاتم النقاطي، دار الحوار، اللاذقية، ط. ١، ١٩٩٥، ص. ٣١ – ٣٢).

(٩٤) نوادر الأصول، ج. ٢، ص. ١٢٥، الأصل ١٣٢.

(٩٥) كليات رسائل النور، ج. ٨، ص. ٣٥٩.

(٩٦) نوادر الأصول، ج. ٢، ص. ١٢٤، الأصل ١٣٢ في بيان صفات ولاة الأمور العادلين.

(٩٧) آراء أهل المدينة الفاضلة، ص. ١٨٣-١٨٤. وقد نقل صدر المتألهين الشيرازي أقسام

أما النورسي، فكان تصوره أوسع. فقد شَبَّهَ الإنسان بالاجتماع الكامل، بل شبهه بالكون، واعتبرهما مجلى للأسماء الإلهية، على حد سواء: "فكما أن الأسماء الإلهية المتجلية في العالم، الذي هو إنسان كبير، تتجلى أكثرها أيضا في هذا الإنسان، الذي هو عالم أصغر"(٩٨)، و"كما أن الإنسان عالم صغير، كذلك العالم إنسان كبير. فهذا الإنسان يمثل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسه. فالنماذج المصغرة في الإنسان، لا بد أن أصولها الكبيرة المعظمة، موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة"(٩٩).

ومما يدل على أهمية هذه الفكرة، في النسق الفكري عند النورسي، أنها اتخذت بعدا روحيا، وصارت من مكونات أدعيته ومناجاته. من ذلك، مناجاته، التي يقول فيها: "حسبي من جعلني إنسانا، فأنعم علي بنعمة الإنسانية، التي صيرت الإنسان عالما صغيرا أكبر معنىً من العالم الكبير"(١٠٠)، وفي مناجاة له أيضا: "حسبي من جعلني مظهرا جامعا لتجليات أسمائه، وأنعم علي بنعمة لا تسعها الكائنات، بسر حديث: "لا يسعني أرضي، ولا سمائي، ويسعني قلب عبدي المؤمن"(١٠١)"، حيث يعلق عليه بقوله: "يعني: أن الماهية الإنسانية، مظهر جامع لجميع تجليات الأسماء المتجلية في جميع الكائنات"(١٠٢).

الاجتماعات الإنسانية، من "آراء أهل المدينة الفاضلة"، بألفاظها، دون إشارة أو إحالة إليه أو إلى مؤلِّفه (المبدأ والمعاد، ص. ٦١٤ – ٦١٥).

(٩٨) كليات رسائل النور، ج. ٣، ص. ١٩.

(٩٩) كليات رسائل النور، ج. ٣، ص. ١٢٧. وانظر أيضا: ج. ٣، ص. ٤٧٣.

(١٠٠) كليات رسائل النور، ج. ٣، ص. ٥٠٨.

(١٠١) ذكره الحكيم الترمذي، عن وهب بن منبه، وغيره، بلفظ: "ولست أسكن البيوت، وأي بيت يسعني، والسماوات حشو كرسي؟! وإني في قلب الوادع، الضعيف، لين القلب" (الأمثال من الكتاب والسنة، ص. ٢٢١. الصلاة ومقاصدها، تحقيق حسني نصر زيدان، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٥، ص. ٦٥. منازل القربة، تحقيق خالد زهري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: نصوص ووثائق، رقم ٣، ط. ١، ١٤٢٣ / ٢٠٠٢، ص. ٨٢٠)، وذكره في "كتاب ختم الأولياء" بلفظ: "يا موسى، وأي بيت يسعني؟! وأي مكان يحويني؟! فإن أردت أن تعلم أين أنا، فإني في قلب التارك،

وهو؛ في كل ذلك؛ لا يغفل عن استحضار الحلقتين المفقودتين في مشروع المعلم الثاني، وهما "الإنسان" و"الملكوت".

فإذا كان الفارابي، يرى أن "الخير الأفضل، والكمال الأقصى، إنما يُنال أولا بالمدينة، لا بالاجتماع[١٠٣]، الذي هو أنقص منها"[١٠٤]، فالنورسي يرى، أن الخير الأفضل، يُنال بوصل عالم المُلْك بعالم الملكوت، وبعبارته: "ثم إن وجهَي الحياة، أي: المُلْك والملكوت، صافيان ظاهران، لا نقص فيهما، ساميان. وهي - أي: الحياة - مخلوق خاص، متميز عن كل خلق آخر، لم توضَع لها الأسباب الظاهرة حُجبا بينها، وبين تصرفات القدرة الإلهية، كما هي في سائر الأشياء. وذلك، ليكون أمر صدورها من يد القدرة الربانية مباشرة، دون حجب أو وسائط"[١٠٥].

الورع، العفيف" (كتاب ختم الأولياء، تحقيق عثمان إسماعيل يحيى، منشورات "بحوث ودراسات بإدارة معهد الآداب الشرقية في بيروت"، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٥، ص. ٣٣٢. قال زين الدين العراقي: "لم أرَ له أصلا" (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، منشور مع "إحياء علوم الدين" للغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.، ج. ٣، ص. ١٦، كتاب شرح عجائب القلب)، وقال ابن تيمية: "هذا مذكور في الإسرائيليات، ليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ" (علم الحديث لتقي الدين بن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٩/١٤٠٩، ص. ٢٧٥)، وقال السخاوي: "وكأنه أشار، بما في الإسرائيليات، إلى ما أخرجه أحمد في "الزهد"، عن وهب بن منبه، قال: "إن الله فتح السموات لحزقيل، حتى نظر إلى العرش، فقال حزقيل: "سبحانك! ما أعظمك يا رب!"، فقال الله تعالى: "إن السماوات والعرش ضعفن عن أن يسعنني، ووسعني قلب المؤمن، الوادع، اللين"" (المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. ٣، ١٩٩٧/١٤١٧، الحديث ٩٩٠. الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث للغزي العامري، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي، دار ابن حزم، بيروت، ط. ١، ١٩٩٧/١٤١٨، الحديث ٤٣٠).

(١٠٢) كليات رسائل النور، ج. ٣، ص. ٥٠٩.

(١٠٣) في المطبوع: باجتماع.

(١٠٤) آراء أهل المدينة الفاضلة، ص. ١٨٤.

(١٠٥) كليات رسائل النور، ج. ٣، ص. ٥٥٩. وانظر أيضا المصدر نفسه (ج. ٨، ص. ٣٤١).

وهذا الوصل المتين مظهر من مظاهر الجمال الإلهي، المتجلي في بديع صنعه: "فالوجهان شفافان جميلان، أي: جميل مُلْكا وملكوتا"[١٠٦].

وفي هذا السياق، ركز النورسي، من خلال وصفه للصراع بين القلب والنفس، على عدم المنافاة، بين الخير والشر، إيذانا منه بقطبية البعد الأخلاقي، في مشروعه. بل إن هذا البعد تلبَّسَ؛ عنده؛ بالبعد الجمالي، من خلال التكامل الذي أقامه بينهما.

خاتمة

صفوة القول: إن بديع الزمان سعيد النورسي، لم يهتم بوضع فلسفة، ولا كان يهدف إلى أن يكون منظِّرا، على المستوى الفكري، أو الفلسفي، أو السياسي، وإنما كان مشروعه أضخم وأعظم من أن يُحَلِّق في فلسفات عائمة في الفضاء.

لقد كان يرى، أن الأمة تحتاج إلى فكر مقاصدي وواقعي، وكان يبحث عن الأمراض، التي تمخر جسد الأمة، ليشخِّصها، ثم يصف لها الدواء، الذي إن أحسنت تناوله، تنهض بنفسها، وتنفض عنها غبار التخلف، لتكون في مستوى تأثيل صرح الشهود الحضاري.

وهذا التوجه العملي، في فكر النورسي، هو الذي جعله يسهم في إنهاض الأمة بالبحث عن الأسس، التي تبني عليها شهودها الحضاري، والتي تحقق المقاصد المرعية في الإسلام، وليس بالتنظير الفلسفي النظري. فوضع خمسة أسس، لإنقاذ الأمة "في حياتها الاجتماعية والسياسية، ونجاتها من الفوضى، والإرهاب، ومن المخاطر العظيمة".

وهذه الأسس هي: "الأول: الرحمة، الثاني: الاحترام، الثالث: الأمن والثقة، الرابع: اجتناب المحارم والتمييز بين الحرام والحلال، الخامس: الطاعة وترك التسبب".

---

(١٠٦) كليات رسائل النور، ج. ٦، ص. ٤٣٠.

ثم يقرر أن "رسائل النور، عندما تنظر إلى الحياة الاجتماعية، تحقق هذه الأسس الخمسة، وتثبت بها ركائز النظام في البلاد"[١٠٧]، وأنها "لم تستعمل، إلا لصالح الأمة والبلاد"[١٠٨].

وحيث إن مشروع النورسي مشروع إسلامي، وأيضا إنساني، فإن رسائله أيضا تحمل بين طياتها دواء للأمراض، التي تفتك بالإنسان، من أي جنس كان، ومن أي دين كان، وهي "تفسر، وتكشف طلسم الكائنات العظيم"[١٠٩]، يقول: "إن هذه البلاد، وهذه الأمة والحكومة، ستكون؛ في أقرب وقت؛ بحاجة إلى مؤلفات، من أمثال "رسائل النور"، حاجة ماسة تجاه العالم الإسلامي، وتجاه الدنيا بأسرها. وستبين وجودها، وكرامتها، ومفاخرها التاريخية، بإبراز هذه المؤلفات"[١١٠].

---

(١٠٧) كليات رسائل النور، ج. ٧، ص. ٢١٣.
(١٠٨) كليات رسائل النور، ج. ٧، ص. ٢٣١ – ٢٣٢.
(١٠٩) كليات رسائل النور، ج. ٩ (سيرة ذاتية)، ص. ٢٥٣.
(١١٠) كليات رسائل النور، ج. ٧، ص. ٢٦٩ – ٢٧٠.

مقاصد الأخلاق في فكر بديع الزمان النورسي

ومقترحات رسائل النور لتجاوز قيم الصراع في النظام الدولي المعاصر

د. محمد همام
أكادير- المغرب

مدخل : " قلق الحضارة وأزمة الإنسانية."

لما أبدع كارل بوبر مفهوم "قلق الحضارة" كان يعتقد أنه مجرد صدمة يحدثها صدام الأفكار والآراء المتعارضة والمتناقضة، عبر آليات النقد والمواجهة الفكرية. وهذا القلق هو منبع الحركة في المجتمعات؛ فالنقد، بنظر بوبر، يحافظ على الغليان ويحقق اليقظة باستمرار. ولكن بوبر لم يدرك أنه كان يضع اللبنات النظرية الأولى والمبررات التصورية الأساسية لصراع شرس بين الثقافات والحضارات، بل عزز رؤيته الصدامية بتصور أسطوري لطبيعة الحضارة الغربية ولأصولها الممتدة في الحضارة اليونانية[١].

وعليه تعززت مقولة أن لا وجود حقيقي لمجتمعات إنسانية بدون صراع؛ فالصراع بنظر بوبر هو لحمة الحياة الاجتماعية؛ فحتى الحرب ليست إلا استمرارا بصيغة أخرى للسياسة[٢].

وتطورت هذه الأفكار لتبلغ ذروتها مع مقولات "نهاية التاريخ" و"صدام الحضارات"، وتقسيم الناس إلى سادة وعبيد، أو ماسحي أحذية وحفاري القبور،

---

(1) karlpopper: A la recherche d'un monde meilleur, éd. du rocher, 2000, p. 182.
(2) Jean Boudouin: La philosophie politique de KARL Popper, éd. PUF, 1994, p. 154.

بتعبير شومسكي وغارودي. وتم دحر مفاهيم الأخوة الإنسانية ومبدأ الوحدة الإنسانية. وفشل مشروع تشجيع الفردانية العاقلة والمتصالحة مع الكون.

وتحول الإنسان إلى كائن مادي مرتبط أشد الارتباط بالعالم المادي الطبيعي، وغير قادر على تطوير منظومته الأخلاقية خارج البرنامج المادي الطبيعي. وعلى هذا الأساس تكرس المفهوم التعاقدي الصارم للعلاقات الاجتماعية، واختفت علاقات التراحم بين الأفراد والدول والحضارات[٣].

لقد أصبح الإنسان، إذن، وبتعبير الفيلسوف هوبز، ذئبا لأخيه الإنسان. وأصبح الزمان الإنساني مثل الزمان الحيواني يخضع لدورات الطبيعة الرتيبة. واختزل مفهوم الإنسانية في الوظائف البيولوجية، بل تعمق البعد المادي الصارم والمبني على الصراع كأداة اجتماعية، من خلال إرجاع الجوانب الروحية في وجود الإنسان وسلوكه إلى أعضاء تشريحية وغدد وأحماض أمينية التي تشكل أساسه المادي. وتم الإغراق في إخضاع الإنسان وأبعاده لنماذج تحليلية مستمدة من العلوم الطبيعية، هذه العلوم التي انتصرت بشكل متحيز لبرنامج بيولوجي ووراثي عام وشامل مما يخالف فطرة الإنسان وتنوعه وتطلعه الروحي والأخلاقي.

هكذا أفرزت الحضارة الغربية المعاصرة، بنموذجها المادي الصارم، إنسانا طبيعيا يعرف في إطار وظائفه الطبيعية البيولوجية، ويعيش حسب قوانين الحركة المادية ويرد إليها. ولذا فهو في براءة الذئاب، وفي تلقائية الأفعى، وفي حيادية

---

(٣) التعاقد والتراحم، مفاهيم تحليلية يستعملها الخبير المعرفي عبد الوهاب المسيري في دراسة تطور علاقات المجتمع الإنساني. ينظر: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية، عبد الوهاب المسيري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٠م:٦٠. ونعتقد أن المجهود التحليلي الذي بذله الدكتور عبدالوهاب المسيري في جل أعماله ودراساته يشكل مدخلا ملائما لاستيعاب البرنامج الأخلاقي لرسائل النور، ولاستيعاب الملاحظات العميقة للعلامة النورسي في بناء منظومة الأخلاق الإسلامية في ظل تحديات الصراع الدولي المعاصر.

العاصفة، وفي تسطح الأشياء وبساطتها[٤]. وصاحب هذا النموذج المادي الشرس طوفان لفظي يقوم على أساس فلسفي يمتد إلى اليونان وينظر إلى الإنسان باعتباره حيوانا ناطقا، فكانت بحق هذه الحضارة حضارة قول[٥]. هذا القول أضر بفعل الإنسان ضررا كبيرا بما هو جوهر الجانب السلوكي في الطبيعة البشرية. وزاد من الجبروت القولي لهذه الحضارة المعاصرة نقصها العقلي من جهة المعرفة أو من جهة التقنية. وكان لابد أن ترتفع الأصوات لتكميل النقص في هذه الحضارة ورفع الظلم مما لحق الإنسان جراءها.

لقد انفجر صراع شديد في العالم المعاصر، تتحمل فيه الحضارة الغربية مسؤولية كبيرة، بتغليبها لهذا النموذج المادي الصارم الذي أجهز على جوهر الإنسان، وأبعد كل القيم الروحية والأخلاقية التي تغشى حياة الناس. وكان طبيعيا أن تشتد الأزمات الإنسانية، وترتفع معدلات التوتر النفسي والاكتئاب والشعور بالضياع، مع ما بلغته هذه الحضارة المعاصرة من تقدم ورفاه ماديين. بل تفجرت صراعات دموية في العالم لأتفه الأسباب، وداست أمم على أخرى. ولم يعد القانون الدولي ولا المؤسسات الدولية قادرين على ضبط هذا الجبروت البشري الظالم ضد الإنسان وضد الطبيعة، وارتفعت أصوات التحذير من هذا المسار الصراعي الرهيب الذي هوت إليه الإنسانية اليوم.

وكان طبيعيا أن يرتفع الصوت الإسلامي، بكل عمقه الروحي والأخلاقي، ليقدم أجوبة لأزمة الإنسانية المعاصرة. وكان العلامة بديع الزمان سعيد النورسي من كبار الأخلاقيين المسلمين الذين تصدوا لأزمة الإنسانية في العصر الحديث وقدم برنامجا أخلاقيا يجمع الإنسانية على قيم الإيمان والروح والمحبة، وذلك

---

(٤) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، الطبعة الثانية دار الفكر، دمشق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م: ١٥.

(٥) ينظر: سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م: ٧٧.

ما نسعى إلى إبرازه بعد الوقوف بتمعن عند الحاجة الحقيقية لحضارة اليوم لأخلاق الإسلام وبرنامج النور.

أولا: في نقد المادية الغربية.

تمهيد : الفردوس الأرضي والقفص الحديدي، في نقد مرتكزات النزوع المادي وتفكيك الإنسان:

أوهمت اليوتوبيا التكنولوجية الإنسان الغربي بإمكانية تأسيس فردوس أرضي يمكنه التحكم فيه. هذا الفردوس يعيش فيه إنسان طبيعي هو ثمرة التقدم الصناعي الهائل. ويكون هذا الفردوس خاليا من الزمان وبعيدا عن جدل الماضي أو استشرافات المستقبل؛ أي فردوس فيه زمن واحد ووحيد هو الآن ومكان واحد ووحيد هو هنا.

إن إنسان اليوتوبيا التكنولوجية إنسان لا حدود له ويرفض التاريخ؛ يبتدئ حرا فرحا كما صوره روسو، ليتحول إلى إنسان داروين أي الكائن المتجهم الذي يلتهم الضعاف من البشر أو تلتهمه الذئاب من البشر إن كان ضعيفا. ليتحول في نهايته المأساوية إلى أداة سلبية، أو كلب بافلوف المسكين، أي مجرد قابع في المعمل، لا يتحرك إلا بعد تلقي إشارات برانية، أي يتحول إلى كائن مادي محض، لا باطن فيه ولا إنسانية تسكنه[٦].

هكذا أصبح الإنسان الغربي اليوم ومن يقلده كائنا كميا وطبيعيا يعكس بيئته بشكل مباشر وبسيط، وأصبح التقدم العلمي هدفا في حد ذاته. وعوض أن يطور قيمة الإنسان ويرفع من همته الروحية والأخلاقية، جلب له البؤس ليسكن داخله. وبقدر ما تدور عجلات الإنتاج المادي لتوفير ظروف الرفاه للإنسان المعاصر، بقدر ما تتعمق غربة هذا الإنسان ويشتد قلقه حتى أوشك على الدمار من الخارج أي الطبيعة، ومن الداخل أي الانشطارات النفسية والأمراض

---

(٦) ينظر: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، عبد الوهاب المسيري: ٣١٩.

العصبية. ترى ما هي مرتكزات هذا النزوع المادي الذي فكك الإنسان ونزع عنه كل قيمه الروحية والأخلاقية وأبعاده الجوانية؟

إن الصراع الدولي المعاصر يقوم على فلسفة مادية هي جوهر الفلسفات الغربية الحديثة التي ميزت التطور الفكري والفلسفي لحضارة الغرب، خاصة الماركسية والبرغماتية والداروينية. كما تعتبر هذه الفلسفات الإطار المرجعي الكامن خلف رؤية الغرب للتاريخ وللتقدم وللعلاقات الدولية.

ويمكن تبين المفاصل المعرفية لهذه الفلسفة المادية المهيمنة اليوم على الإطارات المرجعية للإنسان المعاصر، من خلال موضوعات "الإنسان والمادة" و "علاقة الطبيعي بالإنساني" و "العقل والمادة".

١) الإنسان والمادة :

تنطلق الفلسفة المادية في نظرتها للإنسان من أسبقية الطبيعة/المادة على الإنسان. ويخضع عندها الإنسان للقوانين الطبيعية وضرورات الحياة العضوية. والفلسفة المادية التي تؤطر النموذج الحضاري السائد اليوم لا تكاد تعترف نظريا بالجوانب الأخرى في شخصية الإنسان والتي لا تخضع لقوانين الطبيعة، بل التي تعبر عن جوهر إنسانيته من مثل النشاط الحضاري الإنساني على المستوى الاجتماعي والخلقي والجمالي والديني... ثم إن الفلسفة المادية، وهي تنظر إلى الإنسان من منظور طبيعي/مادي، تعجز عن تفسير تساؤلات الإنسان باستمرار عما يسمى بالقضايا الأولى؛ أي قضايا الخلق والوجود والمصير في الكون، وطموح الإنسان المستمر للنظر والتدبر والبحث عن المعاني الكلية الكامنة. كما تعجز الفلسفة المادية عن البحث في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري.

إن الكائن البشري، على العكس من التوجهات المادية/الطبيعية، كائن واع بذاته وبالكون وقادر على تجاوز الطبيعة وعالم المادة والتحليق بذهنه في الآفاق والغوص بقلبه في الأعماق. إن الإنسان بحسب النظرة الفطرية قادر على إعادة صياغة ذاته وبيئته بما يوافق رؤيته المؤسسة على عمقه الإنساني وبعده

الأخلاقي. فالإنسان صاحب إرادة حرة؛ والحرية تنبع من نسيج وجوده البشري. إلا أن هذه الحرية مؤطرة بأهداف سامية تخدم تعاون الإنسان مع أخيه الإنسان، ولا تستلب بالضرورة لحاجته المادية ولغرائزه؛ بل الحرية الإنسانية التزام مؤطر داخل نسق من المعاني الداخلية والرموز. وإذا كانت الرؤية المادية تتحدث عن الإنسان النمطي المكرور تحت ضغط قوانين طبيعية مادية صارمة، فإن الرؤية الفطرية تنظر إلى الإنسان من خلال تميزه الذاتي؛ فكل فرد فيه خصوصيات لا يمكن تجاوزها أو طمسها. والناس ليسوا نسخا متطابقة يمكن إخضاعها للنموذج التفسيري المادي الواحد؛ بل الناس نسخ مختلفة ذات مراتب متنوعة ومتفاوتة تبدع باستمرار وتتغير باستمرار وتتحرك في التاريخ بين المأساة والملهاة والسقوط؛ أي بين الخطيئة والذنوب، وبين التوبة والعودة إلى الحق والصواب.

لقد سعى النموذج المادي إلى تكريس مفهوم الإنسانية الواحدة كظاهرة ترصد كما ترصد الظواهر الأخرى. وهذه الإنسانية الواحدة تفرز شكلا حضاريا عاما صالحا للتعميم والتسويق على الصعيد الدولي. وتشكلت منظومة معرفية تقوم على الإيمان بوحدة الطبيعة وبقانونيتها الصارمة؛ أي أن لكل علة سبب، وأن الطبيعة خاضعة لقوانين واحدة بثبات وانتظام وصرامة وحتمية واطراد وآلية. كما أن الطبيعة تتحرك بشكل تلقائي وعلى أساس مادي. ولاوجود داخل هذه المنظومة الفلسفية المادية لما يسمى غاية أو غيبا أو ما فوق طبيعي؛ فالطبيعة هي سقف الوجود الإنساني الأعلى! وهذا ينتهي إلى رفض فكرة الله وفكرة الإنسان خارج مقتضيات الطبيعة والمادة. إن كل شيء في العالم، بحسب الفلسفة المادية، مردود إلى القوة الدافعة للمادة وهي سارية في كل الأجسام وكامنة فيها.

والمادة، بحسب هذا التصور، تسبق العقل وتسبق الأخلاق؛ بل إن الأخلاق تفسر تفسيرا ماديا ووفقا لقانون طبيعي؛ فلا علاقة للأخلاق بالدين أو الإيمان، لأن معرفة العلم أصلا، لا تحتاج إلى استعارة وسائل معرفية خارج الطبيعة المادة؛ فالحواس الخمس، ببعدها المادي، كافية لإدراك العالم ورصد

محسوساته. وعليه فالأخلاق الإنسانية، بحسب هذه الرؤية، مرتبطة أشد الارتباط بمنطق الحاجة الطبيعية المباشرة؛ فالخير والجمال والإحسان والعطف والبر... مجرد تعبيرات عن أشياء مادية موجودة في الواقع المادي، بل إن كل ما هو إنساني إنما هو مجرد حركة للمادة.

وقد توسع هذا النموذج المادي وحقق نجاحا كبيرا في العصر الحديث بالنظر إلى حاجات الإنسان المادية. إلا أن هذا النموذج أصيب بالعقم في النظر إلى المستويات غير الطبيعية من حياة الإنسان، خاصة قضايا الأخلاق والجمال والروح. وبرغم الجاذبية المعرفية (الابستمولوجية) للنموذج المادي، فقد تحول إلى إيديولوجيا معادية للإنسان؛ إيديولوجيا تفتقد الوعي والهوية والحدود، انتهت بإعلان موت الآلهة ثم موت الإنسان، إلا أنها احتفظت بإله مادي من جنس الطبيعة؛ إله يحرس القوة ويدافع عن قيم الصراع وعدوان الإنسان على أخيه الإنسان.

هذا النموذج المادي هو المسؤول اليوم عن حركة التدمير التي يتعرض لها الإنسان والطبيعة؛ شعوب تباد وفضاءات تدمر بالنفايات والمواد الكيماوية والنووية الحارقة. وحتى المؤسسات الدولية، والتي يفترض فيها حماية الأمن الإنساني في العالم، فهي تقر تجليات هذا النموذج المادي، وهي القوة والصراع؛ فمن يستطيع، من داخل هذا النموذج المادي، أن يتصدى للثقوب أو الثغرات السوداء في الكون؟ إن هذه القوة المجنونة والكامنة في هذا النموذج المادي حطمت قوانين الطبيعة والحياة وتحطم معها الزمان والمكان.

لقد عجزت الفلسفة المادية، إذن، عن إدخال ظاهرة الإنسان، بكل أبعادها، داخل قفصها السببي الصلب والمطلق. فكان لابد من فلسفة ربانية متجاوزة لقوانين الحركة ومتجاوزة للإنسان الطبيعي المادي، ولن تكون هذه الفلسفة إلا نابعة من مصدر غير طبيعي وغير بشري، أي فلسفة ذات مصدر إلهي، وهي الفلسفة التي سعى العلامة النورسي إلى صياغتها وتحويلها إلى برنامج أخلاقي

فاعل وقادر على الإجابة على أسئلة الإنسان المعاصر، والذي التهمه النموذج المادي بكل نزوعه نحو القوة والصراع.

٢) علاقة الطبيعي بالإنساني.

اعتبر النموذج المادي الإنسان كائنا طبيعيا محدثا نوعا من التماثل بين الإنسان والطبيعة. وعليه فدراسة الإنسان يخضع لقوانين العلوم الطبيعية، ثم إن الصراع الذي يعيشه العالم اليوم ليس إلا نوعا من الانتخاب الطبيعي الذي ترعاه الفلسفة الطبيعية المادية، وكذلك القوانين الطبيعية المادية. وسيبرز مرة أخرى عجز هذا النموذج التحليلي أمام محدودية الظاهرة الطبيعية ولا محدودية الظاهرة الإنسانية؛ فإذا كانت الظاهرة الطبيعية المادية تقبل التفتيت إلى الأجزاء المكونة لها، ويمكن تحديد عللّها بل حصرها بطريقة رياضية، إضافة إلى إطرادها وتكرارها في إطار سببية صلبة، ثم إن الظاهرة الطبيعية ليست لها إرادة حرة ولا وعي ولا ذاكرة ولا ضمير ولا شعور ولا أنساق رمزية تسقطها على الواقع وتدركه من خلالها[٧]، فإذا كانت هذه هي خصائص الظاهرة الطبيعية ويمكن إخضاعها لمناهج العلوم الطبيعية وقوانينها ومقتضياتها، فإن الظاهرة الإنسانية غير محدودة وتتميز العناصر المكونة لها بقدر كبير من التركيب يستعصي على التفتيت والتحديد والحصر، أما أسبابها فمتشابكة ومتداخلة ويتفاوت تأثيرها فيها. والظاهرة الإنسانية لا تخضع للاطراد؛ فكل إنسان حالة ذاتية خاصة ومتفردة. ثم إن الإنسان يملك إرادة وله وعي مرتبط بسلوكه في الحياة. كما أن الزمن المتعدد يتداخل في ذاكرة الإنسان بما يؤثر في تصرفاته. وإذا كانت الظاهرة الطبيعية يتماثل ظاهرها وباطنها، فإن ظاهر الظاهرة الإنسانية يختلف عن باطنها؛ ذلك أن الإنسان يخضع لتجربة داخلية يملؤها الإيمان والعواطف والأحلام والتطلعات.. ويعمقها المكون الشخصي والثقافي والذاتي في الإنسان.

---

(٧) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري: ٤٣.

إن هناك إذن فرقا بين ماهو طبيعي وماهو إنساني، وهذا الصراع الذي يعيشه العالم ينتمي إلى ما هو طبيعي وتدعمه فلسفة مادية شرسة، تسعى إلى تعميم النماذج الطبيعية والرياضية على جميع الظواهر، بما فيها الإنسان، إلى درجة إلغائه والتنكر للطبيعة البشرية الثابتة؛ أي لا توجد ذات إنسانية ثابتة في التاريخ، ولا توجد حالة طبيعية إنسانية، ولا يوجد شيء في الإنسان ثابت، كما أدعى ميشيل فوكو[٨].

فالنموذج الطبيعي التحليلي يستبعد كل القيم المطلقة كما يستبعد الإنسان كقيمة مطلقة، ومن ثمة يصبح نموذج المجتمع هو حركة الذرات المتساوية والمتحركة والمتصارعة، والذرات تتحرك من تلقاء نفسها كما يحدث في عالم الأشياء والحيوان. وينتهي الأمر إلى نسبية أخلاقية تساوي بين الخير والشر. وقد تظهر على هامش هذا النموذج أشكال من الوعي والإيمان بوجود جوهر إنساني يشكل الابتعاد عنه اغترابا؛ فيتم الحديث عن عزة النفس وكرامة الإنسان والمطالبة بالعدالة ومواجهة الاستغلال والاستعباد، إلا أنها تشكل حالات بطولية معزولة سرعان ما تغرق في بحر المادية الصارمة.

ولكن يبقى صراع القيمة متواصلا في هذه المجتمعات المادية الصراعية؛ أي من يقرر القيم؟ وما حدود تدخل الأغلبيات في ذلك؟ وتصبح الأمور معقدة في العلاقات الدولية عندما تقرر دولة مثلا غزو دولة أخرى وتحطيم سيادتها واستعباد شعبها. فما هو الأساس الأخلاقي لمحاكمة هذه الدولة الغازية والتصدي لعدوانها؟ هذا في غياب أية مرجعية ربانية أو إنسانية إلا المرجعية المادية القائمة على التفوق والقوة؛ أي أن الغلبة للأقوى والبقاء للأصلح بمعايير هذا النموذج المتوحش. إنه الهجوم على إنسان الفطرة والإفساد في الأرض بالمصطلح القرآني؛ إفساد يحمل لواءه نموذج بشري طبيعي ومادي، نجده في طرزان ورامبو أو أفلام الكارطون (Tom and Jerry) إنسان داروين ونيتشه وفرويد،

(٨) نفسه: ٦٧.

إنسان يفتقد كل معيارية أخلاقية وهذا ما يفسر الإباحية الجنسية واشتداد الصراع الدولي وتطوير الإمكانات العسكرية المدمرة، بما هو هجوم على الطبيعة البشرية وعلى قداسة الإنسان. إنها الرؤية العلمانية الإمبريالية التي لا تحترم أرضا ولا نسلا.

٣) العقل والمادة :

مهما كثر استعمال كلمة عقل في النموذج المادي فإنه يبقى مصطلحا غامضا وملتبسا. ولكن عادة ما يوضع العقل في مقابل الإيمان والخيال والتجربة والعاطفة. والفلسفة المادية تعتبر العقل جزءا لا يتجزأ من الطبيعة؛ فلا يوجد في العقل شيء لا يوجد أصلا في الواقع المادي. أما الفلسفات المثالية فتنظر إلى العقل باعتباره قوة في الإنسان تدرك المبادئ العامة التي تتحكم في الواقع(٩). وتحدث كانط عن العقل الخالص أو المجرد؛ أي العقل برسوم فطرية تنظم معطيات التجربة. وأبدعت مدرسة فرانكفورت، كمدرسة نقدية في الفكر الغربي الحديث، مفهوم العقل النقدي الذي يمكنه تجاوز الطبيعة. المهم أن مفهوم العقل الذي هيمن على الدراسات المعرفية في الفكر الغربي الحديث وكذا في الفكر العربي الحديث هو العقل المادي القادر على التواصل مع الواقع بشكل مباشر ومن دون مشاكل أو قلق؛ فأصبح العقل المادي هو الحكم.

ولم يستطع هذا العقل المادي الإجابة عن أسئلة الإنسان النهائية والمقلقة، أي سؤال: ما الإنسان؟ ما مصيره في الكون؟ كيف يواجه الموت؟ ما نطاق حدوده وشموليته؟ بل أضفى هذا العقل على أنواع الصراع والتدمير شرعيته وحماها بمقولات من جنس بنيته الطبيعية والمادية، وهو المحكوم بحدودها، كما أنه جزء لا يتجزأ منها. فقد أصبح هذا العقل المادي أداة للطبيعة/المادة في تدمير الإنسان والهجوم على التاريخ ومحاربة خصوصيات الشعوب وإبداعها برفض كل أشكال التنوع والاختلاف بين الحضارات، والتسويق لنموذج مادي

---

(٩) نفسه: ٨١.

كاسح ينزع عن الإنسان كل خصوصية أو فرادة أو تركيب. إن العالم بحسب هذا النموذج وبآلته العقلية، إنما هو كمّ وأرقام وسطح بسيط؛ لا أسرار فيه ولا أحلام ولا عقائد ولا أخلاق، بل تحول الإنسان إلى كم محض. وهذا ما تبرزه كل يوم قنوات الإعلام من أنواع التقتيل والتعذيب التي يتعرض لها الناس في العالم المختلف مع النموذج المادي الغربي؛ نموذج لا يعرف الحرمات ولا المحرمات؛ ينزع القداسة عن كل شيء، لأن شعوب العالم في فلسفته ليست إلا كائنات بيولوجية وكيميائية وغرائز تخضع لتفاعلات حتمية.

إن العقل المادي هو الموجه الأول اليوم لهذا الصراع الدولي الشرس؛ عقل يضفي الشرعية النظرية على توظيف الوسائل في خدمة الغايات دون تساؤل عن مضمون هذه الغايات ولا عن شرعية الوسائل هل هي إنسانية أم معادية للإنسان. إن الهدف الأسمى للعقل المادي هو السيطرة على العالم والطبيعة وتحويلهما إلى مجرد وسائل أو سلع للتبادل. هذا ما تجسده ثقافة السوق الرأسمالي، وكانت تجسده التكنوقراطيات الحاكمة في المجتمعات الاشتراكية قبل ابتلاعها من طرف الأنساق الليبرالية.

ويرجع بعض رواد الفكر النقدي في الغرب تشكل هذا العقل المادي وتمدده على النموذج الحضاري الغربي المعاصر، إضافة إلى العوامل المادية والاقتصادية والسياسية في التاريخ الغربي، يرجعون الأسباب الحاسمة إلى العناصر الثقافية والحضارية والتي رصدها ماكس فيبر، هذه العناصر تمتد عند هوركهايمر وأدورنو وهابرماس إلى عمق الأساطير اليونانية القديمة التي تشكل القاعدة المرجعية للفكر الغربي المعاصر؛ فالحياة في الأوديسة تتأسس على الصراع والهيمنة، ولا قيمة للتوازن أو العدل؛ عندها يتحول العالم، إنسانا وطبيعة، إلى مادة استعمالية خاضعة لمؤسسات اقتصادية تتحكم فيها بيروقراطيا إدارية صارمة تستبعد كل ما هو إنساني وفطري.

ثانيا: برنامج النور وسعادة الإنسان.

تمهيد : مقاصد رسائل النور، من التصادف الأخلاقي إلى السلم العالمي:

انبعث في الثقافة الغربية سؤال الأخلاق بعدما وصل النموذج المادي التحليلي، كما أشرنا له في الفقرات السابقة، إلى الباب المسدود. حتى إن العالم أصبح مقبلا على تحول أخلاقي عميق قد ينتج عنه نظام أخلاقي عالمي[١٠]. إلا أن السؤال الأخلاقي الغربي، وبرغم تأكيده على القيم في الحياة الإنسانية، ورفضه للنزوع المادي الصارم في مقاربة الظاهرة الإنسانية والجواب عن أسئلتها النهاية، فقد تأسس هو نفسه على قاعدة مرجعية وفلسفية تقول بأن القيم الأساسية التي تنبني عليها الحياة الطيبة، أو الحياة الخيرة، تكون متعارضة أو متنازعة أو قل متصادمة فيما بينها، حتى لا يمكن رفع هذا التصادم برد هذه القيم بعضها إلى بعض ولا بترجيح بعضها على بعض[١١]. ويرجع هذا التصادم إلى كون العلاقة بين القيم تتصف بـ"التغاير" و"التباين"؛ أي أن القيمتين المتصادمتين لا تقبلان مقايسة أو مقارنة إحداهما بالأخرى، كما أن مدلول إحدى القيمتين المتصادمتين لا يمكن أن يجتمع في العقل مع مدلول القيمة الأخرى.

وهذا التصادم أو الصراع القيمي نشأ عن ظروف ثلاثة: ظرف حداثي، عقلن العالم وأخضعه لنموذج مادي طبيعي صارم، وقد تحدثنا عنه بتفصيل في ما سبق، ووصلنا إلى أن هذا الظرف انتهى إلى إقرار التعارض بين العقل والدين مما أحدث تسيبا عقليا. وظرف إيديولوجي مرتبط بنمو النموذج الليبرالي الذي يفصل بين السياسة والأخلاق وانتهى بإقرار أشكال من التسلط السياسي على الشعوب والحرمات. وظرف استراتيجي تبلور في ما يسمى بـ"صدام الحضارات"

---

(١٠) ينظر: «الممارسة الأخلاقية والهوية الإنسانية»، طه عبد الرحمن، جريدة الإشارة، المغرب، العدد الثاني، شوال ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(١١) تعددية القيم: ما مداها؟ وما حدودها؟، طه عبد الرحمن، منشورات جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الدروس الافتتاحية، الدرس الثالث، أكتوبر ٢٠٠١م: ١٤.

القائم على حفظ الهيمنة الغربية، والرعاية الفلسفية والثقافية لكل أنواع الطغيان والابتلاع الحضاري للحضارات والثقافات غير الغربية، مما انتهى إلى التطابق بين الثقافة والأخلاق، والوقوع في تطرف ثقافي غربي مدمر. وقد أقر مجموعة من المفكرين الغربيين بهذا الصراع بين القيم والأخلاق، خاصة ماكس فيبر، وقد أشرنا إلى ذلك في مدخل هذا البحث. وذهب مفكرون آخرون منحى مغايرا للتقرير، فسعوا إلى التدليل على هذا الصراع القيمي والتصادم الأخلاقي وهما "يورغن هابرماس" و"كارل آوتو آبل"، وهما من الجيل الثاني لمدرسة "فرانكفورت" النقدية. واستدلوا على هذا الصدام القيمي تصحيحا أو تأسيسا. أما المدرسة الأخلاقية الأمريكية فقد ذهب بعض روادها إلى انتهاج مسلك التفريق لرفع التصادم بين القيم أو مسلك التجميع خاصة بين الجانب السياسي والجانب الأخلاقي.

إن الصراع الدولي اليوم والذي يتحرك، من الوجهة المعرفية، في إطار نموذج مادي صارم، كما يقوم على خلفية تصادم القيم والصراع بين الأخلاق، هو الذي سعى الفكر الإسلامي الحديث إلى تجاوزه بتقديم أجوبة أخلاقية بعمق فلسفي وديني يستطيع تجاوز خلفيات التصادم والصراع التي تسكن باطن العقل الغربي وتسربت إلى تصوره الأخلاقي.

ويعتبر العلامة سعيد النورسي من العلامات البارزة في الفكر الإسلامي الحديث والتي استوعبت هذه الخلفيات التصادمية في النموذج الغربي، عقليا وأخلاقيا، فقدم برنامجه النوري القائم على السلم والتصادف بين القيم والأخلاق عوض الصراع والحرب والتصادم، مما يجسده النموذج الغربي اليوم في أكثر من مكان في العالم. فلم يخف النورسي رغبته في تشييد فلسفة دينية جديدة إدراكا منه لما تتطلبه المرحلة التاريخية الحديثة من تجربة المسلمين؛ فلسفة دينية نورية تتفكر في ذات الإنسان في علاقته بالله.

ولقد جاءت رسائل النور لإنقاذ الإيمان الإنساني أو قل إمداد إيمان المؤمنين بالقوة(١٢). وهي لا تقصد الدفاع عن العقيدة ضد خصم معين، وإنما إلى تجديد الفهم للدين من حيث مكوناته ومقتضياته في سياق المقاصد الأخلاقية والمطالب الحضارية الضخمة والإجابة عن سؤال قلق المصير الذي يؤرق الإنسان جراء التداعيات السلبية المدمرة لحضارة الزيف المادي.

إن رسائل النور تقدم برنامجا أخلاقيا عالميا، بما هي ثمرة معاناة واجتهاد وإبداع انطلاقا من خصوصيات الحاجات الفكرية التداولية والنفسية للإنسان المسلم والإنسان المؤمن بعامة.

لقد قدم النورسي مقاصد برنامجه الأخلاقي في إطار نسق فلسفي وتصوري محكم، يحمل ملامح علم وجود إنساني تتداخل فيه العلوم والمعارف وتتكامل؛ من علم النفس إلى الأخلاق إلى الفلسفة إلى أجواء الروح وإشارات القلب إلى استشرافات المستقبل. كل ذلك في سياق استدلالي محكم يؤسس لعلم تبليغ جديد يبحث انعكاس الإسلام على حياة الإنسان، ويشيد فضاء فكريا تتحرك فيه معاني الدين وحقائقه بكفاءة استشكالية واستدلالية لا تقل عن الكفاءة التساؤلية والتدليلية للأنساق المعرفية والعلمية الأخرى، بل تتفوق عليها بما تتميز به مقترحات النور من الشمول والتكامل، وإحاطتها بكل فعاليات الإنسان في تعالق بعضها ببعض، مما يخرج الإنسان من العبودية للمخلوق، مادة أو طبيعة، إلى الحرية في الخالق(١٣).

لقد فتح النورسي رسائله لتحتضن الحيارى والضائعين، وأسس لمعرفة نفسية واجتماعية وإرشادية عميقة تقوم على النور المتوهج والقوة الممدة لكثير

---

(١٢) ينظر: كليات رسائل النور، رقم: ٩، سيرة ذاتية، بديع الزمان سعيد النورسي، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار "سوزلر" للنشر، إستانبول، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م: ٣٦٨.

(١٣) ينظر: سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية: ١٧٢.

من اللطائف الإنسانية فضلا عن العقل[١٤]. نور وقوة ينتشلان الإنسان من ضياعه ويجعلانه مشدودا إلى الفضيلة ومشربا قلبه بالألفة والرحمة والجنوح إلى السلم، ومتفتح عقله على المكارم وعلى ما فيه خير الإنسان.

لقد جاءت رسائل النور لتعيد إحياء القيم الخيرة في الإنسان، وتصد انهيار البشرية وتقهقرها بما سببه لها النموذج المادي التحليلي الصارم. فرسائل النور لا تقرأ باعتبارها علما أو مبحثا معرفيا وحسب، ولكن تقرأ بما هي محضن للعلوم الإيمانية التحقيقية؛ فبرغم أنها تستبطن نسقا تصوريا عميقا في الاستشكال والاستدلال، إلا أنها تقدم مقترحاتها ومقاصدها بما هي تصديق وليست تصورا، وهي إيمان وليست تسليما، وهي تحقيق وليس تقليدا وهي شهادة وليست معرفة مجردة أو جافة، وهي إذعان ذاتي وليست التزاما مفروضا، كما أنها حقيقة وليست تصوفا، وهي برهان ضمن الدعوى وليست ادعاء[١٥].

وعلى هذا الأساس سنحاول قراءة مقاصد الأخلاق من خلال مقترحات النور للإجابة على فلسفة الصراع والقوة التي حكمت العالم الحديث بشدة طيلة القرن العشرين وإلى اليوم، مقترحات تقوم على التصادف والسلم.

أولا : مقصد التصحيح النوري.

تثبت رسائل النور أن أخلاق الدين هي أخلاق عمق تغوص في أعماق الحياة وأعماق الإنسان. والسؤال الأخلاقي الذي انبثق في الغرب خلال القرن العشرين لم يلامس إلا السطح. هذا يعني أن الإنسان المعاصر في حاجة ماسة إلى أخلاق الدين لحصول الانتفاع بها، وتجاوز حالات الصراع التي تغمر العالم، أخلاق تبني الإنسان تطهيرا وتأنيسا.

أ- رسائل النور ومقصد التطهير الذاتي:

تحدث أرسطو عن التطهير إلا أن أفكاره الأخلاقية لم تخرج عن حدود

---

(١٤) ينظر: مرشد أهل القرآن: ١٥٦.

(١٥) نفسه: ٩٣.

الأخلاقيات التعقلية التقليدية. أما نظرية التطهير الذاتي كما تبرز عناصرها المتناثرة في رسائل النور وفي انتاجات النورسي بعامة، فتقوم على الاعتراف بدل التنكر؛ أي الاعتراف بسيد الكون الحق، وأن القيمة المعيارية للأخلاق تنبع من مصدريتها الربانية. كما ترفض أشكال التقطعات والحدود بمثل ما تلح عليه النظرية التطهيرية العلمانية. فنظرية التطهير النوري تقوم على الجمع بين العلم والغيب وبين العقل والقلب وبين العقل والحس؛ أي إن العناصر الفاعلة في حياة الإنسان متعالق بعضها ببعض، في إطار نسق معياري أخلاقي رباني. وتظهر التجليات الكبرى للتطهير الذاتي الإنساني في موضوعة العمل الصالح كقاعدة للوعي وممارسة يومية في الحياة، فرديا وجماعيا. وموضوعة العمل الصالح تسكنها روح معيارية ربانية هي التقوى[١٦]؛ والتقوى تعلق قلبي وعقلي بالخالق وتجسيد لذلك في السلوك، بدفع المفاسد وترك الكبائر، وكبح جماح هوى النفس الأمارة، هذه النفس التي تعتبر الملهم الأول في النظرية التطهيرية العلمانية.

ومن خلال دراسة الحالات السيكولوجية للأنبياء كما وردت في القرآن الكريم، كيعقوب ويوسف عليهما السلام، استطاع النورسي وضع برنامج تطبيقي للتطهير الذاتي يمكن لكل فرد تطبيقه وإعادة تشكيل ذاته وفقه من الناحية النفسية والعصبية، حتى لنكاد نظن أن العلامة النورسي قدم في رسائله برنامجا لهندسة اللغة النفسية والعصبية قبل أن تظهر هذه الموجات المعاصرة التي تعيد ما ذكره النورسي بمصطلحات ومفاهيم قد تبدو جديدة في ظاهرها.

والتطهير الذاتي عند النورسي يقوم على ما يمكن تسميته بأخلاق شق الصدر بتعبير الفيلسوف طه عبد الرحمان، وهي أخلاق عمق تطهر باطن الإنسان وتجدد عمقه وتؤهله لتحمل المسؤوليات الجسام في ظل انهيار النظريات الأخلاقية المادية والأنساق المعيارية العلمانية والدساتير السلوكية البرغماتية.

---

(١٦) نفسه: ١٩٢.

والنورسي عندما يقدم برنامجه التطهيري فهو يورد الأخلاق في صورة أخبار وليست في صورة أوامر، وفي صورة قصص وتجارب حية وليست في صورة نسق نظري مجرد؛ فتصبح الأخلاق في رسائل النور أفعالا حية يعيشها قراء الرسائل وتلاميذ النور وكل الناس الحيارى. وهذا التقديم الخبري أو تقديم الأخلاق بالمثال أو بالقدوة، لم يمنع بديع الزمان من التدقيق العلمي في المفاهيم الخلقية التطهيرية؛ فالحديث مثلا عن الشفقة، وهي حالة نفسية باطنية تسكن المرتوين من بحر الرحمة الإلهي، هذا الحديث يقتضي من النورسي فصل "الشفقة" عن "العشق"، فالشفقة أوسع من العشق؛ فالعشق يطلب الأجر والعوض، وأما الشفقة فمقرونة بالتضحية دون عوض، وطريق الشفقة هي طريق الرحمة[١٧]، وإن ضماد ألم الشفقة ذاك إنما قوله تعالى: ﴿فَاللّٰهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٦٤).

وحديث النورسي عن التطهير الذاتي بأخلاق فردية باطنية، يتحرك ضمن وعي شامل بحركية الإنسان وعلاقاته الاجتماعية ودوره التاريخي في الحياة العامة؛ فالنورسي لما يدعو إلى تطهير النفس من آفة الحسد فهو يستشعر الصراع الدولي المعاصر والذي يتحرك على خطوط من الحسد والبغضاء بين أمم وشعوب وبين الناس جميعا، فبرنامج التطهير يمس الذات الفردية وهي تعيش وتتفاعل وتتدافع أو تتصارع مع الآخرين. ثم إن التطهير يمس الذات وكذلك الفكرة والوعي؛ فتطهير النفس من الحسد لا يمكن أن يمر إلا بتصحيح على مستوى الوعي أي الاعتقاد بأن الدنيا وحدها لا تساوي متاعا يستحق النزاع عليه[١٨]؛ أي الخروج من ضيق المادة إلى سعة الروح، وتعميق الحس الإنساني الفطري وتقليص الجانب الطبيعي المادي.

والتطهير الذاتي ليس عملية محدودة في الزمان والمكان؛ فخلق التضحية والفداء خلق لابد أن يتجدد باستمرار في حياة الإنسان، ولابد لكل فرد متطهر أن

---

(١٧) ينظر: المكتوبات: ٣٦، ٣٧، ٣٨.
(١٨) نفسه: ٣٤٥.

يصل بهذا الخلق إلى مداه الأقصى كما فعل النورسي؛ حيث وصل إلى درجة تطهر أعلى وتشبع بخلق التضحية، جعله يقبل ترك الجنة والدخول إلى جهنم من أجل أن يكون وسيلة لانقاذ بعض المساكين من أهل الإيمان(١٩)!

إن عملية التطهير النوري عملية مستمرة منذ أن خضع رسول الله ﷺ لعملية تطهير قلبي. والإنسان في حاجة دائما إلى مطهر خضع هو بنفسه للتطهير من لدن مطهر في إطار سلسلة تطهيرية مستمرة. والأخلاق المستمدة من عملية التطهير الذاتي كما تقدمها رسائل النور هي في المحصلة أخلاق تأهيل القلب، لا ليكون محل العواطف والانفعالات والأهواء وحسب، ولكن ليكون محل العقل وتوابعه من المعرفة والتفكر والتذكر بما يجدد أصل الإنسان وباطنه ويحوله إلى إنسان عالمي جديد.

ب- رسائل النور ومقصد التأنيس بدل التسييس.

خاض النورسي تجربة سياسية مريرة ملأها الابتلاء والمعاناة، سجنا ونفيا واضطهادا، لكنها لم تفت من عضده، كما لم تمنعه من إعمال قدراته التفكيرية والتدبرية في أوج لحظات الانفعال والتوتر تقييما وتقويما ومراجعة. وهذا أمر نادر عند كثير من الدعاة الذين تحول ابتلاؤهم إلى إيديولوجيا استقطابية للأتباع، من دون تفكر في مصالح الدعوة الدينية ومقتضياتها التداولية والمرحلية. وجاءت رسائل النور في جزء كبير منها لترسم منهجا في الإصلاح الأخلاقي مفارقا للمناهج الدينية التي سلكت مسالك سياسية متعددة.

ويقوم منهج النورسي الأخلاقي على إحياء البعد الروحي للقرآن الكريم وتفعيل مقتضيات الخلق القرآني. هذا البعد الروحي امتد على مجالات العمل الإسلامي ليعيد صياغتها من جديد، تصوريا وعمليا. فقد أعطى النورسي لمجموعة من العبادات بعدا روحيا داخليا، يحولها من مجرد انشدادات شبقية لا واعية، أو إيديولوجيا سياسية، إلى عمل روحي أصيل يتعمق في نفس الإنسان

(١٩) ينظر: مرشد أهل القرآن: ١٤٥.

ويعيد صياغتها من جديد. كما أعطى للدعوة إلى الله مدلولا إنسانيا بعيدا عن التطلعات السياسية الطائفية، أو الطمع في المكاسب المادية.

واعتناق النورسي لروحية القرآن، ونحته لمنهج جديد في البناء الإنساني، ليس مجرد اعتناق إيديولوجي أو إكسير إيديولوجي ارتد إليه بعض نكوص وجودي فاجع، إنما هو تعبير صادق عما يعتمل في باطن النفس من حمية إيمانية صافية ومتوثرة(٢٠). هذا الإيمان الحي هو الذي دفع النورسي إلى التوجه بالنقد اللاذع إلى النموذج الدعوي السياسي، واعتبر إلباس الدعوة لبوسا سياسيا، أو قل التسييس بتعبير الفيلسوف طه عبد الرحمان، خطأ فادحا ارتكبه بعض الدعاة وقلدتهم الحركات الإسلامية. ومن ثمة دافع عن أطروحته في الدعوة الإسلامية بعمقها الإنساني، أي التأنيس. ففي رسائل النور نجد في أكثر من مكان تبرم النورسي من العمل السياسي الحزبي باسم الدين؛ لأن خدمة القرآن، بنظره، مانعة من السياسة(٢١). وهو يستعيذ من السياسة استعاذته من الشيطان(٢٢).

واقتنع النورسي بأن الصراع الدولي المعاصر لا تخرج أسبابه الكبرى عن نطاق السياسة. وهذا أمر خبره بديع الزمان في ممارسته السياسية الأولى، ولذلك انسحب من مضمار العمل السياسي لما رآه من تعصب وعدوان وولاء بناء على التوافقات السياسية في المذهب والموقف وليس بناء على الحق والحقيقة(٢٣). وحذر النورسي طلابه من الممارسة السياسية الحزبية، كما حذرهم من أن يجعلوا من الدين وسيلة لمكاسب دنيوية(٢٤). فالدعوة التي يمكن أن تؤسس الإنسان المؤمن الجديد دعوة بلا عوض. إنما الهدف هو هداية الإنسانية وإرشادها، والحد من حالات التوتر والاحتقان بين الناس. والداعية الإنساني،

---

(٢٠) ينظر: بديع الزمان النورسي، سيمياء الشكل والصميم:٢٠.

(٢١) ينظر: سيرة ذاتية: ٣١٣.

(٢٢) نفسه: ٢٨٦.

(٢٣) ينظر: المكتوبات: ٣٤٦.

(٢٤) ينظر: مرشد أهل القرآن: ١٤٩.

كما تقدمه رسائل النور، داعية غير مسيس؛ أي لا يختفي وراء الدين لمآرب دنيوية حقيرة، والداعية غير المسيس داعية متخلق رحيم بالناس جميعا، ومتفائل ينشد معالي الأمور، ويضرب اليأس في هذا العالم المتصارع بسيف الآيات الكريمة ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ (الزمر: ٥٣)، وقوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، وقوله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: ١٢). وإذا ما انفض الناس من حوله وتمادوا في غيهم وصراعهم تنزلت عليه الرحمات والسكنات بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (الشورى: ١٥)، وقوله تعالى: ﴿وأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩)[٢٥].

إن تسييس العمل الدعوي، بعمقه الأخلاقي، يصل عند النورسي إلى حدود التعارض مع الإخلاص؛ فمن الصعوبة، بنظر النورسي، الحفاظ على سر الإخلاص في خضم الصراعات المتنافرة للتيارات الحالية. ومن العسير الحيلولة دون جعل الدين وسيلة لمكاسب دنيوية[٢٦]. فمن هذا المنطلق، فإن طلاب النور الذين يحملون الجواب الأخلاقي الشافي للإنسانية الغارقة في أوحال الصراع والدمار، يفترض فيهم الابتعاد عن كل ما هو سياسي[٢٧]، والتحول إلى مرجعية أخلاقية متعالية عن التنافسات السياسية الجزئية.

إن رغبة النورسي في تنقية العمل الديني من مظاهر التسييس المضرة بجوهر الدين، لا تخرج عن مقاصد مشروعه التصحيحي في الرؤية الدينية ذاتها؛ ذلك أن الدين في النموذج الغربي المادي الصارم تحول إلى شبح يغشى سياسة الغرب المتسلطة ويحمي ثقافته المتطرفة. وأما في العالم الإسلامي، فتحول الدين في أكثر من مستوى إلى رافعة سياسية وإيديولوجيا احتجاجية، أكثر مما هو عمق إيماني يخدم الإنسان ويستجيب لتطلعاته للعيش السعيد في الحياة الدنيا، والاستعداد المتوكل للقاء الله.

---

(٢٥) نفسه: ١٩٧-١٩٨.

(٢٦) ينظر: سيرة ذاتية: ٣٦٥.

(٢٧) نفسه: ٥٣٦.

ثانيا : مقصد التوعية النوريـة

ينتقل البرنامج النوري من مقصد التصحيح إلى مقصد التوعية؛ أي بناء الوعي الإنساني الجديد، والتفاعل الإيجابي والحي مع مقتضيات الدين ومقاصده. ويتحرك برنامج التوعية النوري على خطين متوازيين ومتكاملين؛ خط الوعي القاعدي، وخط القوة المادية الجامعة.

أ- خط الوعي القاعدي أو قواعد الوعي الديني الكوني المفتوح:

استوعب النورسي مضمون الإنسانية ضمن وعي ديني كوني مفتوح على العالمية؛ فالإسلام الذي تفاعل معه النورسي لا يقيم الحواجز بين البشر وإن ألحدوا، أو تباينت عقائدهم[٢٨]، بل يسعى إلى إيصال نور الهداية للجميع. وعليه لا مبرر، بحسب مقترحات النور، لكل هذا الصراع بين الأمم، ولا مكان للإيديولوجيا الاصطفائية أو العنصرية التي تخص شعبا بالاختيار أو الرضى الإلهي؛ فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم. ويتطور الوعي الديني بالإنسان في فكر النورسي، بما يخرج مقاصد مشروعه عن الأبحاث الدينية التقليدية التي كانت تنظر إلى الإنسان باعتباره مطبقا لقوانين الفقه بشكل صارم، من غير الانتباه إلى قيمة الإنسان ذاته في الخطاب الديني. أما عند النورسي فالإنسان موضوعة محورية في وعيه الديني؛ بل الإنسان عنده، هو أكثر من يمثل الحكم المقصودة في الكون وأفضل من يظهرها، وهو مركز العوالم ومحورها؛ هذه العوالم التي تتطلع إلى الإنسان[٢٩]. والإسلام الذي يحتضن هذا الإنسان الكامل ليس إيديولوجيا دوغمائية مغلقة ومتشددة، ولكنه فضاء استيعابي يضم الناس جميعا بعيدا عن التحيز والعناد والحسد، ويرفض العداء الذي هو ظلم شنيع يفسد حياة البشر الشخصية والاجتماعية والمعنوية،

---

(٢٨) ينظر: بديع الزمان النورسي، سيمياء الشكل والصميم: ١٠٢.
(٢٩) ينظر: الاسم الأعظم: ٣٧.

بل إن الصراع والعداء في نظر برنامج النور إنما هو السم الزعاف لحياة البشرية قاطبة[٣٠].

إن قواعد الوعي الديني الجديد الذي تقدمه رسائل النور لانتشال الإنسانية من واقعها النفسي المؤلم يتطلب دعاة على درجة كبيرة من الوعي الديني المفتوح؛ دعاة يقدمون القرآن، كما قدمه النورسي، لا على أساس أنه برنامج سياسي مرحلي، ولكن على أساس أنه شفاء لما في الصدور، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٧)، وعلى أساس أنه نور للنفوس المظلمة وليس صولجانا مخيفا[٣١]، وقوام ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ (الفرقان: ٧٢).

ب- خط القوة المادية الجامعة: أو من الوحدة القسرية إلى الاختلاف الباني بين المؤمنين:

لم ينظر النورسي إلى الإنسان الإيماني الجديد مفردا وفي معزل عن الحياة وعن علاقاته الاجتماعية؛ بل اهتم بالإنسان في بنيته الاجتماعية بقدر ما اهتم به في ذاته الباطنية الخاصة. لهذا عنون النورسي رغبته في تحقيق ترابط الإنسان الإيماني الجديد مع إخوته على قاعدة مادية جامعة شعارها "إنما المومنون إخوة"، والتي لا تتعارض في برنامج النورسي مع الأبعاد الفردية للإيمان.

---

(٣٠) ينظر: مرشد أهل القرآن: ٢٠٤.

(٣١) نفسه: ٢٠٤.

المقاصد القرآنية عند الأستاذ النورسي
ومقصد الرسالة نموذجا

أ. د. محمد خليل چيچك
جامعة يوزنجي ييل
كلية الإلهيات
وان - تركيا

الحمد لله حمد عباده المتفهمين لأسرار شريعته والمجتهدين في ضوء مقاصد كتابه ومقاصد شرعته والصلاة والسلام على سيدنا محمد قائد الأئمة المجتهدين ورائد الغر المحجلين وعلى آله وصحابته أجمعين.

تمهيد

مما لا يمتري فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان أن الأستاذ النورسي عليه سوابغ الرحمة والرضوان كان من فطاحل علماء هذا العصر ذكاء، ودهاء، وعلما، وعملا، وفكرا، ونظرا فهو قد استجلب أنظار المحققين والمفكرين في عصره ومن بعده لا بذكائه ورصيده العلمي والثقافي الواسع فقط بل بثاقب نظره التوحيدي المتغلغل في خبايا الكون والمتطلع على حقائق توحيدية عظمى ربما لم يتنبه لها إلا أفذاذ العارفين من ذوي الإشراقات الروحية. وكذلك لفت أنظار عالم العلم والفكر إلى هذا الطود الشامخ صموده في وجه الباطل -أيا كان ثمنه- والتزامه بالحق بدون أن يخاف في وجه الحق لومة لائم فهو كما قال: إبراهيم محمد أبو ربيع "أعظم مفكري هذا العصر الأخير وهو الرجل الوحيد

الذي ناضل عبر جميع حياته كي يبرز بمبادئه الثابتة ديناميكية الإسلام في هذا العصر.[١]

كان الأستاذ النورسي ينظر أمامه فيرى بثاقب فكره وحدة ذكائه من جانب ما احتشدت على العقائد الإسلامية من صولات وما تأتيها يمينا وشمالا من غارات تتضاءل أمامها الغارات التتارية الشعواء. ويرى من جانب آخر ما سجله العلوم الحديثة المتنوعة في شتى مجالات الكون والحياة من تطورات واسعة وآفاق شاسعة وكان ينظر وراءه فيجد تلك الثروات العلمية الهائلة في شتى ميادين العلم والفكر من فقه وحديث وفلسفة وحكمة وأخلاق وأدب وما إلى ذلك مما خلفه سلفنا الصالح كما كان النورسي يجد في نفس نصوص الكتاب والسنة رصيدا عجيبا ومنبعا ثرا فياضا لجميع تلك القواعد الحقوقية والأصول التشريعية والآداب النفسية والفضائل العملية التي تطمئن المجتمع وتوصله فردا وجماعة إلى مكامن السعادة النفسية ومجامع الطمأنينة القلبية ومخابئ السكينة الروحية كما كان يجد في الحياة الواقعية لسلف هذه الأمة دساتير الخلال الحميدة والأخلاقيات الكريمة التي تزكي النفوس وتطهر القلوب وتمتع العقول مما استلهمه سلفنا الصالح من ينابيع الكتاب والسنة كما كان يشمئز مما توضعت على الحقائق الإسلامية من غبار الإسرائيليات والأساطير والخرافات التي سببت توهم البعض منافاة بين الحقائق الإسلامية والمسائل العلمية فاستمع إليه كي ترى بأم عينيك شجاعته البالغة من جانب وثقته التامة بنفسه من جانب آخر حيث يتحدى: "**إن مما شجعني على المصارعة لأفكار الأعصر الخالية وعلى مبارزتي لخيالات احتشدت من مئات السنين اعتقادي بأن الحق ينمو وإن تستر وقل ملتزموه وأن الحاكمة على الاستقبال هي الإسلامية وما منع استيلائها على الماضي: إلا التقليد وجهل الأجانب وتعصبهم ورياسة القسيسين وإلا الاستبداد وسوء أخلاقنا وتذبذب أحوالنا ... ومن أعظم الحجب لتجلي الإسلامية توهمنا**

---

(١) İbrahim Ebu Rabi' Mary F. Weld'in Bediüzzaman Said Nursî Entelektüel Biyografisi kitabının girişi, Türkçesi Celil Taşkın, İstanbul- 2006, s. 9.

نحن والأجانب معاداة ومصادمة بين حقائق الفنون وظواهر الدين".[٢] فتراه يحاول جهده ويسهر ليل نهار على الإتيان بحلول مستقاة من صميم روح الكتاب والسنة لما يقض مضجعه من تلك الأحداث والمشاكل التي تجابه الأمة الإسلامية. ومن هنا كان يعجبه أن يأتي بتركيبة جديدة مؤلفة من حقائق علومنا الغابرة والحقائق الفنية المعاصرة ووقائع الحياة الإسلامية العملية يدافع بها عن الإسلام وحقائقه العليا لعلها تكون استجوابا لما يلفقه الأفاكون المعاصرون على الإسلام ومنابعه من افتراءآت وأكاذيب.

فالله سبحانه -وهو المعطي ما يشاء لمن يشاء- هيأ في مشارف القرن العشرين رجلا يعد لهذه الغارة الشعواء عدتها ويأتيها بقوتها ويحمل على كاهله عبء الدعوة الإسلامية بحذافيرها ويرفع راية التوحيد في لبوس جديد وقالب قشيب فهو رجل في جسمه ولكن كرجال في قوة جنانه وحدة طبعه وإشراقة روحه واستنارة عقله ورباطة جأشه فللّه دره من عالم هيصور.

كان العلامة النورسي يدرك بمواهبه الربانية وإشراقه الروحي وصفائه النفسي جميع تلك النقاط الحيوية في حياة الأمة: العقدية، والفكرية، والعملية، والسياسية التي تحتاج إلى قراءة معاصرة تكون ملزمة ومفحمة للمحادين الذين يحادون الله ورسوله فيلهثون خلف ما يصمون به شرعة الإسلام ودساتيرها الحنيفة ومبادئها السمحة فيتركز النورسي من حين لآخر حسب ما يراه من حاجة الشباب والمثقفين والمنورين على الموضوعات العقدية والفكرية والاجتماعية من المنظور الإسلامي. ويحللّها بحذاقة ولباقة ويأتي على الموضوع من جميع جوانبه التي تحتاج إلى تحليل وتفصيل. فهو كان يرى أن مقتل الأمة هو عقيدتها ثم شريعتها فأية ضربة قاسية مؤلمة تصيب الأمة في إحدى هاتين الحقيقتين فهي ستكون قاتلة للأمة إن لم تؤخذ لها عدتها ولم تؤت بما يدفعها.

---

(٢) النورسي بديع الزمان سعيد، الصيقل الإسلامي (ضمن آثار بديعيه)، إستانبول ١٩٩٩، ص ٤٢١.

فالعلامة النورسي رحمه الله كان يتابع عن كثب جميع وقائع العصر وأحداثه ويقرأ قراءة ذكية تطوراته وتحولاته في مختلف مجالات الحياة وكان يعرف معرفة الخبير المتخصص العقلية السائدة في العصر المتضمنة في طياتها مآت الانحرافات والزيوغ والريوب وشتى أنواع الإنكار والإلحاد والجحود فيدرك من ثمه بفراسة المؤمن الحكيم البصير ما تحتوي عليه تلك العقلية من مخاطر ومهالك وتحديات كما كان ينظر إليها نظر العالم الخبير الذي يُعِدُّ لها عدتها فمثله في رد فعله تجاه هذه الأحداث التي تشيب منها الولدان كمثل قسورة ثابت على غزالة فكان يصول ويجول في تلك الميادين التي يرى أن منها أدخنة الإلحاد تثور وأغبرة الكفر منها تفور وكان جميع مهمته أن يستعد لجميع هؤلاء المعاطب كمال الاستعداد ويأخذ تجاهها حذره من جميع الجهات لا فكرا وعلما وثقافة فقط بل عملا وسلوكا وموقفا أيضا بحيث ربما لا يبقى زيادة لمستزيد؛ فإنه رحمه الله كان على وعي تام بأن على المسلم المتحمس لدينه أن يفند اعتراضات المنتقدين على الإسلام والمسلمين بموقفه الإيجابي النصوح لله ورسوله قبل بيانه، وبعمله قبل قوله. فكان النورسي داعية العصر بحق لأنه كما كان ينبثق الحكمة والحقائق الإسلامية من قلمه المعطاء فكذلك كان محاسن الشريعة الغراء وفضائل الأخلاقيات الإسلامية العليا أيضا تنبثق فتنتشر من فعاله وخصاله فكان كل من قلمه ولسانه وأحواله وأعماله تتلو آيات الإسلام العظمى وتتسابق في إبداء وتعكس أنوار الحقائق الإسلامية العليا، وتظهر محاسن الإسلام القصوى.

١- فقه المقاصد عند النورسي

كأثر من آثار تنور العقل البشري وتطوره في التفكير والتقييم وكأثر من آثار التوسع المعلوماتي والاتساع الثقافي والتوسع الآفاقي اللاتي يتمتع بها العقل البشري والتفكير الإنساني في الحقبة الراهنة يعتني الإنسان المعاصر -أكثر من ذي قبل- ببيان علل النظم الاجتماعية وشرح مقاصد دساتيرها ومطالب أصولها

وفوائد قواعدها وعوائد فصولها وثمرات أحكامها ونتائج تعاليمها كي يقبلها أو يردها عن طيب نفس واقتناع عقل واطمئنان بال. فينبغي للدارسين المعاصرين في الفقه الإسلامي أي للفقهاء المعاصرين أن يهتموا بتلك القضايا التي تزيح الريوب والشكوك عن العقل المعاصر وتجيب الاعتراضات والانتقادات التي توجه لمصادر الدين الحنيف ولأجل هذا كان الاعتناء بفلسفة الفقه الإسلامي وبيان مقاصدها النيرة ومطالبها العالية مما يوجب سهر الفقهاء المعاصرين عليه ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة. ومن قديم الدهر اعتنى العقل الإسلامي ببيان مقاصد الشريعة الأحمدية في ثنايا ما كان يأتي به من التحليل والتفصيل والشرح والبيان للفقه الإسلامي وحقوقه فسهر فيما سلف بعض من له حكمة وبصيرة من العلماء على قضية مقاصد الشريعة الإسلامية متناولا لها بالتحقيق والتدقيق بدأً بإمام الحرمين ومرورا بالغزالي وابن عبد السلام وابن تيمية وانتهاء بالشاطبي.[٣] ولما للقضية من الأهمية القصوى في المنظور الإسلامي الحديث أيضا اهتم المعاصرون من زاويتهم المعاصرة بالقضية فمنهم الشيخ ابن عاشور رحمه الله الذي أفاد فيها وأجاد وحقق بما لا مزيد عليه ومنهم علال الفاسي ومنهم محمد الريسوني في كتابه نظرية المقاصد عند الشاطبي وغيرهم من الكتاب المتفرقين.

ومن جراء ما كان النورسي يتمتع به من نظر ثاقب وبصيرة عميقة في ما يعانيه الإسلام والمسلمون من المشاكل المعاصرة والأحداث الاجتماعية التي تقض مضجع الأمة ولما كان يتحلى به من حكمة مستنيرة في ما يجابه تلك المشاكل من ذلك الرصيد الإسلامي الضخم كان النورسي يعد لجميع ذلك عدتها فيداويها ويأتي لها بحلول سليمة وأجوبة مقنعة من معارف الكتاب والسنة والثقافة الإسلامية الرشيدة ولذلك كان لزاما على النورسي أن يتناول بقلمه

---

(٣) محمد الطاهر الميساوي، مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار الفجر ودار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٢٠\١٩٩٩، ص ٧١.

الرهو بعض محاسن الإسلام والإيمان في كلا فترتي حياته الجديدة والقديمة؛ فنراه يسلط الضوء بإلحاح على مقاصد الشريعة الإسلامية من حين لآخر وخصيصا منها المقصد التحسيني من مقاصد الشريعة الثلاثة الضروري والتحسيني والحاجي.[٤]

ومما يلفت نظرنا في هذا السياق أن الشيخ النورسي حينما يتعرض لمقاصد الشريعة لا يستعمل قوالب تلك المصطلحات الشائعة التي تواضع عليها الفقهاء والأصوليون قديما وحديثا كالضروريات والتحسينيات والحاجيات كما أنه لا يمس المسائل النظرية لما يتناوله من الموضوعات كالتعريف والتقسيم النظري وغيرهما بل إنما يستعمل في صدد الإبانة عن المقاصد مثلا ما هو آنس لعصره وآلف للغة مجتمعه وألصق بثقافة بيئته الاجتماعية التي كان يعيش فيها وما هو أقرب إلى المعرفة العملية من العلم النظري كما أنه حينما يحاول أن ينم عن بعض مقاصد الشريعة لا يتركز على المصطلحات الإجمالية ولا يتكثف على ما هو من قبيل العناوين أو رؤوس الموضوعات بل يطلق العنان ليراعه كي يفصح في هذا المضمار عما هو أشد تنويرا، وأكثر تفصيلا، وأكبر تناولا لمعاني أكثر ومفاهيم أوسع في الإبانة عن بعض محاسن الشريعة الغراء فيهتم اهتماما بالغا في شتى كتاباته - وخصيصا منها التي تصادف فترة سعيد القديم على حد تعبيره- ويتركز على ذلك المقصد الكلي الجامع للكثير من مقاصد الشريعة ومحاسنها وهو "العدالة" ويرى أن السبب الوحيد لسعادة الأمة الإسلامية هو الاعتصام بالحقائق الإسلامية وكذا إن كمال الحياة الاجتماعية وسعادتها الدنيوية إنما يتحقق بالشريعة الإسلامية وبفقدانها تنمحي العدالة بتاتا وينقلب أمن البلاد رأسا إلى عقب.[٥] ومن النتيجة الطبيعية لهذا الاهتمام الشرعي بتحقيق العدالة

---

(٤) راجع ابن عاشور محمد الطاهر في كتابه القيم: مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠\١٩٩٩، الأردن، ص ٢١٨-٢١٩.

(٥) النورسي، آثار بديعية- الخطبة الشامية، تحقيق عبد القادر بادللي، شركة الاتحاد للنشر، إستانبول ١٩٩٩، ص ٦٩٧.

حسب ما ارتآه الشيخ النورسي أن يكون من أهم مقاصد الشرع الإسلامي الحنيف أن جاء للعالم كي يمحو الظلم والاستبداد منه[٦] لأن غاية الشريعة هي مصلحة الإنسان كخليفة في المجتمع الذي هو منه وكمسؤول أمام الله الذي استخلفه على إقامة العدل والإنصاف وضمان السعادة الفكرية والاجتماعية والطمأنينة النفسية لكل أفراد الأمة.[٧]

وهذا النداء الذي أعلنه النورسي في أحرج أوقاته في جو المحكمة العرفية وأمام تلك القضاة الظلمة الذين حكموا بإعدام أكثر من مأتين وخمسين شخصا وشنقوهم ذلك النداء الذي يصرح بأن الإسلام هي الإنسانية الكبرى وشريعته هي المدنية الفضلى[٨] ولعمري إن النورسي جمع بهاتين الكلمتين جميع مقاصد الفقه الإسلامي ومطالبه التي تستهدف سعادة المجتمع وتكمله في جميع مجالات الحياة.

يستهدف هو بذلك إرشاد جماهير المثقفين والمنورين وتنويرهم بالحكمة الإسلامية وتصفية أذهانهم عما علق بها من أدران العصر الفكرية وتزكية قلوبهم عما توضع عليها من أوساخ المدنية الحاضرة وهكذا نرى الشيخ النورسي يستهدف إلقاء الضوء على تلك المسائل التي تستلفت نظر الإنسان المعاصر أكثر وينتظر بلهف وولع حلولا منطقية سليمة لها كالحرية والمساواة والعدالة والإخاء والتعايش الاجتماعي وأمن البلاد، وكتلك المطالب العالية المتوجهة للحفاظ على نظام الدولة وتسديد المجتمع وإصلاحه وترقيته وتطويره مادة ومعنى والتئام صفوفه وتوحيد قلوبه وتأمين استقلاله وحفظ حقوق المواطنين فيه وتطهير المجتمع عن رذائل الفحشاء ومنكرات الأخلاق وصونه عن قاذورات المدنية الغربية وما إلى ذلك فيشرح موقف الشريعة الإسلامية من هذه

---

(٦) النورسي، آثار بديعية-إيكي مكتب مصيبت، ص ٧٢٣.

(٧) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء، بلا تاريخ، ص ٧.

(٨) النورسي، آثار بديعية-إيكي مكتب مصيبت،، ص ٧٤١.

المشاكل المستعصية على إنسان هذا العصر ويبين أن معالجة الإسلام لها بوجه عقلي وشكل منطقي وتقديم حلول واقعية لها بحيث تناسب واقعيات الحياة من أهم مقاصد الإسلام العالية ومطالبه السامية.[٩] ومن هذا الباب ما ذكره حينما يحاول الإفصاح عما اشتملت عليه الشريعة المصطفوية\الفقه الإسلامي من: "سياسة الروح ورياضة القلب وتربية الوجدان وتدبير الجسد، وتدوير المنزل، وسياسة المدينة، وتنظيم العالم، وفن الحقوق وغيرها."[١٠] إن الأستاذ النورسي يلخص بهذه الكلمات القلائل معظم مقاصد الشريعة الإسلامية التي تتعلق بصميم الحياة فتوجهها وتقومها. وهكذا الأستاذ يلم بين فينة وأخرى بالإفصاح عن مقاصد الشريعة العملية وهي محاسن الإسلام الواقعية التي تتجلى عبر واقعيات الحيات والتطبيقات الشرعية.

إن الأستاذ النورسي في سياق الإبانة عن مقاصد الشريعة الإسلامية يجيئ ويذهب بين نوعين من البيان فتراه حينا يبين بعضا من مقاصدها الإجمالية بعنوانها الإجمالي كالعدالة والمساواة بينما تراه حينا آخر يتنزل من البيان الإجمالي إلى البيان التفصيلي فيذكر جزئيات المقاصد الشرعية ولكن بدون أن يستعمل في ذلك مصطلح "المقاصد" إلا قليلا كما يبدو ذلك في بعض مما اقتبسنا عنه فيما سلف. ولا ننسى أن اعتناء النورسي ببيان العدالة كمقصد عظيم وهدف سام من مقاصد الشريعة وأهدافها أكثر[١١] وذلك لما يشاهده من معاناة المسلمين من جور الحكام ومن محاولة البعض المغرضين من أعداء الإسلام جعل ذلك ناشئا من الطبيعة.الإدارية في الإسلام حاشا لله ثم حاشا لله.

٢- المقاصد القرآنية

والأستاذ النورسي كما كان يهتم بالإفصاح عن مقاصد الشريعة بأسلوبه

---

(٩) راجع في ذلك ما نشره الأستاذ النورسي من المقالة في جريدة وولقان بتاريخ ١٨ آذار ١٩٠٩ المصدر السابق، مقاله لر، ص ٨١٣-٨١٤.

(١٠) النورسي، الصيقل، ص ٤٧٨.

(١١) فليراجع في ذلك ورقتنا التي قدمناها لمؤتمر "العدالة لأجل عالم أفضل للإنسانية" العالمي للنورسي الثامن باسم "النظرة الشمولية للعدالة عند النورسي.".

الخاص الذي يراه أنسب بلغة العصر وثقافته كان كذلك يهتم بالغ الاهتمام في شتى كتاباته بالإبانة عن المقاصد القرآنية أيضا إجمالا وعن كل واحدة منها تفصيلا بحيث يتسنى لنا أن نقول إن رسائل النور صورة مفصلة وأسلوب عصري رائع عن المقاصد القرآنية الأربع –حسبما ارتآه النورسي- وهو ما سنتاول البعض منه بشيء من التفصيل في حدود هذا العرض إن شاء الله تعالى.

ثم إنه غير خاف على المتتبع لكليات الأستاذ النورسي أنه يصرح في كل مناسبة بادية أن المقاصد الأساسية والعناصر الأصلية التي يتركز عليها البياني القرآني بأجمعه ويدور حولها الاستطرادات القرآنية بأكملها أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية[١٢] وهذا يطابق - مع شيء من التفصيل فيما ذكره النورسي- ما ذكره الإمام الغزالي (ت ٥٠٥\١١١١) من أن المقاصد الأساسية للقرآن الكريم ثلاث التوحيد واليوم الآخر والصراط المستقيم.[١٣] كما أن ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦) يرى أن مقاصد القرآن خمسة: الأحكام، الجدل، التذكير بآلاء الله، التذكير بأيام الله، التذكير بالموت وما بعد الموت.[١٤] غير ناسين في هذا السياق ما أبدع به ذلك الذكاء المتوقد لعلامة العصر محمد الطاهر ابن عاشور (ت ١٣٩١\١٩٧١) في باب المقاصد القرآنية حيث قارب موضوع المقاصد ولكن بأسلوب آخر وبمضمون آخر غير المألوف المعروف حيث قاربها من الناحية الأصولية إذ يقول: إنّ من مقاصد القرآن أمرين آخرين:

أحدَهما كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لِمختلِف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين، وثانيهما تعويد

---

(١٢) النورسي، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثالثة شركة سوزلر للنشر، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٧٥.

(١٣) الغزالي محمد بن محمد أبو حامد، جواهر القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٩\١٩٨٨، ص ١١، ٢٨-٢٩.

(١٤) شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، تعريب سليمان الندوي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٧\١٩٨٧، ص ١٩.

حَمَلة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة، بالتنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة في كلّ زمان لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية ، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بينَ أنظارهم في المطالعة الواحدة. من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلّفين في تدوين كتب العلوم، تبعاً لاختلاف مراتب العصور.(١٥)

انطلاقا من كتابات النورسي وبعض تلميحاته وتصريحاته نرى أن نظرية المقاصد القرآنية عند الأستاذ النورسي بلغت القمة حيث لم يقتصر نظره على مقاصد القرآن ككل بل نزل هو من الكل إلى أقصى الجزئي القرآني فإنه يصرح بأن للقرآن مقاصد وللسور مقاصد ولبعض الآيات القرآنية أيضا مقاصد فبذلك تكتمل نظرية المقاصد عنده إذ يقول: إن لكل آية ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا ولكل قصد وجوها وأحكاما وفوائد ومقاصد فتذكر في موضع لوجه وفي آخر لأخرى وفي سورة لمقصد وفي أخرى لآخر وهكذا.(١٦)

كان الأستاذ النورسي رحمه الله يتناول من المعارف الإسلامية ما كان يرى أن العدو يريد أن يدخل منها على مصادر الإسلام ونصوصه وأصوله وفصوله أو ما كان يرى ضرورة تناوله من جديد بأسلوب عصري شيق يحببه إلى العقول والقلوب. فمن كلتا هاتين النقطتين ناول الشيخ النورسي القرآن الكريم إثباتا وإعجازا لا عرضا تاريخيا في عديد من كتاباته(١٧) وخصوصا في المقالة الخامسة

---

(١٥) ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤، ج ٣، ص ٣٣.

(١٦) النورسي، المثنوي، ص ٧١.

(١٧) إذا راجعت مثلا ما كتبه مجملا في تفصيل ومفصلا في إجمال في الرشحة الرابعة عشرة من المثنوي النوري التي خصصها الأستاذ للإعجاز القرآني وجدت بيانا محكما وكلاما متقنا عن إعجاز القرآن ورأيت فيه جوابا شافيا عن بعض من الأسئلة الواردة كالتكرار وغيره. فراجع النورسي، المثنوي، ص ٦٩-٧٩.

والعشرين التي خصصها للإعجاز القرآني ناوله مناولة بديعة فيها تحد بالغ لجميع منكري العصر وضربات قاسية على ملحديه لا من ناحية المضمون فقط بل من ناحية اللفظ والأسلوب، ومن ناحية التحدي والإعجاز، ومن ناحية المعنى والمفهوم، ومن ناحية الإرشاد والهداية، ومن ناحية الجمال اللفظي والكمال المعنوي، ومن ناحية الخلود والحفاظ على شبيبته وطراوته مدى العصور، ومن ناحية ما له من سحر التأثير وبالغ التذكير عبر الدهور. فكان للشيخ النورسي تحسس زائد وتجسس بالغ نحو ما جميع ما تأتي بأدنى ريب وزيغ على الإسلام أوكتابه أو نبيه أو شريعته فيصول عليها صولة الأسد على فريسته كما كان رحمه الله لشدة ولوعه بإثبات صدق الإسلام وحقيته بجميع مداخله ومضامينه بالحجاج العقلي والاستدلال المستنير كان بالغ الاهتمام بأن يستدل بجميع ما في وسعه من الأدلة العقلية الناصعة والبراهين المنطقية الساطعة على حقية العقائد الإسلامية وحقية فقهه بجميع مداخله ومضامينه وواقعيته وملاءمته لجميع أطوار الحياة في جميع الحالات والأوقات وخصيصا من العقائد تلك الأركان الأربعة: الألوهية وتوحيدها، والرسالة والحشر والكتاب. فلعمر الحق إنه رحمه الله صرف جهودا جبارة في ذلك الصدد ولم يأل. ولربما فتح بابا جديدا في موضوع إثبات الأركان الإيمانية بالأدلة العقلية والعرفانية فتحا لم يسبق إليه. وإثبات تلك الأركان الإيمانية بالحجاج العقلي هي التي تغطي أكبر مساحة في كتاباته عبر جميع رسائله. وهذه المزية هي التي حببت كتابات الأستاذ إلى القلوب وجعلت الناس وخصيصا الشباب يتهالكون على قرائتها ودراستها.

فلما أسلفنا أعلاه يأتي القرآن الكريم في صدر قائمة اهتمامات النورسي فناول القرآن مناولة غنية متنوعة الجوانب متلونة المضامين مزينة بالاستدلالات العقلية والحجاج الفكري محاولا أن يكوِّن في ذهن القارئ المعاصر صورة واضحة للقرآن؛ فيتناول الأستاذ النورسي المضامين القرآنية بالتحليل والتفصيل مرة ويسلط الأضواء مرة أخرى على تلك المضامين بالإجمال وينظر إليها نظرة

عامة كما فعل ذلك في المقاصد أيضا. وانطلاقا من تلك النظرة العامة الإجمالية إلى المضامين القرآنية يرى النورسي أن المعاني القرآنية بحذافيرها تتمركز حول أربعة مقاصد؛ بمعنى أن جميع ما ذكر في القرآن من الحكم، والأحكام، والأمثال، والفوائد، والدلائل، والأخلاقيات، والقصص، والأدعية، والأذكار، والأخبار، والنبوآت إنما هو لإمداد واحد من هذه المقاصد الأربع وتعضيدها وتقويتها فهذه المعاني الرئيسة هي النقاط المركزية التي يتكثف عليها البيان القرآني عبر جميع آياته البينات ولها الدرجة الأولى كل منها حسب موقعها الملائم لها في جميع الاستشهادات القرآنية، واستطراداته، واتجاهاته، واحتجاجاته، واستدلالاته، واهتماماته بشتى المواضيع، وتجولاته بين شتى أساليب الخطاب وأفانين المعاني وأنواع المفاهيم، وانتقالاته من صحارى الحاضر إلى أودية الماضي وإلى شواهق المستقبل.

أ- الفرق بين المقاصد القرآنية ومقاصد الشريعة

وقبل العوم في بيان المقاصد القرآنية يحرى بنا أن نشير استطرادا لقضية عساها تخفى على كثير من الباحثين وهي الفرق بين "المقاصد القرآنية" و"مقاصد الشريعة". فالفرق بينهما هو أن المقاصد القرآنية: هي المطالب والأهداف التي تستهدف من النصوص القرآنية من حيث أن تلك النصوص المؤلفة من جمل وعبارات لها دلالات على معان ومغازي تتمركز تلك المغازي والمعاني حول هدف أو أهداف يشكل ذلك الهدف أو تلك الأهداف المقاصد القرآنية. وأما مقاصد الشريعة فهي مطالب تستهدف من سن القوانين الشرعية وإجراء الأحكام الفقهية كالكليات الخمس التي ذكرها الفقهاء قديما من حفظ النفس والدين والعرض والعقل والمال. فحفظ هذه الأمور وغيرها من تلك الأمور الكلية والجزئية التي تسهدف من سنن الشرعة الحنيفة هي المقصد والهدف الذي يترتب على القوانين الشرعية ويستهدف منها ففي الشريعة الحنيفة أحكام تجرى في المجتمع للحفاظ على نظامه مع قطع النظر من كون تلك الأحكام في قالب نص أم لا. فالمقاصد القرآنية هي المطالب التي تستهدف من

النص القرآني اللفظي وأما مقاصد الشريعة فهي الأهداف التي تستهدف من الأحكام التشريعية الإجرائية فهما مصطلحان يختلفان مفهوما ومضمونا وان اتحدا في بعض ما يصدقان عليه من بعض الأفراد كالعدالة.

ب- مقاصد السور

ثم إن مما لا يليق بالباحث عن المقاصد القرآنية الذهول عنه هو مقاصد السور -وقد سبق أن ألمحنا إلى أن الأستاذ النورسي قد أشار إلى المقاصد السورتية وحتى الآياتية أيضا- إذ كما أن للقرآن ككل مقاصد فكذلك للسور القرآنية أيضا مقاصد لأن إرجاع المعاني القرآنية إلى أربع وإجمال مقاصدها فيها إنما هو باعتبار ملاحظة جميع المعاني القرآنية ككل مجموعي. وأما إذا نزلنا من الكلي إلى الجزئي أي من القرآن الكلي إلى سوره الجزئية[١٨] فنجد أن للسور أيضا مقاصد كما أن للقرآن مقاصد. فلكل سورة سورة مقصد أو مقاصد وهدف أو أهداف رئيسة يتركز عليها معاني تلك السورة كما أن للبعض من الآيات أيضا مقصدا أو مقاصد حسبما ارتآه النورسي.[١٩] وقد اعتنى علمائنا من قديم الدهر بقضية مقاصد السور ويأتي في صدر من اهتم بها من القدامى مجد الدين الفيروزآبادي (ت: ٨١٧\١٤١٤) في كتابه القيم بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز فإنه خصص للبيانات الإجمالية عن كل سورة بصيرةً ويأتي في بداية كل بصيرة بتلخيص مقاصد تلك السورة.[٢٠] وأما المعاصرون

(١٨) إن قضية كون القرآن علما خاصا أو اسم جنس كليا مما اختلف فيها العلماء فراجع محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الطبعة الثانية كويت ١٣٩٠\١٩٧٠، ص ١٢، ١٤.

(١٩) راجع النورسي، المثنوي، ص ٧١. اعلم أن قضية مقاصد السور ومقاصد الآيات من القضايا التي ناولها المفسرون عمليا في تفاسيرهم كما ترى مثلا للشيخ ابن عاشور حينما يبتدئ تفسير سورة ما يقول في مدخل تفسير السورة "موضوع السورة كذا وكذا..." ولكن لحد الآن لم نطلع على دراسة مستقلة عن موضوع مقاصد السور سوى محاضرة للشيخ صالح عبد العزيز آل الشيخ وزير الأوقاف والإرشاد والدعوة الإسلامية في المملكة العربية السعودية نشرت عبر الانترنت

(٢٠) راجع الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف

فصلتهم بموضوع المقاصد أكثر وهم بها أعنى كما ذكرنا. إن الكثير من المفسرين المعاصرين بدأ بمحمد رشيد رضا ومرورا بابن عاشور والطباطبائي يذكرون في بداية كل سورة مقاصدها.

إضافة إلى أن موضوعات السور ومقاصدها أكبر عددا وأكثر تفصيلا وأعظم اتساعا حيث نشاهد أن لكل سورة مقصدا خاصا أو مقاصد خاصة وهذه المواضيع الخاصة التفصيلية التي تجمع حولها بيانات سورة ما أو على حد تعبير الشيخ صالح عبد العزيز: هذه الموضوعات التي تدور عليها آيات سورة ما هي التي تشكل المقاصد الرئيسة لسور القرآن الكريم. فإن أردت المزيد في سياق مقاصد السور القرآنية فاستمع إلى هذا البيان المحكم للأستاذ الفهامة محمد دراز: "أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا وأوزاعا من المباني جمعت عفوا فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنان في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه يريك المنفصل متصلا والمختلف مؤتلفا.[٢١]

هذا البيان من الأستاذ دراز يفصح عن قوة توائم وحسن تضام وكمال تلائم بين المعاني المتفرقة في كل سورة سورة وعن اتجاهها إلى هدف أو أهداف

الكتاب العزيز، المكتبة العلمية بيروت بلاتاريخ، ج ١، من ص ١٢٨ إلى ص ٥٦٦.

(٢١) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ١٣٩٠\١٩٧٠، ص ١٥٥.

بحيث تتعانق تلك المعاني المختلفة حول الهدف الواحد أو الأهداف المتعددة فيجعل ذلك الاتجاه وهذا التعانق من المعاني المتعددة هدفا واحدا أو أهدافا متعددة يكون مقصدا أو مقاصد للسور. فإذا عمقنا النظر في مجموع السور القرآنية وجدنا أن جميع تلك المقاصد التي تدور حولها معاني السور القرآنية لا تتعدى هذه المواضيع الرئيسة والمقاصد الخاصة الآتية:

١- التاريخ، ٢- بيان إهلاك أشخاص بعينهم أوتأنيبهم، ٣- رفض الكفر ومعبوداته الباطلة وترك تقاليده وعاداته، ٤- بيان فضيلة الزمان أو المكان أو الإنسان، ٥- الاستعاذة من شرور الأشرار، ٦- بيان أحوال بعض الكفرة والمنافقين، ٧- بيان ربانية القرآن، ٨- بيان حرب من حروب الرسول ﷺ ، ٩- المواعظ ومحاسن الأخلاق والنصائح، ١٠- الآخرة وأحوالها، ١١- توجيه الخطاب لأحد بمدح أو ذم أوبيان سائر ما يتعلق به، ١٢- التوحيد وما يستطرده من الصفات الربانية والتصرفات الإلهية، ١٣- الأحكام بجميع أقسامها، ١٤- الاستدلال بجميع فنونه.[٢٢]

ومن جهة أخرى لا يخفى على الأريب أنه رغما من أن احتشد على آيات القرآن وسوره جميع الأسباب التي تقتضي التفرق والتباعد بين آياته وتقتضي عدم الانسجام والالتيام بين مقاطعه وسوره وتقتضي فقدان التناسب والتوائم بين أجزائه وأبعاضه من عدم نزوله في وقت واحد ومكان واحد وظروف واحدة ومن عدم اتحاد مخاطبيه عقيدة وثقافة وقومية من مسلم ونصارى ويهود ومشرك ومنافق ومن عدم تناوله لموضوع واحد بل تطرقه إلى موضوعات جمة ربما تكون أكثر من حصى البطحاء ورمال الدهناء ومن عدم تخصص مضامينه ومعانيه بواحد من أمر الدين أو الدنيا أو الآخرة فحسب بل يضم الكتاب العزيز جميع تلك المتفرقات والمنقسمات بين أحضانه بناصع بيانه ومحكم خطابه

(٢٢) محمد خليل جيجك، أضواء على سورة الملك ويليه بعض جوانب الضعف الإنساني في أربع آي من سورة العنكبوت، دار نشر جميل إسطنبول ١٩٩٤، ص ٢٧-٢٩. وإن أردت التفصيل أكثر فراجع نفس المصدر من ص ٢٧-٣١.

فرغما من أن احتشد على القرآن جميع تلك الأسباب التي تقتضي الاختلاف وعدم الانسجام والتناسب وعدم الترابط والتواءم بين آياته ترى تناسبا عجيبا بين آياته وتجاوبا بديعا بين أبعاضه وتوائما رائعا بين مقاطعه.[٢٣] فيرى النورسي أن بين آياته كمال الانسجام وغاية الارتباط وتمام الاتصال.[٢٤] ولا جرم أن من أهم الأمور المؤدية إلى ذلك التناسب هو اتحاد مقاصده، وتوافق أهدافه، وتعاضد موضوعاته وترابط مفاهيمه. فمن هنا اهتم العلماء – ولا يزالون- عبر التاريخ القرآني ببيان مقاصده وتحديد مطالبه وتثبيت أهدافه.

ويأتي في مقدمة من اهتم بالمقاصد القرآنية العلامة النورسي في متعدد مقولاته ومختلف عباراته فمن أول يوم وضع النورسي الحجر الأساس لرسائله النورية في مثل كتابه القيم الصيقل الإسلامي المدرج في المجموعة المسماة بآثار بديعيه التي تصادف فترة سعيد القديم تراه يعتني بموضوع المقاصد القرآنية ويستلفت نظر قرائه إلى قضيتها[٢٥] ثم بعد ذلك يمضي النورسي متركزا على الموضوع من خلال رسائله المتعددة إما عمليا او نظريا؛ يقول في بعض ما كتب: اعلم! ان مقاصد القرآن الاساسية وعناصره الاصلية أربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب. ومن القواعد: عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد. فلهذا قد أبهم وأهمل وأجمل القرآن في بعض المسائل الكونية.[٢٦]

فالمقاصد بمفهوميها العام مقاصد الشريعة والخاص المقاصد القرآنية تحتل

---

(٢٣) راجع في ذلك النورسي، آثار بديعيه\لمعات، ص ٩٤١- ٩٤٢.

(٢٤) النورسي، المثنوي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٤٩.

(٢٥) راجع النورسي، الصيقل الإسلامي (ضمن آثار بديعيه)، نشريات الاتحاد، إستانبول ١٩٩٩، ص ٤٢٢، ٤٦٢، ٤٨٢.

(٢٦) النورسي، المثنوي العربي، ص ٧٥.

مكانة هامة وتشغل حيزا كبيرا ومساحة واسعة في كتابات النورسي عبر رسائله كما أسلفنا غير أن الإمام النورسي رحمه الله يتركز في فترة سعيد القديم على المعنى السياسي للمقاصد وهو مقاصد الشريعة الإسلامية التي تسوس المجتمع وتدير أمره؛ وأما في فترة سعيد الجديد فيتركز بصورة حثيثة وعمل دؤوب عبر معظم رسائله على تحقيق المقاصد القرآنية وإثباتها بالحجاج العقلي والاستدلال المنير. فمما كان يرى لها من الأهمية القصوى كثف جميع جهوده الجبارة على تحقيقها وتثبيتها من الوجهة العقلية والعلمية السديدة فخصص لكل واحد منها رسالة خاصة أو مقالة مستقلة كرسالة الطبيعة وغيرها من الكثير حول إثبات توحيد الصانع وكرسالة الحشر التي خصصت لإثبات إمكان وقوع الحشر وأنه سيقع وكالمقالة الخامسة والعشرين التي أفردت للإعجاز القرآني وكالمكتوب التاسع والعشرين الذي خصص للمعجزات الأحمدية إلى جانب تلك الكتابات المتفرقة المبثوثة حول المسائل الاعتقادية والإسلامية عبر جميع رسائله النورية.

إننا بدورنا هذا سنتركز من تلك المقاصد القرآنية الأربع على موقف النورسي من مقصد النبوة\الرسالة ونعالج كتاباته في هذا الموضوع بشيء من التحليل والتفصيل حسبما وافتنا الظروف غير ناسين أن جميع مجال عملنا محصور في دائرة بحث فقط وعلى الله التكلان.

٣- مقصد الرسالة من المقاصد القرآنية عند النورسي

١- وقبل أن نتناول معالجة النورسي لمقصد الرسالة من المقاصد القرآنية الأربع يتحتم علينا أن ننوه بأسلوب النورسي في الكلام عن الرسول ﷺ ومدحه وذكر أوصافه الكمالية وسيرته العطرة فإنه أسلوب مفعم بكمال الأدب والاحترام لصاحب الرسالة ﷺ يفيض من جميع جوانبه معاني التعزير والتوقير ودلالات الإكرام والإجلال لمقام الرسالة ويفيض منها معاني الحب المطلق والتفاني في الحب الصادق لله ورسوله. نعم إن من الميزات البارزة لأسلوب النورسي في سياق الكلام عن الله أو الإسلام أو الشريعة الإسلامية أو عن أحد الأركان

الإيمانية هو التعظيم المطلق والتسليم الصادق واليقين الجازم والإجلال الكامل. وكذا أسلوبه في صدد الكلام عن سائر المقدسات الإسلامية أسلوب ملؤه الإيمان واليقين والحب والاستسلام مما يدل على صفائه القلبي ونقائه الروحي واستسلامه الكامل لله ورسوله وهو شأن علماء وعظماء هذه الأمة سلفا وخلفا ولكن لا يفوتنا أن التعزير والتوقير السائد على أسلوب الشيخ النورسي قلما تجده لدى غيره من العظماء والملهمين.

٢- إن علماء الملة الإسلامية تناولوا قضية ضرورة الرسالة العامة في كتاباتهم الفلسفية وكتبهم الكلامية قال في شرح المواقف: "وقالت الفلاسفة إن البعثة واجبة عقلا لما مر من أن النظام الأكمل الذي تقتضيه العناية الأزلية لا يتم بدون وجود النبي الواضع لقوانين العدالة".[٢٧] فالفلاسفة الإسلاميون خاضوا في قضية النبوة من شتى النواحي إثباتا واكتسابا وصفات ومعجزة ولا ضير علينا أن نحيلها إلى أماكنها المحددة لها أي المراجع الفلسفية ككتابات الفارابي، وابن سينا[٢٨]، وابن رشد وغيرهم.

وأما تناول الرسالة المحمدية من الناحية الاستدلالية فخصصوا لها كتبا مستقلة فالإمام الماوردي (ت ٤٥٠) بكتابه أعلام النبوة، والإمام البيهقي (ت ٤٥٨) بكتابه دلائل النبوة يأتيان في طليعة من اهتم بها من القدامى. وأما في العصر الحاضر فقد عني به كثيرون أيضا من أمثال الإمام أبو زهرة المصري وسعيد حوى ومحمد عطية الأبراشي وغيرهم فجميع هؤلاء تناولوا قضية الرسالة المحمدية من الناحية الاستدلالية وحاولوا جهدهم الاحتجاج عليها بالمعطيات العقلية وأن يثبتوا صدق رسالة سيدنا محمد ﷺ بالبرهنة العقلية والمنطقية السديدة.

---

(٢٧) السيد شريف علي بن محمد الجرجاني، شرح المواقف، أوفست مطبعة السعادة مصر١٣٢٥\١٩٠٧، ج ٨، ص ٢٣٠.

(٢٨) راجع ابن سينا، الشفاء، تحقيق الأب قنواتي وسعيد زايد، نشر الجمهورية العربية المتحدة، ج ١، ص ٤٤١-٤٤٣.

٣- وأما المادة التي استعملها القدماء والمحدثون في هذا السياق فيمكن أن يجمع تحت ثلاث عناوين رئيسة وهي: أولا إثبات الرسالة المحمدية بالقرآن المعجز ككونه معجزة كبرى لسيدنا محمد ﷺ باقية على وجه الدهر وثانيا إثباتها بالمعجزات التي أظهرها الله على يديه ﷺ التي تبلغ ألف معجزة على حد تعبير النورسي[٢٩] والبيهقي من قبله[٣٠] وثالثا السيرة الذاتية والشمائل الشريفة للذات المحمدية التي تجمع العجب العجاب من المحاسن الإنسانية والكمالات الراقية التي لا تجمع في إنسان ما لم يمد بالمدد الإلهي والعناية الربانية فهذه العناوين الثلاث هي مادة الاستدلال والاحتجاج على الرسالة المحمدية من قديم الزمان.

٤- وأما إذا قاربنا الإمام النورسي ولاحظنا تناوله لقضية إثبات الرسالة المحمدية عن كثب فنجده بحرا لا يدرك غوره ونجد المادة الني استعملها النورسي في هذا الباب أغنى ما يكون جمعا وأكثر ما يكون استيعابا وأحسن ما يكون شمولا فلا تجد تلك الجامعية والاستيعابية والشمولية لدى غيره من العلماء المهتمين بالقضية فهو يحيط من خلال محاولاته الجادة في سياق إثبات الرسالة المحمدية بمجامع الأدلة ويأتي بملاك الحجج من جميع جوانب وجهات حياة الرسول ﷺ وسيرته العاطرة، وبجميع الأحداث والوقائع التي وقعت بمبعث النبي ﷺ، وبجميع تلك السنن والشرائع والدساتير والتعاليم التي أتى بها الرسول ﷺ في شريعته والكتاب المنزل عليه، وبجميع تلك الانقلابات والثورات العظيمة التي حققتها بعثته ﷺ في حياة أولئك الغلاظ الأجلاف في شبه جزيرة العرب، وبجميع تلك العلوم والمعارف التي كانت حكمة الرسول المصطفى ﷺ تنطق بها، وبجميع تلك النتائج الطيبة والثمرات المباركة التي أنتجتها جهوده النبوية في العالم الإنساني على جميع الأصعدة: السياسية والأخلاقية والسلوكية والعلمية والمعرفية والثقافية وغيرها فليس هناك جانب من

(٢٩) النورسي، المثنوي، ص ٦٦.

(٣٠) البيهقي أبوبكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، دار الفكر، الطبعة الأولى بيروت ١٤١٨\١٩٩٧، ج ١، ص ١٣.

جوانب سيرة الرسول العطرة لم يستدل بها النورسي. ومن هنا يرى هو أن دلائل النبوة الأحمدية لا تعد ولا تحصى معللا ذلك بقوله: إذ كما أن في هذه المصنوعات المبثوثة في الكائنات آيات لا تحد تشهد على وحدانية الذات الأحدية كذلك فيها بينات لا تعد تشهد على رسالة الذات الأحمدية عليه الصلاة والسلام.[٣١] ويشير أيضا إلى نوع من نظرته الجامعة في صدد الاستدلال على رسالة المصطفى مقولته هذه: "إن الفقرة الآتية تشير إلى أكثر من عشرين شهادة على رسالة محمد ﷺ...هي: "محمد رسول الله صادق الوعد الأمين بشهادة ظهوره دفعة مع أميته بأكمل دين وإسلامية وشريعة وبأقوى إيمان واعتقاد وعبادة وبأعلى دعوة ومناجاة ودعوات وبأعم تبليغ وأتم متانة خارقات مثمرات لا مثيل لها"[٣٢]

٥- ونجد الأستاذ النورسي يجمل ما عمله في هذا الموضوع بقوله: ولقد صنّف في بيانها أعاظم المحققين. وأنا مع عجزي وقصوري قد بينّت شعاعاتٍ من تلك الشمس في رسالة تركية مسّماة بـ "شعاعات من معرفة النبيﷺ " وفي " المكتوب التاسع عشر". وكذا بينت اجمالاً وجوه إعجاز معجرته الكبرى – أي القرآن – وقد اشرتُ بفهمي القاصر الى أربعين وجهاً من وجوه أعجاز القرآن في رسالة " اللوامع"، وقد بينت من تلك الوجوه واحداً وهو البلاغة الفائقة النظمية في مقدار أربعين صحيفة من تفسيري العربي المسمى بـ" اشارات الاعجاز".[٣٣] علما منا أن ما كتبه الأستاذ النورسي عن الرسول ﷺ ليس محصورا في هذا القدر بل المادة التي تتحدث حول الرسول الكريم متوفرة فإن معطيات الرسائل التي تتحدث عن جانب من جوانب سيرة المصطفي وعن رسالته تتمركز في ثمانية مواضع خصصت بكاملها للحديث عن رسول الله ﷺ وهي الرسالة الأحمدية في الكلمة التاسعة عشرة، وأصول في فهم أحاديث

(٣١) النورسي، المثنوي ، ص ٦٦.
(٣٢) النورسي، الشعاعات، ص ٦٥٦.
(٣٣) النورسي الكلمات، ص: ٢٦٣.

الساعة وثواب الأعمال في الكلمة العشرين، والمعراج النبوي في الكلمة الحادية والثلاثين، والمعجزات الأحمدية في المكتوب التاسع عشر، ومنهاج السنة في اللمعة الرابع من اللمعات، والإخبار بالغيب في اللمعة السابعة، ومرقاة السنة وترياق مرض البدعة في اللمعة الحادية عشرة، وشواهد النبوة في الشعاع الخامس عشر من الشعاعات. هذا فضلا عن لمسات عديدة ومعالجات متفرقة عبر العديد من رسائله يمس فيها الموضوع مسا سريعا.(٣٤)

٦- علما منا أن النورسي كما يذكر بمنطقه العقلاني الإسلامي إثباتا لصدق رسالة المصطفى تلك الحجج الناصعة والبراهين العقلية القطعية التي يطمئن بها القلب وتسكن إليها النفس كذلك يذكر بتسليمية المؤمن الصادق اليقين وإذعان المؤمن الخاشع للرب الرحيم، والمصدق بجميع قواه قدرة الخالق الحكيم ما هو داخل ضمن الحدود التي يقبلها عقل الإنسان المعاصر وما هو خارج عن تلك الحدود من تلك الخارقات التي تستعصي على العقل المعاصر فيأبى من قبولها مثل تلك المعجزات التي ظهرت على يد المصطفى ﷺ في فترة الرسالة كتسبيح الطعام في يده وتكثيره ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام وكنبع الماء من بين أصابعه و..و...و ومما يأبى العقل الحديث من قبوله لتناقضه -حسب زعمهم- مع معطيات العلم الحديث وسننه فيرى العقل المعاصر أن كل ما يتنافى مع قوانين العلم الحديث يجب رده أو تأويله.

٧- إن الأستاذ النورسي انطلاقا من تلون كتلة مخاطبيه وتنوعهم ومن غلبة النزعة الكلاسيكية على تلك الأوساط التي تربى فيها النورسي نراه يستفيض في ذكر تلك الخوارق والمعجزات التي ردها البعض من المعاصرين الذين تأثروا بالنزعة الوضعية الغربية فيذكر في رسالة المعجزات الأحمدية قريبا من ثلاث مأة معجزة من هذا النوع. نعم إن العقل المعاصر يعاني الكثير من الآلام الفكرية في

---

(٣٤) عماد الدين خليل، الرسول في رسائل النورسي، المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي الثالث، إستانبول ١٩٩٦، ص ٣٧٣.

قبول هذه المعجزات ويرى أنها تخالف المنطق العلمي الحاسم والقوانين العلمية الجازمة - كما ذكرنا- فلا مساغ ولا مجاز لقبولها فينكرها كلها مهما كثرت وانتشرت ومهما ظهرت وانتشرت. أما العقل الإسلامي الرشيد فعلى النقيض من ذلك يرى ضرورة التسليم لها والانقياد العقلي لها ووجوب قبولها نقلا وعقلا فإنها كما قال الإمام البيهقي وإن رويت بأخبار آحاد في ذكر أسبابها إلا أنها مجتمعة في إثبات معنى واحد وهو ظهور المعجزات على شخص واحد وإثبات فضيلة شخص واحد فيحصل بمجموعها العلم المكتسب بل إذا جمع بينها وبين الأخبار المستفيضة في المعجزات والآيات التي ظهرت على سيدنا المصطفى ﷺ دخلت في حد التواتر الذي يوجب العلم الضروري.[٣٥] والنورسي نفسه أيضا يصرح بهذا المعني بإيقاع شديد وتأكيد قوي في كثير من كتاباته حيث يقول مثلا: "بديهي أنه كلما اجتمعت أشياء واهية ضعيفة تقوت وإذا أبرمت خيوط رفيعة واتحدت صارت عروة وثقى لا تنفصم. ولو فرضنا - فرضا محالا- بأن بعضا منها ضعيف غير قوي في ذاته فلا يجوز الحكم عليه بأن المثال لا يقوى دليلا على المعجزة لأنه يتقوى باتفاقه مع القوي. ثم إن اجتماع هذه الأمثلة الستة عشر التي هي في درجة التواتر المعنوي يدل على معجزة كبرى قوية ولو مزجت هذه المعجزة مع سائر الأقسام الأربعة عشر من معجزاته ﷺ حول البركة التي لم تذكر هنا لغدت معجزة هائلة كالحبال المتحدة التي لا انفصام لها. ثم إنك لو أضفت هذه المعجزة الهائلة القوية إلى سائر المعجزات الأربع عشرة لرأيت برهانا قويا لا يتزلزل برهانا باهرا على النبوة الصادقة . وهكذا فعماد النبوة الأحمدية عماد كالطود الأشم تتشكل من مجموعة هذه المعجزات."[٣٦]

---

(٣٥) المصدر السابق ج ١، ص ٣١.

(٣٦) النورسي، المكتوبات، تعريب إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى إستانبول ١٤١٣\١٩٩٢، ص١٥٥-١٥٦.

فيبـدو ظـاهرا أن الأسـتاذ يـذهب مـذهب البيهقـي فـي أن يـرى - خلافـا للمعاصرين- أن كل واحد واحد من المعجزات الأحمدية وإن كان مرويا بطرق الآحاد إلا أنها تكتسب بمجموعها من الاجتماع والتركيب والتضام والإشارة - بطرقها المتعددة إلى شيء واحد- قوة لا تتزلزل وإحكاما لا يهن وصلابة لا تلين. ثم إن الأستاذ النورسي لا يقف عند هذا الحد بل نراه يصول على المخالفين بكلمات قارعة مؤلمة حيث يقول: "ولاشك أن أدركت الآن مدى سخافة وبلاهة من يرى هذا البناء الشامخ العامر للنبوة ثم يظن أنها تهوي بشبهات واهية ترد إلى ظنه من جزئيات الأمثلة."[٣٧]

فهذه الكلمات تصريح من الشيخ النورسي بأنه في موضوع وقوع خوارق العادات التي ظهرت كمعجزات على يد الرسول ﷺ ينتهج منهج سلف الأمة وجماهير علمائها في قبول وقوعها كمعجزات للمصطفى ﷺ وأنه يرى في ذلك تواترا معنويا لا مناص للعقل من قبوله ولا مجال لرده إلى جانب ما يتمتع به تلك المعجزات من قوة الإجماع السكوتي للأمة على قبولها عبر القرون الأربع عشرة السالفة فإن علماء الامة الإسلامية قاطبة بما فيهم فلاسفتهم[٣٨] وغيرهم يقبلون المعجزة كلازم ضروري للنبوة وأنه يمج ذلك الرأي المعاصر الذي يرد تلك المعجزات بحجة أنها تخالف المنطق العلمي المعاصر ويستسخر منها كما يبدو فيما نقلنا عنه آنفا.

علما منا أن الإمام النورسي حيث يرى عظم مسؤليته تجاه مشاكل الأمة وما انتابتها من نائبات وأصابتها من مصائب وحيث يرى تجاه ذلك أن على كاهله في موضوع ترشيد شباب الأمة ومثقفيها عبأ كبيرا لا يحمل إلا بشق الأنفس فهو يقوّم زمانه إلى أقصى الحدود في ما هو خير وأبقى، وفي ما هو أنفع وأقوم للأمة على المدى القريب والبعيد فكان لزاما عليه أن لا يسرد ما يتناوله من

---

(٣٧) المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٣٨) راجع في قضية ضرورة المعجزة للنبوة من المنظور الفلسفي الجرجاني، شرح المواقف، ج، ٨، ص ٢١٨-٢٣٠.

الموضوعات سردا تاريخيا بحتا لا يحمل دلالة ولا رسالة وكذا من واجبه أن لا يسردها سردا أكاديميا جافا تشمئز منها القلوب وتنقبض منها النفوس. بل عليه أن يتناول ما يتناوله تناول الداعي الرحيم الحكيم فيسردها سردا عاطفيا دعويا يجذب النفوس ويجلب القلوب يظهر عليه آيات الرحمة والمحبة والحكمة فمن هنا ترى نفحات الأسلوب الدعوي تعبق من كافة أساليب الأستاذ النورسي عبر جميع كتاباته في رسائله.

ويظهر من كتابات النورسي المكثفة حول موضوع الرسالة أنه يمكن عنونة تلك الأدلة الكثيرة التي استعملها الإمام النورسي في موضوع إثبات الرسالة بعنوانين رئيسين وهما ١- الأدلة الآفاقية، و٢- الأدلة الأنفسية. إلى جانب أنه يمكن تقسيم الأدلة الآفاقية في نفسها أيضا إلى قسمين لكل قسم منهما محور خاص: ١-محور إثبات الرسالة العامة، ٢- محور إثبات الرسالة المحمدية الخاصة.

أ- الأدلة الآفاقية

بدهي لدى المتصفحين لكتابات الشيخ النورسي والمتضلعين بها أنه رحمه الله جعل فريضة في عنقه وعبأ على كاهله انطلاقا من مسؤوليته العظمى إثبات الأركان الإيمانية والمسائل الاعتقادية بالحجاج العقلي والاستدلال المنطقي لما كان يتوسم في العصر من كنود وجحود وعناد وإلحاد. فمن جراء هذا لم يكن رحمه الله ليصرف وقته فيما لا يساعده ولا يعضده في مهمته هذه ولم يكن ليصرف زمانه في جمع ما كان متوفرا عبر جميع قطاعات الأمة من المعارف الموجودة بكثرة ووفرة كسرد الأحداث التاريخية سردا وكجمع المعلومات المأثورة عن سلفنا الصالح جمعا بل كان النورسي بدوره الذي قام هو به كان يعلو على هذا كله ويصوغ جميع ما كان يتناوله في سياق الاستدلال من مادة الكون أو مادة السيرة المصطفوية صوغا عديم النظير في جدة وطرافة وولع وإخلاص يحبذها ويستحسنها جميع العقول الرشيدة وأرباب الحكمة المشرقة

وكان رحمه الله عندليب التوحيد يتحلق في سماء الكون ويطير في عامة آفاقه فيجمع -مثل النحل الذي يلم مادة العسل من هنا وهناك- خلاصة الأدلة العقلية النيرة ويستعملها حينا دليلا على إثبات الصانع الحكيم ويستعملها حينا آخر دليلا على إثبات الرسالة العامة أو الخاصة ويستعملها حينا ثالثا برهانا قويا على إثبات الحشر وعلى إثبات أنه لا يمكن أن يترك الإنسان سدى بلا رادع ولا وازع. وفي باب إثبات الرسالة المحمدية نرى أنه يجوب مسافات شاسعة فتراه كأنه يطل من مكان عال على جميع ما في الكون فيستدل بالغالبية العظمى مما في أجزائه على صدق الرسالة الأحمدية وهو ما نسميه بالأدلة الآفاقية. وحينما يستدل الاستدلال الآفاقي نراه ينحو منحيين: فتارة يصوغ من تلك الأدلة حجة على إثبات الرسالة العامة وتارة يستعمل نفس الأدلة برهانا على إثبات الرسالة الخاصة فأدلته كسيف ذي حدين؟ ولنبدأ بسرد محور إثبات الرسالة العامة.

١- محور إثبات الرسالة العامة

إن العلامة النورسي حيث يرى أنه موظف من طرف الرحمة الإلهية لإثبات الحقائق الإيمانية. ولما للنورسي من تجولات فكرية ذكية بديعة في شتى أنحاء الأعيان والأحداث الكونية استدلالا بها على الصانع وما يتصل بعقيدة الصانع من النبوة وغيرها كان يستدل بالدلالات المتنوعة للمصنوعات الإلهية ويجعل منها أدلة عظيمة على ضرورة الرسالة العامة -كما كان الفلاسفة الإسلاميون يجعلون نظام الكون منطلقا لإثبات ضرورة النبوة- لأن الرسالة هي السبيل الوحيد لتعريف الخالق الحكيم على الوجه الحق وهي القناة الفذة للوصول إلى جنابه الكريم عبر العبادات المتنوعة وهي السبب الوحيد لتحقيق العدالة في العالم الإنساني[٣٩] وبدون الرسالة لا يستطيع بنو آدم أن يعبدوا الله حق عبادته ويعرفوه حق معرفته ولا أن يحققوا العدالة في العالم على الوجه الأكمل ومن هنا تاهت الفلاسفة والساسة الذين لم يستضيؤا بنور النبوة قديما وحديثا في

(٣٩) الجرجاني، شرح المواقف، ج ٨، ص ٢٣٠.

معرفة الخالق وفي إثبات النبوة وفي سياسة العباد والبلاد وغيرها مع حدة ذكائهم ونفوذ بصيرتهم وسعة معلوماتهم ولم يصلوا فيها إلا إلى ضلالات ما فوقها ضلالة فمنهم من جعل الماء إلها ومنهم من جعل الهواء مصدرا للكون ومنهم من جعل الأعداد خالقة إلى آخر خرافاتهم وأباطيلهم فهذا دليل حاسم على أن الإنسان مهما اتسعت علومه وتنوعت معارفه وتطورت مكاسبه فلا يصل إلى الحق اليقين بدون هدي سماوي وإرشاد إلهي يتحقق على يد واحد من الأنبياء.

وانطلاقا مما ثبت عند النورسي - بدرجة الشهود - من التلازم البين والترابط الصريح بين التوحيد والنبوة[٤٠] يجعل جميع ما ثبت لديه كدليل على التوحيد دليلا في الوقت نفسه على النبوة أيضا كما أن من البداهة بمكان أن النورسي يرى تلازما بين الأركان الإيمانية الأخرى أيضا من الناحية الإثباتية فالتلازم – حسب هذا المنظور وحسب المنظور العلمي البحت أيضا - بين الرسالة العامة وبين الرسالة المحمدية من باب أولى لأنه كلما ثبت الخاص ثبت معه العام أيضا لأن الخاص من حيث إنه خاص لا يمكن أن يتحقق ويثبت بدون العام وإلا فلا يكون العام عاما ولا الخاص خاصا. فإذاً كل دليل يدل على إثبات الرسالة المحمدية الخاصة فهو في الوقت نفسه دليل على الرسالة العامة أيضا بدون نزاع ولا مراء. ولهذا اكتفى الشيخ النورسي في باب إثبات الرسالة العامة بتلك الأدلة الجمة الملتقطة من شتى جوانب هذا الكون المشهود التي سردها لإثبات الرسالة المحمدية الخاصة والتي نعنونها بالأدلة الآفاقية وكفى.

إن الأستاذ النورسي يتناول قضية إثبات الرسالة انطلاقا من الكثير من الأدلة الكونية فمثلا يأخذ الحياة ويجعل منها بتسلسل فكري سليم حدثا هاما ذا دلالات رائعة يتدرج من بعض تلك الدلالات إلى هدف سام وهو ضرورة الرسالة العامة إذ يقول:

---

(٤٠) انظر النورسي، الكلمات، ص ٣٤٦.

نعم! ما دام الكون قد خُلق لأجل الحياة وأن الحياة هي أعظم تجلٍ وأكمل نقش وأجمل صنعة "للحي القيوم" جلّ جلاله، وما دامت حياته السرمدية الخالدة تظهر وتكشف عن نفسها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، إذ لو لم يكن هناك "رسل" ولا "كتب" لما عُرفت تلك الحياة الأزلية، فكما أن تكلم الفرد يبين حيويته وحياته كذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام والكتب المنزَلة عليهم، يبيّنون ويدلّون على ذلك المتكلم الحي الذي يأمر وينهي بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون.[٤١]

وفي هذا السياق يجول النورسي جولات فكرية وينتقل انتقالات فجائية تهش لها النفوس، وتجيش بها القلوب، وتدهش منها العقول كما هو شأنه في الانتقال بين رياض الأدلة وبساتين الحجة حتى يأتي من تلك البساتين بالإكليل تلو الإكليل من تلك الأدلة التي تثبت ضرورة الرسالة.

٢- محور إثبات الرسالة المحمدية

إن من لاحظ الشيخ النورسي أغدق الله عليه شآبيب رحمته في استدلالاته واحتجاجاته عن كثب يرى أنه حينما كان يحتج على الأركان الإيمانية والمسائل الاعتقادية يبدو على جميع استدلالاته واحتجاجاته جانبان متميزان في أسلوبه أحدهما أسلوبه العرفاني الذي هو انعكاس ظاهر لما يتمتع به العلامة النورسي من الإشراق الروحي والصفاء القلبي والتزكية النفسية والاستنارة الداخلية وذلك كاستدلاله بظلال الأسماء الإلهية وآثار الأفعال الربانية، وهو ما يتيسر لنا أن نسميه بالقراءة العرفانية تلك القراءة التي تنبع من معرفة الله المستولية على وجدان المؤمن التقي والنافذة في أعماقه والمتسربة إلى خلاياه الباطنة وتترشح من الأنوار الإيمانية والنفحات القدسية لديه التي تعم وجدانه وتغطي ظاهره وباطنه وهذه الشؤون النورانية لا توجد إلا عند القليل من خلص عباد الله

(٤١) النورسي، اللمعات، ص ٥٦٧.

المؤمنين وقليل ما هم. وثانيهما أسلوبه العقلاني الذي هو أثر من آثار ما كان لديه من المعارف الجمة والمعلومات الواسعة المتنوعة المتدفقة من يمينه وشماله ومما كان يتمتع به من الثقافة المعاصرة العميقة والاطلاع الواسع على ثقافة الغرب وفلسفته ومشاكل العصر وعقده النفسية؛ وفي هذا الصدد أتى النورسي بجميع ما يمكن للعقل أن يجعلها دليلا أو علامة أو أمارة على إثبات أمر ما من الآثار الجميلة والمحاسن الجليلة والفضائل الشخصية والكمالات النفسية والأفعال السامية والأحوال النزيهة والأخلاق المرضية لصاحب الرسالة ﷺ وغير ذلك ففي هذا السياق تراه يستدل بأدلة متنوعة متلونة كما أشرنا سالفا؛ ولا يدع جانبا من جوانب سيرة المصطفى إلا ويستدل به على صدق رسالته فكما يستدل بهذا الكتاب الكوني الكبير - على حد تعبيره- وبكتاب الوحي القرآن العظيم على توحيد الألوهية وعلى صدق تحقق الآخرة كذلك يستدل بهما طورا على إثبات الرسالة العامة وطورا آخر على إثبات الرسالة المحمدية الخاصة وطورا ثالثا تراه يتنزل من الكل إلى الجزء فيستدل ببعض المضامين القرآنية الخاصة أيضا على رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وذلك كاستشهاده بمضامين القصص القرآنية فيجعلها من مستلزمات صدق الرسالة ومن خلال ذلك ينتقل إلى جزء أصغر في الاستدلال حيث يجعل نبوة الأنبياء السالفين حجة على حقية الرسالة المحمدية فيقول: الحكمة في تكرار قصص الأنبياء إنما هي إثبات الرسالة الأحمدية وذلك بإظهار نبوة الانبياء جميعهم حجةً على أحقية الرسالة الاحمدية وصدقها؛ حيث لا يمكن أن ينكرها إلاّ من ينكر نبوتهم جميعاً. فذكرها اذن دليل على الرسالة.[٤٢] وسنجمع ما استنبطه النورسي من هذه الأدلة تحت عنوان الأدلة النفسية.

فلما كان الشيخ النورسي يتمتع به من الصفاء النفسي والاستنارة الروحية

---

(٤٢) النورسي، الكلمات، تعريب إحسان قاسم صالحي، ص: ٥٣٥، الشعاعات، تعريب إحسان قاسم صالحي، ص ٣١٣.

والعقلية كان يقرأ الكون قرائة غير قرائة كثير من المفكرين والملهمين فكان يقرء الكون قراءة عرفانية فذة نابعة من صفاء روحي ونقاء فكري وطهر شعوري وإشراق داخلي قلبي يستشف بها من وراء تلك الكلمات التكوينية الدلالات المتنوعة الجمة لها ولما يتركب من تلك الكلمات التكوينية من آيات الكون وكان يرى أن كل كلمة من كلمات هذا الكون الفسيح إنما هي تصريح وإعلان لحقيقة أو حقائق من الحقائق الإسلامية العظمى فمن هنا كان يتمثل بقول القائل:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملاء الأعلى إليك رسائل

كان النورسي حينما يشاهد ببصيرته الصافية ظلال الأسماء الإلهية المنعكسة على مختلف صفحات الكون الدالة على توحيد الصانع جل جلاله كان يرى من خلال ذلك دلالة تلك الظلال والتجليات على ثبوت الرسالة المحمدية أيضا حيث يقول: نعم! مثلما يقتضي التجلي الاعظم لاسم "الحكم والحكيم" - في أوسع مداه - الرسالة الأحمدية، فإن أغلب الاسماء الحسنى؛ "الله، الرحمن، الرحيم، الودود، المنعم، الكريم، الجميل، الرب" وأمثالها، تستلزم الرسالة الأحمدية في أعظم تجلياتها وإحاطتها بالكون كله، استلزاماً قاطعاً لا ريب فيه. وهكذا فأغلب الأسماء الحسنى إنما هي برهان باهر على الرسالة الاحمدية كما مر آنفا.[٤٣]

بينما لا يغيب عنا أننا نرى الأستاذ النورسي وهو في غمار الحجاج والاستدلال ينحو منحى غريبا حيث يميل إلى قول القائلين أن لله سبحانه في أفعاله أغراضا وحكما ومقاصد ومن أعظم مقاصده سبحانه الرسالة المحمدية فيصرح بذلك في معظم كتاباته فيقول:

"أوَ من الممكن ألاّ يكون أعظم مقصد من مقاصد ذلك الصانع الجليل واعظم نور من أنواره وأوسع مرآة من مراياه، الرسالة الاحمدية على صاحبها

(٤٣) النورسي، اللمعات، تعريب إحسان قاسم صالحي، ص: ٥٣٧.

افضل الصلاة والسلام الذي جمّل جميع مصنوعاته وأبهج جميع مخلوقاته وأضاء الكائنات برمتها، وحوّل السموات والأرض إلى جذبة ذكر وتهليل، وضمّ تحت جناح سلطنته المعنوية والمادية نصف الكرة الأرضية وخمس البشرية طوال أربعة عشر قرناً من الزمان دون انقطاع.(٤٤)

وفي هذا السياق ينتقل النورسي بذهنه الوثاب إلى إثبات الرسالة العامة ويجعل نفس الدليل دليلا على الرسالة العامة أيضا فيقول: أو من الممكن ألاّ يكون الأنبياء عليهم السلام الذين خدموا الحقيقة نفسها كمحمد ﷺ مبعوثي الصانع الجليل وأحبّائه ورسله الكرام؟ حاش لله وكلا بعدد معجزات الأنبياء؟(٤٥)

وفي سياق إثبات الرسالة العامة والخاصة نجد عند الشيخ النورسي تجولات فكرية ذكية سريعة، ونرى لذكائه الوقاد كرا وفرا عجيبا وتنقلات فجائية كالبرق الخاطف أو أسرع فينتقل من حجة إلى أخرى ومن دليل إلى آخر ومن قراءة إلى أخرى بدون تلكأ ولا تلعثم. ثم إن النورسي رحمه الله لمزيد شغفه بالاستدلال على المسائل الإيمانية ولمزيد حرصه على إثبات جميع الحقائق الإسلامية بالدلائل القوية الناصعة كان له في باب الاستدلال منحى آخر ربما لم يلتفت له أحد من العظماء والفلاسفة قبله وهو أنه جعل بين الأركان الإيمانية فيما بينها أنفسها وفيما بينها وبين الكائنات استدلالا تلازميا تراجعيا وتعاكسيا. ويصرح بمنظوره في هذا الموضوع إذ يقول "اعلم! يامن يستعظم النتيجة ويستضعف دليلها! انه ما من دليل يشهد على حقيقةٍ من الحقائق الإيمانية، إلاّ ويزكيّه ويؤيّده ويقوّيه ويمدّه كلُّ ما قام على صدق شئ ما من الإسلامية. فكأن كلَّ ما لا يعد من الشواهد والشهداء والبراهين والامارات، كل منها يضعُ إمضاءه على سند كلٍ من أخواتها، فيختم كلٌّ منها خاتمَ تصديقه على منشور كلِّ واحدٍ(٤٦)

فاستبان من هذا أن النورسي يرى أن التصديق بكل واحد منها يستلزم

---

(٤٤) النورسي، الشعاعات، تعريب إحسان قاسم صالحي، ص: ٤٢.
(٤٥) نفس المصدر.
(٤٦) النورسي، المثنوي، ص: ١٩٢.

التصديق بالآخر بحيث يكون بينها ترابط وتلازم إلى درجة أن لا ينفك البعض في المنظور العقدي عن البعض فيكون كل واحد من تلك الأركان الإيمانية دليلا على الآخر مستلزما له وفي الوقت نفسه مدلولا ولازما له إذ يصرح بذلك: اعلم! ان بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي والإيمان بالحشر والتصديق بوجود الكائنات تلازماً قطعياً، وارتباطاً تاماً للتلازم في نفس الأمر، بين وجوب الألوهية وثبوت الرسالة، ووجود الآخرة وشهود الكائنات بدون غفلة.(٤٧) وهذا التلازم الذي يراه النورسي بين التوحيد والرسالة هو سر انطلاقه في سياق إثبات الرسالة الأحمدية إلى آيات الكون انطلاقة عديمة النظير فيقرءها تلك القراءة العظمى التي تندهش منها العقول وتنشرح لها الصدور وتطمئن بها القلوب.

وبتلك القراءة الفذة للنورسي ينعكس الأمر في باب دلالة الشيء الواحد حيث يكون دليلا من جهة ومدلولا من أخرى فيجعل الدليل مدلولا والمدلول دليلا هذا من جانب ومن الجانب الآخر تراه ينفذ بحكمته المتنوعة إلى أعماق أجزاء المصنوعات الربانية فيقلبها يمنة ويسرة ويستشهد بشتى أنحائها وعديد جوانبها على عديد من الحقائق الإسلامية فكما يجعل الدلائل الموجودة في صميم الكون دالة على حكمة الصانع الحكيم وقدرته وعلمه كذلك يجعلها دليلا على الرسالة عامة والرسالة المصطفوية خاصة ثم يعود النورسي كرة أخرى فيجعل نفس الرسالة المحمدية من عظميات أدلة التوحيد. إذ يقول "إن هذا التوحيد الحقيقي بجميع مراتبه وبأتم صورته الكاملة قد أثبته وأعلنه وفهمه وبلغه محمد ﷺ فلا بد أن رسالته ثابتة وقاطعة كقطعية ثبوت التوحيد نفسه لأنه لما كان التوحيد هو أعظم حقيقة في عالم الوجود وأن الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام هو الذي تولى تبليغه وتعليمه بجميع حقائقه فلا بد أن جميع البراهين التي تثبت التوحيد تكون بدورها براهين لإثبات رسالته وأدلة على صدق نبوته وأحقية دعوته ﷺ فرسالة كهذه الرسالة العظمى التي تضم ألوفا من أمثال هذه

---

(٤٧) النورسي، المثنوي العربي النوري، ص: ٨٦.

الحقائق السامية تكشف عن حقيقة التوحيد وترشد إليه وتلقنه (كما) لاشك أنها رسالة يقتضيها ذلك التوحيد وتلك الفردية.[٤٨] ويفيد ذلك بكلمة أكثر تصريحا وأتم وضوحا في بداية الكلمة التاسعة عشرة التي خصصها للرسالة الأحمدية حينما يقول: "إن ما يعرف لنا ربنا هو ثلاثة معرفين أدلاء عظام: أوله كتاب الكون وثانيها هو الآية الكبرى لهذا الكتاب العظيم وهو خاتم ديوان النبوة، وثالثها القرآن الحكيم.[٤٩] ومثلا انظر إليه كيف يستدل بالحياة لتكون على مقربة من اتجاهه الاستدلالي وعلى كثب من عمق حكمته ونفوذ بصيرته:

فلابد أن الحياة التي في الكون كما أنها تدل - بصورة قاطعة - على "الحي الأزلي" سبحانه وتعالى وعلى وجوب وجوده، تدل كذلك على شعاعات تلك الحياة الازلية وتجلياتها وارتباطاتها وعلاقاتها باركان الإيمان مثل (إرسال الرسل) و (إنزال الكتب) وتثبتهما رمزاً. ولا سيما "الرسالة المحمدية" و "الوحي القرآني". اذ يصح القول، انهما ثابتان قاطعان كقطعية ثبوت تلك الحياة، حيث انهما بمثابة روح الحياة وعقلها... نعم، كما ان الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة.. كذلك الحياة المحمدية – المادية والمعنوية – مترشحة من الحياة ومن روح الكون فهي خلاصة زبدتها، والرسالة المحمدية كذلك مترشحة من حسّ الكون وشعورِه وعقِله.[٥٠]

وفي سياق الاستدلال على الرسالة المصطفوية نجد الأستاذ النورسي يجوب مسافات شاسعة ويتحلق إلى آفاق واسعة أكثر حيث يستكشف الحقيقة من مخابئ ويستطلعها من مكامن لا يصل إليها إلا أفذاذ الرجال الذين يشد إليهم الرحال فحينما كان يقرء هذا الكون البديع المفعم بآيات الحسن والجمال كان

(٤٨) النورسي، اللمعات، ص ٥٥٣-٥٥٤.
(٤٩) النورسي، الكلمات، ص ٢٥٤. وانظر في نفس الموضوع ص: ٢٥٥، ٢٦٠.
(٥٠) النورسي، اللمعات، ص ٥٦٧.

يقرء في ذلك الحسن دلالة أخرى غير ما ذهب إليه الآخرون فيقول:

"ما دام حسن الصنعة موجوداً في الكون، وهو أمر قطعي كما يشاهد، يلزم اذاً ثبوت الرسالة الأحمدية عليه الصلاة والسلام بقطعية يقينية بدرجة الشهود؛ لأن حسن الصنعة وجمال الصورة في هذه المصنوعات، يدلان على أن في صانعها إرادة تحسين وطلب تزيين في غاية القوة، وان إرادة التحسين وطلب التزيين يدلان على أن في صانعها محبة علوية ورغبة قدسية لإظهار كمالات صنعته التي في مصنوعاته، وان تلك المحبة والرغبة تقتضيان قطعاً تمركزهما في اكمل وأنور المصنوعات وأبدعها، الا وهو الإنسان. ذلك لأن الإنسان هو الثمرة المجهّزة بالشعور والإدراك لشجرة الخلق، وان الثمرة هي اجمع جزء وأبعده من جميع أجزاء تلك الشجرة، وله نظر عام وشعور كلي."[٥١]

ولما يستيقنه النورسي عبر تجواله الفكري في الحقائق الإسلامية العليا من التلازم الأكيد بين التوحيد والرسالة ومن ضرورة الرسالة لا للحياة البشرية فقط بل للحياة الكونية بأسرها - ولذا لا يمكن حسب منظور الإمام النورسي دوام وجود هذا الكون ولا حياته بدون تلك الحجة الموصلة إلى خالقه وهو الرسالة المحمدية - كان يرى أن حياة محمد ﷺ - المادية والمعنوية - بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني - بشهادة حقائقه الحيوية - روح لحياة الكون وعقل لشعوره. فإذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جَنّ جنونه وفَقَدت الكرة الارضية صوابَها، وزال عقلُها، وظلت دون شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة.[٥٢]

نرى من هذه المقتبسات القليلة اللطيفة أن الأستاذ النورسي رحمه الله كان

---

(٥١) النورسي، الكلمات، ص ٢٥٢

(٥٢) النورسي، اللمعات، ص: ٥٦٨

يقرء الكون قراءة واعية متنوعة من النوع الآخر فيشهد فيه وعليه دلالات وشهادات جمة منها شهادته على قدرة الصانع الحكيم ومنها شهادته على الرسالة العامة ومنها شهادته على الرسالة المحمدية الخاصة فالأستاذ النورسي كما يرى للكون دلالاته القطعية الحاسمة على وحدة الصانع وقدرته كذلك يرى للكون دلالات قاطعة على الرسالة المحمدية فانظر مرة أخرى إلى هذا التسلسل الفكري الرائع والسلاسة المنطقية الراقية في هذا الصدد إذ يقول: "نعم مادام الكتاب البليغ بمعانيه ومراميه يقتضي بالضرورة معلما بارعا لتدريسه والجمال الفائق يقتضي مرآة يتراءى فيها ويرى بها جماله وحسنه والصنعة البديعة تستدعي مناديا داعيا إليها فلا بد أن يوجد بين بني البشر الذي هو موضع خطاب كتاب الكون الكبير المتضمن مآت المعاني البليغة والحكم الدقيقة في كل حرف من حروفه أقول: لابد أن يوجد رائد أكمل ومعلم أكبر ليرشد الناس إلى ما في ذلك الكتاب الكبير من حكم مقدسة حقيقية... فالذي يؤدي هذه المهمات وينجز هذه الوظائف على أتم صورة ليس إلا الرسول الأكرم ﷺ كما هو مشاهد لذا فكما تستلزم الشمس الضوء ويستلزم الضوء النهار فالحكم المبثوثة في آفاق الكون وجنباته تستلزم نبوة محمد ﷺ ورسالته"(٥٣) وهذا هو شأن البصير من العلماء الملهمين. وشيء آخر وهو كما ترى إنه حينما يفعل كل ذلك لا يترك الكلام على عواهنه ولا يجعل أفكاره شذر مذر بل يأتي بذلك ضمن حركة فكرية متناسبة متناغمة ويأتي تبيانا لذلك بأسلوب منسجم فائق أخاذ بالنفوس وجذاب للعقول.

إن من أهم ما يسترعي نظر المتأمل لمنهج النورسي عبر أساليبه الدعوية هو أن العلامة يستعمل بنافذ بصيرته وثراء حصيلته وغناء رصيده لا منهجا دعويا واحدا فقط بل يستعمل شتى المناهج فهو يستعمل مناهج علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم التربية، وعلم الدعوة والإرشاد في مقارباته وملاحظاته واستدلالاته

---

(٥٣) النورسي، اللمعات، ص ٥٣٦-٥٣٧.

واتجاهاته الفكرية. إن الركن الأعظم في نجاح الأستاذ النورسي في نشر رسائله بين شتى فئات الناس وطبقات المجتمع هو خبرته العميقة بما يناسب المقام من أنواع البيان وعلمه الغزير بما يناسب نفسيات المخاطبين من الشباب والشيوخ والمثقفين وغيرهم من صنوف الخطاب.

فحينما يستدل بأحوال صاحب الرسالة ﷺ على صدق رسالته تراه يستعمل بمهارة وحذاقة فائقة تلك الأساليب النفسية والاجتماعية أليس من ذلك قوله: اعلم أن للمحيط الزماني والمكاني تأثيرا عظيما في محاكمات العقول. فإن شئت فتعال نخلع هذه الخيالات الزمانية والعصرية والمحيطية ونتجرد من هذا اللباس الملوث لنذهب إلى خير القرون وعصر السعادة النبوية لنحظى بزيارته الكريمة - ولو بالخيال- وهو على رأس وظيفته يعمل...[٥٤] يشير قوله نخلع هذه الخيالات الزمانية إلخ إلى سنة هامة من سنن علم الاجتماع وهو تأثير الثقافة الحاضرة والظروف الراهنة في تقييم الإنسان وملاحظاته العقلية ومحاكماته الفكرية واتجاهاته النفسية.

كما أن هذا الأسلوب الزجري في قوله في آخر ما سرده من أدلة الرسالة: "فيا حسرة على الغافلين، ويا خسارة على الضالين ويا عجبا من بلاهة أكثر الناس كيف تعاموا عن هذا الحق، وتصاموا عن هذه الحقيقة؟"[٥٥] أسلوب نفسي يتضمن الكثير مما يدفع بالنفس إلى الانقياد والانصياع للحق.

ب- الأدلة النفسية على الرسالة المحمدية

إن من ألقى نظرة عامة على الموضوعات التي صاغ منها الإمام النورسي أدلة الرسالة الأحمدية استيقن عن قرب أن أكبر المواد الخامة التي يصنع منها الإمام النورسي تلك الأدلة هي ما يلي: القرآن الكريم، والمعجزات، والشريعة الإسلامية، وثمرات النبوة، والتحولات التي تحققت بقيادة المصطفى في العالم

---

(٥٤) النورسي الكلمات، ص ٢٥٦؛ المثنوي العربي، ص ٥٧.
(٥٥) النورسي، الكلمات، ص ٢٦٠.

العربي خاصة والعالم الإنساني عامة، والسيرة النبوية بما تتضمن أحوال السيد المصطفى ﷺ، وشمائله الشريفة، وأفعاله الكريمة، وصلاته الرائعة، وعلاقاته السامية، وشؤونه الرفيعة، وملابساته الحكيمة، ومعجزاته العظيمة، وتصريفاته الرشيدة، وثمرات دعوته الغالية، ونتائج إرشاده القيمة فيعجنها عجن الحكيم الرشيد ويصوغ منها أدلة تساير ثقافة العصر وتناسب فهم أهله وتخاطب عقولهم وترضي نفوسهم ولا يستعملها بصورة جمع المعلومات التاريخية وسردها الأكاديمي الجاف المنكمش بل يقسمها إلى أقسام حسب حصيلته الفكرية الثقافية، ورؤيته العلمية المنطقية، واتجاهه العرفاني ثم يستخرج منها دروسا شمولية، وعبرا عمومية ويستنبط منها أدلة عامة، وبراهين كلية، ورسالات عالمية تصدق رسالته عليه الصلاة والسلام بحيث لا يستطيع أن ينكرها أي أحد له عقل سليم، ومنطق صحيح. فإذا جمعنا هذه الشتات من الدروس والبراهين التي استخرجها النورسي من سيرة المصطفى وشريعته وعامة شؤونه نجدها كما ذكرها في المكتوب التاسع والعشرين والرشحات من المثنوي النوري والكلمة العاشرة من الكلمات على الصورة التالية:.

١- **القرآن الحكيم** فهو أعظم الأدلة التي يستشهد بها النورسي على نبوة الرسول الكريم ﷺ ففي مثنويته وفي الكلمة العاشرة نجد الإمام النورسي يتركز على الإعجاز القرآني بصورة أكثر تفصيلا من الدلائل الأخرى وفي هذا الصدد يستشهد الإمام النورسي بجميع تلك الجوانب القرآنية التي لها دخل في إعجاز القرآن والبالغ ،نحو أربعين وجها من وجوه إعجازه[٥٦] على صدق القرآن وحقيته ومن ثمة ينتقل نقلة ذهنية خاطفة إلى إثبات صدق الرسول وإلى دلالة تلك الوجوه البالغة على صدق الرسالة المحمدية.[٥٧]

٢- **حياة العبودية** التي أتى بها الرسول وحققها في نفسه وأمته. فمما كان

(٥٦) النورسي الشعاعات، ص

(٥٧) راجع النورسي، المثنوي، من ص ٦٩ إلى ص ٧٩.

النورسي يرى للعبادة من التأثير النفسي الإيجابي العظيم في نفوس المؤمنين وإصلاح بواطنهم وظواهرهم كان يرى أن النبي وعباداته فذلكة الخير والكمال وأن مسلكه ودينه فهرستة السعادات والحسن المجرد[٥٨] ويسترعي النورسي نظر قرائه إلى تلك الخيور الجزيلة التي يحققها العبادات التي أتى بها الرسول ﷺ في المجتمع المؤمن إذ يقول: إن للعبودية التي جاء بها النبي عليه السلام ملايين المحاسن[٥٩] ثم بعد هذا الاستلفات الطيب ينطلق إلى أن يشرح بعض الشرح واحدا منها: وهو توحيد قلوب المؤمنين وجمع ألسنتهم في أمثال صلاة العيد والجمعة والجماعة بحيث يقابل هذا الإنسان إبان ذاك عظمة خطاب المعبود الأزلي بجميع أصوات القلوب وأدعيتها وأذكارها بتظاهر، وتظافر في اتفاق، وتساند وتجاوب في وسعة كأن هذه الأرض تنطق هي بنفسها وتصلي بأقطارها وتمتثل بأطرافها أمر "أقيموا الصلاة..." النازل بالعزة والعظمة من فوق السموات السبع حتى صار هذا الإنسان المخلوق الضعيف –مع صغره وكونه كذرة بين هذه العوالم- عبدا محبوبا لخالق الأرض والسموات وخليفة الأرض ورئيس الحيوانات وغاية خلقة الكائنات.[٦٠]

٣- **خوارق العادات–المعجزات المادية.** إن الشيخ النورسي رحمه الله تعالى رغما من عيشه في القرن العشرين وتضلعه الواسع بالعلوم الغربية واطلاعه الواسع على المعرفة الغربية وعلى العقلية الحديثة الغربية بمحل ولادتها وعلى الوضعية بأهم مواصفاتها التي تجد الكثير ممن كان لهم صلة بها من علماء المسلمين ومثقفيهم تأثروا بها إلى حد ما وصاروا يلوون تلك النصوص القرآنية والنبوية التي تدل على معجزة ما عن أصالتها وطبيعة دلالتها إذا ما خالفت اتجاه تلك العقلية الوضعية. فرغما من اطلاع النورسي الواسع على تلك الثقافة والعقلية الغربيتين إلا أنه بطبيعة ما يتحلى به من ميزات العلماء

(٥٨) النورسي، المثنوي، ص ٢٧٩.
(٥٩) المصدر السابق.
(٦٠) نفس المصدر ص ٢٧٩-٢٨٠.

الراسخين وسمات العارفين المتقين لم يتأثر أدنى تأثر بتلك العقيلة الغربية الغريبة على الإسلام ومصادره وثقافته وعقليته المستقاة من كتابه وسنة نبيه. فكان النورسي لما يجد من إجماع الأمة الفعلي عبر القرون الثلاثة عشر على قبول المعجزات ولما كان يجد لمجموعها من التواتر المعنوي يستشهد بتلك المعجزات المادية التي نقلها الخلف عن السلف عبر جميع الأدوار التاريخية للمسلمين وفي صحاح مدونات السنة الأمينة وفي صحاح مصادر التاريخ الإسلامي الموثوقة ويجعلها من بين أهم الأدلة التي تثبت رسالة النبي المصطفى ﷺ إذ يقول: "وكذا تصدقه دلالات ألف معجزات من أمثال شق القمر ونبعان الماء من الأصابع كالكوثر ومجيء الشجر بدعوته، ونزول المطر في آن دعائه، وشبع الكثير من طعامه القليل، وتكلم الضب والذئب والظبي والجمل والشجر والحجر إلى ألف مما بينه الرواة الثقاة والمحدثون المحققون."(٦١)

٤- **بشارات الكتب السماوية:** إن النورسي رحمه الله تعالى كما كان يستدل على نبوة سيدنا محمد ﷺ بمثل القرآن من المعجزات كذلك كان يستدل بما ورد في الكتب السماوية السابقة أيضا حيث يقول: "تصدقه مئات إشارات الكتب السماوية من بشارات التوراة والإنجيل والزبور وزبر الأولين وكذلك تصدقه رموز ألوف الإرهاصات الكثيرة المشهودة."(٦٢) ومن جانب آخر إن النورسي حينما يستشهد ببشارات التوراة والإنجيل لا يترك الكلام على عواهنه ولا يبقي الأمر على علاته بل يتناول الأمر بالتفصيل والتحليل من شتى الجوانب ويستوعب القضية من مختلف الجهات. فمرة يلفت النظر إلى تحريفات تلك الكتب ويقرر أنه رغما من التحريفات التي وقع فيها استخرج العالم المشهور

---

(٦١) نفس المصدر ص ٥٦، الشعاعات، ص ٦٥٨. فإن أردت تفاصيل ما استشهد به النورسي من المعجزات المادية التي تقارب نحو ثلاث مئاة معجزة فعليك بالمكتوب التاسع عشر المدمج ضمن المكتوبات ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص ١٥٩- ٢١٨.

(٦٢) النورسي، الكلمات، ص ٢٥٥، المثنوي، ص ٥٦،

حسين الجسر مائة وعشرة أدلة على نبوته ﷺ من تلك الكتب.[٦٣] ومرة أخرى يذكر بالنص أسماء الكثيرين من أهل الكتاب الذين أقروا بما وجدوا من البشارات في كتبهم أو أسلموا استيقانا بما فيها منها. ومرة ثالثة ينقل بالنص الكثير من عبارات ونصوص تلك الكتب السماوية التي تبشر برسالة سيدنا محمد ﷺ.[٦٤]

٥- **ثمرات دعوته:** ومما يتنبه له الأستاذ النبيه في سياق إثبات الرسالة الأحمدية هو الاستدلال بما ربما لم يتنبه للاستدلال به كثير من فطاحل العلماء. وهو تلك الثمرات اليانعة المتنوعة التي أخرجها نبوته عليه الصلاة والسلام إلى العالم الإنساني علما منا أن ثمرات دعوته تلك كانت متنوعة ومتفرعة ومتشعبة إلى أقصى الحدود خذ من ذلك مثلا: المشروع الإصلاحي العظيم الذي أصلح به نفوس القوم إلى تلك المعارف الجمة والعلوم الجزيلة التي نمت وترعرعت بفضل نبوته بين ربوع العالم كله وإلى أولئك الحكماء والمصلحين الذين تربوا في مدرسته وإلى هؤلاء الصحابة الذين كانوا فضلاء البشر الذين أخذوا من دروسه العظيمة فصاروا في أقرب وقت سادة العالم وقادته. فلا يترك الشيخ النورسي جزئيا واحدا من جزئيات ثمرات دعوته إلا وألم به بعض الإلمام وجعله شاهد صدق على نبوته عليه الصلاة السلام. وفي هذا المحور يرى الأستاذ أن من الأدلة العظيمة التي تثبت نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ظهور المآت من أولئك العلماء المصلحين والعظماء المربين في أمته الذين كانوا أفضل النماذج الإنسانية بسيرتهم وشمائلهم ومعارفهم وبما قدموه للإنسانية من الخدمات الجليلة في شتى المجالات فكانوا في الخير والبر والعلم والتقى والإرشاد والتذكير كالشمس في رابعة النهار أضاؤا للعالم أجمع سبل الهدى والتقى وطرق الخير والبر فمشوا فيه من أمثال أبي حنيفة، والشافعي،

---

(٦٣) النورسي، المكتوبات، ص ٢٢٠.

(٦٤) المصدر السابق ص ٢٢٠- ٢٢٧.

وأبي يزيد البسطامي، والجنيد البغدادي، والشيخ عبد القادر الجيلي، والإمام الغزالي، ومحي الدين ابن عر بي، وأبي الحسن الشاذلي، والشاه نقشبند، والإمام الرباني ونظائرهم من ألوف ثمرات منورات من فيض هداية ذلك الشخص النوراني.[٦٥]

٦- **أحواله الإنسانية الشريفة:** إن علماء هذه الملة الحنيفة ذكروا في سياق الاستدلال على صدق نبوة المصطفى ﷺ كدليل قوي لا انفصام له ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ما كان الحبيب المصطفى يتصف به في ذاته الكريمة من تلك الأخلاقيات العظمى والكمالات العليا والسجايا السميا فإن تلك الخصائل النبيلة والفضائل الجليلة والكمالات الجزيلة إذا اجتمعت في إنسان مدع لأمر ما فإنها تدل بقوة ووضوح على صدقه في دعواه وإخلاصه في بره وهداه إذ يقول: اعلم أنه كما تصدقه الدلائل الآفاقية كذلك هو كالشمس يدل على ذاته بذاته فتصدقه الدلائل الأنفسية إذ اجتماع أعالي جميع الأخلاق الحميدة في ذاته بالاتفاق وكذا جمع شخصيته المعنوية في وظيفته أفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل النزيهة وكذا قوة إيمانه بشهادة قوة زهده وقوة تقواه وقوة عبوديته وكذا كمال وثوقه بشهادة سيره وكمال جديته وكمال متانته وكذا قوة أمنيته في حركاته بشهادة قوة اطمئنانه تصدقه في دعوى تمسكه بالحق وسلوكه على الحقيقة كما تصدق الأوراق الخضرة والأزهار النضرة والأثمار الطرية حياة شجرتها [٦٦] ويقول في محل آخر من كتاباته: إن أعظم معجزة للرسول الكريم ﷺ بعد القرآن الكريم هو ذاته المباركة أي ما اجتمع فيه من الأخلاق السامية والخصال الفاضلة وقد اتفق الأعداء والأولياء على أنه أعلى الناس قدرا وأعظمهم محلا وأكملهم محاسن وفضلا.[٦٧]

---

(٦٥) النورسي، المثنوي، ٦٤-٦٥.
(٦٦) النورسي، المثنوي، ص ٥٦-٥٧.
(٦٧) النورسي، المكتوبات، ص ٢٣٦.

٧- **الثورة الأخلاقية** التي حققها المصطفى في أيام قليلة وبجهد ضئيل في معظم جوانب الحياة الفردية والاجتماعية في قوم أميين شديدي التعصب لعاداتهم وأعرافهم بحيث انقلب الكيان الثقافي في ذلك الوسط الذي تألق فيه نور النبوة رأسا على عقب وتبدل معظم العناصر الأخلاقية والثقافية بأحسن مما كانوا عليها وارتفعت من حياة الفرد والمجتمع جراثيم العادات السيئة والتقاليد القبيحة فتطهرتا من أرجاس الجاهلية وأوضار الكفر والشرك إذ يقول: "إن من المعلوم أن رفع عادة صغيرة كالتوتون\التدخين مثلا من طائفة صغيرة بالكلية قد يعسر على حاكم عظيم بهمة عظيمة مع أننا نرى هذا الذات ها هو قد رفع بالكلية عادات عظيمة كثيرة من أقوام عظيمة متعصبين لعاداتهم معاندين في حسياتهم بقوة جزئية وهمة قليلة وفي زمان قصير. وغرس بدلها برسوخ تام في سجيتهم عادات عالية وخصائل غالية فانظر إلى عمر رضي الله عنه قبل الاهتداء وبعده تراه نواة قد صار شجرة باسقة وهكذا يتراءى لنا من خوارق إجراآته الأساسية ألوف ما رأينا فمن لم ير هذا العصر ندخل في عينيه هذه الجزيرة فليجرب نفسه فيها فليأخذوا مائة من فلاسفتهم وليذهبوا إليها وليعملوا مائة سنة هل يتيسر لهم أن يفعلوا بالنسبة إلى هذا الزمان جزء من مائة جزء مما فعل سيدنا في سنة بالنسبة إلى ذلك الزمان.[٦٨] ويشهد لما قاله النورسي أن الحكومة الأمريكية منعت الخمر بصورة تعديل دستوري عام ١٩١٩ وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية وسائل هي ١- الأسطول أجمعه لمراقبة الشواطئ، ٢- الطيران لمراقبة الجو، ٣- المراقبة العلمية،[٦٩] وإلى جانب هذه الأمور استعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور وأفلام السينما لتهجين شرب الخمر وبيان مضارها ومفاسدها. ويقدرون ما أنفقته الحكومة الأمريكية في الدعاية ضد الخمر بما

---

(٦٨) نفس المصدر، ٦٠.

(٦٩) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر بيروت تصوير ١٩٨٩، ص ٢٩٩.

يزيد على ٦٠ مليون دولار أمريكي وما نشرته من الكتب والنشرات بما يشتمل على ١٠ مليار صفحة وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما بما لا يقل عن ٧٢.٥ مليون دولار وقد أعدم فيها ٣٠٠ إنسان وسجن ٥٣٢٣٣٥ خمسمائة وإثنان وثلاثون ألفا وثلاثمأة وخمس وثلاثون إنسانا، وصودرت من الأموال ما يبلغ ١١٧.١ مليون دولار أمريكي ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر وعنادا في تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ إلى سحب القانون وإباحة الخمر في بلادها إباحة مطلقة.[٧٠] وتجاه ذلك فقد حرم النبي الكريم الخمر بكلمات قليلة وهي تلك الآية الفذة فقط في لحظة قليلة من الزمن ربما أقل من ساعة.

٨- عدم إمكانية الكذب والزيف له وعدم مناسبته لمنصبه الرفيع

وفي سياق الاستدلال على نبوته بأحواله الشريفة نشاهد أن الأستاذ النورسي يأتي بأفق تفكيري آخر في الاحتجاج على الرسالة المحمدية إذ يتسائل فيقول إذا ما لوحظ مكانة الرسول الأخلاقية السامية وعفته وطهارته الخلقية وتجنبه التام عن جميع أنواع الحيل والأكاذيب والتزييفات والخيانات في علاقاته الثنائية وصلاته الشخصية وملابساته العادية ومعاملاته الإنسانية قبل النبوة فإذا ترفع عن ذلك حينما كان إنسانا عاديا كسائر الناس لا يزيد عليهم بشيء سوى طهارته الخلقية وعفته النفسية فما بالك به وقد ادعى أكبر الدعاوى على أكبر ذات في الكون في أعظم قضية فكيف يمكن أن يكذب أو يزيف أو يخون وهو قد صار محل أنظار الناس القاصي منهم والداني وكيف يمكن أن ينحط إلى مستوى الكذب ذلك المستوى الدنئ والمحل الشنيع الذي لا يتنزل إليه إلا أراذل الناس وأدناهم خلقا.[٧١]

---

(٧٠) محمد خليل جيجك، دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١، ص ٢٩٤- ٢٩٥.

(٧١) انظر النورسي، الكلمات، ص ٢٥٩، المثنوي العربي، ص ٦٠-٦١.

ج- القراءة العرفانية

ثم إن الغالب على طبيعة أسلوب الإمام النورسي في استدلالاته على الرسالة المحمدية هوالاستدلال بالحجج الظاهرة العلمية والعقلية التي يتداولها العلماء والحكماء والمفكرون كما استبان ذلك مما أسلفنا ونجد هنا في هذا السياق بين حين وآخر انعكاسات جمة من تلك الشعاعات الروحية التي تنعكس أنوارها من باطنه على مداركه ومسامعه ومرائيه فترى له مقاربة للنبوة أشبه ما تكون بمقاربات العارفين الذين يقرؤون الكون غير القراءة الظاهرية التي يقرءها أهل الظاهر ويقتربون من مواد الأدلة والحجج اقترابا آخر وينطلقون من جانب آخر من جوانبها فيقرؤون الكون قراءة عرفانية روحانية في ظلال الأسماء الإلهية وتجلياتها ومراياها. معاييرهم في تلك القراءة هي المعارف الربانية القدوسية ومصادرهم التي يستمدونها منها هي الفيوضات السبوحية، والاستمدادات القلبية، والإمدادات الرحمانية. ورسائل النور من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها مفعمة بتلك المعارف الربانية والمدارك القلبية يفيض من جميع جوانبها أنوار تلك الأذواق الروحية التي كان العارف بالله النورسي يتمتع بها فبها ونعمت. فمن آثار ما كان النورسي يتمتع به من البصيرة الروحية والصفاء النفسي والطهر الداخلي هذه القراءة البديعة إذ يرى أن اعظم آية في كتاب الكون الكبير، واعظم اسمٍ في ذلك القرآن الكبير، وبذرة شجرة الكون، وأنور ثمارها، وشمس قصر هذا العالم، والبدر المنوّر لعالم الإسلام، والدال على سلطان ربوبية الله، والكشّاف الحكيم للغز الكائنات، هو سيدنا محمد الأمين عليه أفضل الصلاة والسلام.(٧٢)

وهنا ننقل كلمات أخرى للشيخ النورسي في سياق قراءته العرفانية للكون من نافذة الرسالة كي يظهر بوضوح وجلاء تلك الثروة العرفانية التي يفيض بها قلبه وبصيرته والتي تجمعت في رسائله إذ يقول:

---

(٧٢) النورسي الكلمات، ص: ٣٤٣.

ان جميع التحولات والحركات والسكنات والحياة والممات وأمثالها من التصرفات الجارية في الكون انما تتم بأمر وارادة وقوة الذات الأقدس الواجب الوجود الذي يتصرف في هذا الكون ابتداء من الذرات إلى السيارات، فتشهد اجراءات ربوبيته وافعال رحمانيته على الرسالة المحمدية. والفقرة العربية الآتية تعبّرعن هذه الشهادة السامية الرفيعة: وبشهادة صاحب الكائنات وخلاقها ومتصرفها على الرسالة المحمدية؛ بافعال رحمانيته وباجراآت ربوبيته؛ كفعل الرحمانية بإنزال القرآن المعجز البيان عليه، وباظهار انواع المعجزات على يديه، وبتوفيقه وحمايته في كل حالاته، وبادامة دينه بكل حقائقه، وباعلاء مقام حرمته وشرفه واكرامه على جميع المخلوقات بالمشاهدة والعيان، وكفعل ربوبيته بجعل رسالته شمساً معنويةً لكائناته، وبجعل دينه فهرستة كمالات عباده، وبجعل حقيقته مرآةً جامعةً لتجليات الوهيته، وبتوظيفه بوظائف ضرورية لازمة لوجود المخلوقات في هذه الكائنات كلزوم الرحمة والحكمة والعدالة وكضرورة لزوم الغذاء والماء والهواء والضياء.(٧٣)

كما يشير إلى اتجاه عرفاني آخر لدى النورسي مقولته هذه في بداية رسالة الحبة: بينما ترى العالم كتابا كبيرا ترى نور محمد عليه الصلاة والسلام مداد نور الكاتب، وبينما ترى العالم يلبس صورة الشجرة ترى نوره عليه الصلاة والسلام نواتها أولا وثمرتها ثانيا...إلخ(٧٤)

وأيضا يقرب من تلك المقاربة هذه المقاربة التي ناولت الرسالة المحمدية من بعد روحي آخر إذ يقول: نعم !ان منح ذات الرسول الكريم ﷺ اعظم مقام واسماه في القرآن الكريم، وجعل "محمد رسول الله" - الذي يتضمن اربعة من اركان الايمان - مقروناً بـ"لا إله إلا الله" دليل - وأيّ دليل - على أن الرسالة المحمدية هي اكبر حقيقة في الكون، وان محمداً ﷺ لهو اشرف المخلوقات

---

(٧٣) النورسي، الشعاعات، ص: ٦٦٦

(٧٤) النورسي المثنوي، ص ٢١٩.

طراً. وان الحقيقة المحمدية التي تمثل الشخصية المعنوية الكلية والمقام السامى والمرتبة الرفيعة لمحمد ﷺ هي السراج المنير للعالمين كليهما، وانه ﷺ أهل لهذا المقام الخارق.[٧٥]

خاتمة

إن الإمام النورسي مر بأشد الأزمات السياسية التي عاشتها الأمة والتي سببت انحلال كيان الخلافة تماما وانقسام العالم الإسلامي إلى لقيمات ودويلات وهذه الأزمة لم تبق في إطارها السياسي فقط بل تعداها إلى معظم جوانب حياة الأمة: الاعتقادية، والعملية، والأخلاقية، والثقافية، والقيمية فهزت الأزمة الأمة هزا عنيفا ضاع من جراء ذلك الهز العنيف معظم قيمها ومبادئها وخصيصا حينما تبني المعسكر الشرقي تلك الاتجاهات الملحدة اغتنمه فرصة سانحة كثير من الأحزاب السياسية أو الجهات الحاكمة المتجهة نحو المعسكر الشيوعي فأعرضت عن القيم الدينية والاتجاه الأخلاقي الديني فأصاب الكيان العقدي لدى معظم أبناء الأمة شلل وخلل كما أصيبت الأمة في عقليتها وتفكيرها إصابة لم تمر بنظيرها قبل أبدا.

ومن جراء ذلك كان الإمام النورسي يرى أن أهم شيء يتحتم أن يقوم به القائمون على الدعوة الإسلامية هو إثبات العقائد الإسلامية والأركان الإيمانية جمعاء بالحجاج العقلي المستنير والمنطقية الرشيدة السديدة. وكان يرى في هذا الصدد في هذه الأيام الحالكة التي ساد على معظم قطاعات الأمة الفساد والعناد وغلب عليها الجحود والإنكار وطمت الظلمة عليها وعمت أنه موظف من طرف رحمة الله بهذه الوظيفة القدسية الهامة فكان يكثف جميع إمكانياته الفكرية والعقلية ووسائله العملية في إثبات الحقائق الإسلامية بالمنطق السديد والتفكير الرشيد.

وحينما نتابع مسيرة هذا الإمام العظيم الدعوية نصادف موقفين متمايزين

---

(٧٥) النورسي، الشعاعات، ص: ٣١٣.

لكل منهما ملامحه ومعالمه. الموقف الأول موقفه في أواخر الحكم العثماني وما قبل إعلان الجمهورية في تركيا وهو في هذه الفترة الزمنية كان يهتم بالقضايا الإسلامية السياسية اي بالسياسة الإسلامية فكان يهتم بتبيان مقاصد الشريعة الغراء ولكن على مستوى الإفصاح عن حكم الأحكام الجزئية وأما التدخل في قضية المقاصد بالإعراب عنها على المستوى المصطلحي وبيان كليات المقاصد فهذا قلما تجده عنده. وهذا البيان الذي عسانا أن نسميه بالبيان التفصيلي لجزئيات المقاصد يدوم في الفترة الثانية من حياته التي غير خطته الدعوية فيها تماما ولكن بأسلوب آخر يبدو عليه ملامح العاطفة الدينية والعواطف الدعوية أكثر من ملامح الأسلوب الأكاديمي المنكمش فصار يستعمل المصطلحات اللا سياسية التي هي أمس بجانب الرقة والرأفة والتذكير والنصيحة. وفي هذه الفترة كثف جميع قواه المادية والمعنوية ونشاطاته العلمية والعملية على إثبات عقلانية الإسلام بعقائده وأحكامه ومصادره وأن كل جزئي من جزئياته ثابت بأدلة عقلية باهرة وبراهين فكرية ناصعة وأن حقانية الإسلام مقتضى العقل الحكيم والتفكير السليم.

وانطلاقا من هذا الرأي الأغر ومما كان يتمتع به من ذلك الصفاء القلبي والطهر الداخلي والتذكية النفسية والإشراق الروحي كان يقرأ الكون وما يجري على ساحته من الأحداث والتصاريف العظيمة والأفعال الجليلة الحكيمة قراءة غير قراءة الكثير من الناس فإلى جانب استشهاده واستدلاله بما في ظاهرها من الصنعة والإتقان والحكمة كان يستشهد بجانب آخر للكون لا يرى ذلك الجانب إلا الملهمون الذين يقرءون الكون وأحداثه قراءة عرفانية في ظلال الأسماء الإلهية وتجليات الصفات الربانية.

وكان النورسي يتركز في هذه الفترة الزمنية الأخيرة من حياته على إثبات جميع المقاصد القرآنية الأربعة بأسلوب منطقي رشيد وتفكير علمي ناضج. وحينما يتناول قضية الرسالة يتناولها من جوانب متنوعة وبنوعية جديدة من

الاستدلال حيث لا يكتفي بسرد المعلومات التاريخية فحسب بل يتناولها مناولة طريفة ويصوغها في قالب استدلالي جديد بصياغة عرفانية وعقلانية معا؛ كما يجعل السيرة المطهرة مادة لتركيبة جديدة من الاستدلال المنطقي تثير في العقل إثارة وجياشة وفي القلب حبورا وسرورا وفي النفس تلذذا وارتياحا وفي الوجدان سكينة واطمئنانا. كما لا يهمل النورسي أن يستعمل عبر دعوته المناهج المجدية الأخرى كبعض مناهج علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الدعوة، وعلم التربية.

وتراه أيضا خلاف المستدلين الآخرين يصر ويلح بين فينة وأخرى على وجود تلازم عقلي ووجداني بين الأركان الإيمانية جميعا بحيث يستلزم كل واحد منها الآخر فيرى أن كل واحد من التوحيد والرسالة والحشر والقرآن العظيم دليل قوي وبرهان جلي على الآخر فيكون كل واحد منها دليلا ومدلولا في آن واحد.

ثبت المراجع

- ابن سينا، الشفاء، تحقيق الأب قنواتي وسعيد زايد، نشر الجمهورية العربية المتحدة.
- ابن عاشور محمد الطاهر **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠\١٩٩٩، الأردن.
- ابن عاشور محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤.
- البيهقي أبوبكر أحمد بن الحسين، **دلائل النبوة**، دار الفكر، الطبعة الأولى بيروت ١٤١٨\١٩٩٧.
- الجرجاني السيد شريف علي بن محمد، **شرح المواقف**، أوفست مطبعة السعادة مصر ١٣٢٥\١٩٠٧.
- شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، **الفوز الكبير في أصول التفسير**، تعريب سليمان الندوي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٧\١٩٨٧.
- صالح عبد العزيز آل الشيخ، **مقاصد السور القرآنية**، المملكة العربية السعودية نشرت عبر الانترنت.
- علال الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء،

بلا تاريخ.

- عماد الدين خليل، **الرسول في رسائل النورسي، المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي الثالث**، إستانبول ١٩٩٦.
- الغزالي محمد بن محمد أبو حامد، **جواهر القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٩\١٩٨٨.
- الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، المكتبة العلمية بيروت بلاتاريخ.
- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر بيروت تصوير ١٩٨٩.
- محمد الطاهر الميساوي، **مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور**، دار الفجر ودار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٢٠\١٩٩٩.
- محمد خليل جيجك ، **أضواء على سورة الملك ويليه بعض جوانب الضعف الإنساني في أربع آي من سورة العنكبوت**، دار نشر جميل إسطنبول ١٩٩٤.
- **النظرة الشمولية للعدالة عند النورسي.**" مؤتمر "**العدالة لأجل عالم أفضل للإنسانية**" العالمي للنورسي الثامن مؤسسة **إستانبول للثقافة والعلوم، إستانبول ٢٠٠٧.**
- **دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري**، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١.
- محمد عبد الله دراز، **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**، دار القلم، الطبعة الثانية كويت ١٣٩٠\١٩٧٠.
- النورسي بديع الزمان سعيد، **الصيقل الإسلامي (ضمن آثار بديعيه)**، إستانبول ١٩٩٩.
- النورسي، **آثار بديعية\ الخطبة الشامية**، تحقيق عبد القادر بادللي، شركة الاتحاد للنشر، إستانبول ١٩٩٩.
- النورسي، **آثار بديعية\إيكي مكتب مصيبت**.
- النورسي، **آثار بديعيه\لمعات**.
- النورسي، **آثار بديعيه\مقاله لر**.
- النورسي، **الشعاعات**، تعريب إحسان قاسم صالحي. دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى إستانبول ١٤١٣\١٩٩٢.
- النورسي، **الكلمات**، تعريب إحسان قاسم صالحي. دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى إستانبول ١٤١٣\١٩٩٢.
- النورسي، **اللمعات**، تعريب إحسان قاسم صالحي. دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى إستانبول ١٤١٣\١٩٩٢.
- النورسي، **المثنوي العربي النوري**، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثالثة شركة

سوزلر للنشر، القاهرة ٢٠٠٣.

- النورسي، **المكتوبات،** تعريب إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى إستانبول ١٤١٣\١٩٩٢.
- İbrahim Ebu Rabi' Mary F. Weld'in **Bediüzzaman Said Nursî Entelektüel Biyografisi kitabının girişi,** Türkçesi Celil Taşkın, İstanbul- 2006.

اللّذّة والألم
في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

د. محمد حمد كنان ميغا
الجامعة الإسلامية بالنيجر

ملخّص الورقة

الحمد لله الذي وعد المؤمنين بالنصر والولاء، وجعل القناعة تاجا على رؤوس الأتقياء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فإن مما لا يقبل الجدال ولا النزاع، أن الله تعالى خلق الكون كله على المتقابلات، كاللذة والألم، والمصلحة والمفسدة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والسعادة والشقاء، والحياة والموت..الخ

وإن بديع الزمان سعيد النورسي قد نهج في تحليلاته للآيات القرآنية في رسائله هذا النهج التقابلي، الذي هو منهج القرآن الكريم نفسه، ويؤكد ذلك قول النورسي في الخطبة الشامية: ((إن رسائل النور التي هي تفسير حقيقي للقرآن الكريم، ببيان إعجاز معانيه الجليلة، تبيّن أن في الضلالة جحيما معنويا في هذه الدنيا، كما تثبت أن في الإيمان نعيما معنويا في الدنيا أيضا، وهي تبرهن أن في المعاصي والفساد والمتع المحرمة آلاما معنوية مبرّحة، كما أن في الحسنات والخصال الحميدة والعمل بالحقائق الشرعية لذائذ معنوية أشبه ما تكون بملذات الجنة))[1]

---

(١) انظر: النورسي، الخطبة الشامية، ص ١٤ – ١٥، تحقيق د. إحسان قاسم، طبعة سوزلر –

وفي هذه الورقة سنبين حقيقة اللذة والألم والطريق إليهما في فكر بديع الزمان سعيد النورسي، الذي يَعتبر الحياة كلها بالنسبة للمؤمن لذة ومصلحة وسعادة، وأنها بالنسبة إليه صورة مصغرة من نعيم الجنة، وأن الحياة كلها ألم بالنسبة للكافر المعاند، وإن بدا للناظر أنه في سعادة ولذة؛ لأنها سعادة ولذّة موهومة لا حقيقية، ولذة قليلة فانية، فهو وإن بدا عليه آثار السعادة إلا أنه شقي في أعماقه. ويبيّن النورسي ذلك بقوله: ((**إنّ نوازع الإنسان وأحاسيسه المادية لا ترى العقبى فتفضّل درهما من لذة عاجلة على قنطار من لذات آجلة، هذه الأحاسيس قد طغت ـ في هذا العصر ـ على عقل الإنسان وسيطرت على فكره؛ لذا فالسبيل الوحيد لإنقاذ السفيه من سفهه، هو الكشف عن ألمه في لذاته نفسها**)).[٢] فلذات الدنيا – إذن – مهما بلغت فهي قليلة جدا في مقابلة اللذة الحقيقية، التي هي لذة الجنة الأبدية، ولا شك أن العاقل إذا خير بين لذة آنية، ولذة لا حدود لها، أنه سيختار اللذة الدائمة، وهذا ما قرره النورسي في هذا النص. ويقول أيضا: ((**إنّ أهل الضلالة يعيشون في جهنّم في هذه الدنيا، وإنّ أهل الهداية يذوقون لذائذ الجنة في هذه الدنيا أيضا.. وإن الإيمان بذرة معنوية من بذور الجنة، والكفر نواة من نوى زقّوم جهنّم**))[٣] إنّ المتتبع لرسائل النور يجد أنه لا يخلو فقرة من فقراتها من هذا النوع من التقابل، إما بين أهل الهدية وأهل الضلالة، أو بين الجنة والنار، أو بين السعادة، والتعاسة، أو بين الحياة الدنيا والآخرة، أو بين اللذة والألم موضوع الورقة، وكان بالإمكان أن أختار موضوع التقابل في فكر النورسي، غير أنّي رأيت أنّ ذلك يحتاج إلى تأليف في كتاب خاص، أرجو أن يتحقق في المستقبل، فاخترت جزءا من هذا الموضوع الواسع لندوة النيجر، نظرا لضيق الوقت.

هذا، والله أسأل أن يوفق خدّام رسائل النور، الذين أبوا إلا أن يكرموا الجامعة الإسلامية بالنيجر بهذه الندوة العلمية المعرّفة للدعوة النورية.

استنبول.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

(٣) نفسه، ص ٢٤.

تمهيد: مفهوم اللذّة والألم

اللـذة عبـارة عـن المنفعـة والمـصلحة، ومـا يـؤدي إليهمـا، والمـصلحة هـي المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع في الخلق هو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يؤدي إلى حفظ مقصود الشرع في الخلق فهو لذة ومنفعة ومصلحة؛ وذلك أن اللذة الحقيقية لا توجد إلا في الكون مع الله عزّ وجلّ خالق اللذات.

يقول الرازي في تعريف المنفعة والمضرة: ((**المنفعة عبارة عن اللذة أو ما يكون طريقا إليها، والمضرّة عبارة عن الألم أو ما يكون طريقا إليه**))[٤]

ويقـول العـز ابـن عبـد الـسلام: ((**والمـصالح أربعـة أنـواع: اللـذات وأسـبابها، والأفراح وأسبابها، والمفاسد أربعة أنواع: الآلام وأسبابها، والغموم وأسبابها، وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية... ومن أفضل لذات الدنيا لذات المعارف وبعض الأحوال**)).[٥] فلذات الدنيا ما هي إلا صور للذات الآخرة التي هي اللذة الحقيقية، كما أن آلام الدنيا ما هي إلا صور بالنسبة للآلام الأخروية، وأفضل لذات الدنيا هي اللذات الكتسبة عن طريق الإيمان بالله عز وجل، ولهذا قال النبـي ﷺ: "**حبـب إلـي مـن دنيـاكم النـساء والطيـب، وجعلـت قـرة عينـي فـي الصلاة**"[٦] وكان عليه الصلاة والسلام كلما حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فيقول: "**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**".[٧]

يقول النورسي: ((**إن كل لذة ومتعة خارج نطاق الشرع، فيها ألف ألم وألم... فمن كان يريد السرور الخالص الدائم والفرح المقيم في الدنيا والآخرة، عليه أن يقتدي بما في نطاق الإيمان من تربية محمد ﷺ**))[٨]

---

(٤) الرازي، المحصول ج٢/ق٢/٢١٨، تحقيق طه جابر العلواني.
(٥) عزالدين بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/١٢.
(٦) سنن النسائي (المجتبى) ٧/٦١، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، ومسند الإمام أحمد ٣/٢٨٥، والبيهقي، السنن الكبرى ٧/٧٨.
(٧) سنن أبي داود ٤/٢٩٦.
(٨) النورسي، الكلمات ١/١٥٩.

المبحث الأول: اللذّة والطريق إليها في فكر النورسي

المطلب الأول: اللذّة في فكر النورسي

إنّ اللذة في فكر النورسي منقسمة إلى لذة دنيوية ولذة أخروية، وإن لذات الدنيا التي تظهر في بديع صنع الله تعالى في الكون وفي الحياة، من جمال ولطافة في المصنوعات، ولذة في الأطعمة، وبهاء في الألبسة، ورفاهة في المركوبات.. ((**كل ذلك يظهر سخاء وجودا لا حد لهما، فلا بد أن يكون لمثل هذا الجود والسخاء المطلقين، ولمثل هذه الخزائن التي لا تنفد، ولمثل هذه الرحمة التي وسعت كل شيء، دار ضيافة، ومحل سعادة خالدة يحوي ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وتستدعي قطعا أن يخلد المتلذذون في تلك الدار، ويظلوا ملازمين لتلك السعادة ليبتعدوا عن الزوال والفراق؛ إذ كما أن زوال اللذة ألم فزوال الألم لذة كذلك... وإلا فاللذة اليسيرة - التي ينغصها الزوال والفراق - في هذه الفترة الوجيزة لا يمكن أن تنسجم ومقتضى هذا الجود والسخاء**))[٩]

فالنورسي يبين في هذا النص أن لذات الدنيا هي لذات قليلة وقصيرة الأجل فلا ينبغي للعاقل أن ينحاز إليها بكليته؛ وذلك أنها لذات ساعة تتضمن آلام ساعات؛ لأنها ستفارق بلا شك، وفراق اللذة ألم مرير، وها هو يؤكد ذلك في موضع آخر بقوله: ((**وستفهم أن التزيينات في هذه الدنيا ليست لأجل التلذذ والتمتع فحسب؛ إذ لو أذاقتك اللذة ساعة، أذاقتك الألم بفراقها ساعات وساعات، فهي تذيقك مثيرة شهيتك دون أن تشبعك، لقصر عمرها أو لقصر عمرك؛ إذ لا يكفي للشبع، إذن فهذه الزينة الغالية الثمن والقصيرة العمر هي للعبرة، وللشكر، وللحض على الوصول إلى تناول أصولها الدائمة، ولغايات أخرى سامية**))[١٠]

---

(٩) النورسي، الكلمات ٧٠/١

(١٠) نفسه ٧٨/١

المطلب الثاني: الطريق إلى اللذّة في فكر النورسي

إن الإيمان بالله وحده هو الذي يضمن للإنسان لذة وسعادة ممهدة إلى السعادة واللذة الدائمة في الجنة، ((**ولهذا نجد المؤمن بالآخرة يتمتع بسعة النفس وبعد الرؤية وتفاؤل في التحليل، ومن ثم اطمئنان في القلب، وتجد في المقابل صدر الكافر ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، متشائما حائرا خائفا مضطربا، يخشى فوات لذة الدنيا الفانية؛ لأنه لا يؤمن بلذة الآخرة الباقية**))[11] قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرّحمَن نَقِيضُ لَهُ شَيْطاناً فَهُو لَهُ قَرِين﴾، (الزخرف:٣٦) نعم إن أهل الإيمان يتمتعون في هذه الحياة الدنيا بنفوس منشرحة وصدور رحبة، وكل حياتهم سعادة، ((**ويشعرون بلذة عميقة حقيقية راسخة، بينما أهل الضلالة سيتأجج في قلوبهم جحيم معنوي، يعذبهم بلظاه، حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم**))[12] وهذا الإيمان يقتضي القناعة والمحبة والرحمة والشفقة والكرم، وغيرها من الصفات الذاتية الحقيقية، التي تنبع منها لذة حقيقية. فمن أراد أن يتمتع بلذة الدنيا، والتنعم بسعادتها، فإن اللذائذ المشروعة تغنيه عن كل شيء، فهي كافية لتلبية رغباته..يقول النورسي: ((**إنّ الذوق الحقيقي، واللذة التي لا يشوبها ألم، والفرح الذي لا يكدره حزن، والسعادة التامة في الحياة، إنما هي في الإيمان، وفي نطاق حقائقه ليس إلا..**))[13]

إن الغالب على لذات الدنيا أنها لذات نسبية تتأثر بأضدادها فإذا انتفت تلك التأثيرات قلت اللذة، بينما اللذة الحقيقية، وهي تلك التي تكوّنت من الإيمان

---

(١١) البعد الروحي في رسائل النور، بحث د. خالد الصمدي، مقاصد الإيمان بالآخرة، ص ٧٩، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، سوزلر للطباعة والنشر - استنبول.

(١٢) النورسي، الكلمات ١٥٨/١.

(١٣) المرجع السابق ١٦٦/١.

فإنها لذة بلا ألم؛ لأنها لا تبنى على تصور غيرها، بل هي لذة موجودة بذاتها. يقول النورسي: ((**اعلم أن اللذة الحقيقية إنما تنبع من شهية حقيقية، وأن الشهية الحقيقية الصادقة تنبع من حاجة حقيقية صادقة، وفي هذه اللذة - الكافية للإنسان - يتساوى السلطان والشحاذ**))(١٤)

والناس متفاوتون في شعورهم باللذة والمتعة، وذلك ((**أنه بمقدار تيقظ القلب، وحركة الوجدان، وشعور الروح، تزداد اللذة والمتعة..**))(١٥)

المبحث الثاني: الألم والطريق إليه في فكر النورسي

المطلب الأول: الألم في فكر النورسي

إن الألم ينقسم إلى دنيوي وأخروي مثلما أن اللذة تنقسم إلى دنيوية وأخروية، وآلام الدنيا أصناف كثيرة، منها: ((**آلام الماضي، وغصص الزمن الحالي، ومخاوف المستقبل وأوهام الزمان الآتي، والآلام الناتجة من زوال اللذات؛ وذلك أن زوال اللذة مثلما هو ألم فتصوّر زال الألم كذلك ألم مثله**))(١٦) فإذا كانت منغصات الحياة تدخل على الإنسان غالبا من قبل آلام الماضي ومخاوف المستقبل وأوهام الزمان الآتي، فلا ينبغي للعاقل أن يشتت ذهنه من أجل آلام في عداد المعدوم، بل عليه أن يقبل على يومه بإصلاح حاله فيه، جاعلا نصب عينيه قوله عليه الصلاة والسلام: "**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا**"(١٧) ففي هذا الحديث حث على الزهد في هذه الحياة، وذلك أنّ الإنسان لو كان خالدا في هذه الحياة الدنيا لما حزن على ما فاته، ولا جزع لما يستقبل من أيامه؛ لأنه يعرف أن ما فاته أمس

---

(١٤) نفسه ١/٨٦٨.

(١٥) نفسه ١/٨٩٥.

(١٦) النورسي، الكلمات ١/٢٣٦، ٣٦٥.

(١٧) عبدالرؤوف المناوي، فيض القدير ١٢/٢، ط الأولى ١٣٥٦، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

سيستدركه غدا، وكذلك لو علم الإنسان أنه سيموت غدا سيزداد في القرب من ربه بكل ما أوتي من قوة. ولهذا يقول النورسي: ((**إنه لا ألم من غير شيء.. ولا يرد من العدم ألم.. فمن البلاهة إظهار الجزع ونفاد الصبر الآن من ساعات آلام ولت، ومن آلام لم تأت بعد، على أنّها جميعا في عداد المعدوم.. نعم، إن الإنسان إن لم يشتت قوة صبره يمينا وشمالا - إلى الماضي والمستقبل - وسددها إلى اليوم الذي هو فيه، فإنها كافية لتحل له حبال المضايقات**))[١٨]

إن الآلام الدنيوية بالنسبة لأهل الهداية هي عين اللذة، وأن الانقطاع هو عين الوصال، يقول النورسي: ((**فالآلام والمصائب كلها أعمال صالحة سلبية اضطرارية كما ورد في الحديث الشريف، وفيه سلواننا**)) يريد بالحديث الشريف قوله ﷺ: "**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**"،[١٩] فالآلام التي تعرض طريق المؤمنين في هذه الحياة، ما هي إلا مصفاة تصفي نفوسهم وتنقيها من بقايا أدرانها وأخطائها، يقول ذ.أديب إبراهيم الدباغ: ((**فالآلام رغم قسوتها هي جمال؛ لأنها طريق النفوس إلى الصفاء والنقاء، والصفاء والنقاء هو الجمال كل الجمال، وما من ألم أو حزن يصيب المؤمن إلا وهو خير له، لأنه يزيد في خصب روحه وقوتها، فالسجون والزنزانات والمنافي هي مدارس يوسفية كما يصفها النورسي**))[٢٠]

المطلب الثاني: الطريق إلى الألم في فكر النورسي

لقد تقدم أن الطريق إلى اللذة هو طريق الإيمان بالله عز وجل، الذي يقتضي القناعة والرحمة والشفقة والكرم وما شاكلها، وإذا علمنا أن الألم ضد اللذة،

---

(١٨) المرجع السابق ١/١٦٨.

(١٩) صحيح مسلم ٤/٢٢٩٥، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، عن صهيب.

(٢٠) التربية السلوكية عن بديع الزمان سعيد النورسي، بحث ذ.أديب إبراهيم الدباغ، من ملامح التربية السلوكية عند النورسي، ص ١٤، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، شركة النسل للطباعة - استنبول.

فأضداد هذه الصفات - إذن - هي الطريق إلى الألم، ولهذا يرى النورسي أن الكفار وأرباب الضلالة يعيشون في جحيم، وإن بدا للناظر أنهم يتمتعون بنعيم الدنيا، فيقول: ((**فلا جرم أن أولئك الضالين وأرباب السفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيم معنوي، يعذبهم بلظاه، حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم...**))(٢١) إن الخروج عن نطاق الشرع يورث آلاما لا حدود لها، فكما أن الآلام بالنسبة للمؤمن هي عين اللذة، فاللذة بالنسبة للكافر هي عين الألم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ،(٢٢) ويقول أيضا: ﴿وَمَنْ يَعِش عَن ذِكْرِ الرّحمَنِ نَقِيضُ لَهُ شَيْطاناً فَهُو لَهُ قَرين﴾،(٢٣) فالحياة بلا إيمان حياة بلا طعم ولا لذة، حياة تسودها الآلام والأحزان والهموم، وفي هذا يقول النورسي: ((**فالحياة إن كانت خالية من الإيمان، أو فقد الإيمان تأثيره فيها لكثرة المعاصي، فإنها مع متاعها ولذاتها الظاهرية القصيرة جدا تذيق الآلام والأحزان والهموم أضعاف أضعاف تلك المتع والملذات**))(٢٤) إن الإنسان الذي يفقد لذة الإيمان سيعيش قلقا أبديا وهموما لا نهاية لها، لأنه سيجزع لماضيه ويتحسر عليه، ويشتت ذهنه في المستقبل المجهول، ويرى المصير إلى القبر نهاية اللذات.

خلاصة:

إن اللذة والألم صفتان متقابلتان، فقدان أحدهما يؤدي إلى الشعور بالآخر، وهذه هي سنة الله تعالى في الخلق.

واللذة عبارة عن المنفعة والمصلحة، والطريق إليها الإيمان بالله تعالى، والتحلي بصفات الرحمة والشفقة والجود والكرم والعفة والقناعة، وبمقدار تيقظ قلب المرء تزداد نسبة شعوره باللذة الحقيقية.

---

(٢١) النورسي، الكلمات ١/ ١٥٨.
(٢٢) سورة طه، الآية (١٢٤).
(٢٣) سورة الزخرف، الآية (٣٦).
(٢٤) نفسه ١/١٦٠.

أما الألم فهو عبارة عن المضرة والمفسدة، والطريق إليه الكفر والضلال، والتلبس بصفة الظلم والبخل، والتفسخ الخلقي..

وقد رسم النورسي في كليات رسائله منهجا نوريا استوحاه من القرآن الكريم، يضمن لسالكه لذة لا يشوبها ألم، وسعادة لا يعارضها شقاء، وبهذا المنهج استطاع بديع الزمان أن يحول السجن إلى مدرسة إيمانية، سماها المدرسة اليوسفية، وإن هذا المنهج الذي استطاع أن يحول آلام السجون إلى لذات إيمانية، لقمن بأن يحول كل آلام الدنيا إلى لذات، وهموم الدنيا إلى أفراح؛ وذلك أن آلام الدنيا مهما بلغت فهي آلام ساعة، كما أن لذاتها لذات ساعة تتضن بالنسبة للكافر آلام ساعات لا نهاية لها. هكذا صور النورسي حال المؤمن وحال الكافر في هذه الحياة الدنيا الفانية، فقال: ((**فلا جرم أن أولئك الضالين، وأرباب السفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيم معنوي يعذبهم بلظاه، حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم... فإن كلا من أهل الإيمان والطاعة سيشعر لذة عميقة حقيقية راسخة، ونشوة روحية لدى انتظاره كل لحظة من يناديه قائلا: تعال خذ بطاقتك! بحيث إن تلك النشوة الروحية لو تجسمت لأصبحت بمثابة جنة معنوية خاصة بذلك المؤمن**)).[٢٥]

هذا، والله تعالى نسأل أن يجعلنا من أهل الإيمان والهداية، إنه وليّ التوفيق.

---

(٢٥) النورسي، الكلمات ١/١٥٨.

أساسيات منهج الفكر المقاصدي عند النورسي

ذ/ عبد العزيز البطيوي
باحث بكلية الآداب والعلوم الإسلامية
أكادير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيئين على آله وصحبه أجمعين، أما بعد

عند اختياري لعنوان هذا الموضوع حسبت الأمر سهلا ميسرا فإذا بي أمام أسرار، إذ الرجل ليس عاديا، وقلت لنفسي لاشك أن هذا الرجل الذي قرأ الأصول وضبطها، ودرس وحفظ "جمع الجوامع" في أسبوع واحد وكان لفكره ومشروعه الإصلاحي هذا التأثير العظيم لابد أن تكون له رؤية مقاصدية واضحة، وأنه شيد بناءه المعرفي على أصول وكليات الشريعة، فأصاب الهدف ونال المقصد، وحسبي أن أنبه إلى أن النورسي كان يصدر في جميع أفكاره ومقولاته عن عقل مقاصدي يتخذ من المقاصد منطلقا لفهم الشريعة وتنزيل أحكامها، وأساسا لصياغة أولويات مشروعه الإصلاحي الرامي إلى تجاوز أزمة الإيمان وتحقيق المصالحة مع الدين وذلك بالعودة إلى القرآن الكريم والعيش في رحابه والتفيؤ بظلاله.

وقد تحقق في مشروع النورسي حقيقة أن القرآن الكريم هو "النور الخالد المطلق" وآمن هذا الرجل إيمانا جازما أن القضية هي أن نفهم عن الله من خلال كلامه المبين وذكره الحكيم مقاصد هذا النور والغايات التي يريد من البشرية أن

تتوجه إليها والحكم التي ينبغي أن تضبط حركتها في الحياة. وعلى هذا الأساس كان سعي النورسي إلى تقليص الهوة والفجوة والمسافة بين الفقه المعهود والواقع المعيش، وتجاوز القراءة النصية التجزيئية لآيات الأحكام والتي تظل قاصرة عن إدراك كليات الشريعة ومقاصد القرآن الكريم. وفي مقابل ذلك كان نظر النورسي نظرا مقاصديا صادرا عن عقلية أصولية مجددة تستكشف المصالح خلف الأحكام، وتعتمد على الكليات التشريعية وتجعل منها حكما في فهم النصوص، فتراه يرد الجزئي إلى الكلي، والفرع إلى الأصل، ويميز بين المقاصد الأصلية والمقاصد التبعية، لا تستغرقه الجزئيات ولا تستهويه الأشكال، وإنما يغوص غوص العارف المتقن فيتبين الحكم والغايات، والمقاصد والجواهر، ويجعل الآيات تنطق بأسرارها. ولعل عدم انشغال النورسي كثيرا بالأحكام الفقهية الجزئية وعنايته أكثر بإحياء فقه المقاصد فيه دلالة على الرؤية التي يصدر عنها فكر الرجل وإدراكه للمرحلة التاريخية التي تمر منها الأمة الإسلامية والتي تستدعي عدم الانحسار داخل الفقه بمعناه الضيق والذي تضخم عبر قرون التخلف على حساب الفقه السياسي والاجتماعي، والتوجه نحو استبصار القواعد الكلية والحكم العلية والمقاصد السامية لأحكام الشريعة ونصوص القرآن الكريم حتى يتجدد الفقه ويستعيد وظيفته الفاعلة في توجيه حركة الحياة ويضبطها بروح الشريعة ويحررها من العجز والجمود والركون إلى الأرض والانشغال بتوافه الدنيا والإعراض عن أنوار الإيمان وحقائق التوحيد. ولذلك لم يكن انشغال النورسي بالمقاصد ترفا فكريا أو انفلاتا تربويا يخفي وراء دعوى التجديد الانسلاخ من أحكام الشرع أو عملا أكاديميا محضا وإنما كانت دعوته إلى المقاصد دعوة العالم العامل المجاهد المسكون بهاجس الإصلاح واستعادة الأمة لدورها الحضاري المتمثل في الشهادة على العالمين.

لقد كان وعي النورسي متقدما كثيرا على معظم من عاصروه وعلى كثير ممن نعاصرهم نحن اليوم بالأهمية البالغة للمقاصد باعتبارها أكبر الموجهات أو

المحددات المنهجية والمعرفية لحركة الفكر وفكر الحركة (الممارسة العملية) بدلا من اجترار المعارك الوهمية التي خاضها علم الكلام والفلسفة والتي لم تثمر سوى جدالات ومساجلات أفقرت العقائد مضمونها الإيماني وفعاليتها التغييرية.

أولا: تعريف المنهجية المقاصدية:

١- **تعريف المنهجية:** لا يدل هذا المصطلح هنا على العلم الذي يدرس كيفية methodologie بناء المناهج واختبارها وتعديلها، بل المقصود هنا تلك الأدوات والطرائق والإجراءات التي يسلكها العقل لبلوغ المعرفة التي يسعى إليها. وهذه العناصر لا تنفصل بحال عن الإطار المرجعي والنموذج المعرفي والجهاز المفاهيمي الذي يحكمها ويوجهها، ولذلك سيكون حديثنا جمعا بين الأمرين لهذا السبب ولسبب آخر وهو صعوبة الفصل والتمييز بينهما في كتابات النورسي.

٢- **تعريف المقاصد :**

إن قارئ الموافقات – السفر التنظيري للمقاصد – لن يعثر على تعريف للمقاصد ولا عند غيره من الأصوليين والفقهاء ممن تعرضوا لذكر المقاصد قديما، كما بين ذلك د.الريسوني ذلك أنهم انصرفوا إلى العمل بها اجتهادا وتطبيقا وتنزيلا وقدموا في ذلك استعمالات دالة على معنى المقاصد كالحكمة المقصودة والمصلحة والعدل ونفي الضرر ودفع المشقة والعلل والغرض والمغزى وعدم تعلق الأحكام بالألفاظ كما هو قول ابن العربي في أحكام القرآن: "ولا تتعلق الأحكام بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلق عليها مقاصدها ..."[١]

وفي مقابل ذلك وجدنا الشيخ الطاهر بن عاشور يعرف المقاصد العامة للشريعة قائلا "هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال

---

(١) أحكام القرآن، ج ٢ أبو بكر ابن العربي، ص ٨١

التشريع أو معظمها ، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة فيدخل في هذا: أوصاف الشريعة وغاياتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها"(٢). وعرفها الأستاذ علال الفاسي موضحا موجزا فقال: "المراد بمقاصد الشريعة الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"(٣) وفيه إشارة إلى المقاصد العامة والمقاصد الخاصة وبناء على هذين التعريفين ومن خلال ما كتبه العلماء في موضوع المقاصد خلص د.الريسوني إلى هذا التعريف: "إن مقاصد الشريعة: هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد" (٤) وقد اختار الخادمي تعريفا للمقاصد نحته من التعريفات السابقة فجعل المقاصد هي: "المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية والمترتبة عليها، سواء كانت تلك المعاني حكما جزئية أم مصالح كلية أم سمات إجمالية وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين(٥)"

ويبدو أن الريسوني رجح كلمة الغايات مسايرا في ذلك الفاسي في حين رجح الخادمي كلمة المعاني مسايرا في ذلك ابن عاشور للدلالة على لفظ المقاصد وإن كانت الكلمتين متداخلتين متقاربتين فالأرجح تغليب كلمة الغاية على كلمة المعنى لكونها أعم و أشمل.

ومن خلال ما سبق يبدو أن المقاصد كغايات أو كمعاني صرحت بها

---

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ ص ٥١.

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة ١٤١١ – ١٩٩١ ص ٣

(٤) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى ١٤١١ – ١٩٩١ ص ٧

(٥) الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته، نور الدين بن مختار الخادمي، كتاب الأمة رقم ٦٥ /٦٦ ، ١٤١٩ ص٥٢ -٥٣

الشريعة ووضعتها لاعتبارها عند استنباط الأحكام وتحقيقا لمصلحة العباد، هي فن شرعي معتبر يراعي إنسانية الإنسان وتنزيل نصوص الشريعة على الواقع البشري.

وارتباطا مع موضوع المقاصد عند النورسي، ونظرا لاشتغاله ببيان مقصود القرآن العظيم يمكن القول بعد استقراء أولي لما كتبه النورسي أن المقاصد عنده هي: المعاني والغايات والحكم الملحوظة للشارع الدالة على أسرار أحكامه المرعية لمصالح الخلق المتجلية في كل سورة من سور القرآن بل في كل آية من آياته وكلمة من كلماته وحرف من حروفه.

٣- المنهجية المقاصدية:

يبدو من خلال التعريف السابق الذي استقرأناه من كتابات النورسي أن المنهجية المقاصدية تندرج ضمن المنهجية التكاملية التي حكمت رؤية النورسي للقرآن العظيم، وترتبط بمشروعه الفكري القائم على تحديد الأهداف وترتيب الأولويات وتأصيل المنطلقات وتبصر مواطن الخلل وعدم معارضة سنن الأنفس والآفاق.

إن المنهجية المقاصدية هي في حقيقتها تجسيد لفلسفة الدين وروحه وهي لذلك تستند إلى بنيتين أساسيتين: الأولى وهي البنية التشريعية (شبكة الأحكام)، والثانية البنية المعرفية (شبكة المعاني)، ومحاولة ضبط الكيفيات والإجراءات الكفيلة باستنباط المقاصد وصياغتها وتركيبها وتفعيلها (وهو المقصود بالمنهجية المقاصدية) لا يمكنه أن يتم خارج هذين البنيتين. والمقاصد هي ذاتها تشكل منهجا كما أشار إلى ذلك الدكتور الريسوني بقوله:" فالمقاصد بأسسها ومراميها، وبكلياتها مع جزئياتها، وبأقسامها ومراتبها، وبمسالكها ووسائلها، تشكل منهجا متميزا للفكر والنظر، والتحليل والتقويم، والاستنتاج والتركيب[٦].وأحسب أن عقل النورسي لم تغب عنه فكرة المقاصد وهو يفكر وينظر، ويحلل ويقوم،

---

(٦) الفكر المقاصدي د، الرسوني،ص٩٩.

ويستنتج ويركب، فقد كانت المنهجية المقاصدية تلازم كل كتاباته، وتسكن جميع همومه، وتحضر في جميع دفاعاته عن الإسلام وذلك بسبب ما أفاض الله على قلبه من أنوار القرآن وبصائر الوحي.

ثانيا: لماذا المقاصد؟ ولماذا التشديد على المنهجية المقاصدية؟:

إن الحديث عن فقه المقاصد واجتهاد المقاصد وأصول المقاصد وطرق معرفتها هو حديث عن ذلك "الفقه الحي الذي يدخل على القلوب بغير استئذان"[٧] وهو وصف محكم من ابن القيم رحمه الله إلى أن القراءة النصية لأحكام الشرع تميت هذا الدين وتولد أفهاما جامدة أو تأويلات متسيبة فاسدة جراء القراءة التجزيئية القاصرة عن إدراك روح مقاصد الشريعة ولذلك كان من "فالنظرة الشمولية المنسجمة للشريعة وأحكامها، لا تتأتى إلا لمن خبروا المقاصد وأحكموا الكليات، ثم نظروا في الأحكام من خلال ذلك، ومن فاته هذا المستوى وأهمل هذا النوع من النظر، وقع في التخبط والاضطراب، وأتى بالأقوال الشاذة المجافية لمقاصد الشرع، وانتهى إلى العجز والانكماش"[٨]. ولعل المتأمل في تاريخ الإبداع الفقهي والأصولي لأعلام أمتنا العظام قبل الإمام الشاطبي – شيخ المقاصد وإمام هذا الفن بلا منازع – أن العقل المسلم هو عقل مقاصدي تعليلي قائم على النظر الكلي الغائي ومبني على منطق أصولي استقرائي استنتاجي جعله مؤهلا لأداء دور الاستخلاف والتعمير واستشراف المستقبل وتحقيق مقصد خلود الشريعة وصلاحها وامتدادها الزماني والمكاني عبر اجتهاد تطبيقي مواكب لحركة الحياة لا يرى شريعة الله إلا شريعة عدل ومصلحة ورحمة..

وقد أشار الدكتور يوسف العالم إلى مجموع الأدلة المتنوعة التي "تجعلنا نقطع بأن للشارع مقاصد وأهداف تتحقق بواسطة إتباع أحكامه وقد توصل

(٧) أعلام الموقعين، ابن القيم،ص٦٣/٣

(٨) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، محمد الريسوني،ص٣٣٢

العلماء السابقون بعد البحث في النصوص الجزئية والكلية والعموميات، والمطلقات والمقيدات، في جميع أبواب الفقه، فوجدوها كلها دائرة على حفظ مقاصد الشارع"[٩] وهذا تأكيد على شيوع الاجتهاد المقاصدي عند علماء الإسلام بأقدار متفاوتة كل له إضافته المنهجية في تنظير المقاصد والمصالح وإن كان الفقهاء كما صارت إليه قناعة د.الريسوني - أكثر دراية وعناية وتطبيقا للمقاصد من الأصوليين الذين كان لهم فضل إظهار المقاصد والتنظير لها.

وإذا كان هذا حال علمائنا أهل الغوص في مقاصد الشريعة والعارفون بأسرارها وعللّها فإن الكثير ممن اشتغلوا بعلم الدين "شغلتهم الظواهر عن الأسرار والمقاصد وألهتهم الفروع عن الأصول... فظهرت الشريعة على ألسنتهم وأقلامهم كأنها قاصرة عن تحقيق مصالح الخلق والقصور ليس في الشريعة وإنما هو في أفهامهم التي قطعت الروابط بين الأحكام بعضها وبعض..."[١٠]

وإذا كانت المقاصد منهجا للفكر والنظر، والتحليل والتقويم، والاستنتاج والتركيب - كما قال د الريسوني - فإنها هي ذاتها تحتاج إلى منهج لإحكام التعامل معها وتحرير القول فيها فهما واستنباطا وتحديدا وترتيبا وتفريعا وصياغة وتنزيلا، وهنا يكون الحديث عن منهج المنهج، أي عن المنهج من الدرجة الثانية. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يمكن تجاوز النظام المعرفي والمرجعية الفكرية التي تنتظم داخلها دائرة المقاصد، ويعد كل فصل لمنهج الفكر المقاصدي عن مجاله العلمي الأصولي تبعيضا للنظرية الإسلامية في المقاصد وتجزيئا لها وإخلالا ببنيتها الداخلية.

إن سؤال المنهج في الدرس المقاصدي هو سؤال مركزي وجوهري، ولا تتم مقاربته مقاربة علمية سليمة إلا بأدوات المنهجية الأصولية مع الاعتبار بما

---

(٩) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف العالم ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي/ المعهد العالمي للفكر الاسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٥ -١٩٩٤ ص٩٣

(١٠) في فقه الأولويات: دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، القرضاوي يوسف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ — ١٩٩٩ ص ٣٨

عداها من الأدوات المنهجية التي تشترك فيها مع مجموع العلوم الإسلامية الأخرى.

وحينما نتأمل اليوم في هذه الندوة النتاج العلمي والعطاء الفكري المتعلق بفقه المقاصد والحكم عند علم من أعلام أمتنا و عملاق من عمالقة الفكر والدعوة في القرن العشرين بديع الزمان النورسي- فذلك لأننا اليوم في أمس الحاجة إلى ربط الفقه بمقاصد الشريعة وتدريب العقل المسلم المعاصر على التعامل مع الكليات الشرعية وإتقان صنعة الاجتهاد المقاصدي مع الوقوف عند ضوابطه والإمساك بأصول المنهج الأصولي في التعامل مع المقاصد دون استعجال في الفتيا أو استدراك هجين مغرور فيه مناطحة لعالم جليل.

ثالثا: مقاصد القرآن وكلياته عند النورسي:

يِؤسس النورسي تعريفه للقرآن الكريم على أساس مقاصدي، وهو لايسأم من التذكير به والعودة إليه والارتباط بمعانيه ودلالاته في جميع ما كتب وألف، ونختار من بينها قوله الذي جاء مفصلا مبينا في القطرة الثانية من الرشحة الرابعة عشرة المتضمنة لقطرات من بحر المعجزة الكبرى: "هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض. وكذا هومفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح وتفسير واضح وبرهان قاطع وترجمان ساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه. وكذا هو مرب للعالم الإنساني .وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية.. وكذا هو الحكمة الحقيقة لنوع البشر، وهوالمرشد المهدي إلى ما خلق البشر له. وكذا: هو للإنسان كما أنه كتاب شريعة، كذلك كتاب حكمة.

وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر. وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية."[١١] ففي هذا التعريف الآسر جملة من المقاصد والمقامات والغايات التي تنزل القرآن من أجلها ودعا القلوب إلى الإيمان بها، والعقول إلى معرفتها وبذلك تحققت الوظيفة الكبرى والغاية القصوى من القرآن العظيم وهي أنه - وبتعبير النورسي -" قد بدل الحياة الاجتماعية تبديلا هائلا؛ نور الآفاق وملأها بالسعادة والحقائق، وأحدث انقلابا عظيما سواء في نفوس البشر وقلوبهم، أو في أرواحهم وعقولهم، أو في حياتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية، وأدام هذا الانقلاب وأداره"[١٢].

إن قول النورسي أن القرآن كتاب شريعة وكتاب حكمة، وقوله الآخر في الشعاع السابع أن "القرآن الكريم قد بين سبيل سعادة الدارين، ووضح غايات خلق الكون، وما فيه من المقاصد الربانية موضحا ما يحمله ذلك المخاطب الكريم من الإيمان السامي الواسع الذي يضم الحقائق الإسلامية كلها عارضا كل ناحية من نواحي هذا الكون الهائل ومقلبا إياه كمن يقلب خارطة أو ساعة أمامه."[١٣] فيه بيان واضح عن شمول القرآن الكريم للكليات العامة والمصالح العليا التي تسع الدنيا والآخرة والتي تتفرع عنها مقاصد جزئية ومصالح فرعية، وفيه بيان أيضا لنوعي المقاصد: مقاصد الخلق وتتعلق بالأمر التكويني، ومقاصد الشريعة وتتعلق بالأمر التكليفي، ولم يميز فيما يبدو بينهما النورسي لتعلق أحدهما بالآخر: فالخلافة مثلا بوصفها مقصدا للخلق يقابلها على جانب مقاصد الشريعة أن يكون الإنسان قائما مقام من استخلفه، وقد أورد الدكتور جمال عطية هذا المثال وأمثلة أخرى لبيان العلاقة بين القصدين الخلقي والشرعي[١٤]،

---

(١١) المثنوي العربي النوري، بديع الزمان النورسي،ص٦٩و٧٠

(١٢) الشعاعات، النورسي، ص١٧٤

(١٣) الشعاعات، النورسي، ص١٧٩

(١٤) نحو تفعيل مقاصد الشريعة، د جمال الدين عطية، ص١٠٩و١١٠

والنورسي رحمه الله عمل بهذا الأمر بحسب رؤيته الموضوعية والكلية لآيات القرآن وأحكامه، ولم يكن يرى في مقاصد القرآن سوى بنية كلية جامعة تترابط أجزاؤها وتتداخل معانيها ودلالاتها، وهي تخضع في النهاية لناظم ينظمها وهو هذه المفاهيم الكلية الأربعة التي عدها النورسي المقاصد الأساسية فقال:"اعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب."[(١٥)]. وفي كثير من نصوص النورسي تأكيد على أن مقصد المقاصد ومطلب المطالب هو معرفة الله تعالى وعبادته وهو الذي تنتظم داخله أمهات المقاصد والكليات، فكل سورة وآية وحرف في القرآن الكريم يشهد شهودا تاما أزليا فيوضات لا تنتهي من الأسرار والمعاني المقررة لهذه المقاصد والمبينة لها والضامنة لسعادة الإنسانية، ولذلك اكتسب خطاب القرآن الكريم "صفة الكلية والسعة المطلقة والرفعة السامية والإحاطة الشاملة؛ لصدوره مباشرة من المقام الواسع المطلق للربوبية العامة الشاملة للمتكلم الأزلي سبحانه..."[(١٦)]

لقد كان النورسي كثيرا ما يؤاخذ مناهج المتصوفة والفلاسفة والمتكلمين في معرفة الله، ويصف بعضها بأنها طريق طويلة موحشة غير مأمونة، وذلك من حيث إنهم خاضوا في مسائل وقضايا أعرض القرآن عن الخوض فيها مراعيا في ذلك المصلحة والحكمة من تقديمها عامة من غير تفصيل، ولعل هذا الذي جعل النورسي يربط دوما فهمه لنصوص القرآن بالبعد المقاصدي، وأدرك هذا المعنى الذي أشار إليه الدكتور الروكي بقوله: "إن مقاصد الشريعة وعاء للأدلة الشرعية منقولها ومعقولها، وهي ميزانها والمسلك السليم للبحث فيها، وهي المنهاج النبوي الذي في ضوئه تفسر النصوص الشرعية تفسيرا سليما، وعلى أساسه يستنبط الفقيه ويجتهد بعيدا عن مزالق القصور وظلمات الجمود."[(١٧)]

---

(١٥) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٧٥
(١٦) الشعاعات، النورسي، ص٣٠٣
(١٧) نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، د، الروكي،ص ١٤٤

إن مدخل النورسي لفهم القرآن هو مدخل البناءات الكلية والمقدمات التأسيسية، وقد استمد النورسي هذا المدخل من خلال وعيه بنوعين من التحديات: أولها التحدي الداخلي؛ أي من داخل التراث الإسلامي الذي غلب عليه في القرون المتأخرة التفسير التجزيئي في فهم نصوص القرآن، وثانيها التحدي الخارجي المتمثل في انتشار الفلسفات والإيديولوجيات ذات الطابع النظري والكلي وفي مقدمتها الفلسفة الماركسية. ومواجهة هذين التحديين تطلب الأمر من النورسي النظر إلى القرآن كوحدة معرفية متكاملة تتجاور فيها وتترابط وحدة الدلالة مع وحدة الموضوع ووحدة المعنى في جمالية باهرة وهندسة متناهية وبلاغة معجزة وكشف لحقائق الكون والحياة والإنسان، ولم يتأت ذلك للنورسي إلا بعد أن عاش مع كلام الله حسا ومعنى، فشهد ما شهد من الأنوار، حتى صفى قلبه من الأكدار، ورأى بعين الحق نور الحقيقة، وأبصر بعلمه وتجربته الإيمانية مقاصد القرآن وحكمه السامية، حتى رأى أن ما يقدمه هو " نوع تفسير شهودي لبعض الآيات القرآنية"[١٨].

رابعا: معارضة المنهجية المقاصدية النورسية للمنهجية الفلسفية:

إن كل ما كتبه النورسي من رسائل النور هو تجسيد لمنهجية القرآن العظيم في عرض الحقائق وبيان الأحكام، ورد للأفهام السقيمة والتصورات الغامضة التي غاصت فيها الفلسفة، ولذلك اشتد نكيره عليها، وبين عوارها وأظهر عجزها عن أن تكون منهجيتها معراجا إلى معرفة الله: أعلى المقاصد وأسمى الغايات، بل هي (أي معرفة الله) عرش الكمالات على حد تعبير النورسي[١٩]، ويفصل النورسي في هذا فيقول: "وهناك أصول أربعة للعروج إلى عرش الكمالات وهو "معرفة الله" جل جلاله:

أولها: منهج الصوفية، المؤسس على تزكية النفس والسلوك الاشراقي.

---

(١٨) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٣٤

(١٩) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٤٢٧

ثانيها: منهج علماء الكلام المبني على "الحدوث والامكان" في إثبات واجب الوجود.

ومع أن هذين الأصلين قد تشعبا من القرآن الكريم، إلاّ أن البشر قد أفرغهما في صور شتى، لذا أصبحا منهجين طويلين، وذوي مشاكل فلم يبقيا مصانين من الأوهام والشكوك.

ثالثها: مسلك الفلاسفة المشوب بالشكوك والشبهات والاوهام.

رابعها وأولاها: طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، وبجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهوأقصر طريق إلى الله، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان.

ولبلوغ عرش هذا الأصل هناك أربع وسائل: الإلهام، التعليم، التزكية، التدبر." (٢٠)

إن منهجية الفلاسفة مبنية أساسا على مراجعة كل شيء وعدم القول بالمطلق، وأنه ليس ثمة حقيقة يمكن أن يثق العقل بها، فلا وجدود لليقين والثابت من وجهة نظر الفلسفة، كما أنه لا يعترف إلا بالعقل كمصدر للمعرفة، وإن ظهرت مراجعات في تاريخ الفلسفة وخصوصا الفلسفة المعاصرة حول مثل هذه القضايا فإن التيار الفلسفي القائم على التشكيك ورد المطلقات وعدم اعتبار مسائل الإيمان وتصور قضايا الإنسان والطبيعة والعلم من منطلقات مادية متطرفة، ومقاييس تجريبية حسية محضة هو التيار الذي ظل يفرض سيطرته على الساحة الفكرية حتى غدت الفلسفة إنما تعرف بهذا التيار، وهو تيار المادية الذي قادته الفلسفة الماركسية باقتدار، ويقوده اليوم تيار العلمانية والتحللية في العالم الإسلامي والغربي. ومن خلال استقرائه للنظريات الفلسفية ولأحوال الفلاسفة كما يبدو من كلامه خلص النورسي إلى أن إفلاس الفلسفة هو في عدولها عن الحق والحقيقة، وأنها لاتعدو أن تكون مطنطنات كلامية لاتفيد "كمالا علميا

---

(٢٠) المثنوي العربي النوري،النورسي ص٤٢٧-٤٢٨

ولاذوقا روحيا، ولاغاية إنسانية ولافائدة دينية. بل تفيدك حيرة مدهشة ودهشة موحشة. وتسقطك من سماء التوحيد المضيء في أودية الكثرة المظلمة."[٢١] فالمنهجية الفلسفية إذن منهجية شكية ريبية لاتدرك غايات الوجود، وتقصرعن فهم حقائق العالم وذلك بسبب فقرها العلمي وعوزها الروحي في العلم بمعرفة الصانع الجليل. وحيث تعرض الفلسفة عن هذه المعرفة الحقة فإنها تبدلها بالخوض في بعض المسائل الكونية والنظرية، وهنا فصل النورسي القول في نقط الاختلاف بين المنهجيتين وأورد ست نكت في ذلك فقال: "في بيان لمعة الإعجاز في إهمال القرآن في بعض المسائل الكونية الفلسفية وإبهامه في بعض آخر منها، وإجماله في قسم منها، وفي هذه اللمعة ست نكت:

النكتة الاولى:

فإن قلت: لأي شيء لا يبحث القرآن عن الكائنات كما يبحث عنها فن الحكمة والفلسفة ؟"[٢٢] هنا سؤال المقصد يسعى من خلاله النورسي بيان حقيقة القرآن والغايات والحكم الملحوظة للشارع في جميع ماشرع وحكم، وجزء من منهجية النورسي المقاصدية سيبثه أثناء رده على هذا الإشكال، وهاهو البيان: "قيل لك:لأن الفلسفة عدِلَت عن طريق الحقيقة فاستخدمت الموجودات لأنفسها "بالمعنى الأسمى". وأما القرآن فبالحق أُنزل وبالحق نَزَل وإلى الحقيقة يذهب فيستخدم الموجودات بالمعنى الحرفى لا لأنفسها بل لخالقها." [٢٣] إن مقصد القرآن هو بيان الحقائق وصرف القلوب والعقول إليها، والوجودات كلها دالة عليها وعلى أعظمها وهي: حقيقة الله الخالق، ولذلك يسمي القرآن الأشياء بمسمياتها لتدل على خالقها، لا كما هو حال الفلاسفة الذين يتخذون من الموجودات نصبا إليها يوفضون وكأنها جواهر الحقائق لا صور الحقائق. ثم إن

---

(٢١) المثنوي العربي النوري، ص٧٤

(٢٢) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٧٢.

(٢٣) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٧٢.

"القرآن إنما يبحث عن الكائنات استطراداً للاستدلال على ذات الله وصفاته، ومن شرط الدليل أن يكون ظاهراً وأظْهَر من النتيجة، والنتيجة معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه. فلو قال على ما يشتهيه أهل الفن: "يا أيها الناس فانظروا إلى الشمس في سكونها، وإلى الأرض في حركتها لتعرفوا عظمة قدرة خالقها"، لصار الدليل أخفى وأغمض من النتيجة وأبعد بمراتب من فهم أكثر البشر في أكثر الأزمان والأعصار، مع أن حق الأكثر المطلق أهم في نظر الإرشاد والهداية. فمراعاة فهمهم لا تنافي استفادة المتفلسفين المتعمقين القليلين. ولكن في مراعاة هذا الأقل محرومية الأكثر في أكثر الأوقات."(٢٤) وهذا خرم آخر في المنهجية الفلسفية التي لا تفرق بين حكم الدليل وحكم النتيجة، وبين الوسائل والمقاصد، ولذلك كان التفصيل من الفلاسفة في بيان أمر الكائنات إخفاء لحقيقتها وحرمانا للعامة من الاستهداء بإرشادات الوحي، وذلك لأن روح البلاغة الإرشادية وأسلوبها "مماشاة نظر العموم، ومراعاة حس العامة ومؤانسة فكر الجمهور؛ لئلا يتوحش نظرهم بلا طائل ولا يتشوش فكرهم بلا فائدة، ولا يتشرد حسهم بلا مصلحة فأبلغُ الخطاب معهم والإرشاد: أن يكون ظاهراً بسيطاً سهلا لايعجزهم، وجيزاً لا يملهم، مجملا فيما لايلزم تفصيله لهم."(٢٥) ولقد أجمل الرجل الأمر إجمالا فأحاط به واستوعبه، فالمنهجية الفلسفية قاصرة عن التبليغ والإرشاد، وذلك لأنها موحشة في مصطلحاتها، مشوشة في أفكارها، غامضة في تقريراتها، يختل فيها ميزان الإجمال والتفصيل بسبب إهمالها لمبدإ المنفعة والمصلحة المتمثلة في مراعاة فهم الجمهور والعامة، ثم لأنها تمعن في مراجعة البدهيات وإنكار الحسيات - استكبارا وتغليطا - حتى تحولت الفلسفة وكأنها حركة سوفسطائية في ثوب جديد.

ثم يورد النورسي النكتة الثانية منطلقا من قوله تعالى - تمثيلا لا حصرا -

---

(٢٤) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٧٢.

(٢٥) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٧٢.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾(نوح:١٦) و﴿والشَمْسُ تَجْري لمُستَقَرٍ لها﴾(يس:٣٨) فيذكر كلاما في معنى السراج والجريان، ثم يقول: "فانظر إلى كلمات القرآن مع كونها سهلةً بسيطةً معروفةً؛ كيف صارت أبواباً ومفاتيح لخزائن لطائف المعاني. ثم انظر إلى مطنطنات كلمات الحكمة الفلسفية كيف أنها مع شعشعتها لا تفيدك كمالا علميا ولا ذوقاً روحيا، ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية. بل إنما تفيدك حيرة مدهشة ودهشة موحشة. وتسقطك من سماء التوحيد المضئ في أودية الكثرة المظلمة... والفلاسفة لو أدرجوا في مسائلهم قبساً من القرآن فقالوا: يفعل الله بهذه الأجرام المدهشة الجامدة وظائف في غاية الانتظام والحكمة، وهي في غاية الإطاعة لأمره لكان لِعِلْمِهِمْ معنىً، وإلاّ بأن أسندوا إلى أنفسها وإلى الأسباب صاروا كما قال القرآن ﴿وَمَنْ يُشْرك بالله فكأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطيرُ اَوْ تَهْوي بِهِ الرّيحُ في مكانٍ سَحِيقٍ﴾ وقس على هذه المسألة سائر المسائل."[٢٦].

وفي النكتة الثالثة يعرض النورسي – إجمالا- مقاصد القرآن الكريم، وأنه لاسبيل إلى الاشتغال بما لا يخدمها ولا يندرج تحتها، ولذلك كان من جملة ما يعنيه العمل بالقرآن؛ إهمال ماأهمله القرآن وإجمال ماأجمله وعدم العمل على تغميض حقائق واضحة يقبلها العقل بداهة، وهنا أعرض الكثير من الفلاسفة عن استعمال الوسائط التمثيلية لتوهمهم أنها من عمل العوام وأنها متعلقة بالعقل البياني القاصر عن إدراك ناصية البرهان، وليعلموا أنهم بذلك أعرضوا عن أسلوب القرآن في عرض الحقائق لكل عقل وكل جيل. يقول النورسي: "اعلم! أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب. ومن القواعد: عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد. فلهذا قد أبهم وقد أهمل وقد أجمل القرآن في بعض

(٢٦) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٧٤-٧٥.

المسائل الكونية. وكذا ان الأكثر المطلق من مخاطب القرآن عوام وهم لا يقتدرون على فهم الحقائق الغامضة الإلهية بدون توسيط التمثيل والتقريب بالإجمال، ولا يستعدون في كل وقت لمعرفة مسائل لم يوصل إليها بعدُ القرون الطويلة إلا قليل من الفلاسفة. فلهذا أكثر القرآن من التمثيل، ومن التمثيل بعض المتشابهات فإنها تمثيلات لحقائق غامضة إلهية. وأجمل فيما كشفه الزمانُ بعد عصور وبعد حصول مقدمات مرتبة.."[٢٧]

وفي النكتة الرابعة يرى النورسي أن المنهجية الفلسفية بتدقيقاتها الفلسفية ومباحثها الطبيعية وتفصيلها في ماهيات الأشياء وخواصها، وغفلتها عن مقاصد القرآن تبدو الدنيا وكأنها جامدة، والطبيعة وكأنها متكدرة، و"الحاصل: أن القرآن يبحث عن معاني كتاب الكائنات ودلالاتها، أما الفلسفة فإنما تبحث عن نقوش الحروف ووضعياتها ومناسباتها. ولا تعرف أن الموجودات كلماتٌ تدل على معانٍ. فإن شئت أن ترى فرق حكمة الفلسفة، وحكمة القرآن فراجع ما في بيان آية ﴿وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ اوُتِيَ خَيْراً كَثيراً﴾(البقرة:٢٦٩)"[٢٨] .ويورد النورسي في مكان آخر من المثنوي ما يفصل هذا الفرق الجوهري بين المنهجيتين فيقول: "بعضها بالذهب والفضة وبعضها بالألماس والزمرّد وبعضها بالجواهر والعقيق.. وهكذا. وقرأه شخصان فاستحسَناه فقالا: فلنكتبْ على محاسن هذا الشئ المزيّن كتاباً فكتب كل منهما كتاباً.

أمّا أحدهما: فهو أجنبيّ لا يعرف من العربية حرفاً واحداً حتى لا يعرف أن مشهوده كتاب، لكن له مهارة في الهندسة والتصوير ومعرفة الجواهر وخاصياتها فكتب كتاباً عظيماً يبحث عن نقوش الحروف ومناسباتها وجواهرها وخاصياتها ووضعياتها وتعريفاتها.

وأما الآخر: فحينما رآه عرف أنه كتاب مبين وقرآن حكيم فلم يشتغل

(٢٧) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٥.

(٢٨) المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٦.

بنقوش حروفه المزيّنة بل اشتغل بما هو أعلى وأغلى وألطف وأشرف وأزين وأحسن بملايين المراتب مما اشتغل به رفيقُه، وهو بيان جواهر معانيه وأنوار أسراره فكتب تفسيراً يبحث عن حقائق الآيات.

يامَن له عقل! فبالله عليك لأيّ هذين الكتابين يقال انّه كتاب حكمة هذا القرآن؟ فإذا فهمتَ التمثيلَ فانظرْ إلى وجه الحقيقة: أما القرآن فهو هذا العالمُ وأما الشخصان فكُتب الفلسفة والحكماء، والقرآن وتلامذته."[٢٩]

إن طبيعة المنهجية القرآنية في عرض الحقائق كما يقرر النورسي مبنية على التساند المتين والتجاوب الفائق بين الآيات ومقاصدها المحققة في دلالاتها لحاجات البشر على تفاوت مراتبهم واختلاف أفهامهم، وأعظم هذه الحاجات باعتراف علماء النفس الغربيين الموضوعيين هي الحاجة إلى الإيمان والرسالة، والتي تتجلى حقيقتها في نور التوحيد الذي هو من أعظم مقاصد الشريعة، ولذلك فإن القرآن "إنما ينظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى فاطرها. وأما الفلسفة فإنما تنظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى أنفسها وأسبابها، وغايتها الناظرة إلى مصالح جزئية فلسفية أو صنعوية. فما أجهل من اغتر بالفنون الفلسفية، وصيرها محكاً لمباحث القرآن القدسية. ولقد صدق من قال: "إن الفنون جنون كما أن الجنون فنون"."[٣٠] وهذه هي خلاصة من يشتغل بالقول الفلسفي بعيدا عن أنوار القرآن الكريم، ويغتر بزخرف هذا القول غرورا.

خامسا: أساسيات المنهجية المقاصدية عند النورسي.

لايخرج التنظير المنهجي المقاصدي عند النورسي عن المنطلقات المعرفية والرؤية التصورية التي تؤسس نظرته إلى الشريعة، والتي استقرأها من خلال تتبعه للنصوص وفقهه للأحكام وفهمه لحركة الحياة وأسرار النفس وطبائعها، وتأمله لآيات الأنفس والآفاق وغوصه في اجتماعيات قومه وتحولات عصره وعلوم

---

(٢٩) المثنوي العربي النوري،ص٤٥٧

(٣٠) المثنوي العربي النوري،ص ٧٧

زمانه. ولذلك استقر في ذهن النورسي **أولا**: منهج التكامل المعرفي الذي لا يجعل من المعارف جزرا متباعدة متنافرة، وإنما هو يستدعي نتائج علم ليخدم بها علما آخر، **وثانيا**: منهج التفاعل مع منتجات الحضارة بروح منفتحة واعية بالضوابط العقيدية والأخلاقية والقيمية. وينتظم المنهجين المنهج التعارفي الإنساني الكوني الذي كان يؤثث دوما رؤية النورسي لحركته الإصلاحية واجتهاداته الفكرية وتأملاته الإيمانية، وهذا هو الذي منح رسائل النور هذه القدرة على الانتشار والذيوع والتأثير والفعل داخل تركيا وخارجها. ونعرض الآن لأهم أساسيات المنهجية المقاصدية النورسية

أولا: لايتقن صنعة الاجتهاد من لم يتقن صنعة المقاصد:

إذا كانت المقاصد غايات عامة، وكليات وأصولا، ومصالح أراد الشرع تحقيقها وسعى إلى إقامتها فلا يصح لمن يتصدر للاجتهاد أن يكون عاريا منها، جاهلا بها، ولذلك نبه النورسي كثيرا عليها وجعل القرآن المصدر الذي منه تستقى المقاصد والكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، وفي هذا المعنى يقول الدكتور الريسوني:"وبما أن المقاصد هي مقاصد الرب سبحانه، فلابد أن يكون تحديدها والتصريح بها صادرا عنه وعن القرآن الكريم، فمثل هذه المسألة لا تحتمل التخمينات ولا التأويلات ولا الاستنتاجات، بل لابد أن تأتي صريحة ساطعة قاطعة"[٣١] . وفي جوابه عن مسألة فتح باب الاجتهاد قرر النورسي قواعد وضوابط منها: العلم بالضروريات والحاجيات والتحسينيات وفقه مراتبها وعدم تأخير الأولى على من هو دونه مع صرف كل الهمم والعزائم لامتثال الضروريات وأن لايضيق الاجتهاد المقاصدي بحاجات الزمان، ولابمصالح العباد.[٣٢]

---

(٣١) الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية،د الريسوني، ص٥٧.

(٣٢) انظر كلام النورسي في الصفحة١٨٢و١٨٣ من كتاب المثنوي العربي النوري.

ثانيا:المصالح حكم مرجحة وليست عللا للأحكام:

يرى النورسي أن "المصلحة حكمة مرجحة، وليست بعلة للحكم."[٣٣] فأحكام الشريعة لا تعلل برعاية مصالح العباد، فالله تعالى أثبتها تعبدا، صحيح أن الشريعة جاءت لتحقيق المصالح لكن تفضلا منه تعالى لا وجوبا. ولذلك لا يمكن القول أن النورسي نفى مسألة التعليل أو أنكرها، وكلامه كله ينهض لما ذكرته عنه، وهو الذي مافتئ يظهر لتلامذته وللعالم أن شريعة الله عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، كيف وعماد نظرية المقاصد وروحها هو التعليل. ومما يعنيه قول النورسي عدم وجود مصالح خالصة، فهي عزيزة الوجود. والذي شدد عليه النورسي هو أن لتعليل الأحكام حدودا وضوابط لا يصح تجاوزها، وأن كل تعليل لا يحفظ الكليات المقاصدية للشريعة ويخرج عن مقصود الشارع ولايعتبر بمسالك التعليل هو تعليل مردود غير مشروع.

ثالثا:الوسائل خادمة للمقاصد وتابعة لها:

قررت كتب الأصول أن المقاصد متضمنة للمصالح، أما الوسائل فطرق مفضية إلى تحصيل هذه المصالح، وبما أن المصالح ليست على مرتبة واحدة، فكذلك هي الوسائل، قال القرافي في الفروق: "ومواردالأحكام على قسمين:

مقاصد: وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في أنفسها.

ووسائل: وهي الطرق المفضية إليها، وحكمها حكم ما أفضت إليه من تحريم أو تحليل، غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها. فالوسيلة إلى أفضل المقاصد: أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد: أقبح الوسائل، وإلى ماهو متوسط: متوسطة"[٣٤] وهذا يعني أن الأصل هو المقصد والوسيلة تابعة له، وقد تصير بذلك الوسيلة مقصدا تابعا لمقصد أصلي، والمهم أنه لاعبرة بالوسائل إذا لم تتحقق المقاصد. وقد أشار النورسي إلى تعلق الوسائل بالمقاصد تعلقا

---

(٣٣) المثنوي العربي النوري، النورسي،ص١٨٣.

(٣٤) الذخيرة، القرافي،١/١٤٥.

حكميا لايخرجها عن مقصود الشارع فقال: "اعلم! أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب. ومن القواعد: عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد."(٣٥) فقد جعل من قواعد منهجية فقه المقاصد عدم الاستغراق في الوسائل أو التعمق فيها بصورة يضيع معها المقصد، فالذي يضبط عمل الوسائل ويرسم مسالكها وحدودها ومواردها هي المقاصد، فيكون الاشتغال بالوسائل بقدر خدمتها للمقاصد.

رابعا: المقاصد مراتب ودرجات أعلاها معرفة الله وعبادته:

يعبرالنورسي من خلال كتاباته عن منهجية كلية تنأى عن الرؤى التي تجزئ أحكام الدين، أو تلك التي تتيه في جزئياته وفروعه غير حافظة لكلياته ومقاصده. والدين أصول وكليات، والفروع تابعة لها، ولايصح حسب النورسي جعل الفرع أصلا، أو الأصل فرعا إذ المنطق الأصولي والفقهي لايقر بذلك. وعليه فإن جميع المقاصد والمصالح ترجع في أصلها إلى مقصد كلي هو: معرفة الله وعبادته، ولأجل هذا المقصد تنزل القرآن، وبعث الله الأنبياء والرسل. وإذا كانت أمهات المقاصد والكليات هي : التوحيد، والنبوة، والعدالة، والحشر، فإنها جميعا تخدم المقصد الكلي الأعظم الذي هو معرفة الله وعبادته، ورسائل النور كلها دندنة حول هذا المقصد الكلي، لأنه الحقيقة الكبرى في هذا العالم، والغاية القصوى من الخلق.

خامسا: الموازنة المصلحية ركن في المنهجية المقاصدية:

إذا كانت المصلحة هي جلب منفعة ولذة ومتعة، والمفسدة دفع ما يقابل ذلك، فإنها توجد على قدر كبير من التداخل والتعارض ليس بمقدور العقل

---

(٣٥) المثنوي العربي النوري، النورسي،ص٧٥.

وحده معرفة الحدود بينهما،- وإن كان قادرا على إدراك عموم المصالح والمفاسد ـ وكانت الشريعة بذلك ضرورية لأن "أحكام الشريعة تشتمل على مصلحة كلية في الجملة، وعلى مصلحة جزئية في كل مسألة على الخصوص. أما الجزئية فما يعرب عنه كل دليل في خاصته. وأما الكلية، فهي أن يكون كل مكلف تحت قانون معين من تكاليف الشرع في جميع حركاته وأقواله واعتقاداته.فلا يكون كالبهيمة المسيبة تعمل بهواها، حتى يرتاض بلجام الشرع"[٣٦] . وقد عرف عن النورسي الكثير من الموازنات الدالة على الترجيح بين المصالح والمفاسد، - وهي فرع عن نظرية التقريب والتغليب في الشريعة الإسلامية كما أوضحت ذلك أطروحة الدكتورالريسوني - وخصوصا في أمرين اثنين: الأول موقفه من العمل السياسي، والثاني موقفه من الطرق الصوفية، يقول النورسي -رحمه الله-: "إن أعظم خطر على المسلمين في هذا الزمان هو فساد القلوب، وتزعزع الإيمان بضلال قادم من الفلسفة، وإن العلاج الوحيد لإصلاح القلب، وإنقاذ الإيمان؛ إنما هو النور وإراءة النور، فلو عُمل بهراوة السياسة وصولجانها، وأحرز النصر تدنى أولئك الكفار إلى درك المنافقين، والمنافق - كما هو معلوم- أشد خطراً من الكافر وأفسد فيه، فصولجان السياسة إذاً لا يصلح القلب في مثل هذا الوقت، حيث ينزل الكفر إلى أعماق القلب ويتستر هناك وينقلب نفاقاً.

ثم إن شخصاً عاجزاً مثلي لا يمكنه أن يستعمل النور والهراوة معاً في هذا الوقت، لذا فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور بما أملك من قوة، فيلزم عدم الالتفات إلى هراوة السياسة."

إن الترجيح عملية اجتهادية ظنية تبنى على التقدير المصلحي المؤسس على فقه النصوص ومراعاة الواقع وعدم الاستئسار لفتوى فقيه، وتتدخل خبرة الفقيه وتجربته اليومية في حركة الحياة، وورعه وتقواه في تسديد فتواه. وقد خبر

---

(٣٦) الموافقات، الشاطبي،ص

النورسي واقع بلاده، وأكرمه الله بنور القرآن وفقه الشريعة، ولذلك تراه لا يتعجل في القول حتى يعرضه على المنطق الفقهي والأصولي، ثم يستثير قلبه ويحركه يمنة ويسرة، وتستبد به الهموم والتردد فيقيم مع آيات ربه قراءة وتدبرا استمدادا للرحمة والعون، ثم يقطع مسافات جيئة وذهابا مرات ومرات ينتظر اللمعة الاجتهادية المباركة، فيريها من نفسه خيرا بما أوتي من بلاغة القول وحسن الصياغة، ثم يعرضها على أصحابه وتلامذته راضية بها نفسه. فهكذا تصورت النورسي وقد قال ماقاله من ترجيحات عن السياسة وغيرها، فهو لم يخرج السياسة من دائرة الإسلام، بل هي جزء منه، ولكنها حسب تقديره لاتجدي نفعا في عملية الإصلاح، إذ البداية السليمة إنما تنطلق من تصحيح الإيمان وتجديده في القلوب، وسلاح الإيمان النور، وسلاح السياسة القوة؛ ولذلك يجتمع حول الأول الصادقون،وحول الثاني المنافقون،والانطلاق من السياسة بهدف الإصلاح يترتب عليه أضرار ومفاسد أكبر مما يمكن تحقيقه من منافع. وقوله:"فصولجان السياسة لا يصلح القلب في مثل هذا الوقت"، وقوله: "فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور" دليل على اعتبار تغير الزمان في تغير الفتوى، وأن الفقيه الداعية المجتهد لايجمد عند فتواه بحكم الاضطرار، وإنما هو يوظف قواعد الأصول كما فعل النورسي هنا حيث عمل بقاعدة: "دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح" ومن موازناته رحمه الله عدم الدخول مع العلمانيين والظالمين في صراع مادي مكشوف حفاظا على الأمن وضمانا للوحدة.

واستنادا على فقه الموازنات وعملا بقاعدة: ارتكاب أخف الضررين .... ساند النورسي عدنان مندريس والحزب الديمقراطي طيلة الخمسينات بسبب سلوكهم المعادي للشيوعية، والمتسامح مع الإسلام، وهذا نوع تفاضل وتكامل، ونسبية واحتياط، وهو منطق رياضي ليس غريبا على الفقه، كما أنه ليس غريبا على رجل بقدر النورسي درس علوم الشرع والعلوم البحتة (رياضيات، فيزياء، كيمياء،...). فحيث رفض النورسي الاشتغال بالسياسة واعتبارها منطلقا

للإصلاح احتياطا لأمر الدعوة والتربية وتمكينا للمشروع الإيماني النوري، لم يمنعه احتياطه هذا من مرونة في التعامل مع المستجدات السياسية والمواقف المتجددة، وهي مرونة وليست تحللا؛ فالدعوة لها فقهها، وللتربية فقهها، وللسياسة فقهها.

وبخصوص موقفه من الطرق الصوفية فإن النورسي سيعتمد على نفس ميزان المنافع والمضار، ومنطق الترجيح والموازنة، إذ تجده يقول: "وإن الشغف بالطرق الصوفية التي نفعها قليل لنا في الوقت الحاضر، واحتمال إلحاقها الضرر بوضعنا الحالي ممكن"[٣٨]. وهذا الفهم صادر عن إدراك عميق للواقع وتحليل لمعطياته واستنباط الواجب فعله والقيام به، ونحن نأخذ كلام النورسي دون تردد وهو الخبير بهذا الشأن المطلع على أحوال أهل التصوف في زمانه، العارف بمقامات الإيمان، المتفيئ بظلال القرآن، وهذا أساس من أساسيات المنهجية المقاصدية عند النورسي وركن من أركان الفتوى المعتبرة بروح الشرع وغاياته؛ إذ لايكفي الفقيه فقهه للأحكام أن يفتي ويرجح ويوازن في قضايا تحتاج منه إلى خبرة إلا أن تكون له معاناة وصولات ضد أهل الباطل.

سادسا: المفاضلة والترتيب أساس في المنهجية المقاصدية:

وهذا أساس متفرع عن الأساس السابق وتابع له، إذ تفترض العقلية المقاصدية منطق التراتبية والمفاضلة بين المصالح، وهو جزء من فقه الموازنات الضامن لقدسية الثوابت، الذي يعرف متى يكون مرنا ومتى يكون صارما؛ وعلى هذا الأساس رتب النورسي دوائر الدين إلى أربع بحسب المصلحة المترتبة عليها، وبقدر تعلق الدوائر بها، يقول النورسي: "إنه ينبغي لهذا العصر من مجدد له شأنه ليقوم بتجديد الدين والإيمان، وتجديد الحياة الاجتماعية والشريعة، وتجديد الحقوق العامة، والسياسة الإسلامية، ولكن أهم تلك الوظائف، هو التجديد في مجال المحافظة على الحقائق الإيمانية، فهي أجل وأعظم تلك

---

(٣٨) سيرة ذاتية: النورسي:ص٢٩٦

الوظائف الثلاث؛ لذا تبقى دوائر الشريعة والحياة الاجتماعية والسياسية في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة بالنسبة لدائرة الإيمان. إن القاعدة الإيمانية إذا تكونت فإن تطبيق الشريعة وأحكامها يأتي خطوة طبيعية تالية، ولكن لا قيام للشريعة من غير قاعدة إيمانية." هي إذن دوائر أربع تحفظ للدين مكانته وهيمنته الشاملة على حياة الإنسان والمجتمع والدولة والأمة، والتجديد في كل واحدة منها مطلوب وضروري. وحيث أن مدار الأمر كله على العقيدة والإيمان، فإن إحياء حقائقه، وتثبيت أصوله، وتجديد معانيه في القلوب جدير بأن يهيئ النفوس والعقول للاستمساك بالدين وتحكيمه في قضايا التشريع والاجتماع والسياسة، ونظرا لهذه المفاضلة في الدور والوظيفة تأتي هذه الدوائر مرتبة على الشكل الآتي: تجديد الإيمان، وتجديد قضايا التشريع والقانون والحقوق العامة، وتجديد الحياة الاجتماعية، وتجديد الحياة السياسية. وبناء على ذلك لم تشغل النورسي فروع الفقه وجزئياته، وإنما شغلته أمراض القلوب، شبهات وشهوات، فقام يرد هذه القلوب إلى عافيتها، ويؤسس - بنظرة مستقبلية راشدة - لمجتمع مؤمن صادق، يكون قادرا على حمل الرسالة إلى العالم. فأكثر ما أصيبت الأمة أنها أصيبت في دينها وإيمانها بالله، وتجملها بالقيم والأخلاق، فكانت دعوة النورسي دعوة إيمان وأخلاق أولا، وهذا ليس تبعيضا للدين، وإنما مرحلية في التصور وتدرج في التطبيق.

سابعا: لا صحة لمنهجية مقاصدية إلا ممن خبر أحوال الإيمان وذاق حلاوته فاتقى و تورع.

إن المنهجية المقاصدية حينما تتجه صوب سبر أغوار مقاصد الدين وفهم أحكامه وهي عارية من خبر الإيمان واليقين، وتحريك القلوب والأحاسيس، وخالية من الرقائق المذكرة بمقامات العبودية، وحينما يحلق الفقيه أو المجتهد في فتواه وهو لم يذق بعد حلاوة الإيمان تتحول هذه المنهجية إلى تقريرات يضيق بها القلب لعدم براءتها من الهوى، لذلك لا يصح الاجتهاد المقاصدي،

ولا تثبت صنعة المقاصد إلا من عالم فقيه تقي ورع، فملاك أمر المنهجية المقاصدية أولا التقوى والتجرد والبراءة من الأجر الدنيوي.

والذي يبدو لي أن النورسي - رحمه الله - جاء ليعيد النظر ببصيرته النافذة في العديد من مدونات الفقه التي شغلت الأمة بالجزئيات وحالات الناس وغرائبهم وتلاعباتهم، فيشتغل الفقيه بالرد عليها وفهمها وتلمس الإجابة لها والبحث عن تخريجات وتفريعات وحيل من هنا وهناك، كل ذلك بعيدا عن المواعظ والرقائق وأجواء التحليق الإيماني. وهكذا تعكر الفقه "حتى لتكاد تشعر أن الفقه قد انحرف عن مقصده"(٤٠).

إن تعلق الفقيه الداعية المجتهد- وهذا الذي نحسب أن النورسي كان عليه- بمقامات الإيمان، وتدرجه في مدارج السالكين، وجعل حركته في الحياة مبنية على دعوة الناس إلى ذلك وتأليف قلوبهم عليه، حتى إذا جاءته أسئلتهم، رد حيرتهم إلى روح الدين، وألبس كل فتوى من فتاويه لباس التقوى والإيمان، ودلل عليها من آي القرآن ونور النبوة وقصص الصالحين. وهكذا كانت أجيال علماء الأمة في عصورها الأولى، و النورسي ومعه آخرون هم ورثة هذه الأجيال المطمئنة بالفقه وأصوله، غير راغبة في شيء سوى الإذعان لحكم الله والاهتداء إلى الحق، ولذلك و"بدون الاستواء النفسي الإيماني لا يتاح لأحد الاستواء على الصواب في استنباط الفتوى، إذ (النفس المطمئنة بالفقه) هي الباب، ومدخل الصدق، والمنطلق، ثم هي المخرج، مخرج الصدق، وبها يكون الجزم واعتدال الخطو وصناعة الحياة إذا امتد المسار.

قول فصل لا مفاوضة فيه، ومن حرم الرقائق: اضطربت سريرته، وتبرم، وضاقت عليه سعة الاستسلام للأمر الرباني، ومن رام التفلت: طال منه التلفت، ويوشك أن ترهقه المتاهة وتتلفه العوائق."(٤١)

---

(٤٠) أصول الاجتهادالتطبيقي ...... محمد أحمد الراشد٣/١١.

(٤١) أصول الاجتهادالتطبيقي ...... محمد أحمد الراشد٣/١٥.

ثامنا: التحسين والجمال أساس متين في المنهجية المقاصدية.

النورسي إمام في الجمال وخبير في الذوق والوجدان، وكل سطر من سطور كلماته ولمعاته وشعاعاته تنبئ بهذه الحقيقة. وقد انطلق النورسي في فهمه للأساس الجمالي والذوقي من الرؤية القرآنية لمسألة الجمال، ولذلك تجده يقول "فنرى أن القرآن الكريم يبين تلك الحقيقة النورانية بجميع فروعها وأغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بياناً في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقةٌ حقيقةً أخرى ولا يفسد حكمُ حقيقةٍ حُكْماً لأُخرى، ولا تستوحش حقيقة من غيرها. وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بيّنَ القرآن الكريم حقائق الأسماء الإلهية والصفات الجليلة والشؤون الربانية والأفعال الحكيمة بياناً معجزاً بحيث جعل جميع أهل الكشف والحقيقة وجميع أولي المعرفة والحكمة الذين يجولون في عالم الملكوت، يصّدقونه قائلين أمام جمال بيانه المعجز والإعجاب يغمرهم: "سبحان الله! ما أصوب هذا! وما أكثر انسجامه وتوافقه وتطابقه مع الحقيقة وما أجمله وأليقه"[٤٢].

إن الرؤية الجمالية لأحكام الشريعة ونصوصها التي تؤثث المنظور المقاصدي النوري تستند على مسلمة عقدية تتعلق باسم من أسماء الله الحسنى وهو الجميل، ولا يصدر عن الجميل إلا الجميل، وبذلك تكون أحكام الشريعة كلها قائمة على أساس الحسن والجمال، وكل قول أو اجتهاد في تحديد المقاصد أو تقعيدها، أو تجديد النظر والقول فيها لا يعتبر بالأساس الجمالي الذوقي فهو قول مردود واجتهاد باطل. وإذا كانت كليات الشريعة ومقاصدها هي حقائق الدين الباهرة، فإن"الحقيقة بذاتها جميلة، ومع إدراك جمال الحقيقة فانه يحترم كمال صاحب الحقيقة ويوقّره فيستحق رحمته"[٤٣].

وعليه يمكن القول من خلال استقراء لرسائل النور أن كل ما خرج بأحكام

---

(٤٢) الكلمات، النورسي،ص١٥٤

(٤٣) الكلمات، النورسي،ص٣٥

الشريعة من الحسن إلى القبح، ومن الجمال إلى ضده فليس منها في شيء وإن أدخل إليها بتأويل.بل ذهب النورسي رحمه الله إلى جعل هذا الأساس قانونا تجري بحسب الحقائق كلها وسماه "قانون التحسين والجمال"[٤٤].

خاتمة

والذي أخلص إليه في نهاية هذا العرض أن المنهجية المقاصدية النورسية منهجية أصولية، وأخلاقية، وذوقية، وجمالية، إذ الناظر في مقاصد الشريعة- بحسب المنظور النورسي لمسألة المقاصد- يحتاج أن يتقن صنعة الأصول ومبادئ الأخلاق والجمال والذوق وإلا غابت عن ذهنه الكثير من أسرار الشريعة ومقاصدها. وبذلك ينهض القول النورسي ضد بعض الأطروحات المعاصرة التي ينادي أصحابها بضرورة فصل المقاصد عن علم الأصول، واستقلالها كعلم منفرد بذاته لا تعلق له بغيره، وسواء صدرت هذه الدعوى ممن ينتمون إلى المرجعية الإسلامية، أو المرجعية العلمانية فإنها تبقى دعوى فاقدة للصلاحية العلمية والمصداقية المنهجية. وقد أدرك النورسي رحمه الله هذا المنزلق المنهجي الخطير مما حدا به – سدا للذريعة – أن يربط المقاصد بعلم الأخلاق، بل جعل علم المقاصد علما أخلاقيا غرضه الأسمى تحقيق الصلاح في الفرد والمجتمع والدولة والأمة، وهو عين ما جنح إليه المفكر المغربي طه عبد الرحمن حينما اعتبر أن"علم المقاصد هو باختصار علم الصلاح" وهو ما يعني عدم إفراغ علم الأصول- والمقاصد جزء منه- من قاعدته الإيمانية الأخلاقية، مع ضرورة تخريج الأصوليين الربانيين الذي لا يفصلون بين قواعد الأصول و الإيمانيات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(٤٤) الكلمات، النورسي،ص٦٦٢

لائحة المراجع

- الفكر المقاصدي د، الرسوني
- كليات رسائل النور،الشعاعات، النورسي
- النظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، د، الروكي
- الموافقات، الشاطبي
- كليات رسائل النور ،المثنوي العربي النوري، النورسي
- أصول الاجتهاد التطبيقي ...... محمد أحمد الراشد، دار المحراب
- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، العالم، يوسف، الدار العالمية للكتاب الإسلامي / المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٥ -١٩٩٤
- في فقه الأولويات: دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى
- أحكام القرآن ، أبو بكر ابن العربي
- مقاصد الشريعة الإسلامية ، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الثالثة ١٩٨٨
- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، الطبعة الرابعة ١٤١١ – ١٩٩١
- الذخيرة، القرافي
- نحو تفعيل مقاصد الشريعة، د جمال الدين عطية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر، الطبعة
- أعلام الموقعين، ابن القيم، دار الجيل
- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى ١٤١١ – ١٩٩١
- الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته، نور الدين بن مختار الخادمي، كتاب الأمة رقم ٦٥ /٦٦ ، ١٤١٩
- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية،د الريسوني، إصدارات اللجنة العلمية لحركة التوحيد والإصلاح، ٢٠٠٧
- كليات رسائل النور، الكلمات، النورسي
- سيرة ذاتية، النورسي

المقاصد القرآنية
في فكر النورسي

ذ. عبد السلام الأحمر
إطار تربوي القنيطرة - المغرب

أولا: مفهوم المقاصد ومراتبها

المقاصد جمع مقصد، وهو ما تقصده وتريد الوصول إليه،فهو مقصود لك ولسعيك.ولذلك يستعمل المقصِد والمقصود بمعنى واحد، ومقاصد الشريعة هي الغايات المستهدفة والنتائج والفوائد المرجوة من وضع الشريعة جملة ومن وضع أحكامها تفصيلا(١).

وذهب الدكتور طه عبد الرحمن(٢) في تحديد معنى مقصد إلى كونه لفظا مشتركا بين معاني ثلاثة وهي:

١- قصد بمعنى ضد الفعل (لغا) باعتبار اللغو هو الخلو عن الفائدة وصرف الدلالة، فيكون المقصد هو عكس ذلك المتمثل في حصول الفائدة أو عقد الدلالة.

---

(١) الفكر المقاصدي قواعده وفوائده – د أحمد الريسوني منشورات الزمن، دجنبر ١٩٩٩.
(٢) انظر تجديد المنهج في تقويم التراث، ص٩٨ بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٢، د.ت.

٢- قصد بمعنى ضد الفعل (سها)، باعتبار أن السهو هو فقد التوجه أو الوقوع في النسيان، فيكون المقصد هو عكس ذلك وهو حصول التوجه والخروج من النسيان.

٣- قصد بمعنى ضد الفعل (لها)، باعتبار أن اللّهو هو الخلو عن الغرض الصحيح وفقد الباعث المشروع.

وأوضح الشيخ بديع الزمان النورسي اختلاف مراتب مقاصد الدين بقوله: "فكما أن لكل من الألماس والذهب والفضة والرصاص والحديد قيمتها الخاصة، وخاصيتها الخاصة بها، وهذه الخواص تختلف، والقيم تتفاوت. كذلك مقاصد الدين تتفاوت من حيث القيمة والأدلة"[٣]. وأهم مراتب المقاصد اثنان المقاصد العامة والمقاصد الخاصة التي تندرج تحتها تقسيمات أخرى.

وقد عرف الشيخ الطاهر بن عاشور مقاصد التشريع العامة فقال بأنها: "المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة. فيدخل في هذا: أوصاف الشريعة وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها. ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها"[٤].

وبين الأستاذ علال الفاسي المقصد العام للشريعة على النحو التالي: "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل

---

(٣) صيقل الإسلام/محاكمات – ص: ٤٧

(٤) مقاصد الشريعة، ص ٢٥١. ت : محمد الطاهر الميساوي، الأردن، دار النفائس، ط٢. ٢٠٠١م.

واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع"(٥)

وبعيدا عن التعاريف الأصولية يعرف الأستاذ بديع الزمان النورسي ما سماه المقاصد الربانية تعريفا تربويا لطيفا فيقول:

"أهم المقاصد الربانية في خلق الموجودات، هو تعريف وتحبيب نفسه سبحانه إلى ذوي الشعور، ودفعهم إلى تقديم حمدهم وشكرهم وثنائهم له وحده."(٦) ويضيف في موضع آخر:"من بين الناس، وهم الذين انسجموا مع المقاصد الربانية، وحبّبوا أنفسهم إليه بالإيمان والتسليم، وجعلهم أولياءه المحبوبين المخاطبين له، وأكرمهم بالمعجزات والتوفيق في الأعمال وأدّب أعداءهم بالصفعات السماوية"(٧).

وجمع علال الفاسي مقاصد الشريعة العامة والخاصة في التعريف التالي:"المراد بمقاصد الشريعة، الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"(٨)

وأما المقاصد الخاصة فهي التي يقصد الشارع إلى تحقيقها في مجال محدد من مجالات الشريعة مثل مقاصد الزواج، مقاصد المعاملات المالية،مقاصد الصلاة، مقاصد الزكاة وهكذا.

وهناك المقاصد الجزئية: وهي ما يقصده الشارع في كل حكم من أحكام الشريعة، مثل إيجاب شيء أو تحريمه أو الندب إليه أو الإتيان به على هيأة وطريقة مخصوصة، مثل مقاصد وجوب الركوع والسجود في الصلاة، ومقاصد تحريم الغيبة أو شرب الخمر، بحيث لا يتصور تشريع القيام بفعل أو تركه إلا لمقصد عظيم وحكمة بالغة، علمها الناس أو لم يعلموها أو اختلفوا في إدراكها.

---

(٥) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مكتبة الوحدة العربية– الدار البيضاء ٤١-٤٢.
(٦) الشعاع الثاني – ص: ٢٦.
(٧) الشعاع التاسع – ص: ٢٣٧.
(٨) نفسه ص٣.

وقد يعبر الفقهاء عن المقاصد الجزئية للشرع بالحكمة أو علة الحكم أو السبب أو السر أو المعنى، كما يوجد ذلك عند أبي إسحاق الشاطبي وأبي حامد الغزالي والطبري وغيرهم كثير.

ثانيا: فوائد المقاصد المنهجية والتربوية.

أ) الفوائد المنهجية

١- تمييز المقاصد بحسب مراتبها

فبعد تقرير الأستاذ النورسي تفاوت مقاصد الدين من حيث القيمة والأدلة. أشار إلى فائدة التمييز بين مراتبها ضاربا لذلك مثلا كعادته في تقريب المفاهيم الغامضة من الأذهان فقال: "إن من أعطى جوهرة أو ليرة ذهبية في موضع فلس أو عشر بارات، يحجر عليه لسفهه، ويمنع من التصرف في أمواله. وإذا انعكست القضية فلا يسمع إلا كلمات الاستهزاء والاستخفاف، إذ بدلاً من أن يكون تاجراً صار محتالاً يسخر منه. كذلك الأمر في من لا يميز الحقائق الدينية ولا يعطي لكل منها ما يستحقه من حق واعتبار، ولا يعرف سكة الشريعة وعلامتها في كل حكم. كل حكم شبيه بجزء ترس يدور على محوره لمعمل عظيم. فالذين لا يميزون يعرقلون تلك الحركة. مثلهم في هذا كمثل جاهل شاهد ترساً صغيراً لطيفاً في ماكنة جسيمة، وحاول الإصلاح وتغيير ذلك الوضع المتناسق. ولكن لعدم رؤيته الانسجام الحاصل بين حركة الترس الصغير والماكنة الكبيرة وجهله بعلم المكائن، فضلاً عن غرور النفس الذي يغريه ويخدعه بنظره السطحي؛ تراه يخلّ بنظام المعمل من حيث لا يشعر ويكون وبالاً على نفسه."[٩] فمعظم الانحرافات التي يقع فيها الناس في فهم الدين وممارسته غالبا ما تكون نتيجة جهل بحقائق الشرع ومراتب أحكامه وتكالفه مما يوقع في تقديم ما شأنه التأخير أو تأخير ما شأنه التقديم وكذا

(٩) صيقل الإسلام/محاكمات - ص: ٤٧

الاجتهاد في طلب ما ندب إليه الشرع على حساب التفريط فيما فرضه وأوجبه.

وكلما استوعب المكلف مقاصد الشرع ومراتبها أمكنه تجنب التشدد على النفس حيث يقبح، واستطاع التيسير عليها حيث يحسن، وتحققت في ذاته ثمرات التدين المقصودة من التشريعات، وهدي إلى الصراط المستقيم.

٢- التمييز بين مقاصد الشرع ووسائله.

إن الجهل بمقاصد الشرع يؤدي بالمكلف إلى عدم التنسيق بين الوسائل والمقاصد، فيسلك مسالك فاسدة لغايات حميدة، أو يعكس الأمر فيركب وسائل مشروعة لعمل مشبوه أو بيِن الحرمة. وقد يجتهد في إتقان الوسائل دون أن يعبأ ببلوغ ما تفضي إليه من مقاصد.

قال الشهاب القرافي: "وموارد الأحكام على قسمين: مقاصد، وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في أنفسها. ووسائل، وهي الطرق المفضية إليها"[١٠]

ويقول ابن قيم الجوزية: "لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها. فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع بها بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطاتها بها. ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غاياتها. فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل."[١١]

٣- إدراك حقائق الدين والاستنارة بها في معضلات الحياة.

لا تحصل حقائق الدين من البحث العمودي المنحصر في فروع الشريعة وحدها، ما لم تشفع بدراسات أفقية تحاول بناء نظرة شمولية مستوعبة للجزئيات والتفصيلات الفرعية، والتي تكسب الدارس الوعي بالمقاصد العامة للشريعة،

---

(١٠) الفروق ٣٣/٢ ، عالم الكتب ، بيروت – د.ت

(١١) أعلام الموقعين ١٣٥/٣. نشر دار الجيل بيروت. د- ت

بحيث في ضوئها يتعمق إدراكه للمقاصد الخاصة، ويزداد علمه بروح الشريعة، المانعة من اختلال الرؤية وغموضها، إزاء العديد من قضايا الحياة ومعضلاتها. "فسواء فكرفي قضية سياسية أو اقتصادية أو دستورية قانونية أو اجتماعية أو تربوية أو نقابية أو حقوقية، فلا بد أنه سيكون مستحضرا لتلك المقاصد.. وبذلك يعطي كل ذي حق حقه ويحفظ لكل ذي حظ حظه ويحترم لكل ذي مكانة مكانته"[١٢]

ب) الفوائد التربوية

١- تصحيح العلم بالشرع و تقويم الفهم.

تواجه الناظر في مصادر الشرع كتابة وسنة والمتأمل في الأحكام الشرعية، عقبات ذاتية وموضوعية، تجعله يبتعد بفهمه عن مراد الوحي وكبد حقائقه.

فمن العقبات الذاتية تدخل هوى النفس ونظرتها الخاصة للأمور، والتي تتضافر عدة عوامل نفسية في بلورتها، بحيث لا تخلو من زيادة أو نقصان في الأخذ باعتبار أو آخر، وفي اختلال التقدير لجانب على حساب جانب آخر، لذا قرر أهل النظر أنه لا يسلم عالم من هوى قليل أو كثير، فما من شك أن أول اختبار يواجهه العبد، هو فهمه لخطاب الله فهما سليما يوافق مراده تعالى من كلامه، دون إغراق في التأويل البعيد الذي يتجاوز حدود المقاصد .

نقل السيوطي عن أبي حامد الغزالي أنه قال في كتابه (حقيقة القولين) :"مقاصد الشرع قبلة المجتهدين، من توجه إلى جهة منها أصاب الحق"[١٣] ففقه المقاصد يقي المجتهد سوء الفهم والزلل في الترجيح بين المصالح والأضرار، ويجعله أقرب لروح الشرع فيما يأخذ به أو يذره.

---

(١٢) الفكر المقاصدي مرجع سابق ص ١٠١.

(١٣) الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ، ص١٨٢ تحقيق فؤاد عبد المنعم النمر- مؤسسة شباب الجامعة ١٤٠٥/١٩٨٥ الإسكندرية- مصر.

١- تسديد النية وترشيد السلوك

فكلما علم المكلف قصد الشارع من الشريعة عموما، تيسر عليه فهم أحكامها في كل مجال من مجالات العمل اعتقادا وعبادة وسلوكا، فمن عرف مقصد الإسلام من الصوم مثلا اجتهد في تحقيق ذلك المقصد في صيامه، وازداد حرصه كي يكون وفيا له مهتديا به في تفاصيل ممارسته لهذه الشعيرة.

وإذا استحضر المقاصد العامة للشريعة، وضم إليها المقاصد الخاصة بكل تكليف من التكاليف، استرشد بهدي تلك المقاصد إلى ما يلزم أن تكون عليه نيته في الأمر أو النهي، وأمكنه أن ترتسم في ذهنه صورة السلوك القويم والنهج السديد، فيتحاشى الانحراف في التنفيذ والتقاعس عن تحقيق الحكم والمقاصد.

ثالثا: مميزات المقاصد في فكر النورسي (المقاصد القرآنية نموذجا)

اعتمد الشيخ النورسي منهج الاستقراء في تحديد مقاصد القرآن، فلم يكن عسيرا عليه ذلك، وهوالذي عاش مع القرآن وله واستنار بأنوار هاديته، واعتبر رسائل النور التي اشتملت على زبدة أفكاره نوعا من تفسير القرآن الكريم.

فهو يرى "أن القرآن الكريم يذكر في أكثر الأحيان قسماً من الخلاصات والفذلكات في خاتمة الآيات. فتلك الخلاصات: إما أنها تتضمن الأسماء الحسنى أو معناها، وإما أنها تحيل قضاياها إلى العقل وتحثه على التفكر والتدبر فيها.. أو تتضمن قاعدة كلية من مقاصد القرآن فتؤيد بها الآية وتؤكدها في تلك الفذلكات بعض إشارات من حكمة القرآن العالية، وبعض رشاشات من ماء الحياة للّهداية الإلهية، وبعض شرارات من بوراق إعجاز القرآن."[١٤].

ويواصل تجلية الأمر بقوله: "إن القرآن الكريم – ببياناته المعجزة –يبسط أفعال الصانع الجليل ويفرش آثاره أمام النظر، ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار، الأسماء الإلهية، أو يثبت مقصداً من مقاصد القرآن الأساسية كالحشر والتوحيد.

---

(١٤) الكلمة الخامسة والعشرون – ص: ٤٨٣

فيقدم نماذج توضيحية لهذه الحقيقة منها على سبيل المثال:

قوله تعالى ﴿هو الذي خلقَ لكُم ما في الارض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسويهنّ سبعَ سمواتٍ وهو بكل شيء عليم﴾ (البقرة: ٢٩)

وقوله تعالى ﴿ألم نجعل الارض مهاداً، والجبال أوتادا، وخلقناكم أزواجا﴾ إلى قوله تعالى ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ (النبأ، ٦-١٧)

ثم يعلق بقوله: "ففي الآية الأولى: يعرض القرآن الآثار الإلهية العظيمة التي تدل بغاياتها ونظمها على علم الله وقدرته،يذكرها مقدّمة لنتيجة مهمة وقصد جليل ثم يستخرج اسم الله " العليم " .

وفي الآية الثانية: يذكر أفعال الله الكبرى وآثاره العظمى، ويستنتج منها الحشر الذي هو يوم الفصل."[(١٥)]

وينتهي تأمله العميق في آي القرآن وتتبعه لما يتردد فيها كثيرا من القضايا والمعاني إلى كون مقاصد القرآن تتلخص في هذه الأمور الأربعة فيقول: "اعلم! أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب"[(١٦)] ويؤكد كثرة تكرارها عبر المتن القرآني بقوله: "إن أغلب السور المطولة والمتوسطة – التي كل منها كأنها قرآن على حدة – لا تكتفي بمقصدين أو ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة (وهي: التوحيد، النبوة، الحشر، العدل مع العبودية)"[(١٧)]. ويزيد هذا الأمر إيضاحا فيقول: "إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية المنبثة في كل جهاته أربعة: إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدل."[(١٨)]

---

(١٥) نفسه ص ٤٨٤.

(١٦) المثنوي العربي النوري – ص: ٧٥.

(١٧) الكلمة الخامسة والعشرون – ص: ٥٣٣

(١٨) صيقل الإسلام/محاكمات – ص: ٢٩

ونجده يسمي المقاصد بتسميات عدة تميز بينها فإلى جانب المقاصد الأساسية تحدث عن أنواع أخرى منها:

١ – المقاصد الإلهية:

وهي المجلية لغاية الله تعالى من خلق الكون والكائنات وخاصة منها الإنسان، الذي اعتبره أعظم المقاصد الإلهية، بمعنى أن الله أوجد الكون وسخر ما فيه للإنسان لأجل تكليفه بالرسالة وتحمله تبعاتها دنيا وأخرى. فهو يبين ذلك بالقول الصريح: "فيا ترى هل يقبل عقل بأن يُترك هذا الإنسان الذي أصبح مكرّماً بالخلافة والأمانة، والذي ارتقى إلى مرتبة القائد والشاهد على المخلوقات، بتدخله في شؤون عبادة أغلب المخلوقات وتسبيحاتها بإعلانه الوحدانية في ميادين المخلوقات الكثيرة، وشهوده شؤون الربوبية الكلية.. فهل يمكن أن يُترك هذا الإنسان، يذهب إلى القبر لينام هادئاً دون أن ينبّه ليُسأل عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله، ودون أن يُساق إلى المحشر ليحاكم في المحكمة الكبرى؟ كلاّ ثم كلاّ!."[١٩]

٢ – المقصد الحقيقي:

وهو عنده صلب ما تقصد إلى تحقيقه أحكام الشريعة وتكليفاتها في واقع الناس من خير وحسن وكمال، حيث يرى أن القبح والشرور نفسها تبرز أمام العقل خيرية الخير وجمال الحسن وكلية الكمال "وأمثال هذه الشرور والقبائح الجزئية خُلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين. وهكذا يثبت بالاستقراء التام أن المقصد الحقيقي في الكون والغاية الأساسية في الخلق إنما هو: الخير والحسن والكمال، لذا فالإنسان الذي لوّث وجه الأرض بكفره الظالم وعصيانه الله لايمكن أن يفلت من العقاب، ويذهب إلى العدم من دون أن يحق عليه المقصود الحقيقي في الكون. بل سيدخل سجن جهنم!"[٢٠].

---

(١٩) الكلمة العاشرة – ص: ٨٣

(٢٠) صيقل الإسلام ص ٥٠٢.

٣ – المقصد الأصلي والمقصد التبعي:

حيث ميز بين المقاصد الأصلية التي حازت الأولوية في خطاب القرآن وشكلت مقصوده الذي نزل بتبليغه وتعليمه للناس، ومقاصد ثانوية سيقت لتوضيح وبيان المقاصد الأصلية، فنبه إلى ذلك وقال: "اعلم! أن المقصد الأصليّ في القرآن الكريم إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوّة، والحشر، والعدالة.. فذكرُ الكائنات في القرآن الكريم إنما هو تبعيّ واستطراديّ للاستدلال؛ إذ ما نزل القرآن لدرس الجغرافيا والقوزموغرافيا، بل إنما ذكرَ الكائنات للاستدلال بالصنعة الإلهية والنظام البديع على النظّام الحقيقي جل جلاله"(٢١).

رابعا: استخلاص المقصد العام للإسلام من فكر النورسي.

لاستخلاص المقصد العام للإسلام من فكر النورسي، نحتاج إلى استعراض ما تضمنته رسائل النور من أفكار ونظرات تفصيلية، لما أجمله حين حديثه عن مقاصد القرآن الكريم، سيما ورسائل النور اغترفت من نبع القرآن ودارت معه حيث دار. وفيما يلي بيان ذلك:

١ – أهمية صياغة مقصد عام للقرآن والإسلام

ما من شك أن التوصل إلى صياغة مقصد عام واحد للقرآن وللوحي كتابا وسنة وللإسلام في نهاية المطاف، تفرضه اعتبارات منهجية نذكر منها ما يلي:

أ– إن مما تقتضيه وحدانية الله تعالى، هو أن تؤول مقاصد دينه المتعددة إلى مقصد واحد عام ينتظمها جميعا، وتكون كلها بمثابة فروع له ومعاني تفصيلية عنه ومجالات عمله المتكاملة. فهذا النهج هو ما رسمته بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذرايات: ٥٦) ورسمه الحديث النبوي كقوله ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(٢٢).

---

(٢١) إشارات الإعجاز ١٧٧. – القوزموغرافيا: علم الفلك.

(٢٢) رواه أحمد في المسند وصححه الألباني.

ولقد عبر الشارع عن مقاصد الدين بصيغ مختلفة يمكن إرجاعها إلى مقصد واحد عام تتجسد فيه كلها.

ب- إن وحدة الدين لابد أن تكون حاضرة ومعاينة في وحدة توجهه ومقصده، وكل تصور يشوش على هذه الوحدة فهو خلل في النظر، ويؤدي إلى شتات فكري واضطراب في فهم كلية الدين وتماسك تشريعاته. وشأن الدين في هذا الصدد كشأن أي كائن لا يمكن أن يسير على طريق سوي برأسين اثنين أو أكثر.

ج- تحتاج عملية استخلاص مقصد عام لدين الإسلام إلى دراسة استقرائية متفحصة ومتدرجة في نصوص الوحي قرآنا وسنة، تبدأ من جرد المقاصد الجزئية في مختلف مجالات التشريع، ثم تتجه نحو مقاصد أساسية أكثر عمومية، وتستخرج منها مقصدا واحدا عاما يجمع ما تفرق فيما دونه من المقاصد الأخرى، والتي يجب أن ترتبط به بوجه من الوجوه.

وفي هذا المستوى تعددت مواقف العلماء فتقاربت أحيانا وتباعدت أحيانا أخرى.

٢- معطيات الفكر النورسي لصياغة مقصد عام للإسلام.

إن من يتتبع ما ورد في رسائل النور، حول المقاصد والغاية من إنزال الشرائع وبعثة الرسل، ووظيفة الإنسان في الحياة الدنيا، ينتهي به البحث إلى بلورة مقصد عام للقرآن هو نفسه مقصد السنة ومقصد الإسلام، الذي كل المقاصد الأخرى تابعة له ومندرجة تحته وفيما يلي تفصيل ذلك:

أ – إن المقاصد الأساسية التي حددها الأستاذ النورسي للقرآن، وهي التوحيد والنبوة والحشر والعدل مع العبودية، تتيح لنا انطلاقا منها الوصول إلى مقصد عام، مع شيء من التحقيق والتدقيق، حيث نلاحظ تكامل هذه المقاصد وتضافرها لبناء مقصد شامل لها كلها.

وهذه العملية تتطلب منا إدخال الإنسان في الاعتبار، لكونه المعني بكل مقصد من مقاصد الدين، وهو الذي يتعين عليه إدراك مقصد الله من خلقه على شاكلة بعينها، ولغاية محددة يجب عليه أن يستوعبها ولا يضل عنها.

ومن تم لزم صياغة المقصد العام للدين في ارتباطه بالإنسان المكلف بالشريعة، من أمثلة ذلك ما نجده عند الإمام الشاطبي بصيغ متعددة منها قوله :"المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارًا" وقوله: "قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقا لقصده في التشريع. والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة، إذ قد مر أنها موضوعة لمصالح العباد على الإطلاق والعموم، والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، وأن لا يقصد خلاف ما قصد الشارع" [٢٣] والأستاذ علال الفاسي حين محاولته صياغة مقاصد القرآن بعد إطالة التفكير والنظر في ثلة من آياته قال:" فمجموع هذه الآيات القرآنية يبين بوضوح أن الغاية من إرسال الأنبياء والرسل وإنزال الشرائع، هو إرشاد الخلق لما به صلاحهم وأداؤهم لواجب التكليف المفروض عليهم"[٢٤].

فهذه المقاصد القرآنية الأساسية عند الأستاذ لا ينقصها إلا ربطها بالإنسان لكي يتشكل منها في الأخير مقصد عام واحد فنستخلصه منها على مثل هذا النحو: "المقصد العام للقرآن أو للإسلام هو تكليف الله تعالى للإنسان عن طريق الرسول ﷺ بأن يوحده ويلتزم العدل في كل أموره ليكون من الفائزين يوم القيامة". ويمكن اختزال ذلك كله في كلمات ثلاث: (القرآن تكليف الله للإنسان) أو بعبارة أخرى: (القرآن رسالة الله التكليفية للإنسان) أو (مسؤولية الإنسان أمام الله).

---

(٢٣) الموافقات ٣٣١/٢. ت: عبد الله دراز- ١٣٩٥/١٩٧٥ ، ط٢

(٢٤) مقاصد الشريعة ومكارمها مرجع سابق ص ٤٣ .

فهذه هي الحقيقة الجامعة التي رسختها وأكدتها جميع المقاصد، فتوحيد الله والتزام العدل هما أصلا التكليف الشرعي، والنبوة هي طريقة تبليغ وتعليم هذا التكليف، والحشر هو يوم حساب الله للإنسان على مدى قيامه بهذا التكليف، لينال الجزاء على الوفاء والعقاب على الجفاء.

ب – يبدو من الصيغة العامة التي انتهت إليها المقاصد الأساسية عند النورسي أن الذي يجمع بينها ويوحدها في نسق واحد هو مسؤولية الإنسان، وهذا ما تناوله أستاذنا الكبير في عدة مواضيع من رسائله حيث نجده يركز على ابتلاء الإنسان الكائن الحر في هذه الدنيا، بما يطويه الغيب من مستورات عن الأنظار، كأركان الإيمان وما جرى مجراها، مما يقصر عنه البصر وتدركه البصيرة، ليؤمن من شاء ويكفر من شاء. فيقول: "إن هذه الدنيا دار امتحان واختبار، ودار مجاهدة وتكليف، والاختبار والتكليف يقتضيان أن تظل الحقائق مستورة ومخفية، كي تحصل المنافسة والمسابقة، وليسمو الصديقون بالمجاهدة إلى أعلى عليين مع أبي بكر الصديق، وليتردى الكذابون إلى أسفل سافلين مع مسيلمة الكذاب."[٢٥] فمكونات مجال الابتلاء في هذه الدنيا لها قابليتا التوظيف في اتجاهي الإيمان أو الكفر، التصديق أو التكذيب بحيث يمكن للإنسان أن يتبع الأدلة المثيرة لهذه القابلية أو تلك بحسب رغبته وإرادته، دون التعرض لأي ضغط قد يدفعه في غير الاتجاه الذي يختاره بكامل رضاه وطواعيته، ولو كان الدليل معجزة خارقة، وهذا ما أشار إليه شيخنا عندما قال: " إن المعجزة تأتي لإثبات دعوى النبوة عن طريق إقناع المنكرين، وليس إرغامهم على الإيمان، لذا يلزم إظهارها للذين سمعوا دعوى النبوة، بما يوصلهم إلى القناعة والاطمئنان إلى صدق النبوة. أما إظهارها في جميع الأماكن، أو إظهارها إظهارا بديهياً بحيث يضطر الناس إلى القبول والرضوخ فهو منافٍ لحكمة الله

---

(٢٥) الكلمة الرابعة عشرة – ص: ١٩٦

الحكيم ذي الجلال، ومخالف أيضا لسر التكليف الإلهي. ذلك لأن سر التكليف الإلهي يقتضي فتح المجال أمام العقل دون سلب الاختيار منه."[٢٦]

ولقد اعتبر الأمانة التي تحملها الإنسان هي السر في جعله مسؤولا في هذا العالم يسخر طاقاته وإمكاناته ومخلوقاته كلها في مآربه الخاصة فالمسؤولية التي امتازت بها نفسه عن باقي الكائنات هي مفتاح الولوج لخيري الدنيا والآخرة إن هو أحسن القيام بحقها وقدرها حق قدرها، فهو يقول: "اعلم! أن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهراً إلاّ أنها منغلقة حقيقةً فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً يفتح كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلاّق الكون، والمفتاح هو ما فيك من "أنا". إلاّ أن "أنا" أيضا معمي مغلق"[٢٧].

ويذكر الإنسان بموقع الاستخلاف في الأرض الذي يشتمل على كل معاني التكليف والمسؤولية المميزة للجنس البشري فيشرح له مقتضياتها: "أيها الإنسان! إن ما تملكه من نفسٍ ومال ليس ملكاً لك، بل هو أمانةٌ لديك، فمالكُ تلك الأمانة قديرٌ على كل شيء، عليم بكل شيء، رحيمٌ كريم، يشتري منك ملكه الذي عندك ليحفَظَه لك، لئلا يضيع في يدك، وسيكافؤك به ثمناً عظيماً، فأنت لست إلا جندياً مكلفاً بوظيفة، فاعمل لأجله واسعَ باسمه، فهو الذي يرسل إليك رزقَك الذي تحتاجه، ويحفظك مما لا تقدر عليه"[٢٨].

وهكذا يتضح لنا أن الشيخ النورسي رحمه الله لم يفته أن يجلي المقصد العام للقرآن والإسلام عبر رسائل النور، وإنما يحتاج الأمرمن الدارس إلى استعراض مضامينها كلها للوقوف على ما فيها من تفاصيل، ذات بعد تكاملي خادم للوحدة الموضوعية، التي اقتضتها محورتها حول القرآن الكريم، وامتدادها تحت ظلاله وأنواره الهادية.

(٢٦) الكلمة الحادية والثلاثون – ص: ٧٠٣
(٢٧) الكلمة الثلاثون – ص: ٦٣٥
(٢٨) اللمعة السابعة عشرة – ص: ١٨٣

الإيمان أساس تزكية الإنسان ورقي المجتمع عند بديع الزمان سعيد النورسي

د. محمد بنتهيلة
كلية الآداب – آكادير

تكمن أهمية التنظير في القضايا المتعلقة بتوازن الكائن البشري وبرقي المجتمع الإنساني في ارتباطه بقضايا اعتقادية دقيقة وبدراسات فلسفية عميقة وفي صلته بميادين علمية وفكرية متعددة كعلم الكلام وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم التربية. وقد ازدادت أهميته في العصور الحديثة بعد الازدهار والتقدم التكنولوجي الحديث وتزامنه مع استفحال الأزمات النفسية والمشاكل الاجتماعية وتنامي الصراعات الفكرية والمذهبية.

ولذلك، اهتم النورسي اهتماما كبيرا ببيان المقاصد والحكم التي تتضمنها الأحكام والشرائع الإسلامية ليثبت صلاحيتها وموافقتها للكائن البشري. فنظر إليها نظرة عميقة شاملة، مبرزا بطريقة تحليلية دقيقة أثر الأحكام العقدية على توازن فكر وسلوك الإنسان، منبها أن أساس سعادته الدنيوية والأخروية ورقي المجتمع الذي يعيش بين أحضانه هو الإيمان اليقيني بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ولبيان ذلك، أوضح النورسي حقيقة الإيمان ودلالته وبين أثره في تزكية الإنسان ورقي المجتمع:

أولا: حقيقة الإيمان ودلالته الكونية عند النورسي

يعتقد النورسي أن الإيمان علاقة قدسية تربط الإنسان بخالقه سبحانه، فتمكنه من إدراك حقيقة الوجود إدراكا شاملا متكاملا ومن التحقق من الغاية الأساسية للحياة البشرية. فهو يقر بأن "الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبة إليه، فالإيمان إنما هو انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده"[١] فالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله يفرض عند النورسي تلمس تجليات كل اسم من أسمائه الحسنى في المخلوقات والمصنوعات التي أبدعها الخالق سبحانه وفي الكائن البشري على الخصوص إذ يكون إدراك عنصر الجمال فيه إدراكا لتجليات اسم الله الجميل وإدراك عنصر الحكمة فيه إدراكا لتجليات اسم الله الحكيم ويكون إدراك بصره وسمعه وعلمه وقدرته وكلامه إدراكا لتجليات أسمائه تعالى، البصير والسميع والعليم والقادر والمتكلم. وهكذا الشأن بالنسبة لكل الخصائص والمميزات والصفات البشرية.

ولذلك حرص النورسي في مواضع كثيرة من رسائل النور على بيان تجليات الأسماء الإلهية في صنع الإنسان فبين - مثلا- أن الحياة التي هي أساس وجود الإنسان "تجل أعظم لاسم الله الحي المحيي"[٢] بالإضافة إلى كونها "أعجوبة الخلقة الربانية، إذ تجمع تجليات اسم: الرحمان، الرازق، الرحيم، الكريم، الحكيم وأمثالها من الأسماء الحسنى وتجعل الحقائق الكثيرة والمشاهدة كالرزق والحكمة والعناية والرحمة تابعة لها، فتقودها مثلما هي منشأ جميع المشاعر ومعدن الحواس العامة

---

(١) الكلمات-النورسي ص٣٤٨
(٢) اللمعات- النورسي ص٥٥٧

كالبصر والسمع والشعور"[٣] فإذا تبين الإنسان من هاته الحقائق وتشربها قلبه وامتلأ بها وجدانه أقر بعظمة الذات الإلهية وبجلال اسمائها وبكمال الصفات القائمة بها وفهم الدلالة الصحيحة لقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١) لأن خلق وصنع وتكوين الإنسان يعد عند النورسي من أقوى الأدلة على وجود الله تعالى وتدبيره للعالم.

فقد أكد بقوله: "وهكذا الإنسان، فهو الصنعة الخارقة للخالق الصانع سبحانه، وهو أرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفها، حيث خلقه الباري مظهرا لجميع تجليات أسمائه الحسنى، وجعله مدارا لجميع نقوشه البديعة جلت عظمته، وصيره مثالا مصغرا ونموذجا للكائنات بأسرها".[٤]

فمن تدبر الأجهزة والحواس والجوارح والأجزاء المكونة للإنسان، ووقف على دقة تكوينها وعملها والتكامل القائم بينها، يقر بالضرورة - إن سلم عقله من الأهواء والنزوات - بأن الإنسان لم يكن مجرد صدفة قديمة كما يدعي ثلة من الملحدين، بل هو من صنع إله حكيم عليم لا نهاية لكمال وجلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا. فأفضلية الإنسان عن باقي المخلوقات لا تتجسد عند النورسي بتخصيصه بالعقل فقط، بل لكونه يدل دلالة صريحة على تجليات الأسماء الإلهية فيه، وبذلك يرقى "إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة حيث يصبح أهلا للخطاب الإلهي، وينال شرفا يؤهله للضيافة الربانية في الجنة"[٥] لأنه يتمكن من معرفة الدلالات الصحيحة والمعاني السليمة للتوجيهات الإلهية الواردة في وحيه تعالى المنزل على رسله الكرام صلوات الله عليهم أجمعين حين يتحقق من العلاقة القدسية التي تربط بين الذات الإلهي والمخلوقات، فيمتثل لذلك طلبا من القرب الإلهي والفوز بمقعد في الجنة صحبة الأنبياء والمرسلين.

---

(٣) اللمعات- النورسي ص٥٥٩

(٤) الكلمات - النورسي ص٣٤٩

(٥) الكلمات - النورسي ص٣٤٩

فبهذا التصور للإيمان يبين النورسي افتقار العالم للحق سبحانه، علما منه بأن "الإيمان نور يضيء الإنسان وينوره ويظهر بارزا جميع المكاتيب الصمدانية المكتوبة عليه ويستقرئها، كذلك فهو ينير الكائنات أيضا، وينقذ القرون الخالية والآتية من الظلمات الدامسة"[٦] فكونه سبحانه نور السماوات والأرض، أي منورها ومدبر شؤونها، كل شيء يسير فيها وفق إرادته وقدرته وعلمه ووفق نواميس ربانية دقيقة تحفظها من الخلل والفساد. وبهذا يبرز النورسي التلازم الحاصل بين الإيمان الصحيح وبين إدراك حقيقة الوجود والإنسان أكرم موجود في الكون، به تطمئن نفسه وتنجو من الضلال والتيه، وبه يتخلص من ظلمات الكفر الذي يحرم الكافر من نعمة الإحساس بالعلاقة النورانية التي تربط الحق سبحانه بالوجود والإنسان. ولذلك بين أثره القبيح بقوله: "أما الكفر فيقطع تلك النسبة وذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فتنقص قيمة الإنسان حيث تنحصر في مادته فحسب، وقيمة المادة لا يعتد بها فهي في حكم المعدوم، لكونها فانية، زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة"[٧]. فكل من ينكر تجليات الأسماء الإلهية في الموجودات ويرجع إيجادها إلى المادة ويعلل دقة صنعها بفعل الطبيعة أو الصدفة، فإنه يحتقر نفسه ويحتقر العالم الذي وجد فيه، فيحصر هدفه في الحياة في تلبية رغباته المادية ومطالبه الحيوانية الآيلة إلى الزوال والفناء. يلهث وراء الدنيا لهثا يطمس بصيرته ويفسد عقله، فلا يجد ضالته إلا في الارتماء في أحضان العدمية والعبثية والخبائث من الأفعال والأعمال.

وتجدر الإشارة، أن النورسي قد أسس ربطه بين الإيمان بالله تعالى وبين الاعتقاد بتجليات أسمائه الحسنى في المخلوقات والموجودات على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

---

(٦) الكلمات- النورسي ص٣٥٠

(٧) الكلمات- النورسي ص ٣٤٨

(التين:٤و٥) تحرزا منه في السقوط في القول بوحدة الوجود، علما منه بأن نظرية تجليات الأسماء الإلهية في الوجود قد أدت ببعض المتصوفة إلى عدم التفريق بين وجود الله تعالى ووجود الموجودات[٨] مثل ابن عربي صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم[٩]، فبديع الزمان يذهب في نظريته مذهب صوفية أهل العلم مثل ابن برجان الأندلسي.[١٠]

ثانيا: الإيمان أساس تزكية الإنسان عند النورسي

يمنح الإيمان بالله تعالى بالمفهوم الذي عرضه النورسي - وبما يقتضي ذلك من إيمان بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر - للإنسان خصائص ومقومات كثيرة تضمن له السعادة والتوازن والاطمئنان، وتكمن أهم تلك الخصائص والمقومات فيما يلي:

١- القوة المعنوية:

بين النورسي أن مراس الكائن البشري يتصلب بالإيمان القوي بالله تعالى "فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائنات ويتخلص من ضيق الحوادث، مستندا إلى قوة إيمانه فيبحر متفرجا على سفينة الحياة في

---

(٨) يقول النورسي: "فإدراك حقيقة جريان التجليات الإلهية في جداول الأكوان، وسريان الفيوضات الإلهية في ملكوتية الأشياء، ورؤية تجلي الأسماء والصفات في مرايا الوجود أقول: إن إدراك هذه الحقائق أمر ذوقي. إلا أن أصحاب مذهب وحدة الوجود لضيق الألفاظ عبروا عن هذه الحقيقة بالألوهية السارية والحياة السارية في الموجودات، وحينما حصر أهل الفكر والعقل هذه الحقائق الذوقية في مقاييس فكرية وعقلية جعلوها مصدر كثير من الأوهام والأفكار الباطلة " - المثنوي العربي ص٤٣٢-٤٣٣

(٩) انظر الفتوحات ج٢ص٥٦ و الفصوص ص ١١٠-١١١. هو محمد بن علي يكنى: أبا بكر ويلقب بمحيي الدين ويعرف بالحاتمي ولد سنة ٥٦٠ بمرسية وتوفي بدمشق سنة٦٣٨ (ترجمته في السير للذهبي ج٢٣ص٤٨ وطبقات الصوفية للمناوي ص٢١٠)

(١٠) هو عبد السلام بن برجان أبو الحكم من أهل إشبيلية توفي سنة ٥٣٦هجرية (ترجمته في "صلة الصلة لابن الزبير-ص٣٢-٣٣ والسير للذهبي -ج٢ص٧٣-٧٤) أقر بصحة نظرية تجليات الأسماء الإلهية في تفسيره (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم٢٤٢ ك) .

خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام قائلا: توكلت على الله ويسلم أعباءه الثقيلة أمانة إلى يد القدرة للقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا مطمئن البال في سهولة وراحة حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع أن يرتفع طائرا إلى الجنة للدخول إلى السعادة الأبدية".[١١]

فالحياة البشرية مليئة بالعراقيل التي يضعها أهل الشر في طريق أهل الخير، مليئة بالصعوبات التي تقتضيها مسؤوليات الإنسان في حياته ابتداء من مرحلة رشده: مسؤولية الالتزام بالدين الحنيف، مسؤولية التفقه في الدين، مسؤولية القوامة أو الحافظية في الحياة الزوجية، مسؤولية تربية الأولاد ورعايتهم، مسؤولية العمل لكسب الرزق، هذه المسؤوليات وغيرها تتطلب منه سندا معنويا كبيرا يجده بالضرورة في قوة إيمانه ويقينه بربه سبحانه، خصوصا أن النفس البشرية معرضة في كل بعض الأحيان إلى الملل والضجر والقنوط. علما من النورسي أن ذلك الإيمان يقتضي الإقرار بعقيدة القضاء والقدر التي ترسخ في نفس المؤمن أنه ميسر لما خلق له وأنه يكتسب الأعمال والأفعال المقدرة عليه، مما يجعله يرضى بذلك خاضعا طائعا وحريصا على عبادة ربه في الشدة والرخاء. فبذلك كله تطمئن نفسه في الحياة الدنيا ويرزق السكينة عند خروج روحه وموته ولقاء ربه، لأنه متشبث بعدل تعالى وإحسانه يرجو عفوه ومغفرته ورؤية وجهه الكريم في الجنة صحبة الأنبياء والشهداء والصالحين، إذ يرفض النورسي النظرة التجزيئية أو التبعيضية للتصورات العقيدية المتصفة بالشمول والتكامل، " فالإيمان إذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين"[١٢] ذلك أن إفراد الحق سبحانه بالألوهية والربوبية يقتضي الإقرار بأن كل شيء يسري في الوجود وفق تدبيره وإرادته وتقديره ويقتضي طاعته والخضوع لسلطانه ويقتضي كذلك الاستعانة بمدده وقوته.

---

(١١) الكلمات ص٣٥٢

(١٢) الكلمات -٣٥٣

٢- تحقيق معنى الإنسانية في الإنسان:

يعتقد النورسي "أن الإيمان يجعل الإنسان إنسانا حقا، بل يجعله سلطانا، لذا كانت وظيفته الأساس: "الإيمان بالله تعالى والدعاء إليه". بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانا مفترسا في غاية العجز.

إذن فلقد جيء بهذا الإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء، لأن كل شيء فيه موجه إلى العلم ومتعلق بالمعرفة حسب الماهية والاستعداد. فأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو "معرفة الله تعالى" كما أن أس هذا الأساس هو "الإيمان بالله جل وعلا".[١٣]

فبالإيمان يدرك الإنسان المعاني والدلالات الصحيحة لمفهوم الإنسانية ويتطلع إلى تحقيقها في نفسه بالارتباط بربه سبحانه ارتباطا دائما، سالكا من أجل ذلك مسلكين اثنين متلازمين:

مسلك التعلم ومعرفة خصائص الألوهية والربوبية وكل ما يتعلق بالنبوات والأخرويات والبحث في خصائص الوجود وظواهره للوقوف على النظم والقواعد التي تنظم حركة الكون، بالإضافة إلى الاعتناء بتنمية وترقية النظم الفكرية والحضارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للحياة البشرية ،إذ من أجل ذلك خص سبحانه الكائن البشري بالعقل ودعاه إلى استخدامه في الأعمال النافعة والأمور الرشيدة والأهداف النبيلة .

ومسلك الدعاء والإخبات إلى الحق جل وعلا،لأن المؤمن الصادق يحس بالافتقار إلى خالقه وبالاحتياج إلى مدده وعونه في كل أمر من أموره ، بينما يجحد الكافر نعمته تعالى عليه ويسعى إلى التجبر والطغيان ظنا منه أنه يمكنه الاستغناء عن خالقه٠

ومن تم، يتمكن المؤمن بفضل ذلك الارتباط، من التخلص من التصور الحيواني للحياة البشرية الذي يدفع الإنسان إلى الارتماء في أحضان النزوات

---

(١٣) الكلمات- ٣٥٤-٣٥٥

الشيطانية وإلى الإغراق في تسخير قواه العقلية والحسية والنفسية لتلبية الرغبات والغرائز الحيوانية الآيلة إلى الزوال والفناء. ولذلك خاطبه النورسي بقوله: "فيا أيها الإنسان! إذا آمنت بالله وحده وأصبحت عبدا له وحده، فزت بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، أما إذا استنكفت من العبودية وتجاهلتها فسوف تكون عبدا ذليلا أمام المخلوقات العاجزة، وإذا ما تباهيت بقدرتك وأنانيتك وتخليت عن الدعاء والتوكل، وتكبرت وزغت عن طريق الحق والصواب فستكون أضعف من النملة والنحلة من جهة الخير والإيجاد بل أضعف من الذبابة والعنكبوت. وستكون أثقل من الجبل وأضل من الطاعون من جهة النشر والتخريب".[١٤]

ذلك أن الإيمان بالله تعالى وعبادته ودعائه يخلص الإنسان من عبادة كل الأغيار التي تعبد من دون الله تعالى، كعبادة المادة والطبيعة والأصنام والجمادات بالامتثال إلى مقتضياتها الشيطانية وملذاتها الكفرية، علما بأن الكافر أو المشرك أو المنافق حين يخضع لأرباب الشهوات الشيطانية الحيوانية، يحس بالضنك والحيرة وبالدونية والاحتقار، تمتلكه نزواته وينبطح أمامها، لا يفرق بين الحلال والحرام ولا بين النافع والضار ولا بين الصالح والفاسد، امتلأ وجدانه هوانا وبؤسا وهوت عزيمته إلى الحضيض والذل.

فالإيمان عند النورسي، يكسب الإنسان عزة وكرامة ويدفعه إلى الاجتهاد والإبداع، يحاول أن يعلو بهمته المتقدة إلى أعلى درجات الرفعة والسمو متلمسا تجليات أسمائه الحسنى في المخلوقات والموجودات.

٣- عدم الخوف من لقاء اللّه:

تشتمل الطمأنينة التي يوفرها الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر جميع مراحل الحياة، فنجد المؤمن لا يخاف من انقضاء أجله وانتهاء حياته، بل يبقى متلهفا إلى لقاء ربه في جنات النعيم لأنه كما بين ذلك

(١٤) الكلمات ص ٣٦٠

النورسي بقوله: " فما دام أهل الإيمان والطاعة يرون القبر الماثل أمامهم بابا إلى رياض سعادة دائمة ونعيم مقيم، بما منحوا من القدر الإلهي من وثيقة تكسبهم كنوزا لا تفنى بشهادة الإيمان، فإن كلا منهم سيشعر لذة عميقة حقيقية راسخة، ونشوة روحية لدى انتظاره كل لحظة من يناديه قائلا: تعال خذ بطاقتك ، بحيث إن تلك النشوة الروحية لو تجسمت لأصبحت بمثابة جنة معنوية خاصة بذلك المؤمن، بمثل ما تتحول البذرة وتتجسم شجرة وارفة".[١٥] فالخوف من الموت - أو الوهن كما سماه رسول الله ﷺ- ينتاب الكافر الذي امتلأ قلبه بحب الدنيا ويحزنه فراق أبنائه وأزواجه وأمواله ومكتسباته فراقا أبديا، وأما المؤمن فهو بالرغم من تأكده من أن الموت سيحرمه من كل الملذات والنعم الدنيوية فإنه يتوق إلى رحمة الله تعالى وعدله الذي خص به أولياءه وأصفياءه المتقين، الذين سينعم عليهم بنعيم القبر وبرؤية مقعدهم في الجنة فيه، بحيث سيبدلهم سبحانه دارا أحسن من دارهم ومقاما أطيب من مقامهم وأحبة ألطف من أحبتهم جزاء لهم على إيمانهم وطاعتهم.

ومن تم ، يدعو النورسي الشباب إلى التفطن والبحث عن السعادة الدائمة الخالدة وعدم الافتتان بشهوات الدنيا ويحذرهم من الاغترار بصحتهم ومالهم ووقتهم

لعدم معرفتهم ساعة موتهم، إذ عليهم أن يكونوا على استعداد للقاء ربهم وللدخول إلى قبورهم في ثبات واطمئنان، خاصة أن الأدلة النقلية الصحيحة والبراهين العقلية الصريحة قد دلت دلالة قطعية لا يتخلّلها الريب على حقيقة وطبيعة مصير المؤمن وحقيقة وطبيعة مصير الكافر في الحياة البرزخية وفي يوم القيامة. ليخلص النورسي بناء على ذلك إلى التأكيد: "أن النجاة من الإعدام الأبدي والخلاص من السجن الانفرادي وتحويل الموت إلى سعادة أبدية ،إنما

---

(١٥) الكلمات ص١٥٨

تكون بالإيمان بالله ليس إلا".[١٦] فبالإيمان يسعد الإنسان في الدنيا وتستقيم أحواله وتطمئن نفسه، وبالإيمان كذلك يسعد في الآخرة وينعم بنعم لا نهاية لحسنها وبهائها. وأما الكافر، فإنه" يتخيل أصوات التسبيح والتحميد التي تملأ الأكوان والعوالم أنينا ونواحا يطلقه الزائلون الفانون في فراقهم الأبدي ويحسب صحائف هذه الموجودات التي هي رسائل صمدانية رائعة خليطا لا معنى له ولا مغزى ويخال باب القبر الذي يفتح الطريق إلى عالم الرحمة الفسيح نفقا يؤدي إلى ظلمات العدم ويتصور الأجل الذي هو دعوة الوصال واللقاء بالأحباب الحقيقيين أوان فراق الأحبة جميعهم" [١٧] فقد انطفا نور قلبه وتشرب حقدا وظلمة حتى أصبح يعمى عن معرفة حقيقة الأشياء والكلمات والوقائع، ينظر إلى كل ما يرتبط بالإيمان ومقتضياته نظرة كراهية وامتعاض، لأنه أعرض وتغافل عن الحقائق النورانية للوجود والحياة والإنسان وعن الأسرار الربانية التي أودعها سبحانه في المخلوقات والموجودات المتجلية عن الأسماء الإلهية الحسنى، فتصوره للعالم تصور عدمي إلحادي لا إقرار فيه بالتدبير الإلهي والمشيئة الربانية، مما يزيد في كراهيته للموت ولكل ما يذكره بأجوائه ومظاهره، يرى فيه انفصالا نهائيا عن المفاتن الدنيوية وفراقا أبديا لكل الذين ألفهم واستمتع بصحبتهم، فقد أعمى حب الدنيا بصيرته وظن أن مصير الإنسان ينتهي بالموت والإقبار دون أن يتفطن إلى أن المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر " يكسب لذة روحية عميقة تنبئ بلذة الجنة بما يشاهد من نجاة أحبته وخلاصهم جميعا من الموت النهائي والفناء والبلى والاندثار، ومن بقائهم خالدين في عالم النور الأبدي منتظرين قدومه إليهم"[١٨]، لأنه متحقق من أن طريق الإيمان يمكنه من الالتقاء بهم وبجميع أبنائه البارين وأصدقائه المخلصين إن كانوا برمتهم من أهل الطاعة والرشاد ومن الذين أنعم الله عليهم برحمته ورضوانه.

(١٦) الكلمات – ص١٥٧

(١٧) الكلمات – ٧٥٧

(١٨) الشعاعات – النورسي ص٢٧٨

وبذلك يكون الإيمان بالآخرة عند النورسي " كنزا عظيما كافيا وافيا لهذا الإنسان الوثيق الصلة بهذه الرغبات والآمال التي تنتهي، وهو لا يملك سوى جزء من الاختيار الجزئي، ويتقلب في الفقر المطلق، وكم يكون هذا الإيمان محورا للسعادة المطلوبة واللذة المبتغاة، وكم يكون مرجعا ومدار استمداد وسلوة له تجاه هموم الدنيا غير المحصورة؟ فلو ضحى هذا الإنسان بكل حياته الدنيا في سبيل الفوز بهذه الثمرات والفوائد لكانت إذن زهيدة".[١٩] فالمؤمن المتحقق من أن لا سعادة يمكن أن تضاهي السعادة التي ينعم بها الإنسان في الحياة الخالدة، تجده يرضى بما كتبه الله له وقدره عليه، سواء كان شرا أو خيرا وسواء أدرك مراد الله تعالى منه أو لم يدركه، وتجده كذلك يمتثل لأحكام الله تعالى وتشريعاته خاضعا طائعا بدون تدمر ولا سخط ولا تأفف، يقنع بما رزقه الله من الأموال والأولاد والمكاسب والمؤهلات قناعة ثابتة، سائرا بثبات وفق أوامر الله ونواهيه، يرجو الاستقامة التي يضمنها صراطه المستقيم. وكل ذلك يمكنه من الصمود في وجه كل الابتلاءات والمصائب التي قد تلحق به وفي وجه العراقيل والمتاعب التي تعترض منهجه، لأنه قد زهد في ما ينمحي ويزول وتمسك بما يبقى ويدوم.

وقد بين النورسي أن الاطمئنان الذي يضفيه الإيمان بالآخرة على الكائن البشري يشمل كل الفئات المكونة للمجتمع، لكنه ركز في بيان ذلك على الأطفال والشيوخ والمبتلين:

فالأطفال الذين يستحضر النورسي براءتهم وقلة تجربتهم وصعوبة فهمهم لبعض الحقائق والوقائع، فإنهم قد يتعرضون لمعاناة نفسية شديدة حين يشهدون موت أحد أفراد عائلاتهم أو أصدقائهم، مما يؤدي إلى فساد أمزجتهم وسقوطهم في اليأس والحيرة والخوف المضطرد، خاصة حين يفقدون من يعيلهم ويعطف عليهم ويملأ حياتهم عطفا وحنانا. لكن تحصنهم بالإيمان القوي بالله تعالى

---

(١٩) الشعاعات ص٢٧٨

وباليوم الآخر هو وحده الكفيل بالتخفيف من حزنهم وتعزيتهم في مصيبتهم حتى يتمكن كل واحد منهم من التعبير عن اللطف الحاصل بهم بقوله: "إن صديقي - أو أخي- الذي توفي قد أصبح الآن طيرا من طيور الجنة، فهو أكثر منا أنسا وانطلاقا وتجوالا.وإن والدتي –وإن توفيت- إلا أنها مضت إلى الرحمة الإلهية الواسعة، وستضمني أيضا إلى صدرها الحنون في الجنة، فأرى تلك الوالدة الشفيقة"[٢٠] فالطفل المميز يدرك أن الأطفال مثله ، حين يقبض الله تعالى روحهم، لن يكون مصيرهم الضياع والحرمان والشقاء ولن يتعرضوا للحساب والعقاب، بل يكرمهم الله تعالى بالإنعام عليهم بالجنة ويجعلهم خداما من خدامها، فما عليه إلا السير في طريق الإيمان والطاعة لنيل رحمة الله وعفوه والالتقاء بهم في روضات النعيم الخالد. وكذلك الشأن بالنسبة لأمه المنتقلة إلى دار البقاء، فإنه لن يحرم من حنانها وعطفها وإشفاقها حرمانا أزليا، بل سيلتقي بها في الجنة إن شملها الله تعالى بعفوه وسيسعد بقربها أبد الآبدين.

وأما **الشيوخ** الذين بلغوا من العمر عتيا وأصبح الضعف ينتاب أجسادهم وينذرهم بقرب مفارقتهم للحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها وانتقالهم إلى قبر ضيق مظلم كئيب وبدنو حرمانهم من دفئ محبة الأولاد والأحفاد والأزواج والأقارب والأصدقاء وأبناء العشيرة وبقرب مواجهتهم لمآلهم المليء بالوجائس والاستفهامات

والتساؤلات، فلابد أن يسيطر عليهم الفزع الذي يفسد حلاوة عيشهم ونعمة راحتهم، بحيث لن ينقدهم من كل ذلك إلا نداء الإيمان حين يخاطبهم "لا تغتموا أيها الشيوخ ولا تبالوا كثيرا، فإن لكم شبابا خالدا وهو أمامكم وسيأتي حتما. وإن حياة ساطعة بهيجة، وعمرا مديدا أبديا في انتظاركم، وستلتقون أولادكم واقاربكم الذين فقدتموهم وجميع حسناتكم محفوظة وستأخذون

---

(٢٠) الشعاعات – ص٢٨٠

ثوابها"[٢١] وذلك لأنه سبحانه يبعث المؤمنين المتقين شبابا يافعين في الآخرة ويجازيهم احسن الجزاء وينعم عليهم بما لا يحصى من النعم والمكرمات صحبة أبنائهم وأزواجهم وأخلائهم إن كانوا جميعا من الناجين من عذاب الله وانتقامه، بحيث يبدلهم سبحانه عن حياتهم التي اقتربت نهايتها حياة ناعمة خالدة، مما يجعلهم مطمئنين في زمن شيخوختهم.

وكما هو الشأن بالنسبة للأطفال والشيوخ، فإن **المبتلين** الذين يعانون من المرض أو الفقر أو الظلم أو السجن أو العقوبة أو غير ذلك من البلايا والمصائب والمكاره، فإنهم يشمئزون من الحياة ويكرهون العيش فيها، خصوصا حين يكون مرضهم مزمنا مؤلما أو يكون الظلم اللاحق بهم شديدا قاسيا أو يكون فقرهم مدقعا معدما أو يكون سجنهم مقفرا كئيبا أو تكون عقوباتهم وآلامهم ومصائبهم مريرة عميقة، لأن كل ذلك قد يسقطهم في الإحساس بالضياع والاحتقار والقنوط، " ولكن ما أن يمدهم الإيمان بالآخرة بالعزاء والسلوان إلا وينشرحون فورا، ويتنفسون الصعداء، لما يزيل عنهم من الضيق واليأس والقلق والاضطراب وسورة الثأر إزالة كلية أو جزئية، كل حسب درجات إيمانه"[٢٢] فهم إن رضوا بقضاء الله تعالى وقدره وتابوا إليه توبة نصوحا وظلوا صابرين محتسبين، غير ساخطين ولا متذمرين، فإن ذلك يزيد في إيمانهم ويقوي عزيمتهم حتى يخرجوا من الدنيا فائزين منتصرين ومطهرين من الذنوب والخطايا، لأنهم متيقنون بأن العذاب الحقيقي هو الذي سيلحق الكفار والظلمة والمنافقين في نار جهنم أبد الآبدين.

وقد ترسخت هذه الحقائق في نفس وفكر النورسي بفضل تجاربه المفيدة ،لأنه لحقه الأذى وتعرض إلى السجن وألصقت به تهم خطيرة وأتلفت كتبه مرات عديدة ظلما وعدوانا، فقد صرح بقوله: "لولا الإيمان بالآخرة الذي أمدني

---

(٢١) الشعاعات – ص٢٨٠

(٢٢) الشعاعات – ص٢٨١

وإخواني في مصيبتنا الرهيبة ودخولنا السجن هذا – دون ذنب اقترفناه – لكان تحمل مرارة يوم واحد من أيام العذاب كالموت نفسه، ولساقتنا هذه المصيبة إلى ترك الحياة ونبذها. ولكن شكرا لله – بلا عد وحد – أن جعلني أتحمل آلام كثير من إخواني الذين هم أحب إلي من نفسي وأتحمل ضياع آلاف من رسائل النور التي هي أعز من عيوني، وأتحمل فقدان كثير من مجلداتي الزاهية الثمينة جدا"[٢٣] فقد زادته المصائب التي لحقته في الزنازن والسجون صحبة بعض طلاب رسائل النور ثباتا وصمودا وتحولت في كثير من الأحيان إلى عناية ربانية وعطف إلهي. إذ أضحت أغلب فترات اعتقاله خلوة إيمانية زاهية وسكينة تعبدية خاشعة ودعوة إصلاحية صادقة، فزادته تألقا ورفعة وسموا. فأقبل الناس على رسائله – بما فيهم السجناء – وتأكدوا من صحة منهجه وصدق معتقداته ونبل أهدافه وبراءته من الافتراءات والشبهات التي كان يروجها أعداؤه عنه.[٢٤]

ثالثا: الإيمان أساس رقي المجتمع عند النورسي.

يكون الإيمان القوي بالله تعالى عند النورسي أساس رقي المجتمع الإنساني بكل مكوناته وعناصره حين تسود فيه آثاره الطيبة وثمراته الزكية، فيصبح سندا كبيرا لاستقرار وتوازن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فيه، ذلك أن الإنسان يصير "بيمن الإيمان وبركته لائقا للأمانة الكبرى وخليفة أمينا على الأرض".[٢٥]

يستحضر أنه مثل باقي الموجودات تجليا من تجليات الأسماء الإلهية الحسنى، فيبادر إلى التعامل معها وفق شرع الله تعالى وأحكامه، مبتعدا عن كل إيذاء وظلم وتخريب وعن كل ما يفسد الحياة الاجتماعية. ذلك "أن المؤمن بسر الإيمان والتوحيد يرى أخوة بين الكائنات، وأنسية وتحببا بين أجزائها، لاسيما الآدميين ولاسيما بين المؤمنين. ويرى أخوة في الأصل والمبدأ والماضي،

---

(٢٣) الشعاعات ص٢٨٢
(٢٤) انظر "سيرة ذاتية" ص٣٢٩ وما بعدها و"الملاحق" ص٢٣٩ وما بعدها
(٢٥) الكلمات ص٣٧٣

وتلاقيا في المنتهى، والنتيجة في المستقبل"[٢٦] فالله سبحانه هو المبدع لجميع الكائنات والموجودات وهو المدير لجميع شؤونها وفق نظام شامل متكامل يحقق التناسق والتكامل بين أجزائها ومكوناتها. فكل منها يؤدي وظيفته الموكولة إليه في الوجود بما في ذلك الإنسان الذي يجب أن يفرح بوجودها ويسعى إلى بقائها واستمرارها ويسهم في الحفاظ عليها وتنميتها.

وبناء على هاته القواعد والأسس، وجب على المؤمن أن يمد يده بعطف وحنان إلى أخيه الإنسان الذي يشترك معه في خاصية الإنسانية وأخيه المؤمن الذي يشترك معه في خاصية الإيمان، فيسعى إلى نشر كل ما فيه الخير والمودة بين الناس ويعمل على توطيد علاقاته الأسرية والوطنية والكونية بالابتعاد عن الاعتداء على حقوق البشر وأعراضهم وأموالهم ومكتسباتهم وحرياتهم الشخصية وخصوصياتهم العقدية ومذاهبهم الفكرية.

وبهذا تبرز قيمة وأهمية **الأخوة** التي تربط بين المؤمنين وتجعلهم متماسكين، إذ: "إن سر تساند المؤمنين في عباداتهم، ودعواتهم في جماعاتهم سر عظيم، وأمر جسيم، له شأن فخيم، إذ يصير به كل فرد كالحجر المجصوص في البناء المرصوص. يستفيد من إخوانه في الإيمان، بألوف ألف ألف ما يستفيد من عمل نفسه. (فإذا نظمهم سلك الإيمان) يصير كل لكل، وللكل شفيعا وداعيا ومسترحما وراجيا ومادحا ومزكيا"[٢٧] إنهم يدركون أن الله تعالى خلقهم وأنشأهم من أجل أن يعرفوه ويتحققوا من وجوده ومن تجليات أسمائه في الموجودات والكائنات، ومن أجل أن يعبدوه عبادة خالصة ويسبحوه ويقدسوه، وكذلك من أجل أن يستقيموا وفق تشريعاته وأوامره ونواهيه. وإنهم يعلمون أن الغاية من إيجادهم لا تكمن أساسا في جمع حطام الدنيا، الفانية الزائلة والإغراق في ملذاتها المغرية، بل العمل على نيل رضاه والنجاة في دار الخلود يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

---

(٢٦) المثنوي العربي ص١٨١

(٢٧) المثنوي العربي ص٤٠٦-٤٠٧

وحينما تتوحد منطلقاتهم وأهدافهم تتوطد علاقتهم الأخوية والاجتماعية علما منهم بأن طريق الإيمان يحتاج إلى التعاون والتضامن وإلى توفير محيط اجتماعي متماسك يمكن المؤمنين من بلوغ أهدافهم ومراميهم بثبات واطمئنان.

وعلى العكس من ذلك، يغرق الكافر في أنانيته ويتخذ موقفا سلبيا من الأخوة. وهو ما أشار إليه النورسي بقوله: "وأما الكافر فبحكم الكفر له أجنبية ومفارقة بل نوع عداوة مع كل شيء لا نفع له فيه، حتى مع أخيه، إذ لا يرى الأخوة إلا نقطة اتصال بين افتراق أزلي ممتد، وفراق أبدي سرمد، إلا أنه بنوع حمية ملية أو غيرة جنسية تشتد تلك الأخوة في زمان قليل، مع أن الكافر لا يحب في محبة أخيه، إلا نفس نفسه"(٢٨) إذ إن المعيار الذي يحتكم إليه في علاقته مع الناس هو المعيار المادي المصلحي، فإخوته الحقيقيون هم الذين ينتفع بأموالهم أو مكاسبهم أو توجيهاتهم المفيدة في القضايا المعيشية المادية، هم الذين يمكنونه من إشباع غرائزه وتلبية رغباته، بينما يصنف من ينافسه في حرفته أو تجارته أو مجال عمله أو من يحرمه من إرواء شهواته الشيطانية في أعدائه الذين ينبغي تنحيتهم والقضاء عليهم. وقد تدفعه هاته النظرة الأنانية للناس إلى التنكر لواجبات وحقوق إخوته من النسب إذا لم ير في الارتباط بهم نفعا ماديا، بحيث يتمسك بالعلاقة الفانية الزائلة ويهمل العلاقة الأبدية الخالدة، يتمسك بما هو مادي حقير ويترك ما هو معنوي شريف، فيصل به الأمر إلى التنكر كذلك لارتباطاته العرقية واللغوية والوطنية التي لا تصمد كثيرا في مواجهة حبه الكبير لنفسه ومصالحه.

وإذا كانت **الأسرة** من أهم مؤسسات المجتمع الإنساني التي تظهر تماسك أو تشتت العلاقات الاجتماعية، فقد بين النورسي أهمية الإيمان في استقرارها وتوازنها بقوله: "فإن بيت كل إنسان هو دنياه الصغيرة، بل جنته المصغرة، فإن لم يكن الإيمان بالآخرة حاكما ومهيمنا في سعادة هذا البيت لوجد كل فرد من

---

(٢٨) المثنوي العربي ص١٨١

أفراد تلك العائلة اضطرابا أليما، وعذابا شديدا في علاقة بعضهم ببعض حسب درجات رأفته ومحبته لهم فتتحول تلك الجنة إلى جحيم لا يطاق"[٢٩] فالإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر هو الذي يوثق العلاقة الأسرية، لأن الأب المؤمن الذي يخاف من بطشه سبحانه في الدنيا والآخرة، يجتهد في رعاية أبنائه وتربيتهم تربية حسنة ، راجيا بذلك التقرب إلى الله سبحانه ونيل رضاه. ولأن الأم المؤمنة تساعد زوجها في ذلك وتبذل كل ما في وسعها لجلب الخير لأسرتها، راجية رحمة الله ونعيمه الأزلي في الجنة. وأما الأبناء فإن قلوبهم المليئة بالإيمان تسعد بحب آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم الذين لم يتركوهم عرضة للتخلق بأخلاق الكفار والمنافقين. فكل أفراد الأسرة المؤمنة يعملون بإخلاص لجعل العلاقة التي تربط بينهم علاقة دائمة في الحياة الدنيا والآخرة، إذ "يقوم هذا الإنسان باحترام والده وتوقيره بمقتضى الأبوة الممتدة إلى الأبد، ويحب زوجته ويرفق بها ويعاونها لأنها أجمل رفيقة حياة له حتى في الجنة، ولا يجعل هذه الدائرة الحياتية الواسعة الفسيحة – وما فيها من علاقات وخدمات مهمة – وسيلة لأمور تافهة دنيوية ولا لأغراضها الجزئية ومنافعها الزهيدة. لذا يظفر بالصداقة التامة، والوفاء الخالص، والإخلاص الأتم"[٣٠].فما أسعد المؤمن في دنياه وآخرته بهذه المنحة الربانية، إذ يكفيه الالتزام ببعض الواجبات والأحكام التي تنظم علاقة الآباء بأبنائهم وعلاقة الإخوة فيما بينهم وعلاقة الرجال بأزواجهم والامتثال إليها بإخلاص وإحسان لينال التنعم في الجنة صحبة آبائه وإخوانه وأزواجه نعيما لا نهاية لحسنه وجماله. فما عليه إلا تحديد هدفه النبيل الدائم والسعي إلى خدمة أبيه وطاعته والعناية به وتلبية حاجياته، خصوصا إذا بلغ من العمر عتيا وكان في حاجة ماسة إلى المساعدة المعنوية والمادية. وعليه كذلك المبادرة إلى توطيد ارتباطه بإخوته وذلك بزيارتهم وتفقد أحوالهم

---

(٢٩) الشعاعات ص٢٨٢

(٣٠) الشعاعات ص٢٧٩

ونصحهم ودعمهم في السراء والضراء. ثم عليه أن يتفانى في إسعاد زوجته وإكرامها والوفاء بحقوقها. وبهذا كله، تتوطد العلاقة الأسرية وتبنى على قواعد متينة ثابتة ويسود الود والتعاون بين مكونات العائلة جميعها، مما يؤثر بالضرورة في نمو ورقي المجتمع، فيطيب للإنسان العيش بين أحضانه.

واعتبارا لكون **الشباب** هم العمود الفقري للمجتمع، فقد أوضح النورسي أن المؤمنين منهم يتورعون عن الاعتداء على أعراض الناس ومكتسباتهم ذلك أنهم "قد لا يصغون لصوت عقولهم الجريئة، فرغباتهم وهواهم في ثورة وجيشان، وهم مغلوبون على أمر حواسهم ونوازعهم، فإذا ما فقد هؤلاء الشباب الإيمان بالآخرة ولم يتذكروا عذاب جهنم، فإن أموال الناس وأعراضهم وراحة الضعفاء وكرامة الشيوخ تصبح مهددة بالخطر"[٣١] ذلك أن الإنسان حين يكون في أوج قوته وحيويته،يكون أكثر قابلية للتعرض لإغواء إبليس ومكائده، يدعوه إلى توظيف قوته في إشباع شهواته المتقدة وفي التسلط على الرقاب الضعيفة وفي الاستحواذ على الأموال الكثيرة والأشياء الثمينة بدون قيد أو شرط، غير مبال للأخلاق الكريمة والأعراف النبيلة والحرمات الذاتية. وحين يستجيب الشباب لتلك الإغواءات، يصبح المجتمع حلبة للصراع بين الظلمة والخلطاء ، ولن يحول دون حلول هذا الفساد إلا تشبعهم بالإيمان القوي بالله تعالى والخوف من عذابه يوم القيامة، وذلك لصعوبة وقوف الأعراف في وجه شهوتهم الجامحة. علما بأن طريق الإيمان سيوجههم إلى العفة والطهارة وتحري الحلال من الطيبات.

وبناء على ذلك، يسهم الإيمان كذلك في إنشاء "**المدينة الفاضلة**" و"**البلاد المطمئنة**":

فبالنسبة للأولى، أشار النورسي إلى أن "كل مدينة هي بحد ذاتها بيت واسع لسكنتها. فإذا لم يكن الإيمان بالآخرة مسيطرا على أفراد هذه العائلة الكبيرة

---

(٣١) الشعاعات ص٢٨١

فسيستولي عليهم الحقد والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع، بدلا من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبة والتضحية ورضى الله والثواب الأخروي. وكانت معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمة ومسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية التي يظهرونها، وحينئذ تتسمم حياة تلك المدينة، فيتصف الأطفال بالوقاحة والإهمال، والشباب بالسكر والعربدة، والأقوياء بالظلم والتجاوز، والشيوخ بالبكاء والأنين"[٣٢] إذ بالرغم من وجود قوانين وأنظمة سياسية واقتصادية وقانونية وتوفر قواعد وأعراف اجتماعية تنظم شؤون المدينة، فإنه بإمكان أصحاب القلوب السوداء والأيادي الوسخة التحايل عليها وشراء الذمم واستعمال الوسائل الشيطانية والأساليب القبيحة لقضاء أغراضهم الشخصية ولو كان ذلك على حساب الآخرين، علما بأن النفس الخالية من الإيمان القوي بالله تعالى وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر تصاب حتما بالأنانية وتنعدم فيها القناعة ويسيطر عليها الحسد والضغينة. ومن ثم إذا سيطر على المدينة مثل هؤلاء ، تصبح قائمة على قانون الغاب، يتغلب فيها القوي والغني والماكر على الضعيف والفقير والبسيط وتتحكم في مؤسساتها ومجالاتها الحيوية معالم الانحراف والشطط، فتنمو فيها أفكار الإلحاد والعدمية والإباحية التي تمهد لظهور ردود الفعل المتطرفة الشاذة. لكن حين تسود فيها روح الإيمان والارتباط بالله تعالى، يغلب الحق وتنتشر الفضيلة والطمأنينة والتعايش.

وأما بالنسبة للثانية، فيقرر النورسي أن "البلاد بأكملها ما هي إلا بيت واسع جدا والوطن بيت عائلة الأمة. فإذا حكم الإيمان بالآخرة هذه البيوت وسيطر، فإن الفضائل تكشف وتنبسط وتتوضح فيها فتظهر الاحترام المتبادل والرحمة الجادة، والمحبة الخالصة بلا عوض، والمعاونة مع الخدمة الحقة بلا احتيال والمعاشرة والإحسان بلا رياء والفضيلة والتوقير بلا استكبار وتشيع الفضائل

(٣٢) الشعاعات ص٢٨٣

الأخرى جميعا"[٣٣] في حين يغمر قلوب سكان البلاد الإيمان ويقتنعوا بكل مقتضياته التصورية ودلالته الشاملة اقتناعا راسخا ويمتثلوا لآثاره العملية امتثالا إراديا، فإنه لابد أن تضمن فيه حقوق الفقراء والمستضعفين، فلا ينظر إليهم نظرة احتقار ودونية، ولابد أن يسود مؤسساته وميادينه العدل والمساواة فتتخلص من الزبونية والمحسوبية والمحاباة وتصبح معالمها الحضارية ومرافقها الاجتماعية ومعاهدها العلمية مرتعا لبروز الفكر الإيماني المتنور والإبداع العلمي الراقي والتصورات الوسطية المتوازنة والرؤى الحضارية المنتفحة المتسامحة.

يخلص النورسي بعد هذا كله إلى بيان "أن الفرق بين **مدينة الكافرين ومدينة المؤمنين** ، أن الأولى: وحشة مستحالة، ظاهرها مزين، باطنها مشوه، صورتها مأنوسة، سيرتها موحشة. ومدينة المؤمنين باطنها أعلى من ظاهرها، معناها أتم من صورتها، في جوفها أنسية وتحبب وتعاون".[٣٤] علما منه بأن المدينة المؤسسة على المادة والمصلحة تحمل في مظاهرها البراقة وزخارفها المضيئة وملاهيها المنتشرة سما قالا للتعايش والإخاء والتعاون، تستعمل فيها المساحيق الخادعة للتلبيس على الناس والإيقاع بهم في براثين الفساد والفجور والفسوق. بينما تتميز المدينة المبنية على الإيمان بالسكينة والوقار، يسعى كل من تذوق حلاوة العيش فيها إلى الاجتهاد لاكتشاف ثمراتها الطيبة وأزهارها النافعة، فلا يأنس إلا بدفء العلاقات النورانية المضيئة لمعالم حضارتها.

نتائج البحث

- تمكن النورسي من إبراز تصور إنساني واجتماعي وحضاري للإيمان
- ارتباطه بالتصور القرآني للوجود والإنسان والحياة
- تأثر النورسي بالفكر السني حين لم يسقطه إقراره بصحة نظرية تجليات الأسماء الإلهية في تبني نظرية وحدة الوجود

(٣٣) الشعاعات ص٢٨٣

(٣٤) المثنوي العربي ص١٨١

• بروز قدرة النورسي على معرفة كثير من خصائص النفس البشرية والحقائق الاجتماعية

التوصيات

- الاهتمام بمقاصد العقائد عند النورسي
- الاهتمام بالفكر الاجتماعي عند النورسي
- الاهتمام بالفكر الأصولي والفقهي عند النورسي

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- تفسير ابن برجان عبد السلام أبو الحكم ، مخطوطة الخزانة العامة ، الرباط، رقم ٢٤٢ك
- سيرة ذاتية . بديع الزمان النورسي . إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي الطبعة الأولى ١٩٩٨م دار سوزلر للطباعة والنشر ، إستانبول
- سير أعلام النبلاء. محمد شمس الدين الذهبي تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقوسي ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م ، مؤسسة الرسالة، بيروت
- الشعاعات ، بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى ١٩٩٣م ، مطبعة النسل، إستانبول
- صلة الصلة . أحمد بن الزبير تصحيح لفي بروفنصال ، طبعة ١٩٣٧م ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط
- الفتوحات المكية. محيي الدين بن عربي الحاتمي ، بدون تاريخ دار الفكر، بيروت
- فصوص الحكم. محيي الدين بن عربي الحاتمي ، تحقيق وتعليق أبو العلا عفيفي الطبعة الثانية١٩٨٠م دار الكتاب العربي ، بيروت
- الكلمات. بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثالثة ١٩٩٨م دار سوزلر للطباعة والنشر ، إستانبول
- اللمعات. بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى١٩٩٣م شركة النسل للطباعة ، إستانبول
- المثنوي العربي النوري. بديع الزمان النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي الطبعة الرابعة ١٩٩٩م شركة سوزلر للطباعة والنشر ، إستانبول
- الملاحق في فقه دعوة النور . بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الطبعة الأولى ١٩٩٥م شركة النسل للطباعة، إستانبول

مفتاح المقاصد في كتاب الكلمات
لبديع الزمان النورسي

ذ. الطيب البوهالي
اطار تربوي – انزكان

تمهيد:

شرع بديع الزمان سعيد النورسي (ت: ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) في "تجديد"[١] نفسه في مرحلة فارقة من تاريخ البشرية الحديث، فقد ولى وجهه شطر القرآن، في زمن تداعت فيه طائفة من الناس على أهل القرآن، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا لما وجدوا في الرجوع إلى أصل الأصول أمرا منكورا، وبدعا من القول وزورا.

ولقد عف سعيد الجديد وعن كل الملذات[٢] وسما في سماء نورها رباني، أغناه منهل معارفه العذب، فنحت مصطلحاته التي دل بها على مفاهيمه وتأملاته

---

(١) أطلق النورسي على نفسه "سعيدا الجديد"بعد شروعه في تأليف رسائل النور واستلهام فيض القرآن، - أي بعد سنة ١٩٢٦م.

(٢) قال بديع الزمان: "وليت وجهي كليا عن الدنيا، وقبرت "سعيدا القديم "- حسب اصطلاحي – وأصبحت سعيدا جديدا يعيش كليا للآخرة، فانسللت من حياة المجتمع ونفضت يدي عن كل ما يخصهم فاعتزلت الناس تماما".
- الشعاعات: بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط١، استانبول، النسل للطباعة، ١٤١٤ه/١٩٩٣م، ص:٥٤٢.
انظر أيضا: المكتوبات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط١،استانبول، النسل للطباعة،١٤١٣ه/١٩٩٢م، ص:٩٤.

التي أودعها رسائل النور من القرآن دون سواه، وجاءت ثروته المصطلحية قرآنية محضة، بالرغم من شبهها بالمصطلح الصوفي[٣].

ترك بديع الزمان أكثر من مائة وثلاثين رسالة أطلق عليها: *رسائل النور*، ليقينه من انبعاثها من نور القرآن الكريم، وبأنها "إلهام إلهي" أفاضه الله على قلبه[٤]، وقد جمعت هذه الرسائل في كليات رسائل النور التي ضمت "الكلمات"، و"المكتوبات"، و"الشعاعات"، و"اللمعات"، وكل منها مستقل بذاته ولا تلزم قارئ إحداها بالبحث عن غيرها لاستيعاب مقروئه[٥]، لكن عمدة هذه الرسائل قاطبة هو "الكلمات" [٦].

يضم كتاب الكلمات ثلاثا وثلاثين كلمة في الإيمان والعبادة والصلاة والحشر وأسرار خلق الكون والإنسان وتأديب النفس الأمارة بالسوء، وإعجاز القرآن، والاجتهاد والمعراج النبوي ودلالات أسماء الله الحسنى غير أن في الكتاب مقامين عزم النورسي على كتابتهما لكنه لم يفعل[٧] "لحكمة ما أو لظرف سياسي ما".[٨]

---

(٣) مفاتح النور، نحو معجم شامل للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي: الدكتور فريد الأنصاري مركز النور للدراسات والبحوث، استانبول، تركيا،٢٠٠٤، ص :١٩-٢٣.

(٤) الشعاعات، م.س،٥٤٢.

(٥) هذا هو رأي الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، خادم رسائل النور، لكن الدكتور فريدا الأنصاري يؤكد أنك لن تجد بالضرورة الموضوع الواحد "قد قال فيه النورسي كل ما أراد في الموطن الواحد. بل ربما لن تظفر بالتصور الكلي للمعنى الواحد إلا بتركيب النصوص من عدة رسائل " مفاتح النور، م. س،٢٥

(٦) خاتمة كتاب الكلمات، بقلم إحسان قاسم الصالحي، في: "الكلمات": بديع الزمان النورسي، ط٣، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص:٨٩٩.

(٧) انظر الكلمات، م.س، ص:١١٥،وص:٢٤٨

(٨) مفاتح النور، م.س،٢٤

ولما كانت أبواب النصوص العلمية هي مصطلحاتها[٩]، فلا جرم أن الدراسة المصطلحية لمصطلحات كليات رسائل النور هي المانع من فهم نصوصها "معزولة عن سياقها الكلي، والضامن لإدراجها في موقعها الطبيعي"[١٠].

وستدار الدراسة في عمدة الرسائل[١١] على مصطلح "المقاصد" حيث دار وكيف دار[١٢]، إحصاء، وتعريفا،و إيرادا للصفات، والعلاقات، والضمائم، والمشتقات[١٣].

١- الإحصاء.

ورد القصد بجميع مشتقاته في كتاب الكلمات مائة وسبعين مرة، منها تسعة وأربعون للفظ المقاصد وحده، كما يظهر من الجدول الآتي[١٤]:

الكلمة	عدد مرات وردها	النسبة المئوية
القصد	12	7.06
المقاصد	22	12.94
المقصد	24	14.12
المقصود	16	9.41
المقصودة	7	4.12
أقصد	2	1.18
قصد	18	10.59

(٩) مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، قضايا ونماذج :الشاهد البوشيخي، ط١(نشريات القلم،١٤١٣هـ/١٩٩٣م)،ص:٢٣.

(١٠) مفاتح النور، م.س،ص :٢٥

(١١) يتعذر في هذا المقام استقراء كافة الرسائل.

(١٢) انظر: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين،م.س، ص:١٣.

(١٣) هذه – إضافة إلى القضايا-هي أركان العرض في الدرس المصطلحي الوصفي، ويتعذر الحديث في هذا المقام في القضايا لتشعبها وتعددها .انظر:نظرات في المصطلح والمنهج :الشاهد البوشيخي، ط١(فاس، مطبعة أنفو،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)،ص ص:١٥-٣٠.

(١٤) انظر موارد جذر "قصد" في كتاب الكلمات في الملحق.

مقاصد	25	14.71
مقصد – مقصدا -مقصدين	14	8.24
مقصود-مقصودا	19	11.18
مقصودة	8	4.71
يقصد	3	1.76
مجموع	**170**	**100.00**

جدول رقم ٢: إحصاء القصد ومشتقاته في كتاب "الكلمات "

٢- التعريف.

يفيد أصل القصد إتيان شئ وأمه، والاكتناز في الشئ، فقصده وله وإليه يقصد قصدا أمه وطلبه، وقصد إليه اعتمده، وقصد قصد فلان نحا نحوه والقصد أيضًا نقيض الإفراط، وطريقٌ قَصْدٌ أي مستقيم، وفي سورة النحل ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق أو إقامة السبيل وتعديله(١٥).

ويدل القصد في كتاب الكلمات على الإرادة(١٦) والحكمة(١٧) والطلب(١٨) والمعنى(١٩).

٣- الصفات.

القصد في "الكلمات" عظيم، نبيل، جليل .

فقصد النبي ﷺ وهو يدعو في صلواته طالبا السعادة لإنقاذ الإنسان والمخلوقات من التردي والضياع والعبث قصد عظيم (٢٠).

(١٥) انظر: معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م -قصد-؛ لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت لبنان، د.ط،د.ت.-قصد-

(١٦) الكلمات، ٣٢

(١٧) الكلمات، ٤٨٤

(١٨) الكلمات، ٢٣٨

(١٩) الكلمات، ٧٣٦

(٢٠) الكلمات، ٧٤

هو وقصد أولياء الله الصالحين من أمثال محي الدين بن عربي في تحضير الأرواح التي تتمثل للبشر قصد نبيل[٢١].

وقصد القرآن الكريم في عرض الآثار الإلهية التي تدل على علم الله[٢٢] "مقدمة لنتيجة مهمة وقصد جليل"[٢٣].

٤- العلاقات: الترادف.

الألفاظ المترادفة هي "الألفاظ المفردة الدالة على مسمى واحد باعتبار واحد"[٢٤] "أخذا من الترادف الذي هو ركوب أحد خلف الآخر، وكأن المعنى مركوب واللفظين راكبان عليه"[٢٥]. ومن الناس من أنكر وقوعه مطلقا، ومنهم من منعه في الأسماء الشرعية خاصة [٢٦]. ويرى ابن تيمية أن ما يقال من الترادف ليس إلا تضمينا أو تقريبا[٢٧].

---

(٢١) الكلمات، ٢٨٥

(٢٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا، وخلقناكم أزواجا﴾ (النبأ:٦).

(٢٣) الكلمات، ٤٨٤

(٢٤) "المحصول في علم أصول الفقه": فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دراسة وتحقيق: طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م،١/٢٥٣.
انظر أيضا: "المزهر في علوم اللغة وأنواعها": عبد الرحمن السيوطي، شرح وضبط: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الفكر، د.ط، د.ت ١/٤٠٢.

(٢٥) "كتاب التعريفات": الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني، حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، د.ط، د.ت ص:٢٥٣.

(٢٦) من نفاة الترادف: ثعلب وابن فارس والزجاج وأبو هلال العسكري .
- انظر: "نشر البنود على مراقي السعود": سيدي محمد عبد الله بن إبراهيم الشنقيطي، مطبعة فضالة، المحمدية، د.ط، د.ت، ص:١٢٠.
- "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها": أبو الحسين أحمد ابن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ.بدران، بيروت، لبنان، د.ط، ١٣٨٢ه، ١٩٦٣م، ص:٩٦-٩٧.
- "المزهر": م.س،١/٤٠٣.

(٢٧) "مجموع فتاوى ابن تيمية": أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مكتبة المعارف، الرباط، د.ط،د.ت ١٣/٣٤٢

وليس المقام هنا مقام الانتصار لهذا الرأي أو ذاك فغاية القصد تفهم مصطلح القصد بالمقارنة مع ما يأتلف معه، إذ "التضاد والترادف والاقتران والتعاطف والتقابل والتناظر والعموم والخصوص والإضافة والإطلاق، كل أولئك ضروري المراعاة عند التفهم "[٢٨].

وقد جاء القصد في الكلمات مؤتلفا مع: الحكمة،[٢٩] والغاية[٣٠]، والإرادة[٣١]، والاختيار[٣٢]، والعناية[٣٣]، والمعنى[٣٤]، والهدف[٣٥]. مناقضا للمصادفة[٣٦]، والأمور الطبيعية [٣٧] وللأمر السائب[٣٨].

٥- الضمائم

أبرز أشكال الضمائم هي ضمائم الإضافة - سواء أضيف المصطلح إلى غيره أو أضيف إليه غيره - وضمائم الوصف، سواء كان المصطلح واصفا أو موصوفا[٣٩].

وما ورد منها في الكلمات هو:

- **أساس قصد النبي** ﷺ، وهو ترسيخ أركان الإيمان الستة، وتعميق أركان الإسلام الخمسة، وقد ذكره النورسي في جوابه الموجه إلى الكنيسة الإنكليكية[٤٠].

---

(٢٨) ن: نفسه، ص:١٦-١٨.

(٢٩) الكلمات، م.س،٦٩٠،٥٨٣،١٩٨.

(٣٠) نفسه، ٣٦، ٧٤، ١٤٦.

(٣١) نفسه، ص:١٩٨، ٧٩٨،٦٩١،٦٩٠،٤٨٤.

(٣٢) نفسه، ص:٦٩٠،١٩٨

(٣٣) نفسه،ص:٣٧١

(٣٤) نفسه،ص:٧٨٩

(٣٥) نفسه، ص:٨٥٢

(٣٦) نفسه:ص:٣٢، ١٤٦، ١٩٨

(٣٧) نفسه،ص:١٩٢

(٣٨) نفسه:٧١٤

(٣٩) نفسه،ص:٣٠.

(٤٠) نفسه،ص:٨٩٥

• **خبث قصد** زنديق أقدم على ترجمة القرآن، و هو ما استهل به صاحب الكلمات الحاشية على الذيل الثاني من الكلمة الخامسة والعشرين، مستهزئا من أولئك الذين يظنون أنهم بترجمة القرآن يظهرون قيمته وتكراراته غير الضرورية، وهي الفكرة التي شلتها رسائل النور وأجهضتها بحجج دامغة.[٤١]

• **القصد الإلهي**[٤٢]، **قصد الصانع الحكيم**[٤٣]، **قصد التزيين**[٤٤] وقد جاءت هذه الضمائم في سياق تأملات النورسي في جمال المخلوقات وحوادث الكون.

• **قصد الشريعة**، وهو متوجه أساسا إلى سعادة الآخرة، ولذلك يقيم الأحكام على العلل لا على الحكم – كما في رخصة القصر- عكس نظر أهل هذا العصر الأرضي الذين يضعون سعادة في الدرجة الأولى، وتلك وجهة غريبة عن روح الشريعة السماوي.[٤٥]

• **أنوار القصد، لمعات القصد**، وهي التي ترى في تكامل وتناسق نظام الكون البديع.[٤٦]

• **مغزى القصد** من تحولات الكائنات، وقد كشف عنه الرسول ﷺ أحسن كشف.[٤٧]

٦- المشتقات.

"الاشتقاق توليد لبعض الألفاظ من بعض، والرجوع بها إلى أصل واحد يحدد ما دتها ويوحي بمعناها المشترك الأصيل مثلما يوحي بمعناها الخاص الجديد"[٤٨].

---

(٤١) نفسه، ص:٥٣٨

(٤٢) نفسه، ص:١٩٨

(٤٣) نفسه، ص:٦٠٥

(٤٤) نفسه، ص:٦٩١،٧٥٠

(٤٥) نفسه، ص:٥٦٥

(٤٦) نفسه،ص:٦١٣

(٤٧) نفسه،ص:٦٩٠

والمعتمد هنا هو الاشتقاق الصغير وهو "أن تأخذ أصلا من الأصول فتقراه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه."(٤٩).

ولما لم تكن كل مشتقات القصد الواردة في "الكلمات" ذات حمولية مصطلحية تضاهي مصطلحي المقصد والمقاصد، فإننا سنكتفي بهذين المصطلحين انسجاما مع مقاصد الندوة.

وقد ورد المقصد ذاته في مواضع كثيرة من "الكلمات" بدلالته اللغوية التي تفيد معنى المراد، كما في قوله:

- "المقصد الأول: التصديق بالملائكة ركن من أركان الإيمان"(٥٠)
- "المقصد الثاني: القيامة ودمار الدنيا"(٥١)
- "المقصد الثاني: سوف يفسر آيتين تبينان الحشر وتسيران إليه"(٥٢)

---

(٤٨) "دراسات في فقه اللغة": صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط١٠، ١٩٨٣م، ص:١٧٤.

وفي "كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي، اصطلاحات أخرى في الاشتقاق فمثال: "الصغير: كنى وناك، ومثال الأكبر: ثلم وثلب، فالمعتبر في الأصغر الترتيب، وفي الصغير عدم الترتيب، وفي الأكبر عدم الموافقة في جميع الحروف الأصول، بل المناسبة فيها فتكون الثلاثة أقساما متباينة.

وأيضا المعتبر في الأصغر موافقة المشتق للأصل في معناه، وفي الصغير والأكبر مناسبة فيه بأن يكون المعنيان متناسبين في الجملة".

- "كشاف اصطلاحات الفنون": محمد بن علي بن محمد التهانوي الحنفي، وضع حواشيه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ٥١٢/٢.

(٤٩) "الخصائص": أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ط،١٣٧١هـ/١٩٥٢م،١٣٤/٢.

انظر أيضا: -"المزهر":م.س،٣٤٦/١.

-"دراسات في فقه اللغة": م.س، ص:١٧٤.

(٥٠) الكلمات، ص:٥٩٦

(٥١) نفسه، ص:٦٠٨

(٥٢) نفسه، ص:١٠٣

أما المقاصد ذات الحمولة المصطلحية فإن أكثرها ضمائم وصف أو إضافة : فقد وصفت بالسمو والنبل والجلال والعظمة.

✓ **فالمقصد الأسمى** من خلق الكون هو قيام الإنسان بالعبودية الكلية تجاه تظاهر الربوبية (٥٣)

✓ ومقاصد المبعوث الكريم محمد ﷺ **هي أنبل المقاصد**(٥٤)

✓ ومقاصد إيجاد هذا الكون البديع **مقاصد جليلة** (٥٥)، وقد ركب جل وعلا في الموجودات حكما عالية وعلق عليها **مقاصد عظمى** (٥٦)

أما أبرز ضمائمها فهي :

□ **المقاصد الإلهية**(٥٧) وهي المقاصد العليا السامية، التي أدركها علماء الإسلام وأنى أن يلحق بهم من انحدرت عقولهم من علماء الطبيعة والفلسفة، وقد وضح الرسول ﷺ- وهو أكمل من بين بالقرآن - غايات خلق الكون وما فيه من المقاصد (٥٨). وترادفها ضمائم أخرى مثل: **مقاصد رب العالمين**(٥٩)، **المقاصد الربانية**(٦٠)، **مقاصد الصانع**(٦١).

□ **مقاصد القرآن، المقاصد القرآنية**(٦٢)

أساس قصد القرآن – في الكلمات – هو ترسيخ أركان الإيمان وأركان الإسلام، أما "مقاصد القرآن" فلها مدلولان :

---

(٥٣) نفسه، ص:٢٩٢

(٥٤) نفسه، ص:٥٢

(٥٥) نفسه، ص:٦٥

(٥٦) الكلمات، ٨٠٢

(٥٧) نفسه، ص:٤٠١

(٥٨) انظر الكلمات، ص: ٤٠١،٥٢٣، ٦٨٤٦٠٥،٤٨٤،٦٩١،٦٧٨

(٥٩) نفسه، ص:٦٧٨.

(٦٠) نفسه،ص:٥٢٣.

(٦١) نفسه، ص:٦٠٥.

(٦٢) نفسه،ص:٢٦٦، ٥٣٣،٨٨١،٤٨٤

أولهما: هو أحد مسالك الفهم، أي: مقصد الإرشاد والتبليغ،[٦٣] وهو أحد منابع علو طبقة الكلام وجماله[٦٤].

وثانيهما: العناصر الأصلية الأربعة وهي: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدل مع العبودية، وهي "الحقائق التي نزل القرآن من أجل إثباتها[٦٥]"، وهي مقاصد تتراءى في كل القرآن وفي كل سوره [٦٦]، بل حتى في كلماته، كما في بسم الله، والحمد لله.

ففي بسم الله رمز إلى الألوهية، وفي الرحمن تلميح إلى العدل، وفي الرحيم إيماء إلى الحشر. وكذالك في الحمد لله إشارة إلى الألوهية، وفي رب العالمين إيماء إلى العدالة، وفي مالك يوم الدين تصريح بالحشر[٦٧]

خاتمة

يبدو أن مقاصد النورسي بالمقاصد في كتاب الكلمات ليس مرادا بها مراد الأصوليين بالمصطلح، إذ لم يذكر مصطلح "مقاصد الشريعة" إلا مرة واحدة [٦٨]، غير أنه أسهب في الحديث عن مقاصد خلق وتزيين الإنسان والكائنات، لأنه كان يخاطب قارئا مفترضا تهدده أمواج الحضارة الغربية الجارفة التي طمت على القرى، تبتلع المنبهرين بمظاهرها ابتلاعا، ولم ينج من أهوالها إلا من آوى إلى القرآن، الذي كانت الرسائل علامات تهدي الحائرين إليه.

ومعلوم أن بديع الزمان النورسي لا يرد كل الفكر الغربي، وإنما يرفض ذلك الفكر المادي المتعفن، ولذلك جاءت مفاهيمه منسجمة مع انتظارات قراء الرسائل في بلد غربي المظهر، أصيل في عمقه.

---

(٦٣) الكلمات، ٥٣٣.
(٦٤) الكلمات، ٥٠٠
(٦٥) مفاتح النور، ٢٧٢
(٦٦) انظر: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، سوزلر للطباعة، ط١،٣ - ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص:٢٣. الكتوبات، ٢٦٨، الشعاعات، ٣١٠
(٦٧) إشارات الإعجاز، ٢٤.
(٦٨) الكلمات، ٥٦٥

ملحق : مواضع ورود جذور لفظ "قصد "في كتاب الكلمات

عدد مرات الورود	يقصد	مقصودة	مقصود- مقصودا	مقصد- مقصدا- مقصدين	مقاصد	قصد	أقصد	المقصودة	المقصود	المقصد	المقاصد	القصد
1	669	33	235	261	41	146	238	13	13	103	52	63
2	846	56	235	261	65	376	367	200	29	103	65	198
3	404	200	379	266	65	514		223	57	261	112	198
4		305	736	267	266	605		539	111	292	132	238
5		305	852	56	401	32		621	238	427	132	338
6		619	772	456	484	92		734	456	482	132	530
7		621	880	467	532	146		796	558	496	265	613
8		582	582	484	533	285			619	496	401	613
9			613	468	533	371			677	497	456	618
10			33	852	552	455			734	596	456	690
11			56	567	565	484			734	596	496	798
12			200	533	605	565			734	608	523	868
13			305	593	678	691			734	609	552	
14			305	632	678	714			736	632	657	
15			619		678	750			791	632	675	
16			621		684	198			852	633	678	
17			582		693	852				651	691	
18			669		723	895				651	693	
19			846		760					723	694	
20					784					728	745	
21					802					732	882	
22					862					500	882	
23					881					432		
24					481					737		
25					52							
مجموع	**3**	**8**	**19**	**14**	**25**	**18**	**2**	**7**	**16**	**24**	**22**	**12**

النورسي رجل المقصد والحكمة

د. حبيبة أبو زيد
باحثة في الدراسات الإسلامية
أكادير - المغرب

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين، أما بعد، فإن من ينظر متأملا في حياة بديع الزمان النورسي لابد أن يستوقفه ما كان عليه هذا الرجل من التجرد الكامل لخدمة غاية جعلها أساس حياته. فقد كان طول حياته يجتهد، بكل ما أوتي من عمر ووقت وجهد وطلبة مخلصين، من أجل ترسيخ الإيمان في النفوس وتجديده في القلوب بعد أن كاد يندرس. وقد تحمل من أجل هذا جميع أصناف الشدة والإيذاء من محاكمات كثيرة، ومنافي نائية، وسجون موحشة، وانقطاع عن الأهل والأحبة وما يصاحب كل ذلك من الآلام الجسدية والنفسية. وقد صاحبه ذلك طول حياته وحتى آخر لحظاته، بل امتد إليه الإيذاء حتى بعد أن وري التراب ووضع في قبره، فلم تهدأ نفوس خصومه ولم تقر أعينهم حتى أخرج من قبره ونقل جسده إلى جهة مجهولة لا يدرى حتى الآن أين هو. ولعل خصومه قد أرادوا إعدام ذكره ومسح أثره نهائيا لكن الله تعالى أبقى ذكره حاضرا وأثره قويا من خلال انتشار أفكاره وعلمه الذي أودعه رسائل النور التي تفانى هو وطلبته في ترتيبها ونسخها وتصحيحها ونشرها بين الناس.

ومما يستوقف النظر أيضا أن هذا الرجل قد أمضى حياته متجرداً من المتاع والمتعة المادية، محروماً من اللذائذ الدنيوية المشروعة، ليس لعجز وضعف،

إنما لأنه لم يجد الفرصة المتاحة ولا الوقت الكافي للتفكير في ذلك، فلم يجد وقتا لتكوين أسرة للعيش في حياة عائلية يجنح لظلها ويقضي حياته في كنفها. فما الذي حمل هذا الرجل على هذا المسلك، وما الذي جعله يختار لنفسه هذه السبيل المحفوفة بالبلاء والشدة والإيذاء؟ وما سر هذا التفاني في الإخلاص لهذه السبيل التي تجرد بسببها من كل ما تتعلق به النفس البشرية؟ وما سر هذا الصبر وهذه القوة على المغالبة؟ وما سر هذه الآثار العظيمة التي خلفها هذا الرجل على رغم ضعف الإمكانات المادية ؟

وأول ما أقرره في بيان ذلك أن بديع الزمان النورسي لم يكن كغيره من أهل زمانه الذي غلب فيه العجز واليأس، وسيطر الركود والضعف العلمي والفكري والإيماني، وإنما كان رجل حكمة ومقصد، فكان حكيما في ما يقدم عليه، عاملا بالفوائد المرجوة من الأعمال، متفكرا في الغايات، بدءا من غايات الحياة الكبرى ومغزى الوجود والكون إلى مقاصد الأعمال والتصرفات اليومية، ومن التصرفات الظاهرة إلى النيات والمقاصد الباطنة.

وهذه الحكمة التي يصدر عنها النورسي وتجري عليه في تفكيره وتصرفاته، ويستحضرها في يومه وليلته يمكن تفصيلها من خلال أمرين اثنين هما : أولا : العيش في كنف تجليات اسم الله الحكيم. ثانيا : التحلي بالحظ البشري من هذا الاسم.

١ - العيش في كنف اسم الله " الحكيم "

ومعناه أن اسم الله تعالى " الحكيم " تسري آثاره في الكون، وتتجدد تجلياته في حياة جميع المخلوقات ومنها الإنسان. فما من جزء من الكون إلا فيه أثر الحكمة الربانية، وما من لحظة أو حال من حياة الإنسان إلا يتجلى ربه عليه بحكمته عز وجل، لأنه حكيم تنزه عن العبث في فعله وتبرأ من اللعب في حكمه وأمره.

وهذه المسألة مما تفرع عن نظرية النورسي في أسماء الله الحسنى وجمالها وآثارها، وهي أن أحوال الإنسان في الحياة الدنيا وسائر المخلوقات كلها ترجع في حاجاتها إلى خالقها تعالى وهو يتولى تدبير شأنها، وكل شأن من شؤونها يرجع إلى صفة من صفاته وفعل من أفعاله التي تجمعها أسماؤه الحسنى. أي إن تجليات الأسماء الحسنى في الكون هي التي يتم بها تدبير جميع حاجاته، وما من حركة ولا حدث ولا شأن كبير أو صغير من شؤون الكون إلا بسبب تجلي اسم من هذه الأسماء. ولهذا رغب الرسول الكريم ﷺ في حفظ أسماء الله الحسنى وإحصائها ورتب عليها أعظم الأجر وأحسن الجزاء في قوله ﷺ: " **إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة**."(١) وسبب ذلك أن من عرف هذه الأسماء فقد عرف على جهة التفصيل وصف الكمال والجلال والجمال في صفات الله تعالى وأفعاله، فيرجع كل شأن من شؤون العالم إلى صفته الخاصة واسمه الخاص الذي هو سبب له بعد أن عرف صفته المجملة وهي أنه من الله تعالى. وقد عبر عن هذا المعنى بديع الزمان النورسي وهو ينظر في الحكمة من تعدد أسماء الله الحسنى ومثل لهذا بالسلطان الذي يحضر بحكمه وسلطانه في جميع أرجاء مملكته، فتكون له عناوين مختلفة وصفات معنوية متنوعة بحسب تنوع شؤون مملكته، فله اسم الحاكم في دوائر العدل والقضاء، وله عنوان السلطان في دوائر الحياة المدنية، وله اسم القائد في دوائر الجيش والدفاع. فكذلك الله تعالى المتفرد بالملك في ملكوته وخلقه، له ضمن مراتب ربوبيته شؤون وعناوين وأسماء مختلفة، وكل اسم له يتجلى في ما يناسبه من عوالم الكون، فكل حقائق الأشياء وأمور العالم وحوادث الوجود تستند إلى

---

(١) " صحيح البخاري " كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا. وورد عنده أيضا بلفظ " لله تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر" كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم إلا واحد. وعند مسلم بلفظ: " لله تسعة وتسعون اسما من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر" كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها.

أسمائه.[٢] ". فأفعاله تعالى وأسماؤه ظاهرة آثارها الجميلة في الكون ظهورا قاطعا لأنه " عندما ينظر إلى هذا الكون بنظر العبرة، يشعر الوجدان والقلب، بحدسٍ صادق، أن الذي يجمّل هذه الكائنات ويزيّنها بأنواع المحاسن لا شك أن له جمالاً وكمالاً لا منتهى لهما، ولهذا يظهر الجمال والكمال في فعله"[٣]

فجميع وجوه الإحسان والكرم والإنعام، ومظاهر التجدد في الكون، وما يحدث في كل لحظة من التصرفات والحوادث الكبيرة والصغيرة في العوالم كلها، كل ذلك من آثار أسماء الله الحسنى ومن تجلياتها الجميلة. فأسماء الله الحسنى تجمل الكون بتجلياتها وآثارها. ومن تجليات جمال أسماء الله الحسنى في الكون ما يحصل من التبدل المستمر في العالم والتجدد في الموجودات من غير توقف، وتصريف الأحوال في كل آن وحين، لأن كل اسم من أسماء الله الحسنى يقتضي ظهورا. فاسم المحيي مثلا يقتضي ظهورا فيتجلى أثره في الكون في كل وقت وحين، فيظهر جماله من خلال ما يشاهد في الكون من تجدد عملية الإحياء للأرض في كل فصل، والإحياء للإنسان والحيوان، ففي كل لحظة حياة ترسل في الكون في عالم الإنسان والحيوان والنبات وسائر المخلوقات، فذلك كله من تجلي جمال اسم " المحيي" الذي يظهر في الكون فيجمله. وكذلك اسم "المميت" فلا معنى للحياة لولا الموت. ففي ظهور تجليات "المحيي" وتجليات "المميت" جمال للكون وتجدد وتصريف للأحوال، لأن عملية الإحياء والإماتة في الكون لا تتوقف، ففي كل لحظة أحياء يولدون وأموات يزولون في عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد وسائر الموجودات مهما اختلفت خصائصها وطبيعة خلقتها، وفي كل لحظة من لحظات الحياة على ظهر الأرض زمن يموت ويزول وزمن يحيى ثم ما يلبث أن يزول. في كل حين تشهد الأرض موكب جنازة كبيرة لمن أنهوا مهامهم من المخلوقات

---

(٢) ينظر: "كليات رسائل النور: الكلمات" ص ٣٧٥ (ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي. ط: ٣ – ٢٠٠٠ م، ١٤٢١ هـ. شركة سوزلر للنشر ، القاهرة)

(٣) " كليات رسائل النور : الكلمات " ص ٧٤٢ .

والموجودات، و وفي الحين نفسه موسم كبير لمواليد جديدة تتسلم مهامها.[٤] فكل ذلك من تجلي اسمي " المحيي " و "المميت". " فإن للأسماء الحسنى تجليات متنوعة لا تحد، فتنوع المخلوقات ناشئ عن تنوع تلك التجليات... فإن تلك الأسماء المختلفة – لكونها دائمة وسرمدية – تقتضي ظهورا دائما سرمديا أي تقتضي رؤية نقوشها، أي تقتضي رؤية وإراءة جلوة جمالها وانعكاس كمالها في مرايا نقوشها. أي تقتضي تجديد كتاب الكون الكبير آنا فآنا." [٥]

وهكذا اسم الله تعالى " الحكيم " يتجلى في الكون في كل ما يجري فيه من التصرفات، وفي كل ما يحل بالإنسان من الأحوال وما ينزل به من الظروف والخطوب التي لا يملك لها ردا ولا دفعا. نقل البيهقي في "الأسماء والصفات" عن الحليمي قوله في معنى " الحكيم " قال: " الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب"[٦] ونقل عن الخطابي قوله: " الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء. صرف عن مفعل (بالضم ثم السكون ثم الخفض) إلى فعيل. ومعنى الإحكام لخلق الأشياء إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها."[٧] ويقول النورسي في بيان آثار الحكمة المتجلية في أفعال الله تعالى بمقتضى اسمه "الحكيم ": " إن ما نشاهده على سطح الأرض من انتظام واطراد في خلق المخلوقات وتدبير أمورها، وتجديدها باستمرار في كل موسم يدل بالبداهة على حكمة عامة تغمر الموجودات. هذه الحكمة العامة تدل بالضرورة على حكيم مطلق الحكمة إذ لا صفة دون موصوف."[٨] ويضيف أيضا في تجلي حكمة الله

---

(٤) "نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور لبديع الزمان النورسي " عبد الكريم عكيوي، ندوة " الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر: النورسي نموذجا " (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ . سوزلر للطباعة والنشر استانبول) ص ٦٢ – ٦٣ .

(٥) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٣٧٣ .

(٦) " الأسماء والصفات " لأبي بكر احمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ص ٤٧ . (ط١ – ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م دار الجيل.)

(٧) نفسه .

(٨) " كليات رسائل النور : الكلمات " ص ٧٩٧ .

في الوجود وفي فوائد العيش في كنف اسم الله " الحكيم " فيقول: " إن لمتصرف هذا العالم حكمة عامة عالية، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء، وبدلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات. فهذه الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية تقتضي تلطيف المطيعين الملتجئين إلى جناحها." [(٩)]

ويزيد الأمر تفصيلا فيقرر أن العلوم المادية التجريبية التي تبحث في الكون وتستنطق الموجودات إنما تفصح في الحقيقة عن مظاهر الحكمة في الخلق، وتكشف عن تجليات اسم الله " الحكيم " لأن حكمة الله تعالى حاضرة في كل أحوال الكون وفي كل التصرفات الجارية في الوجود، وما علوم الكون إلا بيان حكمة الأشياء. يقول رحمه الله: " والعلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات – كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان.. هذه العلوم التي هي حكمة الأشياء يمكن أن تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله " الحكيم " جل جلاله في الأشياء، وهي تجليات تدبير وتربية ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الأشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقا، أي باستنادها إلى ذلك الاسم "الحكيم" وإلى ذلك الظهير تصبح حكمة فعلا، وإلا فإما أن تنقلب إلى خرافات وتصبح عبثا لا طائل من ورائها أو تفتح سبيلا إلى الضلالة كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية."[(١٠)] فإذا لم تستند علوم الكون إلى اسم الله "الحكيم" صارت عبثا وعبئا، لأنها تحول الوجود إلى نقش بلا نقاش، وإتقان بلا متقن، وكتاب بلا كاتب، وسير بلا غاية، وتلك سبيل العبث والضلالة. وبهذه النفحات التي يرتشفها النورسي من اسم الله " الحكيم " اعتبر أن علوم الكون كلها تعرف بالله تعالى وتفصح عن جلاله وبهائه، وأن ضلال الفلسفة المادية سببه الغفلة عن مقتضيات هذه الحكيمية. وهذا ما عبر عنه بقوله وهو يصف

---

(٩) " كليات رسائل النور : المثنوي العربي النوري " ص ٩١

(١٠) " كليات رسائل النور : الكلمات " ص ٢٩١ .

مسلكه الفكري: " ولقد رأيت في وقت ما أن كل ما تبينه حكمة البشر (فلسفته وعلومه) من فوائد تخص غايات المصنوعات، تافهة لا قيمة لها، وعلمت حينها أن تلك الحكمة تفضي إلى العبثية... وفي ذلك الوقت بعثت الرحمة الإلهية اسم الله " الحكيم " لإغاثتي، فأظهر لي الغايات الجليلة للمصنوعات، أي إن كل مصنوع مكتوب رباني حكيم بحيث يطالعه جميع ذوي الشعور. كفتني هذه الغاية مدة سنة من الزمن، ثم انكشفت لي الخوارق البديعة في الصنعة فلم تعد تلك الغاية كافية وافية. وأظهرت لي غاية أخرى أعظم بكثير من الأولى. أي إن أهم غاية للمصنوع هي النظر إلى صانعه الجليل، أي يعرض المصنوع كمالات صنعة صانعه، ونقوش أسمائه الحسنى... وهدايا رحمته الواسعة أمام نظره سبحانه، ويكون مرآة لجماله وكماله جل وعلا. هكذا فهمت هذه الغاية وكفتني مدة مديدة." (١١)

فعلى هذا الأصل العظيم وبهذه الأدلة الواضحة القوية يثبت النورسي أن سير الحياة والكون إنما هو تجل لآثار الحكمة الربانية وظهور للمعات اسم الله " الحكيم ". فلا مناص إذن للعاقل المنصف من الدخول في بحبوحة هذه الحكيمية المطلقة الجميلة. ولهذا حمل النورسي نفسه على العيش في كنف اسم الله " الحكيم " مع غيره من الأسماء، فكانت حياته كلها في هذه السبيل وتحت هذا الأصل. ومن آثار ذلك أنك تجده يعطي لكل لحظة من حياته وجها للحكمة، ويستحضر - في كل ما يحف به من الظروف وينزل به من الأحوال - وجه الجمال والفائدة، ولو من بين الأستار الظاهرة القبيحة للقدر. فبعد رسوخ الإيمان في القلب وأخذ أسباب النجاح فإن كل شي ينزل بالسالك له وجه من الحسن والجمال مهما بدا قبيحا. وعلى هذا حمل كل ما كان ينزل به في حياته من المحن من محاكمات وسجن ونفي، فعده من عناية الله تعالى به ليروضه على أمانة خدمة الإيمان وتجديده في نفوس أهل عصره، وليصرف جهده واهتمامه كليا إلى مهمة إظهار أنوار القرآن الكريم فتكون حياته بذرة لخدمة

---

(١١) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٣٧٠ – ٣٧١ .

القرآن الكريم. وهذا ما أفصح عنه بقوله: " لقد تحقق لديّ يقيناً: أن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري وشعوري وتدبيري، إذ أعطي (في الأصل" أُعطيت " ولعل الصواب ما أثبته) لها سيرٌ معينٌ ووُجّهت وجهةً غريبةً لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بـمثابة مقدمات تمهيدية لبيان إعجاز القرآن بالكلمات حتى إنه في غضون هذه السنوات السبع من حياة النفي و الاغتراب وعزلي عن الناس - دون سبب أو مبرر وبـما يخالف رغبتي - أمضي أيام حياتي في قرية نائية خلافاً لمشربي، وعازفاً عن كثير من الروابط الاجتماعية التي ألفتُها سابقاً.. كل ذلك ولّد لي قناعة تامة لا يداخلها شك من أنه تهيئة وتحضير لي للقيام بخدمة القرآن وحده، خدمة صافية لا شائبة فيها. بل إنني على قناعة تامة من أن المضايقات التي يضايقونني بها في أغلب الأوقات والعنت الذي أرزح تحته ظلماً، إنما هو لدفعي - بيد عناية خفية رحيمة - إلى حصر النظر في أسرار القرآن دون سواها، وعدم تشتيت النظر وصرفه هنا وهناك. وعلى الرغم من أنني كنت مغرماً بالمطالعة، فقد وهبتْ لروحي مجانبةً وإعراضاً عن أي كتاب آخر سوى القرآن الكريم."[١٢] هكذا كان رحمه الله يعيش في كنف اسم الله " الحكيم " يتجلى في حياته ويشاهده في كل ما يحيط به، ويرتشف جماله في كل ما يجري من حوله وكل ما يحدث في عصره وزمانه.

وقد يعترض معترض فيقول: إذا كان اسم " الحكيم " يقتضي التدبير وفق المصلحة في كل ما يجري في الكون وما يحف بالإنسان، فكيف يناسب هذا المقتضى ما هو مرعب موحش كالموت والمصائب والمشقات؟ وما هو وجه الحكمة في المحن والشدائد؟

لبيان ذلك لا يفتأ النورسي يقرر ويعيد أن العيش في كنف اسم الله "الحكيم" يمنح المرء رؤية الحسن والجمال في كل شيء حتى في المحن والمصائب "فما نراه قبحاً في بعض المخلوقات، والآلام والأحزان التي تخلفها بعض الأحداث

---

(١٢) " كليات رسائل النور: سيرة ذاتية " ص ١٠ . المكتوبات ص ٤٨٤ .

والوقائع اليومية لا تخلو أعماقُها قطعاً من أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية، وحكم خبيئة، تتوجه بكل ذلك إلى خالقها الكريم كما قدّر وهدى وأراد. فالكثير من الأمور التي تبدو – في الظاهر – مشوشة مضطربة ومختلطة، إن أنعمتَ النظر إلى مداخلها طالعتك – من خلالها – كتابات ربانية مقدسة رائعة، وفي غاية الجمال والانتظام والخير والحكمة."(١٣) وإن اسم الله الحكيم يقتضي أن " هناك تحت الأستار القبيحة ظاهراً نتائج في منتهى الجمال"(١٤) وإذا كان الموت أكبر المصائب، فإن النورسي وجد فيه وجها جميلا حسنا لما رأى فيه تجليات اسم الله الحكيم المحيي المميت. يقول رحمه الله: " نظرت أول ما نظرت إلى ذلك الوجه الذي يرعب الجميع ويتوهم أنه مخيف جدا.. وهو وجه الموت فوجدت بنور القرآن الكريم أن الوجه الحقيقي للموت بالنسبة للمؤمن صبوح منور على الرغم من أن حجابه مظلم والستر الذي يخفيه يكتنفه السواد القبيح المرعب. فالموت ليس إعداما نهائيا ولا هو فراقا أبديا، وإنما مقدمة وتمهيد للحياة الأبدية وبداية لها. وهو إنهاء لأعباء مهمة الحياة ووظائفها ورخصة منها وراحة وإعفاء، وهو تبديل مكان بمكان ووصال ولقاء مع قافلة الأحباب الذين ارتحلوا إلى عالم البرزخ. وهكذا بمثل هذه الحقائق شاهدت وجه الموت المليح الصبوح. فلا غرو لم انظر إليه خائفا وجلا، وإنما نظرت إليه بشيء من الاشتياق." (١٥) فإذا كان للموت – وهو أكبر المصائب– وجه صبوح منور، فما دونه كذلك من المصائب. ومعلوم بداهة أن مثل هذا المشرب لا يحصل إلا بسلوك خاص ونظر خاص ومجاهدة خاصة وهي العيش في كنف اسم الله الحكيم. فبهذا المسلك الخاص استطاع النورسي أن يخترق كل الحواجز التي وضعت أمامه، وبهذا التجلي لاسم الله الحكيم لم تنل منه المحن الكثيرة المتتابعة، ولا الضربات الموجعة المتتالية، لأن اسم الحكيم سكة

---

(١٣) " الكلمات " ص ٢٥١ _ ٢٥٢ .

(١٤) " ملحق أميرداغ " ص ٢٨١ .

(١٥) " كليات رسائل النور : اللمعات " ص ٣٥٧

مضروبة على كل ذلك، وليس القبح والمشقة إلا أستار وحجب ظاهرة تخفي وراءها محاسن أفعال الله تعالى الجميل الحكيم. إن هذا المسلك يوطن نفس صاحبه وعقله أن حياة الإنسان على ظهر الأرض وكل أحواله فيها وجميع ما تقع عليه حواسه قد اكتسى حلل الجمال. لقد ذاق النورسي رحمه الله كل أنواع العذاب الدنيوي من الفقر والحاجة، والسجن والأسر وما يلازمهما من آلام فراق الأهل والأحبة، والنفي والإقامة تحت المراقبة والحراسة الدائمة. لكنه لم يكن يعبأ بمعاناة السجون ووحشة المنافي وغربتها وأحزانها، بل كان يجد اللذة وهو في أحضان العذاب، فكان دائما يجدا جمالا ماثلا بين عينيه، وسلوانا حاضرا بين جنبيه، ولذة غامرة في قلبه، تحجب كل ما يحف به من آلام الجسد بسبب المرض أو الغربة والنفي وغيرها من أنواع العذاب، وتنسيه كل عذاب ينزل به.[١٦] فلنستمع إليه وهو يفصح عن اللذة المعنوية التي يجدها وهو يعيش في كنف الحكيمية الإلآهية وهو في صلب المحنة منفيا في بارلا فيقول: "ليرحل من يرحل يا إلهي فأنت الباقي وأنت الكافي، وما دمت باقيا فلتجل من تجليات رحمتك كاف لكل شيء يزول، وما دمت موجودا فكل شيء إذا موجود لمن يدرك معنى انتسابه إليك بالإيمان بوجودك ويتحرك على وفق ذلك الانتساب بسر الإسلام، فليس الفناء والزوال ولا الموت والعدم إلا ستائر للتجديد، وإلا وسيلة للتجول في منازل مختلفة والسير فيها. فانقلبت بهذا التفكير تلك الحالة الروحية المحرقة الحزينة، وتلك الحالة المظلمة المرعبة إلى حالة مسرة بهيجة ولذيذة، وإلى حالة منورة محبوبة مؤنسة. فأصبح لساني وقلبي بكل ذرة من ذرات جسمي يردد بلسان الحال قائلا: الحمد لله." [١٧]

إن النورسي رجل حكمة لأنه عاش حياته وهو يرتشف جمال اسم الله الحكيم في كل ما ينزل به وما يجري عليه ومن حوله، وهذا ما روض نفسه

(١٦) ينظر : " نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور " ضمن ندوة " الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر " ص ٤٧ – ٥٠ .
(١٧) " كليات رسائل النور : اللمعات " ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

وعقله على فقه الحكمة والعمل بالمقصد والتنزه عن العبث، فنال حظه البشري من اسم الله الحكيم. وهذا ما أبينه في المسألة الثانية وهي:

٢ – التحلي بالحظ البشري من اسم " الحكيم "

إن كل من لقي النورسي وجالسه، أو قرأ ترجمته لن يجادل في أن هذا الرجل له من الصفات ما عز مثله في زمانه، من ذلك قوة الإيمان، وعلو الهمة، ورجاحة العقل، وحسن التدبير والتقدير، وعمق التفكير، واستثمار العمر والوقت، والعمل الجاد المتقن. والوصف الجامع لهذه الصفات أنه حكيم في أعماله وتصرفاته، فقد وضع أمامه أهدافا وغايات حررها بدقة بالغة بعد طول تفكير ونظر، ثم رصد المعوقات التي قد تعرض له ووضع لكل واحد منها سبيل الخلاص أو التخفيف من آثاره. وبعد ذلك وجه كل تفكيره وجهده لذلك، حتى إنه كان يعتبر المحن التي تنزل به إما أنها صوارف من أجل منعه من التفكير والاشتغال بما سوى غايته التي حددها، أو أنها منبهات له من نوم الغفلة.

وهذا سر امتناع النورسي عن كثير من المباحات مثل الزواج، مع أنه جعل ذلك مسلكا خاصا به، ولم يأمر به، وسبب ذلك أنه رأى أن إنقاذ الإيمان الذي هو غايته أمانة عظيمة في عصره الذي غلبت فيه أفكار الإلحاد، وأن الزواج يشد المرء إلى الدنيا، وغايته تتطلب التجرد التام والاستعداد للتضحية. ولما كان الزواج وما يتعلق به من محبة الأهل والأولاد والخوف عليهم مما قد يشوش على هذه التضحية، فقد رأى – بالنسبة له – الامتناع عنه، وعلى هذه الحكمة كان يأخذ كل الحرمان الذي ذاقه في حياته بسبب موت أحبته وأقاربه أو البعد عنهم بسبب السجون والمنافي. قال رحمه الله: "إنني لم أشاهد والدتي الرؤوفة منذ التاسعة من عمري... فبت محروما من تلك المحبة الرفيعة... ولم أتمكن من مشاهدة أخواتي الثلاث منذ الخامسة عشرة من عمري... ولم أشاهد أيضا أخوي – من ثلاثة إخوة – منذ خمسين سنة... وحيث إنني قضيت حياتي أعزبا فلم أنجب أولادا، لذا بت محروما من أذواقهم البريئة... ومع كل هذا ما كنت

أشعر بهذا النقص قط... إنه عوضا عن اللذة الآتية من العطف الخاص لوالدتي أحسن الرحيم سبحانه وتعالى علي ألوفا من الوالدات اللائي يستفدن من رسائل النور... وعوضا عن حرماني من أذواق العطف والحنان النابعة من الأولاد - حيث لا أولاد لي في الدنيا – أنعم سبحانه وتعالى علي مئات الألوف من الأولاد الأبرياء من حيث استفادتهم من رسائل النور مستقبلا. فحول سبحانه وتعالى هذه العواطف الثلاث والشفقة الرؤوفة الجزئية إلى مئات الألوف منها."(١٨) فكان يرى أن كل هذا الحرمان إنما وجد ليحصل مقابله الذي به يستعين على بلوغ غايته عن طريق نشر رسائله وخدمة الإيمان من خلالها.

وإن من وجوه الحكمة عند النورسي أيضا أنه يلتمس العلم والفائدة من كل ما يقع عليه بصره. أما الدروس والفوائد من التأمل في الكون فذلك ما لا حاجة إلى الإطالة به، فرسائل النور تثبت أن الكون مدرسة عظيمة وكتاب منظور للدرس والعبرة، وأن كل ما في الكون من أصغر الأجزاء إلى أكبرها، من الذرات إلى المجرات وما بين ذلك من العوالم المتنوعة، بمنزلة ألسنة ناطقة تلهج بذكر خالقها وتعرف بمبدعها وتفصح عن جماله وجلاله سبحانه وتعالى. ولهذا طاف النورسي بنظر المتأمل المتدبر في كل أجزاء الكون، ونثر ذلك في رسائله، فكانت بذلك رسائل النور عبارة عن سياحة روحية عقلية تطوف بك في أجزاء الكون وتوقفك على صور الجمال المبثوثة فيه وتعرض الكون أمامك كأنه معرض عجيب على أحسن ترتيب وأجمل تنسيق، تلهج كل أجزائه بدروس عقلية وروحية عظيمة، وتدعو ذوي البصائر والأبصار بلسان حالها إلى الإصغاء إليها بالعقل والقلب.(١٩) ومما يدل على أن حكمة أخذ العلم من كل ما يقع عليه البصر كانت قاعدة عنده أنه عد أحقر المخلوقات أساتذة له، حتى جعل

---

(١٨) " كليات رسائل النور : الملاحق، ملحق أميرداغ " ص ٣٩٧ – ٣٩٨ .
(١٩) ينظر : " نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور " ضمن ندوة " الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر " ص ٥٦ – ٦٤ .

الذباب أستاذا له تعلم منه أن يضع نفسه موضعها ويعرف لها قدرها وهذا ما بينه بقوله: "... إني رأيت نفسي مغرورة بمحاسنها، فقلت: لا تملكين شيئا، فقالت فإذن لا أهتم بشيء من البدن. فقلت لابد أن تكوني أقل من الذباب، فإن شئت شاهدا فانظري إلى هذا الذباب كيف ينظف جناحيه برجليه ويمسح عينيه ووجهه بيديه، سبحان من ألهمه هذا وصيره أستاذا لي وأفحم به نفسي" (٢٠)

وبلغ النورسي من شدة الحرص على التماس المقصد والحكمة أن اعتبر رداءة خطه – مع شدة حاجته إلى الخط الحسن – حكمة مقصودة من أجل تيسير العون له والأعوان على تحقيق مهمته قال: " إن هذا المسكين سعيد، برغم حاجته الشديدة إلى الكتابة وجودة الخط، وانشغاله بها منذ سبعين سنة، واضطراره إلى تصحيح مائتي صفحة في اليوم الواحد أحيانا، لا يملك من الخط ما يتعلمه طفل ذكي في العاشرة من العمر في عشرة أيام. هذا الأمر محير حقا... فضلا عن أن أشقاءه يجيدون الخط وحسن الكتابة. فأنا مقتنع تمام الاقتناع بأن بقائي نصف أمي برداءة الخط وأنا في أشد الحاجة إليه، أنه سيأتي زمان لا يمكن للقدرات والقوى الشخصية والجزئية أن تقاوم وتصد هجوم أعداء رهيبين، فيبحث سعيد بحثا حثيثا عن الذين يملكون خطا جيدا ليشركهم في خدمته فيشكلون معا آلاف الأقلام التي تحول تلك الخدمة الشخصية الجزئية إلى خدمة كلية عامة قوية، إذ يجتمعون حول تلك البذرة ... ويمدون تلك الشجرة المعنوية بالعون. فضلا عن هذه الحكمة فإن إذابة أنانيته في حوض الجماعة المبارك كإذابة قالب الثلج نيلا للإخلاص الحقيق حكمة أخرى تدفع لخدمة الإيمان."(٢١)

ومن الحكمة النورسية أيضا سلوك مسلك العفة والاستغناء بقصد ونية، ووجه ذلك أن أهل الضلال يتهمون العلماء باتخاذهم العلم مغنماً، فيهاجمونهم

(٢٠) " كليات رسائل النور : المثنوي العربي النوري " ص ١٦٨ .
(٢١) " كليات رسائل النور : الملاحق، ملحق أميرداغ " ص ٣٦٥ – ٣٦٦ .

ظلماً وعدواناً بقولهم: إنهم يجعلون العلم والدين وسيلة لكسب معيشتهم فيجب تكذيب هؤلاء تكذيباً فعلياً.[٢٢] فعلى رغم فقره وشدة حاجته ما كان يقبل صدقة ولا هبة من أحد، قال: " إني على قناعة تامة الآن من أن حكمة هذا الأمر هي عدم جعل رسائل النور - التي هي خدمة سامية خالصة للإيمان والآخرة – في آخر أيامي وسيلة لمغانم الدنيا... فلأجل هذه الحكمة أعطيت لي هذه الحالة." [٢٣]

هذه بعض وجوه الحكمة التي تظهر من مسلك النورسي ومنهجه في الحياة وسيره من أجل خدمة الإيمان ونشر حقائق القرآن. وإن تجربة النورسي الفكرية والروحية والعملية قد أودعها في رسائله التي سماها "رسائل النور" وله في ذلك حكمة وهي التي بينها بقوله: " إن كلمة النور جابهتني في كل مكان طوال حياتي منها: - قريتي اسمها نورس.

- اسم والدتي المرحومة نورية.
- اسم أستاذي في الطريقة النقشبندية سيد نور محمد.
- وأحد أساتذتي في الطريقة القادرية نور الدين.
- وأحد أساتذتي في القرآن نوري.
- وأكثر ما يوضح كتبي وينورها هو التمثيلات النورية.
- وأكثر ما حل مشكلاتي في الحقائق الإلاهية هو اسم النور من الأسماء الحسنى.

- ولشدة شوقي نحو القرآن وانحصار خدمتي فيه فإن إمامي الخاص هو سيدنا عثمان ذو النورين رضي الله عنه." [٢٤] إنه وهو يضع هذه التسمية لرسائله ويؤلفها ويحرر موضوعاتها يستحضر كلمة النور ودلالاتها ومقاصدها وأسرارها. وقد جاءت رسائل النور حقا عامرة بقيم النور وحقائق الهدى وإشعاع

(٢٢) " كليات رسائل النور : سيرة ذاتية " ص ٢٧ .
(٢٣) " كليات رسائل النور : الملاحق، ملحق أميرداغ " ص ٣٦٣ – ٣٦٤ .
(٢٤) " كليات رسائل النور : الملاحق، ملحق بارلا " ص ٧١ .

الهداية، بل إن أجزاءها تحمل هذه الصبغة في أسمائها مثل: اللمعات، والشعاعات.

هذه بعض المحطات من حياة النورسي وبعض قواعد منهج العلم والعمل عنده، ومنها يظهر بوضوح أن النورسي رجل حكمة ومقصد، لأنه وطن نفسه أن يعيش في كنف تجليات اسم الله " الحكيم "، وأن يتصرف في أعماله وحياته بالحظ البشري من هذا الاسم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

العدل الإلهي وإشكالية وجود الشرور

مقاربة في الكشف عن الحكمة المتعالية في العدل الإلهي وأسراره البديعة في رسائل النورسي

د. محمد عبدو
باحث في الدراسات الإسلامية

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة على نبينا محمد وآله الطاهرين وصحبه أجمعين.

يمكن بدون اختلاج ريب؛ أن نسم هذا العصر بميسم الاضطراب والتشكيك والتأزم في العقائد الدينية، بسبب الشبهات والإشكالات المثارة –على الخصوص- بشأن العدل الإلهي. وقد تولى كبر ذلك؛ أنصار الفلسفة المادية، والمدنية الحديثة، القائمة على الظلم والإجحاف والفساد، والتي وجدت في هذا الأمر فرصة سانحة لتوجيه الطعنات للديانات الإلهية، ولإدانة الشريعة الإسلامية، باعتبارها – بزعمهم- ظلما محضا وشرا مستطيرا.

إنما لا ينبغي أن نأسف على ذلك أو نشعر بالأذى؛ لأن الشك طريق للوصول إلى اليقين. وإنما الأسف؛ ألا نجد من يتصدى لحل هذه الإشكالات، ودفع تلك الشبهات المثارة بشان العدل الإلهي؛ لأنها تخدش أصل الاستدلال على أصل وجود الله سبحانه؛ ما دام هذا الاستدلال يقوم على مقدمة هي إثبات كمال نظام الخلقة وتماميته.

لكن قد عودتنا السنن الإلهية، واللطائف السبحانية؛ ألا يعدم دين الله من يذب عنه، فينفي عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ولا شك في أن العلامة بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، من هؤلاء الأئمة الذين أفنوا حياتهم من أجل تحقيق هدف وحيد؛ وهو حل المعضلات الفكرية، والإجابة عن الأسئلة المثارة بشأن القضايا الإسلامية في عصرنا، رغم أن مواضيعها متباينة، فبعضها فلسفي، وبعضها الآخر اجتماعي وأخلاقي أو فقهي أو كلامي.

وفي ما يتعلق بمسألة العدل الإلهي؛ فإن سعيد الجديد قد كشف الغطاء عنها، وبين مقاصدها الإلهية، ومحاسنها الصمدانية، وحكمها المتعالية، الدالة على حكمته تعالى البالغة، بحيث اتضحت حقائقها اتضاحا يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، كما تدل على ذلك أكاليمه في "رسائل النور" تصنيفه، والتي ملأ فيها النورسي الدلو إلى عقد الكرب، وتحدر فيها تحدر السيل من رؤوس الجبال. وذلك واضح فيما نورده عليك من أمثلة.

لكن؛ لا بد قبل الشروع في بيان المقصود من التنبيه على مسألة مهمة؛ وهي أن اهتمام العلامة النورسي بالخوض في غمرة هذا الموضوع يرجع لأمرين:

أحدهما: لأن القرآن الكريم، يتحدث بكثرة عن قضايا مرتبطة بالعدل الإلهي، وبالجبر والاختيار، والقضاء والقدر الإلهي، والثواب والعقاب.

يقول الله تعالى في بيان هدف النبوة ورسالة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).

ويقول عز وجل عن المعاد ويوم البعث للحساب والثواب والعقاب: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(الأنبياء : ٤٧).

وقد نزهت الكثير من الآيات القرآنية الساحة الإلهية المقدسة عن الظلم، مثل قوله تعالى:﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(الروم:٩).

ولم يكتف القرآن بتنزيه الله سبحانه عن الظلم، بل أثبت له العدالة بصورة مباشرة كإحدى صفاته الثبوتية كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾(آل عمران : ١٨).

وهلم جرا إلى نظائر هذه الآيات.

ومن هنا يتضح أن العدل الإلهي – حسب الرؤية الإسلامية – هو بحد ذاته حقيقة، وأن العدالة من الصفات التي يجب أن نعتقد بأن الله متصف بها.

والأمر الثاني: لأن عدم حل الإشكالات المثارة بشأن وجود الشرور والنقائص وغيرها من أنواع البلاء في عالم الخلق، يشكل نقصا لعلم الله عز وجل وحكمته.

ومن هنا نفهم سر إدراج النورسي للعدالة ضمن المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، والتي حصرها في أربعة، وأن غيرها تجري لها مجرى الوسيلة. قال يقرر هذا المعنى ويوكده: "**إن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة**"[١].

هذا المعنى عينه يلفى مسطورا في المثنوي العربي النوري، حيث قال بديع الزمان في أوجز ما يكون من العبارة: "**اعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة...**"[٢].

فإذا اتضح هذان الأمران؛ فلنشرع في كشف الغطاء عن المطلوب، وهو عرض أجوبة العلامة بديع الزمان عن الإشكالات والأسئلة المثارة في هذا المجال. فأقول وبالله التوفيق:

الشبهات والاعتراضات المثارة بشأن العدل الإلهي:

ينبغي أولا أن نتعرف على طبيعة الشبهات المثارة في هذا الصدد. ويمكن أن نصوغها في هيئة الأسئلة التالية:

---

(٥) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، المجلد الخامس من رسائل النور : ٢٣
(٦) المثنوي العربي النوري، المجلد السادس من رسائل النور : ٧٥

إذا غافصنا أحد بسؤال فقال: لقد خلق الله سبحانه وتعالى الشرور، فما الحكمة فيه؟ إذ خلق الشر شر، وخلق القبيح قبيح.

وإذا كان الكون مظهرا للحسن والجمال والعدالة، فكيف نفسر وجود القبائح والمصائب والأمراض والبلايا؟

وما باله سبحانه وتعالى ينزل المصائب ويسلط البلايا، ألا يكون هذا ظلما على الأبرياء؟ بل حتى على الحيوانات؟

وكيف يمكن تفسير معاقبة الكافر بعقاب أبدي غير متناه، مقابل معصية الكفر التي كانت في زمان قليل؟ فكيف ينطبق هذا الجزاء على العدالة الإلهية؟

ولماذا يتم إيجاد الأشياء ثم إعدامها؟ ولماذا كتب الموت على المخلوقات؟ ولماذا يؤتى بالإنسان إلى هذه الدنيا ثم يرسل إلى ديار الفناء بعد أن يذوق لذة الحياة ويتمنى الخلود والبقاء في الدنيا؟

هذه الأسولة جميعها وغيرها، نجد لها أجوبة لدى بديع الزمان ، مستوفاة بينة بأوعب بيان، وأوضح دليل وبرهان، فلننطلق إليها.

المسألة الأولى: الجواب عن إشكالية وجود الشرور

يرى النورسي أن منشأ جميع أشكال الخلط والالتباس في مسألة الشرور، تظهر بسبب عدم إدراك الذين يقعون في هذا الالتباس لطبيعة العلاقة بين الشر والخير. فهؤلاء يتوهمون أن وجود الشرور والمصائب والشيطان وغيرها من البلايا التي تصيب الموجود، يقدح في عدالة واجب الوجود. وهذا وهم يتجافى عن الحقيقة؛ فإن الشرور نسبية إضافية، وليست حقيقية، وتنطوي على خير كثير.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله: "إن خلق الشرور والأضرار والبلايا والشياطين، ليس شرا ولا قبيحا؛ لأن هذه الأمور خلقت للحصول على نتائج مهمة كثيرا جدا"(٣).

(٧) المكتوبات، المجلد الثاني من رسائل النور : ٥٢

وعنه العبارة بقوله: "إن شرا قليلا يقبل به للحصول على خير كثير؛ إذ لو ترك شر ينتج خيرا كثيرا للحيلولة دون حصول ذلك الشر القليل، لحصل عندئذ شر كثير"[٤].

ويوضح النورسي هذا بمثال وهو: أن قطع الأصبع التي أصابها الغرغرينا فيه خير وهو حسن، بينما يبدو ذلك القطع في الظاهر شرا، ولكن لو لم تقطع تلك الأصبع لقطعت اليد، فيحصل آنذاك شر أكبر[٥].

ولم يكن العلامة النورسي متفردا في ما ذهب إليه؛ فإن كلمات الثقات، والعلماء الأثبات تعضد هذا المعنى وتؤيده. وحسبنا من ذلك ما صرح به حجة الإسلام الغزالي في كتابه "المقصد الأسنى" حيث أورد كلاما جيدا وهو: "والرحيم يريد الخير للمرحوم لا محالة، وليس في الوجود شر إلا وفي ضمنه خير، لو رفع ذلك الشر لبطل الخير الذي في ضمنه، وحصل ببطلانه شر أعظم من الشر الذي يتضمنه؛ فاليد المتآكلة قطعها شر في الظاهر، وفي ضمنها خير جزيل، وهو سلامة البدن، ولو ترك قطع اليد لحصل هلاك البدن، ولكان الشر أعظم . وقطع اليد لأجل سلامة البدن شر في ضمنه خير، ولكن المراد الأول السابق إلي نظر القاطع: السلامة التي هي خير محض. ثم لما كان السبيل قطع اليد لأجله، وكانت السلامة مطلوبة لذاتها أولا، والقطع مطلوب لغيره ثانيا لا لذانه، فهما داخلان تحت الإرادة، ولكن أحدهما مراد لذاته والآخر مراد لغيره، والمراد لذاته قبل المراد لغيره، ولأجله قال تعالى: "**رحمتي سبقت غضبي**" فغضبه إرادته للشر، والشر بإرادته، ورحمته إرادته للخير، والخير بإرادته، ولكن أراد الخير للخير نفسه، وأراد الشر لا لذاته ولكن لما في ضمنه من الخير، والخير مقتضى بالذات، والشر مقتضى لغيره، وكل مقدر، وليس في ذلك ما ينافي الرحمة أصلا"[٦].

---

(٨) نفسه : ٥٢

(٩) نفسه : ٥٢

(١٠) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ٤٣- ٤٤، والحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وإذن؛ فقد رجع حاصل النظر إلى أن الشرور ليست شرا محضا، بل شرا مخلوطا بالخير، ولأن الخير فيها أكثر من الشر، لذلك فإن الحصيلة النهائية لوجودها خير لا شر.

فاستنادا إلى هذا المعيار وهذا المفهوم لمعنى الشر، يتضح أن ما توهموه من وجود للشر والظلم كهباء اشتدت به الريح في يوم عاصف.

وإدراك الحقيقة المتقدمة يمهد الأرضية اللازمة للدخول في البحث اللاحق وهو بشأن توضيح أن وجود المصائب والأمراض والبلايا هو خير لا شر.

المسألة الثانية: إشكالية وجود المصائب والأمراض

قبل الاطلاع على رأى النورسي في هذه المسألة؛ نشير إلى أنه يقرر في هذا المقام حقيقتين من الأهمية بمكان؛

إحداهما: أن الله تعالى هو المالك الحقيقي ذو الجلال والإكرام، يتصرف في ملكه كيف يشاء، وهو الفاعل المختار الفعال لما يريد (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**)[٧].

فبهذا الاعتبار؛ له أن يبتلي عبده بأنواع من البلايا فيمرضه ...[٨].

والأمر الثاني: أن المصائب التي تصيب المعصوم من الحيوان والإنسان، يجوز أن يكون لها أسباب تدق عن فهم البشر.[٩].

ويعضد هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥).

وأكثر الاعتراضات المثارة بشأن العدل الإلهي ناتجة عن الغفلة عن تينك الحقيقتين.

غير أن هذا الكلام؛ قد لا يقتنع به من ليس في قلبه إيمان، الأمر الذي جعل

---

(١١) المثنوي العربي النوري : ١٣٦، والآية من سورة الأنبياء: ٢٣
(١٢) المكتوبات : ٥٣ – ٥٤
(١٣) المثنوي العربي النوري : ١٦٣

النورسي يفيض في الحديث عن هذا الاعتراض، لاسيما في الشعاعات، ويبين وهيه ووهنه بدليل عقلي متين.

وعبارته: "إن قبحا يكون سببا لإنتاج أنواع من الجمال، أو سببا لإظهارها، يعد كذلك جميلا. وإن انعدام قبح يؤدي إلى إخفاء كثير من الجمال وإلى عدم ظهوره، لا يعد قبحا واحدا، بل أضعافا مضاعفة من القبح.

فمثلا: إن لم يوجد قبح كواحد قياسي، تصبح حقيقة الحسن نوعا واحدا وتختفي مراتبه الكثيرة جدا، ولكن بتداخل القبح فيه تظهر مراتبه؛ إذ كما تظهر درجات الحرارة بتداخل البرودة، ومراتب الضوء بوجود الظلام، كذلك بوجود الشر الجزئي والضرر الجزئي والمصيبة الجزئية والقبح الجزئي تظهر الخيرات الكلية والمنافع الكلية والنعم الكلية وأضراب الجمال الكلي. بمعنى أن إيجاد القبح ليس قبيحا، بل جميل؛ لأن كثيرا من النتائج المتولدة منه جميلة"[١٠].

فهذا الكلام في غاية الحسن والسداد. وبالتأمل فيه يمكن استنباط مجموعة من الأمور:

أولا: أن ضرورة وجود القبائح لا تنحصر في كونها جزءا من النظام الكوني الكلي وارتهان حفظ هذا النظام بها، بل إن وجودها ضروري لإظهار جمال المحاسن أيضا، ولولا المقارنة بين القبح والحسن لما كان القبيح قبيحا، ولا الحسن حسنا، أي لما كان للحسن وجود لولا وجود القبح.

الأمر الثاني: أن إحساس الإنسان بالمحاسن مرهون بوجود قبائح في مقابلها، ومشاهدة القبائح هو الذي يدفع الناس إلى التحرك باتجاه المحاسن والانجذاب إليها والإعراض عن القبائح.

وهذا ما عناه النورسي بقوله في موضع آخر من الشعاعات؛ فإنه قال: "تقابل الخير والشر في هذا الكون هو لحكمة كبرى، لأنه ما لم يكن هناك الشر فلا يفهم الخير"[١١].

---

(١٥) الشعاعات، المجلد الرابع من رسائل النور : ٧٧

(١٦) نفسه : ٢٩٠

فالمحاسن تكتسب مظهرها الجميل من وجود القبائح، ولولا وجود القبح والشر لما كان للجمال والخير مفهوم، بمعنى أن الإحساس بجمال الجميل مرهون بوجود قبح القبائح فهو وليد المقارنة بين الطرفين.

وتؤيد كلمات بعض العلماء ما قلناه، وفي مقدمتهم الغزالي؛ فإنه قال في كتاب التوحيد والتوكل من "الإحياء"، ما لفظه: "كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره؛ إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة، وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل، وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لم يظهر شرف الإنس، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا، وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل، لأنه فداء كامل بناقص، فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة، فكل ذلك عدل لا جور فيه، وحق لا لعب فيه"(١٢).

الأمر الثالث: أن القبائح مقدمة لوجود المحاسن وخالقة ومظهرة لها، فالسعادات تستقر في رحم المصائب والشقاء، كما أن الشقاء يتكون أحيانا في رحم السعادات.

ويبين القرآن الكريم التلازم الحتمي بين الصعاب والراحة بقوله: ﴿فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا﴾ (الشرح : ٥- ٦).

أي: أن اليسر كامن في رحم العسر وقرين له.

---

(١٧) كتاب التوحيد والتوكل من "الإحياء": ٣٤٣/٤.

إن مـن خـصوصيات الموجـودات الحيـة وخاصـة الإنـسان؛ أن الـصعاب والمـصائب مقدمـة لتطورهـا ونيلهـا للكمـالات، فالـضربات تـدمر الجمـادات وتضعف قوتها، لكنها تحرك الموجودات الحية وتقويها.

إذن؛ فالمصائب والشدائد أمور ضرورية لتكامل الإنسان، ولولا المحن والمكاره لفسد، قال الله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ (البلد: ٤).

ومن هنا؛ فإن العلامة النورسي يرى أنه ليس للإنسان حق الشكوى على وجود المصائب والبلايا وغيرها من الشدائد والمشاق، ما دامت مربية للفرد، موقظة للمجتمعات، فهي توقظ الغافلين وتثير العزائم والهمم، وتصقل الإرادة وتقويها، مثلما يزداد الحديد قوة بالصقل. ولذلك فهي كلما اشتدت على الإنسان جعلت روحه أقوى وأشد فاعلية وشكيمة؛ لأن علامة حياة الموجود هي مقاومة الشدائد ومواجهتها عن وعي أو بغيره.

وقد جاء العلامة النورسي بهذا المعنى مصرحا به، حيث قال في اللمعات ما نصه: "إن الحياة تتصف بالمصائب والبلايا، وتتزكى بالأمراض والنوائب، وتجد بها الكمال وتتقوى وتترقى وتسمو وتثمر وتنتج وتتكامل وتبلغ هدفها المراد لها، فتؤدي مهمتها الحياتية. أما الحياة الرتيبة التي تمضي على نسق واحد، وتمر على فراش الراحة، فهي أقرب إلى العدم الذي هو شر محض منه إلى الوجود الذي هو خير محض. بل هي تفضي إلى العدم"[(١٣)].

فالحاصل؛ أنه يجب على الإنسان أن يتحمل المشاق والشدائد والمصائب لكي يصل إلى كماله الوجودي الجدير به، والصراع والتعب بمثابة السوط الذي يسوقه إلى التكامل، وبه تشق الموجودات الحية طريقها نحو الكمال.

المسألة الثالثة: إشكالية خلق الشياطين

فكما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ فإن من الاعتراضات المثارة بشأن العدل الإلهي؛ مسألة خلق الشياطين؟ وتسببهم في دخول الناس جهنم؟

(٢٠) اللمعات، المجلد الثالث من رسائل النور : ١٢ – ١٣

فكيف ترضى رحمة ذلك الرحيم المطلق، ويسمح جمال ذلك الجميل المطلق وهو الرحمن ذو الجمال، بهذا القبح غير المتناهي والمصيبة العظمى؟

إن هذا الاعتراض والاتهام الموجه للشيطان في منتهى الوهن، وصادر عن غاية الجهل؛ ويستهدف في الواقع جهة أعلى؛ لأن الشيطان ليس هو صاحب القرار في إدخال الناس جهنم.

والذي أوقعهم في هذا الاشتباه؛ الغفلة عن الحكمة في خلق الشيطان، والتي استظهر في بيانها النورسي في "رسائل النور".

فالجواب الذي يقدمه العلامة النورسي عن هذا الإشكال، يرتكز على حقيقة أنه إزاء الشرور الجزئية للشياطين، تكمن في وجودهم كثير من المقاصد الخيرة الكلية وكمالات، ترقى بالإنسان في سلم الكمال.

وبيانه؛ أن "حركة لولب الرقي ونابض السمو... هي بالمجاهدة. ولا تصل هذه المجاهدة إلا بوجود الشياطين والأشياء المضرة؛ إذ لولا تلك المجاهدة لظلت مرتبة الإنسان ثابتة كالملائكة، وعندها ما كانت لتظهر تلك الأصناف السامية من الناس التي هي بحكم الآلاف من الأنواع في النوع الإنساني. وحيث إنه ليس من الحكمة والعدالة بشيء أن يترك الخير الكثير جدا تجنبا لحصول شر جزئي، فإن انزلاق كثير من الناس باتباع خطوات الشيطان، لا يحمل أهمية كبيرة ما دام التقويم والأهمية يأخذ النوعية بنظر الاعتبار، ولا ينظر إلى الكلية إلا قليلا، بل قد لا ينظر إليها"[(١٤)].

واستنادا إلى هذا الفهم؛ ينحل أيضا إشكال وجود الشيطان، كما انحل من قبل إشكال وجود المصائب والبلايا.

المسألة الرابعة: الجزاء الأخروي

من المسائل التي ينبغي تناولها ضمن مبحث العدل الإلهي، مسألة الجزاء

---

(٢١) اللمعات : ١١٠- ١١١

الأخروي على الأعمال؛ لأن المعاد والحساب على صالحات الأعمال وسيئاتها، وإثابة المحسنين، ومعاقبة المسيئين، هي بحد ذاتها من مظاهر العدل الإلهي. وعادة ما يستدل لإثبات المعاد بعدالة الله سبحانه وحكمته؛ لأن من مقتضياتهما أن لا يترك أعمال البشر دون حساب وثواب وعقاب.

من أجل ذلك؛ ألفينا العلامة النورسي يولي هذه المسالة عناية فائقة في "رسائل النور". وحسبنا من ذلك ما أورده في "إشارات الإعجاز"؛ حيث قال ما نصه: "فاعلم أنا كثيرا ما نرى الظالم الفاجر الغدار في غاية التنعم، ويمر عمره في غاية الطيب والراحة. ثم نرى المظلوم الفقير المتدين الحسن الخلق ينقضي عمره في غاية الزحمة والذلة والمظلومية، ثم يجيء الموت فيساوي بينهما. وهذه المساواة بلا نهاية ترى ظلما. والعدالة والحكمة الإلهيتان اللتان شهدت عليهما الكائنات منزهتان عن الظلم؛ فلابد من مجمع آخر ليرى الأول جزاءه، والثاني ثوابه، فيتجلى العدالة الإلهية"[١٥].

ولم يكن العلامة النورسي في هذه الأمر بدعا من العلماء الماضين قبله، فها هو الإمام الرازي، يصرح بأن الله تعالى لو لم يخلق المعاد حتى يجد المحسن ثمرة إحسانه، ويجد المسيء عاقبة إساءته لم يكن لائقا بحكمته[١٦].

والاعتراض المثار تجاه العدل الإلهي، فيما يرتبط بكيفية أنواع الجزاء والعقوبات الأخروية؛ إذ يقال: إن هذه العقوبات تناقض العدل الإلهي بسبب عدم تناسبها مع طبيعة الجرائم، ولذلك لا تكون عادلة.

والأساس الذي يستند إليه هذا الاعتراض هو القول بلزوم رعاية التناسب بين الجريمة والعقاب، وإلا كانت هذه العقوبات نوعا من الظلم.

---

(٢٢) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز : ٦٦، وينظر أيضا الكلمات، المجلد الأول من رسائل النور: ٦٥

(٢٣) عجائب القرآن، لفخر الدين الرازي: ١٤

ومن بين المعترضين؛ نجد الفيلسوف الرياضي برتراند رسل، الذي ظن أن علاقة الدنيا بالآخرة هي من سنخ العلاقات العقدية الاعتبارية المألوفة في المجتمعات البشرية، ولذلك نجده يقول: كيف يمكن أن يكون الإله إلها وهو يفرض علينا عقوبات شديدة بسبب جنايات صغيرة جدا؟[١٧]

وواضح من هذه القول أن رسلا وأمثاله بعيدون عن أبسط المعارف الإلهية الحقة، وذلك بسبب عدم تعرفهم على المعارف الإسلامية، فقد انحصرت معرفتهم في إطار العالم المسيحي، ولم يشموا رائحة الحكمة والفلسفة والعرفان وعموم المعارف الإسلامية السامية.

أما بديع الزمان؛ فقد شم رائحة الحكمة والفقاهة، وأخذ بمجامع المسألة وأصولها. فللّه أبوه ما أرفع كلماته عن مقام المتحدي والمعارض، وما أمنع حججه عن نظر الناقد والمستدرك.

قال رحمه الله يدحض ذلك الاعتراض في المكتوب الثاني عشر: "إن الكافر وإن عمل ذنبا في عمر قصير، إلا أن ذلك الذنب ينطوي على جناية لا نهاية لها؛ ذلك لأن الكفر تحقير للكائنات جميعا وتهوين من شأنها.. وتكذيب لشهادة المصنوعات كلها للوحدانية.. وتزييف للأسماء الحسنى المشهودة جلواتها في مرايا الموجودات .. ولهذا يلقي القهار الجليل، سلطان الموجودات الكفار في جهنم ليخلدوا فيها، أخذا لحقوق الموجودات كلها منهم"[١٨].

ومن هذا القبيل أيضا؛ ما أورده في إشارات الإعجاز؛ حيث قال ما لفظه: "إن قلت: إن معصية الكفر كانت في زمان قليل أبدي غير متناه، فكيف ينطبق هذا الجزاء على العدالة الإلهية؟

قيل لك: مع تسليم عدم تناهي الجزاء، إن الكفر في زمان متناه جناية غير متناهية بست جهات:

---

(٢٤) العدل الإلهي ، لمرتضى مطهري : ٣٣٧

(٢٥) المكتوبات: ٥١

منها: أن من مات على الكفر لو بقي أبدا لكان كافرا أبدا لفساد جوهر روحه، فهذا القلب الفاسد استعد لجناية غير متناهية.

ومنها: أن الكفر وإن كان في زمان متناه لكنه جناية على غير المتناهي، وتكذيب لغير المتناهي؛ أعني: عموم الكائنات التي تشهد على الوحدانية.

ومنها: أن الكفر كفران لنعم غير متناهية.

ومنها: أن الكفر جناية في مقابلة الغير المتناهي وهو الذات والصفات الإلهية.

ومنها: أن وجدان البشر... وإن كان في الظاهر والملك محصورا ومتناهيا؛ لكن ملكوتيته بالحقيقة نشرت ومدت عروقها إلى الأبد. فهو من هذه الجهة كغير المتناهي وبالكفر تلوث واضمحل.

ومنها: أن الضد وإن كان معاندا لضده؛ لكنه مماثل له في أكثر الأحكام. فكما أن الإيمان يثمر اللذائذ الأبدية، كذلك من شأن الكفر أن يتولد منه الآلام الأبدية.

فمن مزج هذه الجهات الست يستنتج أن الجزاء الغير المتناهي إنما هو في مقابلة الجناية الغير المتناهية، وما هو إلا عين العدالة"[١٩].

وبهذا البيان؛ يتضح أن تلك الشبهة المثارة في هذا المجال، صدرت من قوم لم يدركوا الحكمة وراء ذلك الجزاء، ولم يقفوا على ما فيه من السر البديع.

وحيث يصل الكلام إلى هذه المرحلة؛ يثار سؤال آخر مضمونه هو: أي حسن في خلق جهنم؟

إن أصحاب هذا الإشكال؛ يتكلمون وكأن ما قالوه هو الحق، ولا يرون أن من وراء ما بلغوا مبلغا لغيرهم.

إنهم ينظرون إلى جهنم باعتبارها ظاهرة سلبية في الوجود، ويغفلون عن التفكر في حال الوجود لو خلا من جهنم.

---

(٢٦) إشارات الإعجاز : ٨٦- ٨٧ ، وينظر أيضا الكلمات : ٦٤

وهذا الكلام؛ وإن كان يملأ القلب قيحا، ويشحن الصدر غيظا، لكن ما أورده بديع الزمان في دفعه يشفي صدور قوم مؤمنين.

قال رحمه الله ما عبارته: "إن وجود جهنم وعذابها لا ينافي قطعا الرحمة غير المحدودة، ولا العدالة الحقيقية، ولا الحكمة الموزونة التي لا إسراف فيها، بل إن الرحمة والعدالة والحكمة تتطلب وجود جهنم وتقتضيه، لأن قتل حيوان افترس مائة من الحيوانات أو إنزال عقاب بظالم هتك حرمات ألف من الأبرياء، هو رحمة بآلاف الأضعاف للمظلومين من خلال العدالة. وأن إعفاء ذلك الظالم من العقاب أو التجاوز عنه، وترك ذلك الحيوان الوحشي طليقا، فيه ظلم شنيع وعدم رحمة لمئات المساكين بمئات الأضعاف، إزاء رحمة في غير موضعها. ومثل هذا أيضا؛ الكافر المطلق - الذي يدخل سجن جهنم – فإنه بكفره ينكر حقوق الأسماء الإلهية الحسنى، أي يتعدى على تلك الحقوق.. وبتكذيبه لشهادة الموجودات – الشاهدة على تلك الأسماء – يتعدى على حقوقها أيضا... وبجحوده لأنواع العبادات التي تؤديها المخلوقات تجاه تظاهر الربوبية والألوهية –وهي غاية خلقتها وسبب من أسباب وجودها وبقائها – يتعدى تعديا صارخا على حقوق جميع المخلوقات؛ لذا فالكفر جناية عظيمة، وظلم شنيع تتجاوز بشاعته كل حدود العفو والمغفرة، فيحق عليه إذن تهديد الآية الكريمة ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، بل إن عدم إلقاء مثل هذا الشخص في جهنم رحمة به هو أمر ينافي الرحمة كلية في حق هذه الأعداد الهائلة من المخلوقات والكائنات التي انتهكت حقوقها"[٢٠].

فانظر إلى حسن هذا البيان؛ أثبت لله الكمال في عدله، وكشف عن الحكمة فيه. وصرح بما اندمج عليه من المحاسن.

---

(٢٧) الشعاعات: ٢٨٧- ٢٨٨، والآية من سورة النساء: ٤٨

خاتمة تكر على البحث ببيان أهم نتائجه:

لقد تميز النورسي برؤية عرفانية للكون، جعلته يستبدل الكثرة الفلسفية بالوحدة العرفانية، والعلية الفلسفية بمفهوم التجلي، والعقل والوجوب الفلسفي بالحب والحسن، ولذلك فهو يرى العالم برمته مظهرا وتجليا للجميل الأحد المطلق.

إنه يعتبر أن خيرات العالم وشروره؛ ليستا منفصلتين عن بعضهما. إن واقع الحال هو أن الخيرات والشرور متمازجة بصورة لا يمكن الفصل بينهما. وحيثما وجد الشر في عالم الطبيعة وجد الخير معه، وحيثما وجد الخير وجد الشر معه، فلقد امتزجا واختلطا في عالم الطبيعة.

ومن شأن هذه النظرة العرفانية القرآنية الوقادة؛ أن لا تكون إلا باعثة للنشاط؛ لأنها ترى الخير ومظاهر العدل واللطف والرحمة الإلهية متجلية في كل أجزاء الكون والحياة، وتجعل الإنسان يتعامل مع كل ما حوله، وما ينزل به من طوارق السراء والضراء كجنود إلهية لخدمة مسيرة الوصول إلى الغاية العليا التي قدرها الله عز وجل لأكرم مخلوقاته عليه وخليفته في أرضه، فلا تسمح للمصائب والبلاء والصعاب، وكل ما تبدو في ظواهرها شرورا؛ أن توقع الإنسان في مستنقعات اليأس وحياة العبث، بل تجعله يرحب بها ويتخذها وسيلة للرقي والتكامل.

ومن شأن الوقوف على حقيقة العدل الإلهي في "رسائل النور"؛ أن يفضي إلى إدراك حقيقة أن الإنسان لم يخلق عبثا، وأنه لم يخلق لهذه الدنيا ليموت فيها، بل إن ثمة غاية عظمى لخلقه يكمن له فيها الخير كل الخير، فهو مخلوق للخلود وعليه أن يعمل لكي تكون حياته الخالدة كريمة مفعمة بالسعادة، ويتجنب الأعمال التي تتجسم له في عالم الخلود بأنواع البؤس والشقاء المقيم.

ومن شأن هذه الرؤية العرفانية للعدل الإلهي أيضا؛ أن تسهم في الحصول على معرفة عميقة لسابقية الرحمة الإلهية وشمولها لأجزاء الكون وشؤون

الحياة؛ مقرونة بحاكمية قوانين العدل واللطف؛ وهذه المعرفة تحصن الإنسان من مختلف أشكال الأفكار التشاؤمية المدمرة لكوامن الخير في وجوده.

ومن شأنها كذلك؛ تعميق المعرفة بسنة الله في إجراء الأمور بأسبابها، هذه المعرفة التي تحصن الإنسان من الغرور ومن الأماني، والأفكار المستهينة بقيمة العمل، والباعثة للتقاعس عن صالحات الأعمال، والموقعة في مهاوي الغفلة عن استثمار عمره، وهو رأس مال وصوله إلى معارج الخير ومقامات النور.

اللّهم ارحم بديع الزمان، وأسكنه فسيح الجنان، وانفعنا بعلمه وحكمته يا رحمن.

مراجع البحث مرتبة حسب ورودها في الهوامش

١- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٢- المثنوي العربي النوري (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٣- المكتوبات (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٤- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٥- الشعاعات (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٦- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، مطبعة المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٢.

٧- اللمعات (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٨- الكلمات (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٩- عجائب القرآن، لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٤- ١٩٨٤.

١٠- العدل الإلهي، لمرتضى مطهري، ترجمة عرفان محمود، نشر مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، شعبان ١٤٢٤- ٢٠٠٣.

مقاصد الشريعة الإسلامية
وتطبيقاتها في منهج بديع الزمان النورسي

ماهر الهندي
باحث دكتوراه في أصول الفقه
محاضر في معهد جمعية الفتح الإسلامي

الحمد لله الذي شرع فأحكم، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد النبي الأعظم، وعلى آله وصحبه أولي القدر الأكرم والتابعين لهم بالإحسان الأقدم.

أما بعد: ففي عالم مغرق بالماديات، وخال من الروحانيات، وفارغ من المعنويات تظهر أهمية قراءة النصوص قراءة مقاصدية، ويصبح التأمل بالمقاصد والمعاني أمراً ملحّاً؛ لإيجاد نوع من التوازن الفكري، وبسط هذا الفكر على مناحي الحياة.

فالشريعة جاءت لتحقيق مصالح العباد الدنيوية والأخروية، كما جاءت لإصلاح شؤون الناس في العاجل والآجل، وشرعت من الأحكام ما يناسب المقدمات والنتائج.

هذا، وإن علم المقاصد من العلوم العَلِيَّة، والمباحث الجليلة، وهو علم دقيق، لا يخوض فيه إلا من لَطُف ذهنه، واستقام فهمه، ودق اجتهاده، وهو علم أصيل، راسخ الأساس، ثابت الأركان، مستقر القواعد، مرن الفروع والجزئيات.

ولقد حوى الأستاذ بديع الزمان النورسي من جملة العلوم الكثيرة التي أحاط بها علم المقاصد الذي بنى عليه رسائله النورية، فما من موقف له أو مقالة أو رسالة إلا وهي منسجمة مع روح هذه المقاصد الكلية ولكنها أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

ومقاصد الشريعة: هي أصولها الكبرى، وأسسها العظمى، وأركانها التي لا تبلى، وفروعها المتغيرة حسب الزمان والمكان؛ مراعاة لحالة الإنسان.

وفي سبيل التعرف على المقاصد لا بدَّ للباحث من إطالة التأمل، وجودة التثبت، ودقة النظر، ورحابة الفكر، وسعة الأفق، إذا أراد يكون وصوله إلى المقاصد صحيحاً، وليحذر من التساهل والتسرع في ذلك؛ لأن تعيين مقصد شرعي أمر تتفرع عنه أدلة وأحكام كثيرة في الاستنباط، ففي الخطأ فيه زلل كبير، وخطر عظيم؛ فلا يُعيّن المجتهد أو الفقيه مقصداً شرعياً إلا بعد استقراء أحكام الشريعة في النوع الذي يريد معرفة المقصد الشرعي منه، وبعد اقتفاء آثار أئمة الفقه، وأعلام الاجتهاد، والمبرزين في الاستنباط؛ يستضيء بأفهامهم، ويستنير باستنباطاتهم، ويهتدي بما وصلوا إليه من مقاصد.

تعريف مقاصد الشريعة:

كلمة مقاصد، جَمْعُ: مَقْصَد مصدر ميمي، ومن معاني القَصد: الاعتماد والأَمّ - بفتح الهمزة مع تشديد الميم- ، تقول: قصد الحجاجُ البيتَ الحرام، إذا أَمّوا تلك الجهة واعتمدوها.

وكلمة الشريعة؛ في الاصطلاح: هي الطريق في الدين أو هي الائتمار بالتزام العبودية[1].

ويقصد بالشريعة في هذا البحث: الأحكام الشرعية التي سنّها الله عزَّ وجلَّ، وأنزلها على خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ سواء في أحكامها الاعتقادية أو فروعها الفقهية أو آدابها النبوية.

---

(١) التعريفات ص١٦٧.

وبعد التعريف بالمقاصد والشريعة مفرداتٍ نعرِّف التركيب الإضافي: وهو: مقاصد الشريعة، ولعل أولى تعريف لعلم المقاصد أنه: علم يُعنَى بالغايات التي رعاها المشرع في التشريع أو هي المعاني والأهداف الملحوظة للشارع في جميع أحكامه أو معظمها[٢].

ويرى الأستاذ بديع الزمان أن المقاصد الأساسية للقرآن الكريم أربعة كما قال: (إن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعة: وهي التوحيد والرسالة والحشر والعدالة مع العبودية).[٣]

تاريخ علم مقاصد الشريعة:

كان مصطلح مقاصد الشريعة ظاهراً في بعض نصوص الكتاب والسنة، وفتاوى وعمل الفقهاء، دون تدوين لذلك في كتاب.

لكن لما انْقَلَبَتْ العلوم صناعة، ودُوِّنت المصنفات، وألفت الكتب؛ ظهر علم مقاصد الشريعة، ويمكن تمييز ثلاث مراحل لهذا العلم:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة النشأة والتكوين: وتتمثل هذه المرحلة بما قام به علماء الأصول من إظهار بعض مباحث ومسائل مقاصد الشريعة في تآليفهم وتصانيفهم، ومن أبرز أولئك: إمام الحرمين أبو المعالي الجويني في كتابه: البرهان، والإمام أبو حامد الغَزَّالي (ت: ٥٠٥ هـ) في كتابيه: المستصفى، وشفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل، ومسالك التعليل[٤].

مزايا هذه المرحلة:

أ - إظهار بعض مباحث علم المقاصد ومسائله.

ب - عدم الإسهاب في مباحث علم المقاصد بياناً وتحقيقاً.

---

(٢) أصول الفقه الإسلامي د.الزحيلي ١٠١٧/٢.

(٣) المثنوي العربي النوري ٧٥

(٤) طبع بتحقيق حمد الكبيسي، طبع وزارة الأوقاف العراقية، عام ١٩٧١م.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة التَحَوُّل والتدوين:

وفيها إظهارُ أصول مقاصد الشريعة، وقواعدَ كليةٍ تتعلق بذلك، وتتمثل بما قام به سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت:٦٦٠هـ)، في كتابه: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، والقواعد الصُغْرى.

مزايا هذه المرحلة:

أ - إظهار أصول المقاصد إظهاراً بَيِّناً واضحاً.

ب - المجيء بمباحث وقواعد في المقاصد لم تُذْكَر من قبل.

ولقد اعتنى الإمام القَرَافي المالكي بتحرير وتهذيب ما قرَّره شيخه العز بن عبد السلام، وذلك في منثور كتبه، وخاصة كتب: الفروق، والنفائس، وشرح تنقيح الفصول.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الاكتمال والنضج:

وتتمثل بما قام به الإمام الشاطبي (ت:٧٩٠ هـ)، في كتابه: الموافقات؛ حيث جمع مسائل هذا العلم، وأصَّل قواعده، وحَقَّق مباحثه، حتى نسب وضع علم المقاصد إليه(٥).

مزايا هذه المرحلة:

أ - اكْتِمال علم المقاصد في جملة مسائله مع تأصيل قواعده وبيان ضوابطه.

ب - إظهار مقاصد الشريعة كعلم مُسْتَقِل وإن كان هو في الجملة جزءاً من أصول الفقه.

ولعل من الأسباب التي دفعت الإمام الشاطبي للعناية بالمقاصد أنه مالكي المذهب، ومعلوم أن من أصول المذهب المالكي: مراعاة المصالح، هذا بالإضافة إلى وجود المَلَكَة التامَّة للاستنباط والتعليل عند الإمام الشاطبي، والقوة في علم اللسان والعربية.

---

(٥) حتى اعتبرها أستاذنا الراحل الدكتور مصطفى الخن مدرسة مستقلة في أصول الفقه. تاريخ الفقه وأصوله ص٢٥.

فوائد علم مقاصد الشريعة:

إن لعلم مقاصد الشريعة فوائدَ جمةً، يمكن إجمالها وجمعها في أربع فوائد كبرى:

أولها: إن العلم بها يشير إلى الكمال في التشريع والأحكام. قال الله تعالى: إنا كل شيء خلقناه بقدر، وتندرج الأحكام الشرعية تحت خلق الله المقَدَّر بحكمة.

قال ابن القيم: [إنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة، هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا[٦]]، وقال: [إن كل ما خلقه وأمر به: فله فيه حكمة بالغة، وآيات باهرة؛ لأجلها خلقه وأمر به[٧]].

ثانيها: إن العلم بالمقاصد يفيد معرفة مراتب المصالح والمفاسد، ودرجات الأعمال في الشرع والواقع، وهذا مُهِمّ عند الموازنة بين الأحكام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: [والمؤمن ينبغي له أن يَعْرف الشرور الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة، كما يَعْرف الخيرات الواقعة، ومراتبها في الكتاب والسنة، فيُفَرِّق (بين) أحكام الأمور الواقعة الكائنة، والتي يُراد إيقاعها في الكتاب والسنة، ليقدِّم ما هو أكثر خيراً وأقل شراً على ما هو دونه، ويَدْفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما، ويَجْتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإنّ من لم يَعْرف الواقع في الخلق، والواجب في الدين: لم يَعْرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يَعْرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يُفْسِد أكثر مما يُصْلِح[٨]].

---

(٦) شفاء العليل، طبعة مكتبة الرياض الحديثة ص١٩٠.
(٧) مفتاح دار السعادة، طبعة ابن عفان، ١٦/٣.
(٨) جامع الرسائل، ٢ /٣٠٥.

ثالثها: إن العلم بالمقاصد نافع في تَعْدية الأحكام، من الأصول إلى الفروع، ومن الكليات إلى الجزئيات، ومن الأشباه إلى النظائر، يقول الغزَّالي: [الحكم الثابت من جهة الشرع نوعان: أحدهما: نَصْب الأسباب عللاً للأحكام، كجعل الزنا مُوجباً للحد، وجعل الجماع - في نهار رمضان- موجباً للكفارة، وجعل السرقة موجبة للقطع، إلى غير ذلك من الأسباب التي عُقِل من الشرع نصبها عللاً للأحكام. والنوع الثاني: إثبات الأحكام ابتداء من غير ربط بالسبب. وكل واحد من النوعين قابل للتعليل والتَّعْدية، مهما ظهرتْ العلة المتعدِّية(٩)].

رابعها: إن العلم بالمقاصد يزيد النفس طُمَأنينة بالشريعة وأحكامِها، والنفسُ مَجْبولة على التسليم للحُكم الذي عرفتْ عِلَّته(١٠).

إثبات كوْن الشريعة مبنيةً على مقاصد:

لقد قامت الأدلة القاطعة على كون الشريعة ذات مقاصد بُنيتْ عليها، ويمكن إثبات ذلك بطريقين: الخبر والنقل، والنظر والعقل.

أولاً: الخبر والنقل؛ وهو نوعان: أولهما عام؛ مثل قول رسول الله ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار(١١)"، وفيه نفيُ الضرر والإضرار في أحكام الشرع، فدلّ على مقصد من مقاصد الشريعة في الأحكام(١٢). والقاعدة الكلية الفقهية الكبرى المتفق عليها: (الأمور بمقاصدها)، وفيها إثبات الأحكام الدينية بناءً على النية والقصد والغاية.

والثاني خاص؛ يتعلق بمسائل ذُكِر لها مقاصد، ومنها: تحريم الخمر؛ لإِفسادها للعقل؛ ومن أدلة ذلك قوله ﷺ: "كل مسكر خمر، وكلُّ مسكر حرام(١٣)".

قال ابن القيم: [القرآن وسنة رسول الله ﷺ مملوءان من تعليل الأحكام بالحِكَم والمصالح وتعليل الخلق بهما، والتنبيه على وجوه الحِكَم التي لأجلها

(٩) شفاء الغليل، ص ٦٠٣.
(١٠) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم، طبعة السنة المحمدية، ص: ٤٣٧.
(١١) أخرجه أحمد في: المسند، ٣٢٦/٥، وابن ماجه في: السنن، ٧٨٤/٢، برقم: ٢٣٤٠.
(١٢) ينظر: مجموع الفتاوي، ٥٣/٢٠.
(١٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ١٥٨٧/٣، برقم: (٢٠٠٣).

شرع تلك الأحكام، ولأجلها خلق تلك الأعيان، ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة(١٤)].

والثاني: النظر والعقل؛ وله وجهان: الأول: الاستقراء؛ قال البيضاوي: [إن الاستقراء دَلّ على أن الله سبحانه شرع أحكامه لمصالح العباد(١٥)].

الثانية: الدلالة العقلية، ومنها أن يقال(١٦): الشارعُ في تشريعه؛ إما أن يكون قد راعى مقاصد عند التشريع أَوْ لا. والثاني باطل؛ لأنه إما لعدم العلم السابق للتشريع، أو لعدم الحكمة عند التشريع، أو لمانع منع الشارع من مراعاة المقاصد، وكلها باطلة فاسدة بالإجماع؛ فتعيَّن الأول ـ وهو أن الشارع قد راعى المقاصد عند التشريع ـ ولا بد.

طرق معرفة المقاصد: ثَبَت أن ثَمَّة مقاصد للشريعة؛ لكن اختُلف في الطُّرق المُوصِلة إليها، والمُوْقِفة على مفرداتها، إلا أن جِمَاع ذلك طريقان: الاستقراء، والأدلة الشرعية.

وفيما يأتي بيان موجز لكل منهما: أولاً: الاستقراء:

تعريف الاستقراء: وهو تَتَبُّع جُزئيات الشيء لإثبات حُكْم كُلّي.

أقسام الاستقراء؛ يُقَسَّم إلى قسمين:

- الأول: استقراء تام، وهو: تتبع جميع جزئيات الشيء لإثبات حكم كُلّي، وهذا حجة عند جماهير العلماء وأكثرهم، وإن كان يندر حدوث الاستقراء التام إلا ما كان في النصوص الشرعية المحددة (القرآن الكريم).

---

(١٤) مفتاح دار السعادة، طبعة دار الفكر ، ص: ٤٠٨.

(١٥) المنهاج، ص: ٢٣٣ طبعة عالم الكتب، وينظر: قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام، ١٦٠/٢، والموافقات، للشاطبي، ٦/٢.

(١٦) شفاء الغليل، ابن القيم، ص ٤٢٩.

– والثاني: استقراء ناقص، وهو: تتبع جُمْلَةٍ من جزئيات الشيء لإثبات حكم كُلِّي، وهذا مختلف في حُجّيته، ولكنه من الناحية الأكاديمية العلمية البحثية هو المطلوب؛ لتعذر الاستقراء التام وإمكانية الاستقراء الناقص.

أنواع الاستقراء في علم المقاصد؛ للاستقراء نوعان:

– الأول: استقراء الأحكام التي عُرفتْ عِللُها، لأن في استقراء العلل الكثيرة المتماثلة يمكن أن نستخلص حكمة واحدة فنجزم بأنها مقصد شرعي، كما يقول علماء المنطق أنه يمكن تحصيل مفهوم كلي من خلال استقراء الجزئيات(١٧). مثال ذلك: قول رسول الله ﷺ: "المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يَذَر(١٨)". والعِلَّة في هذا النهي: هو ما في ذلك من الوحشة التي تنشأ عن السعي في حرمان الآخر من منفعة مبتغاة، فيُستخلص من ذلك مقصدٌ شرعي: هو دوام الأخوة بين المسلمين. وكذلك نهي رسول الله ﷺ عن الغرر، ومن معاني الغرر: الجهالة، والجهالة قد تفضي إلى نزاع، والقاعدة الفقهية تقول: (كل جهالة تفضي إلى نزاع؛ مفسدةٌ للعقد)، ومقصد التشريع في المعاملات المالية: سلامة صدور المسلمين على بعضهم؛ خالية من الحقد أو الكراهية، ولذا تم بناء أحكام المعاملات المالية على البيان والوضوح، لا على التدليس والغش والغموض.

– والثاني: استقراءُ أدلةِ أحكام اشتركت في علةٍ، ومثاله: أحاديث النهي عن: (الاحتكار) و(تَلقّي الركبان) و(بيع الطعام قبل قبضه)، حيث تشترك في علة واحدة لمستقرئها وهي دفع الغرر.

فبهذا الاستقراء يحصل العلم بأن رواج الطعام، وتيسير تناوله وتداوه، وعدم ارتفاع سعره؛ بتقليل حلقات السلسلة بين المنتِج والمستهلك: مقصد من مقاصد الشريعة.

---

(١٧) يُنظر: ابن عاشور.
(١٨) أخرجه مسلم.

ثانياً: الأدلة الشرعية: تعريف الأدلة، هي جمع دليل، وهو ما يمكن التّوصّل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري. أقسام الأدلة: من حيث الاحتجاج بها كطريق لمعرفة المقاصد، تقسم إلى قسمين:

الأول: أدلة نصية متفق عليها، كـ(الكتاب) و(السنة). ومن أمثلة الأدلة النصية من الكتاب قوله تعالى: وأحل الله البيع، وقد شرعه الله لتحقيق مصالح العباد بالتبادل. ومن أمثلة الأدلة النصية من السنة قول رسول الله ﷺ: "تناكحوا تناسلوا..."، وقد شرع النكاح لتحقيق مصلحة العباد في الاستقرار واستمرار النوع البشري.

والثاني: أدلة اجتهادية، كـ(الإجماع) و(القياس). ومن أمثلة الإجماع: الاتفاق على أن تحريم الربا مُعلَّل، وإن اختلفت أقوال الفقهاء في بيان على تحريم العلة. فعند فقهاء الحنفية والحنابلة: علة تحريم الربا الكيل والوزن، وبمعنى أن كل ما يدخله القياس يجري في الربا، وإذا تمت مبادلته بجنسه وجب شرطان: التماثل والتقابض، وإذا تمت مبادلته بغير جنسه وجب شرط واحد، وهو: التقابض. وعند فقهاء الشافعية: علة تحريم الربا الثمنية والطعم، فكل ما كان ثمناً أو طعاماً يجب عند مبادلته بجنسه شرطان: التماثل والتقابض، وعند مبادلته بغير جنسه وجب شرط واحد، وهو: التقابض. وعند فقهاء المالكية: علة تحريم الربا الثمنية والقوت، فكل ما كان ثمناً أو قوتاً يدَّخر يجب عند مبادلته بجنسه شرطان: التماثل والتقابض، وعند مبادلته بغير جنسه وجب شرط واحد، وهو: التقابض. ومن أمثلة القياس: تحريم التدخين لعلة الضرر والإضرار المنهي عنه شرعاً، والعلة متفق عليها، واندراج ضرر التدخين فيها متفق عليه في هذا الزمان بعد أن تحقق الضرر وثبت عن طريق العلم.

مراتب مقاصد الشريعة

المقاصد الشرعية تتفاوت مراتبها لتَبَايُن آثارها؛ لذا جعلها العلماء على مراتب، واستقر الاصطلاح على أنها مراتب ثلاث:

أُوْلاها: مرتبة الضَّرَوْرِيَّات. والكلام فيها كما يأتي:

تعريف الضروريات: يقول المَحَلِّي: [هي ما تصل الحاجة إليه إلى حَدّ الضرورة[١٩]]، ويقول ابن عاشور: [هي التي تكون الأمة بمَجْموعها وآحادها في ضرورة إلى تَحْصِيْلها[٢٠]].

ومعنى الضرورية: [أنها لا بدَّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فُقِدت لم تُجْرَ مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الآخرة: فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين[٢١]]. وقد حُصِرَتْ تلك الضروريات عند عامة العلماء في خمس أو ست، وهي: الدين، والنفس، والنسب أو النسل، والعقل، والمال، والعِرْض. وللمحافظة على هذه الضروريات أقام الشرع حدوداً من العقوبات:

فحَدُّ الردة في مقابل حفظ الدين.

وحَدُّ القتل قصاصاً في مقابل حفظ النفس.

وحَدُّ الزنى في مقابل حفظ النسب أو النسل.

وحَدُّ شرب الخمر في مقابل حفظ العقل.

وحَدُّ السرقة في مقابل حفظ المال.

وحَدُّ القذف في مقابل حفظ العِرْض.

دليل الضروريات: ويَرْجع إلى الاستقراء التام لأدلة الشريعة المُتَّفَق عليها مع اتفاق العقول الصحيحة على ذلك.

يقول الغَزَّالي: [وتحريم تَفْوِيْت هذه الأصول الخمسة يَسْتحيل أن لا تَشْتمل عليه مِلَّة ولا شريعة أُرِيْد بها إصلاح الخَلْق . وقد عُلِم بالضرورة كونها مقصودة للشرع لا بدليل واحد وأصل معين، بل بأدلة خارجة عن الحصر[٢٢]].

---

(١٩) شرح جمع الجوامع.

(٢٠) شرح جمع الجوامع.

(٢١) الموافقات، الشاطبي، دار الفكر، ٢/٤.

(٢٢) شرح جمع الجوامع.

وقال الشاطبي: [قد اتَّفَقَتْ الأمة بل سائر الملل: على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس: وهي: الدين، والنفس والنسل، والمال، والعقل، وعِلْمُها عند الأمة كالضروري، ولم يثبت لنا ذلك بدليل معين، ولا شهد لنا أصل معين يمتاز برجوعها إليه، بل علمت ملائمتها للشريعة بمجموعة أدلة لا تنحصر في باب واحد[٢٣]].

وقال: [وعلم هذه الضروريات صار مقطوعاً به، ولم يثبت ذلك بدليل معين، بل علمت ملائمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد . فكما لا يتعين في التواتر المعنوي أن يكون المفيد للعلم خبراً واحداً من الأخبار دون سائر الأخبار، كذلك لا يتعين هنا؛ لاستواء جميع الأدلة في إفادة الظن على انفرادها].

وسأطلق على هذه الضروريات الخمس أو الست: أهداف المجتمع الإسلامي، وبالتالي فإني أدعو إلى تعميم ونشر هذه الأهداف في كل المجتمعات؛ بعيداً عن الأهداف البشرية التي تطلق هنا أو هناك، وبتحقيق هذه الأهداف وإقامة حدودها للمحافظة عليها: يتحقق بناء الإنسان والمجتمع فكرياً.

بيان الضروريات الخمس أو الست:

١- الدين؛ في الاصطلاح: وَضْع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل[٢٤]. والمقصود بـ(الدين) هنا: الدين الإسلامي المُنزل على خاتم الرسل محمد ﷺ . قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران].

٢ - والنفس؛ يُقصد بها: النفس المعصومة من القتل والمحمية من الإزهاق، وهي ثلاثة أنفس: نفس معصومة بالإسلام وتكون للمسلمين، ونفس معصومة بالجزية وتكون لأهل الكتاب المقيمين مع المسلمين في بلد واحد، ونفس

---

(٢٣) شرح جمع الجوامع.
(٢٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي.

معصومة بالأمان وتكون للحربي الذي يطلب من المسلمين الدخول إلى أرضهم لأغراض مدنية[٢٥]. والعقل؛ هو: الحابس عن ذميم القول والفعل[٢٦]. يقول ابن تيمية: [فهنا أمور: أحدها: علوم ضرورية يفرق بها بين المجنون الذي رُفع القلم عنه، وبين العاقل الذي جرى عليه العقل، فهو مناط التكليف. والثاني: علوم مكتسبة تدعو الإنسان إلى فعل ما ينفعه وترك ما يضره، فهذا أيضاً لا نزاع في وجوده، وهو داخل فيما يحمد بها عند الله من العقل ... والثالث: العمل بالعلم، يدخل في مسمى العقل أيضاً، بل هو من أخص ما يدخل في اسم العقل الممدوح. والرابع: الغريزة التي بها يعقل الإنسان، فهذه مما تُنوزع في وجودها[٢٧]].

٣- والنسب أو النسل؛ النسل في اللغة: الولد، يقال: نَسَل نَسْلاً: إذا كَثُر نَسْلُه، أي: ولده وذُرِّيته.

٤- والمال؛ اصطلاحاً هو: اسم لغير الآدمي، خُلِق لمصالح الآدمي وأمكن إحرازه والتصرّف فيه على وجه الاختيار، ومن ذلك: الأثمان، والبضائع، والعقارات، والحيوانات[٢٨].

٥- والعِرْض؛ ويأتي على أكثر من معنى، منها: الجَسَد، وجانب الرجل الذي يَصُونه من نفسه ولا يُقبل أن يُنْتَقَص ويُثْلَب.

ترتيب الضروريات: في ترتيبها اتفق الفقهاء على أمرين: أولهما: تقديم الدِّيْن على باقي الضروريات ومنها: النفس، وإن قال بعض العلماء بتقديم النفس على الدين، وأجازوا لِمَن أُكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان أن ينطق بلسانه بما يخلِّصه من القتل، حتى إذا زال الإكراه عنه أعلن ما في قلبه من الإيمان. والثاني: تقديم النفس على باقي الضروريات سوى الدِّيْن.

---

(٢٥) الروضة، النووي.
(٢٦) مقاييس اللغة، ابن فارس.
(٢٧) بغية المرتاد.
(٢٨) الحاوي، السيوطي.

واختلف الفقهاء في شيئين: أولهما: النسل والعقل أيهما يُقَدَّم، فالآمدي في كتابه (الإحكام) جَزَم بتقديم النسل على العقل، وذهب ابن السبكي في (جمع الجوامع) إلى تقديم العقل على النسب. والثاني: العرض والمال أيهما يُقَدَّم، فمَن ألحق العرض بالنسب والنسل قَدَّمه على المال، ومَن جعله منفصلاً مستقلاً قَدَّم المال عليه.

وثانيها: مرتبة الحَاجِيَّات. والكلام فيها كما يأتي:

تعريف الحاجيات: يقول إمام الحرمين: [هي ما يَتَعَلَّق بالحاجة العامة ولا يَنْتَهي إلى حدّ الضرورة، وهذا مثل تصحيح الإجارة، فإنها مَبْنِيّة على مَسِيْس الحاجة إلى المساكن مع القصور - أي العجز حقيقة أو حكماً - عن تَمَلُّكها ورضة مُلاّكها بها - فالمالك يَضِّن في إعطاء الأشياء ـ على سبيل العاريّة، فهذه حاجة ظاهرة غير بالغة مَبْلَغ الضرورة المفروضة في البيع وغيره(٢٩)].

وقال الشاطبي: [الحَاجِيّ: هو ما يُفْتقر إليه من حيث التَّوْسِعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراعَ دخل على المكلَّفين - على الجملة - الحَرَجُ والمشقةُ؛ ولكنه لا يبلغ مَبْلغ الفساد العادي المُتَوَقَّع في المصالح العامة(٣٠)]. ومن أمثلتها: الرُّخَصُ المخفَّفَة؛ كالفطر زمن وجوب الصيام بسبب المرض أو السفر، ومثل: إباحة الصيد والتمتع بالطيبات مما هو حلال.

الحكمة من الحاجيات: تَرْجع إلى شيئين: أولهما: رَفْع الحرج والمشقة عن المكلفين، إذ دَوَرَان الحاجيّات على: التَّوْسِعة والتيسير، والرفق ورَفْع الضيق والحرج(٣١). والثاني: تكميل الضروريات وحِمايتها، يقول الشاطبي: [الأمور الحاجيّة: إنما هي حائمة حول هذه الحمى، إذ هي تتردد على الضروريات

(٢٩) البرهان.
(٣٠) الموافقات، الشاطبي ، ٢/٤-٥.
(٣١) يُنْظَر: الموافقات، الشاطبي ، ٢/٤-٥.

تُكَمِّلها، بحيث ترتفع في القيام بها واكتسابها: المَشَقّات، وتميل بهم فيها إلى التوسط والاعتدال في الأمور، حتى تكون جارية على وجه لا يميل إلى إفراط وتفريط[٣٢]]، ثم قال: [فإذا فهم هذا لم يَرْتَب - من الرَّيْب والشك- العاقل في أن هذه الأمور الحاجية: فروعٌ دائرةٌ حول الأمور الضرورية[٣٣]]، وقال أيضاً: [الحاجيّ مكمِّل للضروري[٣٤]]، وقال أيضاً: [الحاجيّ يَخْدم الضروري[٣٥]].

وثالثها: مرتبة التَّحْسِيْنِيَّات. والكلام فيها كما يأتي:

تعريف التحسينيات: يقول الشاطبي: [هي: الأخذ بما يليق من مَحَاسن العادات، وتَجَنُّب الأحوال المدنِّسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويَجْمع ذلك: قسم مكارم الأخلاق[٣٦]]. وذَكَرَ أمثلة على ذلك، مثل: أخذ الزينة، والتقرب إلى الله بنوافل الخيرات، ومثل آداب الأكل والشرب في (العادات)، ومنع بيع النجاسات في (المعاملات).

ثم قال: [وقليل الأمثلة يَدُلّ على ما سواها مما هو في معناها، فهذه الأمور راجعة إلى محاسن زائدة على أصل المصالح الضرورية والحاجيّة؛ إذ ليس فقدانها بمُخِلّ بأمر ضروري ولا حاجيّ، وإنما جَرَتْ مجرى التَّحسين والتَّزيين[٣٧]].

الحكمة من التحسينيات: وترجع إلى شيئين:

أولهما: تكميل الضروريات والحاجيّات وحمايتها، يقول الشاطبي: [كل واحدة من هذه المراتب: لما كانت مختلفة في تأكُّد الاعتبار – فالضروريات آكدها ثم تَلِيْها الحاجيات والتحسينيات - وكان مرتبطاً بعضها ببعض، كان في

---

(٣٢) الموافقات، الشاطبي ، ٩/٢.
(٣٣) الموافقات ٥/٢.
(٣٤) يُنْظَر: الموافقات، الشاطبي ، ٥/٢.
(٣٥) الموافقات، الشاطبي ، ٨/٢.
(٣٦) الموافقات، الشاطبي ، ٥/٢.
(٣٧) الموافقات، الشاطبي ، ٥/٢.

إبطال الأخفّ جُرْأة على ما هو آكد منه، ومدخل للإخلال به، فصار الأخف كأنه حِمىً للآكد، والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه(٣٨)]. وقال أيضاً: [إن كل حاجيّ وتَحْسيني إنما هو خادم للأصل الضروري ومُؤْنس به، ومُحَسِّن لصورته الخاصة: إما مُقدِّمةً له، أو مقارناً، أو تابعاً، وعلى كلّ تقدير فهو يدور بالخدمة حَوَالَيْه، فهو أحرى أن يتأدّى به الضروري على أحسن حالاته(٣٩)].

والثاني: [كمال الأمة في نظامها حتى تعيش أمة آمنة مطمئنة، ولها بهجة منظر المجتمع في مرأى بقية الأمم حتى تكون الأمة الإسلامية مرغوباً في الاندماج فيها أو في التقرّب منها(٤٠)].

أقسام مقاصد الشريعة: تَتَوَزَّع المقاصد الشرعية إلى قسمين:

أحدهما: المقاصد العامة، وهي: [المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو مُعظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة(٤١)]. ومَرَدّ ذلك إلى قاعدة الشرع الكُلّيّة المُعَبَّر عنها بـ(دَرْء المفاسد وجَلْب المصالح)، يقول الشاطبي: [المعلوم من الشريعة أنها شُرِعت لمصالح العباد؛ فالتكليف كله إما لدَرْء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معاً(٤٢)].

والثاني: المقاصد الخاصة، واختلف أهل العلم في قِسْمتها؛ لاختلاف الجهات والحيثيات.

- فمن حيث مرتبتها في القصد، قَسَّمها الشاطبي إلى قسمين: أولهما: المقاصد الأصليّة، وهي: [التي لا حَظّ فيها للمُكَلَّف، وهي الضروريات المُعْتبرة في كل مِلّة(٤٣)].

---

(٣٨) الموافقات، الشاطبي ، ٢/١٢- ١٣.
(٣٩) الموافقات، الشاطبي ، ٢/١٤..
(٤٠) الموافقات.
(٤١) الموافقات.
(٤٢) الموافقات.
(٤٣) الموافقات.

وقد تكون: [ضرورية عينية، وإلى ضرورية كفائية، فأما كونها: عينيّة فعلى كل مكلَّف في نفسه، فهو مأمور بحفظ دينه اعتقاداً وعملاً، وبحفظ نفسه قياماً بضرورية حياته، وبحفظ عقله حفظاً لمورد الخطاب من ربه إليه، وبحفظ نسله التفاتاً إلى بقاء عوضه في عمارة هذه الدار ... وبحفظ ماله استعانة على إقامة تلك الأوجه الأربعة ... وأما كونها: كفائية فمن حيث كانت منوطة بالغير أن يقوم بها على العموم في جميع المكلفين؛ لتستقيم الأحوال العامة التي لا تقوم الخاصة إلا بها . إلا أن هذا القسم مكمل للأول، فهو لاحق به في كونه ضرورياً؛ إذ لا يقوم العيني إلا بالكفائي(٤٤)].

والثاني: المقاصد التابعة، وهي: [التي روعي فيها حظ المكلف، فمن جهتها يَحْصل له مقتضى ما جُبِل عليه؛ من نيل الشهوات، والاستمتاع بالمباحات، وسَدّ الخَلاّت(٤٥)]، وهذا القسم مُكمِّل لما قبله، يقول الشاطبي: [المقاصد التابعة: خادمة للمقاصد الأصلية ومكملة لها، ولو شاء الله لكلَّف بها مع الإعراض عن الحظوظ، أو لكلف بها مع سلب الدواعي المجبول عليها؛ لكنه امْتَنَّ على عباده بما جعله وسيلة إلى ما أراده من عمارة الدنيا للآخرة، وجعل الاكتساب لهذه الحظوظ مباحاً لا ممنوعاً، لكن على قوانين شرعية هي أبلغ في المصلحة، وأجرى على الدوام مما يَعُدّه العبد مصلحة) والله يعلم وأنتم لا تعلمون (... فبهذا اللَّحْظ قيل: إن هذه المقاصد توابع، وإن تلك هي الأصول، فالقسم الأول: يَقْتضيه محض العبودية، والثاني: يقتضيه لطف المالك بالعبيد(٤٦)].

- ومن حيث كونها اعتبارية أو حقيقية، فقد قَسّمها ابن عاشور إلى نوعين: أولهما: معان حقيقية، وعرَّفها بقوله: [هي التي لها تَحَقُّقٌ في نفسها بحيث تُدْرِك العقول السَّلِيْمة ملائمتها للمصلحة أو منافرتها لها ... كإدراك كَوْن العدل نافعاً،

---

(٤٤) الموافقات.
(٤٥) الموافقات
(٤٦) الموافقات.

وكون الاعتداء على النفوس ضاراً، وكون الأخذ على يدِ الظالم نافعاً لصلاح المجتمع[٤٧]].

والثاني: معان عرفية عامة، قال ابن عاشور عنها: [هي المُجَرَّبات التي أَلِفَتْها نفوس الجماهير، واستحسنها استحساناً ناشئاً عن تجربة ملائمتها لصلاح الجمهور، كإدراك كَوْن الإحسان معنىً ينبغي تعامل الأمة به، وكإدراك كَوْن عقوبة الجاني رادعة إياه عن العَوْد إلى مثل جنايته، ورداعة غيره عن الإجرام، وكَوْن ضد ذَيْنك يؤَثّر ضد أَثَرَيْهما[٤٨]]. خصائص مقاصد الشريعة للمقاصد الشرعية خصائص عديدة، تُلْحظ باستقراء الأحكام وعللّها؛ لأن الشِّرْعة المحمدية قائمة على حفظ المقاصد ورعايتها. يقول الشاطبي: [الشريعة المباركة المحمدية منزلة على هذا الوجه، ولذلك كانت محفوظة في أصولها وفروعها كما قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾؛ لأنها ترجع إلى حفظ المقاصد، التي بها يكون صلاح الدارين، وهي: الضروريات والحاجيات والتحسينيات وما هو مكمل ومتمم لأطرافها، وهي أصول الشريعة[٤٩]]. ومن ثَمّ فإن خصائص أصول الشريعة تَنْسحب على المقاصد الشرعية، وقد حَصَرَها الشاطبي في خواص ثلاث، وهي: الأولى: العموم والاطراد، بحيث تَشْمل جميع أنواع التكليف والمكلَّفين والأحوال، وتَطّرد دون تَخَلُّف، يقول الشاطبي: [إذا ثبت أن الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية، وذلك على وجه لا يختل لها به نظام، لا بحسب الكل ولا بحسب الجزء، وسواء في ذلك ما كان من قبيل الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات، فإنها لو كانت موضوعة بحيث يمكن أن يختل نظامها أو تختل أحكامها: لم يكن التشريع موضوعاً لها، إذ ليس كونها مصالح إذ ذاك بأولى من كونها مفاسد، لكن الشارع قاصد بها أن تكون تلك مصالح على الإطلاق، فلا بد أن

(٤٧) الموافقات.
(٤٨) الموافقات.
(٤٩) الموافقات.

يكـون وضـعها علـى ذلـك الوجـه أبـدياً وكليـاً، وعامـاً فـي جميـع أنـواع التكليـف والمكلفين وجميع الأحوال، وكذلك وَجَدْنا الأمر فيها[٥٠]].

الثانيـة: الثبـوت مـن غيـر زوال، يقـول الـشاطبي: [فلـذلك لا تجـد فيهـا بعـد كمالها نسخاً ولا تخصيصاً لعمومها، ولا تقييداً لإطلاقها، ولا رفعاً لحكم من أحكامها: لا بحسب عموم المكلفين، ولا بحسب خصوص بعضهم، ولا بحسب زمان دون زمان ولا حال دون حال[٥١]]. ودليلُ الثبوت: الاستقراءُ التام، يقول الشاطبي: [ويدل على ذلك الاستقراء التام، وأن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينات.

وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء، بل إنما أتى بالمدينة ما يُقوّيها ويُحْكِمها ويُحَصِّنها، وإذا كان كذلك: لم يَثْبت نسخ لكلي البتّة، ومن استقرأ كُتب الناسخ والمنسوخ تحقّق هذا المعنى، فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها[٥٢]].

الثالثـة: كونهـا حاكمـة غيـر محكـوم عليهـا؛ لأنهـا كـالروح للأعمـال، يقـول الـشاطبي: [فـإن المقاصـد أرواح الأعمـال؛ فقـد صـار العمـل ذا روح علـى الجملة[٥٣]].

ولما كانت حاكمة للإنسان جاءت:

- مراعية لفطرته، يقول ابن عاشور: [ونحن إذا أجلنا النظر في المقصد العام من التشريع... نجده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة، والحذر من خرقها واختلالها[٥٤]].

- حاملة على التوسُّط، يقول الشاطبي: [مقصد الشارع من المكلّف الحَمْل علـى التوسُّـط مـن غيـر إفـراط ولا تفـريط... والوسـط هـو معظـم الـشريعة وأم الكتاب، ومن تأمل موارد الأحكام بالاستقراء التام عرف ذلك[٥٥]].

---

(٥٠) الموافقات.
(٥١) الموافقات.
(٥٢) الموافقات.
(٥٣) الموافقات.
(٥٤) ابن عاشور
(٥٥) الموافقات.

هذه جولة في بيان مقاصد الشريعة من حيث تعريفها، وتاريخها، وفوائدها، ودليلها، وطرق معرفتها، ومراتبها، وأقسامها، وخصائصها؛ عسى أن تكون نبراساً للسائرين في درب الفقه والاجتهاد.

نماذج من تطبيقات مقاصد الشريعة في منهج الأستاذ بديع الزمان وسيرته الذاتية:

لقد حوى الأستاذ من جملة العلوم الكثيرة التي أحاط بها مقاصد الشريعة على الوجه الذي تقدم شرحه وإيضاحه.

فما من موقف له أو مقالة أو رسالة إلا وهي منسجمة مع روح هذه المقاصد الكلية ولكنها أكثر من أن تحصر:

إنه دخل في صراع مرير مع أعداء الإسلام وألقى نفسه في مهالك التعذيب والسجن والتسميم ليسلم الدين والعقيدة فإنه مقدم على حفظ النفس.

ولما خرج في الجهاد ضد الروس ووقع في الأسر فإنه خرج لرفع راية الدين حفاظاً على حقائق الإيمان والقرآن وهو مقدم على الحرية الذي هو من حاجيات حفظ النفس.

وعندما يتكلم بديع الزمان عن العدالة يرى أنها تشغل ربع المقاصد القرآنية الأساسية والتي هي التوحيد والرسالة والحشر والعدالة مع العبودية.[٥٦] ويرى أن المقصد الأول للعدالة هو المساواة ولذلك قال: (إن العدالة التي لا مساواة فيها ليست بعدالة)[٥٧].

ولعلّ أوضح شاهد على تأكيد تلك الحقيقة ما ورد عنه في المجلّد الثامن من رسائل النور، حيث قال: " والخلقة مستلزمة لنتيجتها وهي الإنسان.. إنّ الغاية من الخلقة ونتيجتها الحياة وذوو الحياة وأشرفهم الإنسان فهو نتيجة الخلقة."[٥٨]

---

(٥٦) المثنوي: ٧٥/٦ وإشارات الإعجازص٢٣.
(٥٧) من نوى الحقائق: ص٦١١.
(٥٨) صيقل الإسلام ١٧٤.

من منطلق ما سبق بيانه، نخلص إلى التأكيد على أنّ المقصد الأعظم من رسائل النور هو خدمة الإنسان، ولا يخدم الإنسان نفسه إلا إذا اكتشف وظيفته التي بيّنتها الرسائل بنور القرآن الكريم، فتخاطبه الرسائل قائلة:"أيها الإنسان! المقصد الأسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه تظاهر الربوبية، وأنّ الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات."(٥٩)، ولهذا كان المقصد الأول في سياق آخر، الحقائق الإيمانية(٦٠) تلك التي تمثّل بالنسبة للإنسان أعلى خدمة وأسماها، ذلك أنّها تدفع الخلقة إلى تحقيق التكليف الشرعي الذي تعدّ العبودية مضمونه الرئيس.

واستعمل بديع الزمان الغاية والهدف في بعض نصوص رسائل النور بمعنيين مختلفين، فكانت الغاية معبّرة عن المقصد الأصلي، والهدف معبّرا عن المقصد المرحلي الذي قد يكون صحيحا مناسبا للغاية وقد لا يكون كذلك، وأحسن مثال لبيان هذه المعاني قوله:" لقد أحس "سعيد القديم" ما أحسّه عدد من دهاة السياسة وفطاحل الأدباء، بأنّ استبداداً مريعاً مقبلٌ على الأمة، فتصدّوا له، ولكنّ هذا الإحساس المسبَق كان بحاجة إلى تأويل وتعبير، إذ هاجموا ما رأوه من ظل ضعيف لاستبدادات تأتي بعد مدة مديدة وألقت في نفوسهم الرعب. فحسبوا ظل استبدادٍ - ليس له إلاّ الاسم - استبداداً أصيلاً، فهاجموه، فالغاية صحيحة إلاّ أن الهدف خطأ."(٦١)

ويذكر النورسي أنّه يتراءى من الحكمة القصد، كأنّها قصد المقصد، "نعم، إنّ حُلّة "الحكمة" التي يتراءى منها القصد والشعور والإرادة قد أسبغت على الكون كلّه وجُلّلت كل جوانبه. وخُلعَتْ على حلة الحكمة هذه حلّةُ "العناية" التي تشف عن اللّطف والتزيين والتحسين والإحسان، وعلى هذه الحلة القشيبة للعناية ألقيت حلّةُ "الرحمة" التي يتألق منها بريق التودّد والتعرف والإنعام

(٥٩) صيقل الإسلام ١٧٤.
(٦٠) الملاحق ١٤٨.
(٦١) الملاحق١٢٦ سيرة ذاتية ٧٦.

والإكرام وهي تغمر الكون كلّه وتضمه. وصفَّت على هذه الحلّة المنوّرة للرحمة العامة"[٦٢].

ووُظّفت الحكمة في رسائل النور بوصفها طريقا إلى اكتشاف المقاصد" نعم، إنّ هذه الموجودات، ابتداءً من الذرات إلى الشموس، سواءً أكانت أفراداً أم أنواعاً وسواءً أكانت صغيرة أم كبيرة، قد ألبست ثوباً رائعاً جداً، نُسج هذا الثوب من قماش "الحكمة" المزيّن بنقوش الثمرات والنتائج والغايات والفوائد والمصالح.. وأكسيت بحلّةِ "العناية" المطرزة بأزاهير اللطف والإحسان قدّت وفصلت حسب قامة كلّ شيء ومقاس كل موجود. وعلى حلّة العناية هذه قُلّدت شارات "الرحمة" الساطعة ببريق التودّد والتكرّم والتحنّن، والمتلألئة بلمعات الإنعام والأفضال... وعلى تلك الشارات المرصّعة المنوّرة نُصبت مائدةُ "الرزق" العام على امتداد سطح الأرض بما يكفي جميع طوائف ذوي الحياة وبما يفي سد جميع حاجاتهم."[٦٣]، فكان القصد من رؤية الحكمة اكتشاف قصد واضعها في أصل وضعها.

يعبّر عن بعض المقاصد الجزئية بالحكمة المتجلية في بعض مظاهر تجليات الأسماء الحسنى، كالتجليات المستفادة من اسم"الجواد"، " ففي تعدد الغايات هذا يكمن سر التوفيق بين "الحكمة والجود" أي بين " الاقتصاد والسخاء المطلقين" اللذين يبدوان كالضدين والنقيضين. وتوضيح ذلك:إذا لوحظت غاية بمفردها فإنّ الجود والسخاء يسودان آنذاك، ويتجلى اسم "الجواد"، فالثمار والحبوب حسب تلك الغاية المفردة الملحوظة لا تعد ولا تحصى. أي أنّها تفيد جوداً مطلقاً وسخاء لا حصر له. أما إذا لوحظت الغايات كلّها فإنّ الحكمة هي التي تظهر وتهيمن، ويتجلى اسم "الحكيم". فتكون الحِكَم والغايات المتوخاة من ثمرة لشجرة واحدة بعدد ثمار تلك الشجرة، فتتوزع هذه الغايات على الأقسام الثلاثة التي سبق ذكرها، فهذه الغايات (المقاصد) العامة تشير إلى حكمة

---

(٦٢) الكلمات ٣٣٨.

(٦٣) الكلمات ٣٣٩.

غير نهائية، واقتصاد غير محدد، فتجتمع الحكمة المطلقة مع الجود المطلق اللذان يبدوان كالضدين"[٦٤].

واستعمل بديع الزمان مصطلح المقاصد الإلهية تعبيرا عما لاح له من تجليات الغايات الربانية من خلق الكون في عناصره المادية والمعنوية، استشف ذلك الأمر من القرآن الكريم أهم مصدر للحقائق الإيمانية والكونية، تلك الحقائق التي يخلص إلى اكتشاف حقيقتها كل عاقل، بل جميع أرباب العقول، بما يلقّنه القرآن الكريم من دروس مقدسة سامية وإرشادات حكيمة.. وليبيّن بأجمل صورة وأجلاها المقاصد الإلهية بالقرآن العظيم، حيث بيّن أنّ للصانع "الحَكَم الحكيم".. وليستقبل بأكمل مقابلة وأتمها مظاهر الحكمة البالغة والجمال والجلال المتجلية في الآفاق. فإنسانٌ هذه مهمته، إنسان ضروري وجوده (أي يمثّل مقصدًا أساسيًّا في الكون)، بل يستلزمه هذا الكون، كضرورة الشمس ولزومها له".[٦٥]

واستعمل بديع الزمان رتبة المقصد الحقيقي بمعنى مقصد المقاصد، وصرّح بهذا المعنى في سياق تعليقه على الشرور والقبائح الجزئية المبثوثة في الكون، فيقول: "وأمثال هذه الشرور والقبائح الجزئية خُلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكلّيين، وهكذا يثبت بالاستقراء التام أن المقصد الحقيقي في الكون والغاية الأساسية في الخلق إنّما هو: الخير والحسن والكمال، لذا فالإنسان الذي لوّث وجه الأرض بكفره الظالم وعصيانه الله لا يمكن أن يفلت من العقاب، ويذهب إلى العدم من دون أن يحق عليه المقصود الحقيقي في الكون. بل سيدخل سجن جهنم" [٦٦]

واستعمل في سياق آخر ما يقرب من المعنى السابق، وسماه مقصد المقاصد مبيّنا فيها الغايات النهائية والمقاصد الكبرى، يشهد لهذا الاستعمال قوله: "إنّ

---

(٦٤) الكلمات ٧٩.
(٦٥) اللمعات ٥٣٧.
(٦٦) صيقل الإسلام ٥٠٢

الذي يعطي الكلام عظمة وسعة هو:أنّ المقاصد القادمة من أبعد هدف وأعلاه - وهو مقصد المقاصد - يرتبط بعضها ببعض، ويكمل أحدها نقصان الآخر، ويؤدي الواحد منها حق جاره، حتى كأنّ وضع هذا في موضعه يمكّن الآخر في مكانه، ويقرّ الآخر في مستقره.. وهكذا كلٌ يأخذ محله الملائم له، فتنصب تلك المقاصد في قصر الكلام المشيد بملاحظة نسب يمين هذا وشماله وكل جهاته. وكأن المتكلم استعار عقولاً إلى عقله للتعاون، وغدا كل مقصد من تلك المقاصد جزءاً تشترك فيه التصاوير المتداخلة، بمثل ما إذا وضع رسام نقطة سوداء في صور متداخلة، فإنها تكون عين هذا ومنخر ذاك وفم هذا وشامة ذلك.. وهكذا ففي الكلام الرفيع نقاط أمثال هذه ..[٦٧]

ويقسّم المقاصد في سياق آخر إلى مقاصد أصلية ومقاصد فرعية، يربطهما رباط التكاتف تحقيقا للغايات الجزئية والكلية، وقد ذكر ذلك التقسيم حين الحديث عن مقاصد القرآن الكريم، يشهد لهذا الاستعمال قوله رحمه الله:" اعلم! أنّ المقصد الأصليّ في القرآن الكريم إرشادُ الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوّة، والحشر، والعدالة.. فذكرُ الكائنات في القرآن الكريم إنّما هو تبعيّ واستطراديّ للاستدلال[٦٨].

واعتبر رسائل النور الإنسان أعظم المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّل لإدراك الخطاب الرباني. وقد اختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصطفى من بين الإنسان المكرّم مَن هو أكمل وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضع خطابه الجليل باسم النوع الإنساني كافة، بل باسم الكائنات جميعاً.[٦٩]

وفي إثبات التفاوت بين المقاصد أنه يضحى بالمقصد المهم أمام ما هو أهم منه فيضحى بالنفس في سبيل حقائق الشريعة، يقول الأستاذ بديع الزمان في

---

(٦٧) صيقل الإسلام١١٠
(٦٨) إشارات الإعجاز ٧٧ صيقل الإسلام ١٥٥
(٦٩) اللمعات ٥٥٥

صيقل الإسلام: (لو كان لي ألف روح، لكنت مستعداً لأن أضحي بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائق الشريعة، إذ الشريعة سبب السعادة وهي العدالة المحضة وهي الفضيلة).

ومن نماذج مراعاة المقاصد عند النورسي عدم إطلاق اللحية فإنها من تحسينيات حفظ الدين بينما سلامة الدعوة فإنه حاجي، وكذلك سلامة النفس فإنه ضروري فيقدم الضروري والحاجي على التحسيني عند التعارض بينها فيقول بديع الزمان: [إن إطلاق اللحية سنة نبوية وليست خاصة بالعلماء وقد نشأت منذ صغري عديم اللحية وعشت في وسط أناس تسعين بالمائة منهم لا يطلقون لحاهم هذا وإن الأعداء يغيرون علينا دائماً وقد حلقوا لحى بعض أحبابي فأدركت عندها حكمة عدم إطلاقي اللحية، وإنه عناية ربانية إذ لو كنت مطلقاً اللحية زحلقت لكانت رسائل النور تتضرر ضرراً بالغاً حيث كنت لا أتحمل ذلك فأموت(٧٠)].

ويقول في ملحق أمير داغ: [إن سبب عدم عملي بهذه السنة النبوية أن لي أكثر من مليون من الطلاب فإن أطلقت اللحية فهم يطلقونها شيباً وشباباً وستكون لحية الشباب موضع استهزاء لدى أقرانهم ولهذا أجلت اتباع هذه السنة النبوية(٧١)]

ويرى الأستاذ بديع الزمان أن معركة الجمل التي كانت بين الصحابة الكرام ﷺ كانت معركة بين العدالة المحضة والعدالة الإضافية التي فيها اختيار أهون الشرين بدلاً من أكبرهما ووضَّح ذلك بقوله(٧٢): (لقد جعل سيدنا علي ﷺ العدالة المحضة أساساً لسياسته في إدارة دفة الحكم وسار بمقتضاها على وفق اجتهاده وبمثل ما كان الشيخان يسيران عليه من قبله، أما معارضوه فقد قالوا: إن

---

(٧٠) سيرة ذاتية ص٤٩٦.
(٧١) أمير داغ ٢٥٠/١ son sahitler ٢٦٥/٢.
(٧٢) المكتوبات ص٦٦.

صفاء القلوب وطهارة النفوس في عهد الشيخين كانا ملائمين وممهدين لكي تنشر العدالة المحضة سلطانها على المجتمع إلا أن دخول أقوام متباينة الطبائع والاتجاهات وهم على ضعف الإسلام بمرور الزمن في هذا المجتمع أدى إلى وضع عوائق مهمة إزاء الرغبة في تطبيق العدالة المحضة فغدَا تطبيقها صعباً لذا فقد اجتهدوا على أساس بالعدالة النسبية التي هي اختيار لأهون الشرين).

وفي الختام هذه عجالة من مقاصد الشريعة وتطبيقاتها عند الإمام بديع الزمان النورسي اقتطفتها من أزهار كليات رسائل النور ولكنها جاءت مجملة كلقطة العجلان أرجو أن أكون قد نفعت بها وانتفعت والحمد لله رب العالمين.

دمشق الشام ١٠/٢/٢٠٠٨م ماهر الهندي

نماذج من تطبيقات مقاصدية للنورسي في حياته

احسان قاسم الصالحي
مركز رسائل النور للبحوث والدراسات
اسطنبول

مقدمة:

قبل الخوض بالبحث لابد أن نلقي ضوءاً على حياة بديع الزمان سعيد النورسي..

ولد في مطلع القرن الهجري الماضي سنة ١٢٩٣هـ(١٨٧٦م) في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وجاهد الروس في الحرب العالمية الأولى قائداً شعبياً لفرقة الأنصار.. وعاصر حرب الاستقلال.. وشاهد المنعطف الخطير الذي بدأ منذ سنة ١٩٢٣م حيث وُضعت قوانين لإبعاد الإسلام عن الحياة الاجتماعية وممارسات الدولة.. انصرف كلياً إلى تدبّر معاني القرآن الكريم... أخذته الأقدار من مدينة إلى أخرى نفياً وسجنا وإقامة إجبارية طوال ربع قرن.. وفي هذه الأثناء تولدت من صميم قلبه معانٍ جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم.. تلك هي المائة والثلاثون رسالة في بيان حقائق القرآن والتي أطلق عليها اسم "رسائل النور".. تلقفتها الأيدي الأمينة بالاستنساخ والنشر والقراءة والدراسة والالتزام بها.

توفاه الله سنة ١٩٦٠م ودفن في مدينة أورفة. ثم نبشت السلطات العسكرية آنذاك قبره وأُخذ جثمانه إلى مكان مجهول، ومازال قبره مجهولاً. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه.

فنرى أن سيرة النورسي كنز عظيم لكل عامل للإسلام في عصرنا الحاضر، حيث عاصر النورسي واعتصر في أحلك العهود التي مرت على المسلمين. فسيرته تنير لنا الطريق كيف يمكن أن يستهدي المرء بالسيرة النبوية الشريفة في ظروف قد تشبه التي مرت على النورسي.

ونحن في هذا المقام نقتصر على بعض نماذج فقط مما نرى فيها من الحكم والمقاصد ولا نطيل الكلام.

وأرى من الأفضل ألاّ نتأول كلامه أي ألاّ نتكلم بمفهوماتنا أو من مواضعنا الحالية، وإنما ننتقل أولاً إلى الزمن الذي عاصر النورسي، كي نفهم لماذا تصرف هذا التصرف وما الحكمة من ورائه. وهكذا..

ملامح الفترة التي عاشها النورسي بعد سقوط الدولة العثمانية

هذه الفترة (١٩٢٣-١٩٦٠) التي عاشها النورسي حافلة بأحداث جسام عصفت بتركيا فعاشت دوراً حالكاً جداً من الاستبداد المطلق والطغيان الغاشم والعداء الصريح الشرس للدين والسعي المتواصل لمحاولة إطفاء نور الله وإمحاء شريعته، تحت أسماء مزخرفة كالتمدن والتحضر.

واستمر هذا الوضع المظلم مدة ربع قرن من الزمان - أي حتى سنة١٩٥٠م - إذ دأبت السلطة الحاكمة آنذاك على قلب كل شيء وأن تغيّر كل ما يمت إلى الإسلام بصلة، عقيدةً وتراثاً وعادات وتقاليد.. بل حتى الزي والملابس والأرقام وحروف الكتابة والأعياد وأيام العطل.. الخ.. فسنّت سلسلة من القوانين، نذكر نتفا منها: مُنع تدريس الدين في المدارس كافة، وبُدّلت الأرقام والحروف العربية في الكتابة إلى الحروف اللاتينية، وحُرم الأذان الشرعي وإقامة الصلاة باللغة العربية، وجرت محاولات ترجمة القرآن الكريم وسُعيَ لقراءة الترجمة في

الصلوات. كما أُعلنت علمانية الدولة، فمُنع القيام بأي نشاط أو فعالية في صالح الإسلام، إذ حُظر طبع الكتب الإسلامية، وأُرغم الناس على تغيير الزي إلى الزي الأوروبي، فالرجال أُرغموا على لبس القبعة والنساء على السفور والتكشف ..

وشكّلت محاكم زرعت الخوف والإرهاب في طول البلاد وعرضها، ونصبت المشانق لعلماء أجلاّء، ولكل من تُحدثه نفسه بالاعتراض على السلطة الحاكمة.(١)

فساد جو من الذعر و الإرهاب في أرجاء البلاد، حتى أصبح الناس يخفون القرآن الكريم عن أنظار موظفي الدولة. ونشطت الصحافة في نشر الابتذال في الأخلاق والاستهزاء بالدين، فانتشرت كتب الإلحاد. (٢)

وأخذ المعلمون والمدرسون يحاولون مسح كل أثر إيماني من قلوب الطلاب الصغار إذ أصبحوا يلقنونهم الفلسفة المادية وإنكار الخالق والنبوة والحشر. وسعت السلطة الحاكمة آنذاك بتسخير جميع إمكانياتها وأجهزتها وقوتها ومحاكمها إلى قطع كل الوشائج والعلاقات التي تربط هذه الأمة بدينها ونزع القرآن من قلوبهم.

وما أصدق أخانا أديب إبراهيم الدباغ في كتابه: "سعيد النورسي رجل الإيمان في محنة الكفر والطغيان" إذ يقول:

"تُرى أي مصير رهيب كان ينتظر تركيا، لو لم يقيض الله سبحانه وتعالى لها هذا الرجل، في وقت بدأت فيه فؤوس الحقد، ومعاول الهدم تعمل على زلزلة

---

(١) لقد آثر علماء كثيرون وأدباء أجلاء ترك البلاد على لبس القبعة. وقد حدثت ثورات ضد السلطة الحاكمة آنذاك في أنحاء مختلفة من البلاد ففي سنة ١٩٢٥مثلاً حدثت: في سيواس في ١١/١٤، وأرضروم في ٢٥/ ١١، ومرعش في ٢٧/ ١١، وريزة في ٢/ ١١ وأخمدت كلها بالقوة .ب/٥٢٦

(٢) وكان ممن حملوا لواءها: تكين آلب (يهودي) وضياء كوك آلب الذي تتلمذ على العالم الاجتماعي الإسرائيلي (دركيم) وإن لم يحضر دروسه في فرنسا، وأحمد آغاييف ويوسف أقجورة، ممن هيأتهم المخابرات الروسية و أرسلوا إلى تركيا بعد عزل السلطان عبد الحميد.

الإيمان وتقويض بنيانه ومسح آثاره من البلاد.. ويتراءى لنا طيف "الأندلس" شاحباً باكياً وقد انحسر عنه الإسلام وغادره إلى غير رجعة.."

والآن بعد هذا السرد المختصر ننتقل إلى النماذج التطبيقية:

١- لم يشترك ولا عاون حوادث "الشيخ سعيد"

في تلك الفترة نشبت ثورات ضد النظام الحاكم الذي أثار نقمة الشعب باتجاهه المعادي للدين.

ففي الأقاليم الشرقية في تركيا قاد الثورة (الشيخ سعيد بيران) الذي كان شيخا للطريقة النقشبندية وزعيماً بارزاً بين العشائر الكردية.

وقُبيل اندلاع الثورة أرسل الشيخ (سعيد بيران) رسائل إلى الأستاذ سعيد النورسي يطلب منه الاشتراك معه في الثورة ضد حكومة أنقرة، فرفض النورسي الطلب لعدم رغبته في إهراق دم المسلمين الأبرياء في حركة لا أمل فيها.

ونسجل هنا حواراً جرى بينه وبين (حسين باشا) رئيس إحدى العشائر الكردية:

حسين باشا: أريد أن أستشيرك في أمر، إن جنودي حاضرون والخيول موجودة، وكذلك الأسلحة والذخائر، وأنا انتظر أمراً منكم.

سعيد النورسي: ماذا تقول؟ ما الذي تنوي فعله؟ ومَن ستحارب؟

حسين باشا: سنحارب مصطفى كمال.

سعيد النورسي: ومَن هُم جنود مصطفى كمال؟

حسين باشا: ماذا أقول.. انهم جنود!!

سعيد النورسي: إن جنوده هم أبناء هذا الوطن، هم أقرباؤك وأقربائي. فمَن تقتل؟ ومَن سيقتلون؟ فكّر.. وافهم! إنك تريد أن يقتل الأخ أخاه..

حسين باشا: إن الموت لأفضل من مثل هذه الحياة.

سعيد النورسي: وما ذنب الحياة؟ إذا كُنت قد ملَلْتَ حياتك، فما ذنب المسلمين المساكين؟

حسين باشا: (متحيراً) لقد أفسدت عليّ عزيمتي ورغبتي ولا ادري كيف سأقابل عشيرتي التي هي بانتظار عودتي وسيظنون أنني جبنت. لقد أضعت قيمتي بين العشيرة.

سعيد النورسي: وماذا لو كانت قيمتك صفراً بين الناس، وكنت مقبولاً عند الله تعالى؟

وعندما قال له (حسين باشا) بأنه يريد من ثورته تطبيق الشريعة الإسلامية.. قال له سعيد النورسي: أتريد تطبيق الشريعة الإسلامية؟ إن تطبيق الشريعة لا يكون بهذه الطريقة. فلو قلت لك:

يا حسين باشا تعال مع جنودك الثلاثمائة لتطبيق الشريعة، فان جنودك وهم في طريقهم إلى هنا سيقومون بنهب وسلب وقتل كل من يمرون عليهم في الطريق.. وهذا مخالف للشريعة).[٣]

٢- رفضه الهدايا

من المعلوم لدى الجميع أن الرسول الأعظم ﷺ كان يقبل الهدايا ودأب المسلمون على قبولها إلى يومنا الحاضر. ولكن نرى النورسي يحجم عن قبولها.

فلنسأله: لماذا لا تقبل الهدايا من أحد إلاّ بمقابل؟

يقول النورسي:

«لقد كنت أرفض قبول أموال الناس وهداياهم منذ نعومة أظفاري. فما كنت أتنازل لإظهار حاجتي للآخرين رغم أنني كنت فقير الحال وفي حاجة إلى المال، وما كنت زاهداً ولا صوفياً ولا صاحب رياضة روحية، فضلاً عن أنني ما كنت من ذوي الحسب والنسب والشهرة...[٤]

---

(٣) سيرة ذاتية / ٢٠٧

(٤) الملاحق، ملحق أميرداغ ١.

"أنني لا أقبل الصدقات والمعونات، كما لا أكون وسيلة لأمثالها من المساعدات، لذا أبيع ملابسي الخاصة وحاجياتي الضرورية، لأبتاع بثمنها - من إخوتي- كتبي التي استنسخوها وذلك لأحول دون دخول منافع دنيوية في إخلاص رسائل النور، لئلا يصيبها ضرر. وليعتبر من ذلك الإخوة الآخرون، فلا يجعلوا الرسائل وسيلة لأي شيء كان.[٥]

إن السبب المهم للاستغناء عن الناس هو ما يقوله ابن حجر الموثوق حسب مذهبنا الشافعي: "ومَنْ أُعطي لوصفٍ يُظنُّ به كفقرٍ أو صلاح أو نسب بأن توفرّت القرائن أنه إنما أُعطي بهذا القصد أو صرّح له المُعطي بذلك وهو باطناً بخلافه، حَرُم عليه الأخذ مطلقاً، ومثله ما لو كان به وصفٌ باطناً لو أطّلع عليه المُعطي، لم يُعْطِهِ. ويجري ذلك في الهدية أيضاً على الأوجه. مثلها سائر عقود التبرّع فيما يظهر كهِبَةٍ ووصيةٍ ووقفٍ ونذر" (ابن حجر الهيتمي الشافعي، تحفة المحتاج لشرح المنهاج ١٧٨/٧).

نعم، إن إنسان هذا العصر يبيع هديته البخسة بثمن باهظ، لحرصه وطمعه، فيتصور شخصاً مذنباً عاجزاً مثلي ولياً صالحاً، ثم يعطيني رغيفاً هديةً. فإذا اعتقدتُ أنني صالح - حاش لله - فهذا علامة الغرور، ودليل على عدم الصلاح. وإن لم اعتقد بصلاحي، فقبول ذلك المال غير جائز لي.

وأيضاً إنّ أخذ الصدقة والهدية مقابل الأعمال المتوجهة للآخرة يعني قطف ثمراتٍ خالدة للآخرة، بصورة فانية في الدنيا.[٦]

وسأبين سبباً دقيقاً واحداً من بين الأسباب الكثيرة:

أتي صديق حميم تاجر، بمقدار من الشاي يبلغ ثمنه ثلاثين قرشاً، فلم أقبله. فقال: لا تردّني خائباً يا أستاذي، لقد جلبته لك من إسطنبول! فقبلته ولكن دفعت له ضعف ثمنه. فقال: لِمَ تتعامل هكذا يا أستاذي، ما الحكمة فيه؟ قلت: لئلا أُنزل قيمة

---

(٥) الملاحق، ملحق أميرداغ ١.

(٦) المكتوبات، المكتوب الثاني.

الدرس الذي تتلقاه – وهو بقيمة الألماس– إلى قيمة قطع زجاجية تافهة. فإنني أدع نفعي الخاص لأجل نفعك أنت!

نعم، إن درس الحقيقة الذي تأخذه من أستاذ لا يتنازل إلى حطام الدنيا ولا تزل قدمه إلى الطمع والذل، ولا يطلب عوضاً عن أدائه الحق والحقيقة، ولا يضطر إلى التصنع.. هذا الدرس هو بقيمة الألماس.

بينما الدرس الذي يُتلقى من أستاذ اضطر إلى أخذ الصدقات، وإلى التصنع للأغنياء وإلى التضحية حتى بعزته العلمية، في سبيل جلب أنظار الناس إليه، فمال إلى الرياء أمام الذين يتصدّقون عليه. وبهذا جوّز أخذ ثمرات الآخرة في الدنيا. أقول: إن هذا الدرس نفسه يهون في هذه الحالة إلى مستوى قطع زجاجية». [٧]

الحكم والمقاصد في الابتعاد عن السياسة:

أسئلة كثيرة وجهت إلى الأستاذ النورسي حول ابتعاده عن السياسة سنقتطف منها الآتي:

يقول: «وقد مرت عليّ حادثة جديرة بالملاحظة:

رأيت ذات يوم رجلاً عليه سيماء العلم يقدح بعالم فاضل، بانحياز مغرض حتى بلغ به الأمر إلى حد تكفيره، وذلك لخلاف بينهما حول أمور سياسية، بينما رأيته قد أثنى – في الوقت نفسه – على منافق يوافقه في الرأي السياسي!. فأصابتني من هذه الحادثة رعدة شديدة، واستعذت بالله مما آلت إليه السياسة وقلت: "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة".

ومنذئذٍ انسحبت من ميدان الحياة السياسية. [٨]

ويقول: **أما إن قلت: كيف تمنعك خدمة القرآن والإيمان عن السياسة؟**

---

(٧) الملاحق، ملحق بارلا.

(٨) المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون.

فأقول: إن الحقائق الإيمانية والقرآنية ثمينة غالية كغلاء جواهر الألماس، فلو انشغلت بالسياسة، لخطر بفكر العوام: أيريد هذا أن يجعلنا منحازين إلى جهة سياسية؟ أليس الذي يدعو إليه دعاية سياسية لجلب الأتباع؟ بمعنى أنهم ينظرون إلى تلك الجواهر النفيسة أنها قطع زجاجية تافهة، وحينها أكون قد ظلمت تلك الحقائق النفيسة، وبخست قيمتها الثمينة، بتدخلي في السياسة.[٩]

وقيل له أيضاً:

« **لِمَ انسحبت من ميدان السياسة ولا تتقرب إليها قط؟.**

الجواب: لقد خاض سعيد القديم غمار السياسة ما يقارب العشر سنوات علّه يخدم الدين والعلم عن طريقها، فذهبت محاولته أدراج الرياح،

ثم يفصل الأسباب: فيقول:

أن تلك الطريق ذات مشاكل، ومشكوك فيها،

وأن التدخل فيها فضول - بالنسبة إليّ - فهي تحول بيني وبين القيام بأهم واجب (واجب انقاذ الإيمان).

وهي ذات خطورة، وأن أغلبها خداع وأكاذيب.

وهناك احتمال أن يكون الشخص آلة بيد الأجنبي دون أن يشعر.

وكذا فالذي يخوض غمار السياسة إما أن يكون موافقاً لسياسة الدولة أو معارضاً لها، فإن كنت موافقاً فالتدخل فيها بالنسبة إليّ فضول ولا يعنيني بشيء، حيث إنني لست موظفاً في الدولة ولا نائباً في برلمانها، فلا معنى - عندئذٍ- لممارستي الأمور السياسية وهم ليسوا بحاجة إليّ لأتدخل فيها،

وإذا دخلت ضمن المعارضة أو السياسة المخالفة للدولة، فلا بد أن أتدخل إما عن طريق الفكر أو عن طريق القوة؛ فإن كان التدخل فكرياً فليس هناك حاجة إليّ أيضاً، لأن الأمور واضحة جداً، والجميع يعرفون المسائل مثلي، فلا داعي

---

(٩) المكتوبات، المكتوب السادس عشر.

إلى الثرثرة. وإن كان التدخل بالقوة، أي بأن أُظهر المعارضة بإحداث المشاكل لأجل الوصول إلى هدف مشكوك فيه، فهناك احتمال الولوج في آلاف من الآثام والأوزار، حيث يُبتَلى الكثيرون بجريرة شخص واحد. فلا يرضى وجداني الولوج في الآثام وإلقاء الأبرياء فيها بناء على احتمال أو احتمالين من بين عشرة احتمالات، لأجل هذا فقد ترك سعيد القديم السياسة ومجالسها الدنيوية وقراءة الجرائد مع تركه السيجارة». (١٠)

وسؤال آخر ونكتفي به:

«سؤال: لِمَ لا تهتم إلى هذا الحد بمجريات السياسة العالمية الحاضرة.. نراك لا تغيّر من طورِكَ أصلاً أمام الحوادث الجارية على صفحات العالم. أفترتاح إليها أم أنك تخاف خوفاً يدفعك إلى السكوت؟

الجواب: إن خدمة القرآن الكريم هي التي منعتني بشدة عن عالم السياسة بل أنستني حتى التفكر فيها. وإلاّ فإن تأريخ حياتي كلها تشهد بأن الخوف لم يكبلني ولا يمنعني في مواصلة سيري فيما أراه حقاً. ثم ممَّ يكون خوفي؟ فليس لي مع الدنيا علاقة غير الأجل، إذ ليس لي أهل وأولاد أفكر فيهم، ولا أموال أفكر فيها، ولا أفكر في شرف الأصالة والحسب والنسب. ورحم الله من أعان على القضاء على السمعة الاجتماعية التي هي الرياء والشهرة الكاذبة، فضلاً عن الحفاظ عليها..

فلم يبق إلاّ أجلي، وذلك بيد الخالق الجليل وحده. ومن يجرؤ أن يتعرض له قبل أوانه. فنحن نفضل أصلاً موتاً عزيزاً على حياة ذليلة.

ولقد قال أحدهم مثل سعيد القديم؛

ونحن أُناسٌ لا تَوَسّطَ بَيْننا   لنا الصَدْرُ دونَ العالَمينَ أو القبرُ (١١)

---

(١٠) المكتوبات، المكتوب السادس عشر.

(١١) لأبي فراس الحمداني.

إنما هي خدمة القرآن تمنعني عن التفكر في الحياة الاجتماعية السياسية، وذلك أن الحياة البشرية ما هي إلاّ كركب وقافلة تمضي، ولقد رأيت بنور القرآن الكريم في هذا الزمان أن طريق تلك القافلة الماضية أدت بهم إلى مستنقع آسن، فالبشرية تتعثر في سيرها فهي لا تكاد تقوم حتى تقع في أوحال ملوثة منتنة.

ولكن قسماً منها يمضي في طريق آمنة.

وقسم آخر قد وجد بعض الوسائل لتنجيه - قدر المستطاع - من الوحل والمستنقع.

وقسم آخر وهم الأغلبية يمضون وسط ظلام دامس في ذلك المستنقع الموحل المتسخ.

فالعشرون من المائة من هؤلاء يلطخون وجوههم وأعينهم بذلك الوحل القذر ظناً منهم أنه المسك والعنبر، بسبب سُكرهم. فتارة يقومون وأخرى يقعون وهكذا يمضون حتى يغرقوا.

أما الثمانون من المائة، فهم يعلمون حقيقة المستنقع ويتحسسون عفونته وقذارته إلاّ أنهم حائرون، إذ يعجزون عن رؤية الطريق الآمنة.

وهكذا فهناك علاجان اثنان إزاء هؤلاء:

أولهما: إيقاظ العشرين منهم المخمورين بالمطرقة.

وثانيها: إراءة طريق الأمان والخلاص للحائرين بإظهار نور لهم - أي بالإرشاد-.

فالذي أراه أن ثمانين رجلاً يمسكون بالمطرقة بأيديهم تجاه العشرين بينما يظل أولئك الثمانون الحائرون البائسون دون أن يُبصروا النور الحق، وحتى لو أبصروا فإن هؤلاء لكونهم يحملون في أيديهم عصا ونوراً معاً فلا يوثق بهم. فيحاور الحائر نفسه في قلق واضطراب: تُرى أيريد هذا أن يستدرجني بالنور ليضربني بالمطرقة؟. ثم حينما تتحطم المطرقة بالعوارض أحياناً، يذهب ذلك النور أيضاً أدراج الرياح أو ينطفئ.

وهكذا، فذلك المستنقع هو الحياة الاجتماعية البشرية العابثة الملوثة الغافلة الملطخة بالضلالة.

وأولئك المخمورون هم المتمردون الذين يتلذذون بالضلالة.

وأولئك الحائرون هم الذين يشمئزون من الضلالة ولكنهم لا يستطيعون الخروج منها، فهم يريدون الخلاص ولكنهم لا يهتدون سبيلاً.. فهم حائرون.

أما تلك المطارق فهي التيارات السياسية، وأما تلك الأنوار فهي حقائق القرآن فالنور لا تثار حياله الضجة ولا يقابل بالعداء قطعاً، ولا ينفر منه إلاّ الشيطان الرجيم.

ولذلك، قلت: "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة" لكي أحافظ على نور القرآن. واعتصمت بكلتا يدي بذلك النور، ملقياً مطرقة السياسة جانباً.

ورأيت أن في جميع التيارات السياسية - سواءً الموافقة منها أو المخالفة - عشاقاً لذلك النور.

فالدرس القرآني الذي يُلقى من موضع طاهر زكي مبرأ من موحيات أفكار التيارات السياسية والانحيازات المغرضة جميعها، ويُرشد إليه من مقام أرفع وأسمى منها جميعاً، لا ينبغي أن تحجم عنه جهة، ولا يكون موضع شبهة فئة، مهما كانت. اللّهم إلاّ أولئك الذين يظنون الكفر والزندقة سياسة فينحازون إليها. وهؤلاء هم شياطين في صورة أناسي أو حيوانات في أجساد بشر.

وحمداً لله فإنني بسبب تجردي عن التيارات السياسية لم أبخس قيمة حقائق القرآن التي هي أثمن من الألماس ولم أجعلها بتفاهة قطع زجاجية بتهمة الدعاية السياسية. بل تزيد قيمة تلك الجواهر القرآنية على مرّ الأيام وتتألق أكثر أمام أنظار كل طائفة». [١٢]

٤- الحكمة من بقائه عزباً:

سئل الأستاذ النورسي: "لِمَ بقيت أعزباً خلافاً للسنة النبوية؟"

(١٢) المكتوبات، المكتوب الثالث عشر.

الجواب:

أولا: في الوقت الذي يلزم لصد هجوم زندقة رهيبة تُغير منذ أربعين سنة، فدائيون يضحّون بكل ما لديهم، قررت أن أضحي لحقيقة القرآن الكريم لا بسعادتي الدنيوية وحدها، بل حتى إذا استدعى الأمر بسعادتي الأخروية كذلك، فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقي ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الوقتي - مع علمي بأنه سنة نبوية - بل لو وُهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسي مضطراً إلى التخلي عنهن جميعاً، من أجل تلك الحقيقة، حقيقة القرآن. لأن هذه المنظمات الملحدة الرهيبة تشن هجمات عنيفة، وتدبر مكايد خبيثة، فلابد لصدها من منتهى التضحية وغاية الفداء، وجعل جميع الأعمال في سبيل نشر الدين خالصة لوجه الله وحده، من دون أن تكون وسيلة لشيء مهما كان.

ولقد أفتى علماء منكوبون، وأناس أتقياء، لصالح البدع، أو ظهروا بمظهر الموالين لها، من جراء هموم عيش أولادهم وأهليهم، لذا يقتضي منتهى التضحية والفداء، ومنتهى الثبات والصلابة وغاية الاستغناء عن الناس،وعن كل شيء، تجاه الهجوم المرعب العنيف على الدين، ولا سيما بعد إلغاء دروس الدين في المدارس وتبديل الأذان الشرعي ومنع الحجاب بقوة القانون؛لذا تركت عادة الزواج الذي أعلم أنها سنة نبوية لئلا ألج في محرمات كثيرة، ولكي أتمكن من القيام بكثير من الواجبات وأداء الفرائض. إذ لا يمكن أن تقترف محرمات كثيرة لأجل أداء سنة واحدة. فلقد وجد علماء أدوا تلك السنة النبوية أنفسهم مضطرين إلى الدخول في عشر كبائر ومحرمات و ترك قسم من السنن والفرائض،في غضون هذه السنوات الأربعين.

ثانيا:إن الآية الكريمة ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم..﴾(النساء: ٣) والحديث الشريف (تناكحوا تكثروا..)[١٣] وأمثالهما من الأوامر، ليست أوامر وجوبية

---

(١٣) رواه عبد الرزاق والبيهقي مرسلا بلفظ: "تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم

ودائمية، بل استحبابية مسنونة، فضلا عن أنها موقوفة بشروط لابد من توافرها، وقد يتعذر توافرها للجميع وفي كل وقت.ثم إن الحديث الشريف (لا رهبانية في الإسلام)[١٤] لا يعني أن الانزواء والعزوبة - كما هو لدى الرهبان - محرمتان مرفوضتان لا أصل لهما. بل هو حث على الانخراط في الحياة الاجتماعية كما هو مضمون الحديث الشريف (خير الناس أنفعهم للناس).[١٥] وإلاّ فإن ألوفاً من السلف الصالحين قد اعتزلوا الناس موقتاً، وآثروا الانزواء في المغارات لفترة من الزمن، واستغنوا عن زينة الحياة الدنيا الفانية وجردوا أنفسهم عنها، كي يقوموا ببناء حياتهم الأخروية على الوجه الصحيح. فما دام الكثيرون من السلف الصالحين تركوا الدنيا وزينتها بلوغاً إلى كمال باق وخاص بشخصهم، فلابد أن من يعمل لأجل سعادة باقية، لكثير جداً من المنكوبين، ويحول بينهم وبين السقوط في هاوية الضلالة، ويسعى لتقوية إيمانهم، خدمةً للقرآن والإيمان خدمة حقيقية، ويثبت تجاه هجمات الإلحاد المغير من الخارج والظاهر في الداخل، أقول لابد أن الذي يقوم بهذا العمل العام الكلي - وليس عملا خاصاً لنفسه - تاركاً دنياه الآفلة، لا يخالف السنة النبوية بل يعمل طبقا لحقيقة السنة النبوية.

ثالثاً: لم نقل لطلاب النور: "تخلوا عن الزواج، دعوه للآخرين" ولا ينبغي أن يقال لهم هذا الكلام. ولكن الطلاب أنفسهم على مراتب وطبقات. فمنهم من يلزم عليه ألاّ يربط نفسه بحاجات الدنيا، قدر المستطاع، في هذا الوقت، وفي

القيامة" قال في المقاصد: جاء معناه عن جماعة من الصحابة، فأخرج أبو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم مرفوعاً: تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، ولأحمد وسعيد بن منصور والطبراني في الأوسط والبيهقي وآخرين عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة وينهى عن التبتل نهيا شديداً ويقول: تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، وصححه ابن حبان والحاكم.. الخ "باختصار عن كشف الخفاء للعجلوني ١٠٢١"..

(١٤) قال ابن حجر لم أره بهذا اللفظ، لكن حديث سعد بن ابي وقاص عند البيهقي: إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة. "كشف الخفاء ٣١٥٤"

(١٥) حديث حسن أخرجه القضاعي في مسند الشهاب وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢ ص٤٢٠ ص٢ وانظر الصحيحة ٤٢٦ وصحيح الجامع الصغير وزيادته برقم ٦٥٣٨.

فترة من عمره، بلوغاً إلى التضحية العظمى والثبات الأعظم والإخلاص الأتم. وإذا ما وجد الزوجة التي تعينه على خدمة القرآن والإيمان، فبها ونعمت. إذ لا يضر هذا الزواج بخدمته وعمله للقرآن، ولله الحمد والمنة ففي صفوف طلاب النور كثيرون من أمثال هؤلاء. وزوجاتهم لا يقصرن عنهم في خدمة القرآن والإيمان، بل قد يفقن أزواجهن ويسبقنهم لما فطرن عليه من الشفقة التي لا تطلب عوضاً،فيؤدين العمل بهذه البطولة الموهوبة لهن بإخلاص تام.

هذا وان المتقدمين والسابقين من طلاب النور أغلبهم متزوجون، وقد أقاموا هذه السنة الشريفة على وجهها، ورسائل النور تخاطبهم قائلة:

اجعلوا بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة، على الإيمان، فيكونون لكم شفعاء يوم القيامة، وأبناء بررة في هذه الدنيا، وعندها تتقرر هذه السنة الشريفة فيكم حقاً. وبخلافه لو تربي الأولاد على التربية الأوروبية وحدها -كما حدث خلال ثلاثين سنة خلت - فإن أولئك الأولاد يكونون غير نافعين لكم في الدنيا - من جهة - ومدّعين عليكم يوم القيامة، إذ يقولون لكم: "لِمَ لم تنقذوا إيماننا؟" فتندمون وتحزنون من قولهم هذا، يوم لا ينفع الندم،وما هذا إلا مخالفة لحكمة السنة النبوية الشريفة.[١٦]

---

(١٦) الملاحق - اميرداغ٢ ص ٤٠١

مقاصد القرآن من خلال رسائل النور

علي قاطي ثوز
مانيسا تركيا

مصطلح المقاصد يعرف في غالب الأحيان بـ: "الهدف والمبتغى" ويراد به المقاصد التي يهدف إليها القرآن الكريم والمبتغيات التي يصبو إليها، ولا يوجد هناك تعريف مجمع عليه للمقاصد من قبل كافة العلماء، ويتميز المصطلح بالانتشار في جميع القرآن الكريم سورهِ وآياته.

عندما نسمع كلمة المقاصد يتبادر إلى الذهن مباشرة الأهمية البالغة والعناية الفائقة التي أَوْلاها الأئمة الأجِلة وكذا التقسيمات التي عمد إليها العلماء السابقون مثل الغزالي والشاطبي والرازي رحمهم الله وغيرهم، فقد اهتموا بهذا الموضوع وأَوْلوْه عناية كبيرة؛ حيث تناولوه بالدراسة والتحليل، فمنهم من قسم المقاصد وفصّل ومنهم من اكتفى بالتحديد فقط.

لم يتعارض العلماء في تحديد مقاصد القرآن ولا في الأهداف والمبتغيات، إذ هذه الأمور كلها متفق عليها من طرف الجميع، لكنهم اختلفوا في تحديدها بالضبط وتعدادها وتراتُبها وطريقة الوصول إليها وفهمها وحصرها، فمنهم من فرّع ومنهم من خصص ومنهم من سرَد وفصّل ومنهم من أوجز واختصر ومنهم من توسع ومنهم من حصر، فالقائلون بأنها سبعة والقائلون بكونها أربعة والقائلون بكونها أكثر من ذلك أو أقلّ، وعلى الرغم من هذا فإنهم اتفقوا في كل ما ينجم عنها وعلى أدلتها.

إن اختلاف العلماء في تحديد المقاصد بالضبط وكُنهها هو فقط حسب فهم كل عالم على حدة، ومن أفاض في تحديدها فقد مزج التحديد بالتحليل، فلا تعدو كثرتها من أن تكون تفريعا وتفصيلا فحسب.

والمُستقصِي لما قاله علماء الأمة في هذا الموضوع يجد أنه بناء على مقولة الشاطبي مثلا أن أوامر الشارع ونواهيه لابد أن يكون وراءها قصد معين، لأن انعدام القصد والهدف عبث في عبث، وبما أن القرآن الكريم أنزل مخاطبا مُكلَّفين فلابد أن يكون قد جاء على نحوٍ تُراعَى فيه أحوالهم، فإنه رحمه الله يحصرها في ثلاثة أصول فقط وهي الوحدانية، والنبوة، والبعث، التي ترجع في أصلها إلى معنى واحد وهو العبودية.

أما الغزالي رحمه الله تعالى فيشير إلى أن المقصد العام هو المعرفة الإلهية، وتتشعب عنها فروع كثيرة منها ذكر الذات والصفات والأفعال والمعاد... إلى غير ذلك.

والنورسي رحمه الله نهج منهجا غير بعيد عما انتهجه من قبله من العلماء، إلا أنه تناول هذا الموضوع وفق رؤية أخرى فيها لمسات حديثة وتتدفق منها الجدّة، ويستخلص منها دقة التعامل مع القرآن الكريم، فنجده يحصرها في أربعة: وهي التوحيد والحشر والنبوة والعدالة ويضيف مصطلح العبودية لا باعتباره مستقلا بذاته، بل تابع للعدالة حيث يقرر في المثنوي العربي النوري: "إعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية."[1] بعد هذا يشير إلى أن سائر المسائل تصير وسائل لهذه المطالب، واعتمادا على قاعدة: عدم التعمق في تفصيل الوسائل لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد، لذلك أبهم القرآن وأهمل وأجمل، وإلا فصّل في كل هذه المسائل وفرّع، من هنا نفهم لماذا لم

---

(١) المثنوي العربي النوري ، ص: ٧٥

يفصّل النورسي في هذه المقاصد، وعلى العكس من ذلك نجد بقية العلماء قد أشاروا إلى هذه المقاصد بشيئ من التفصيل.

ففي إشارات الإعجاز يقول الأستاذ: "إن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة"[٢] ويُثْبت بعد صفحات حيث يقول: "فاعلم أن المقصد الأصلي في القرآن إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد والنبوة والحشر والعدالة"[٣]. وفي صيقل الإسلام يبين بوضوح انبثاثها في كل القرآن: "إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية المنبثة في كل جهاته أربعة إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشرالجسماني، والعدل"[٤].

إن تعريف النورسي للقرآن الكريم يتميز بالشمولية، وقد توخى من خلاله المقاصد الكبرى له والأهداف العامة والكونية التي يهدف إليها ومن أجلها نزل، ومن خلال قرائتنا لهذا التعريف الشمولي نستشف براعة النورسي في جمع كل المقاصد التي أشار إليها القرآن الكريم، حيث يقول في التعريف: "هو الترجمةُ الازلية لكتاب الكائنات الكبير.. والترجمانُ الابدي لألسنتها المتنوعة التالية للآيات التكوينية.. ومفسّرُ كتاب عالَم الغيب والشهادة.. وكذا هو كشّافٌ لمخفيات الكنوز المعنوية للأسماء الإلهية المستترة في صحائف السماوات والأرض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمَرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان عالَم الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينةٌ للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية الواردة من عالم الغيب المستور وراء حجاب عالم الشهادة هذا.. وكذا هو شمسُ عالم الاسلام المعنوي وأساسُه وهندسته.. وكذا هو خريطةٌ مقدسةٌ للعوالم الاخروية.. وكذا هو القولُ الشارح والتفسيرُ الواضح والبرهانُ القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه

(٢) إشارات الإعجاز ، ص:٢٣

(٣) إشارات الإعجاز، ص:١٧٧

(٤) صيقل الإسلام- محاكمات، ص:٢٩

وشؤونه.. وكذا هو المربي لهذا العالم الانساني.. وكالماء والضياء للانسانية الكبرى التي هي الاسلام.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر.. وهو المرشد المهدي الى ما يسوق الأنسانية الى السعادة.. وكذا هو للانسان: كما انه كتاب شريعةٍ، كذلك هو كتابُ حكمةٍ، وكما انه كتابُ دعاءٍ وعبوديةٍ، كذلك هو كتابُ أمرٍ ودعوةٍ، وكما أنه كتابُ ذكرٍ كذلك هو كتابُ فكرٍ.. وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تحقق جميع حاجات الانسان المعنوية، حتى انه قد ابرز لمشرَب كلّ واحدٍ من اهل المشارب المختلفة، ولمسلك كلّ واحدٍ من اهل المسالك المتباينة من الاولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرَب وتنويره، ولمساقِ ذلك المسلك وتصويره. فهذا الكتاب السماوي اشبهُ ما يكون بمكتبةٍ مقدسةٍ مشحونةٍ بالكتب.(٥)

إن هذا التعريف الشامل للقرآن الكريم يرسم لنا المقاصد الأربعة التي يحددها الأستاذ سعيد النورسي والتي يهدف إليها بذاته والتي من أجلها نزل القرآن، فإذا دققنا في تعريف العلماء للقرآن الكريم نستخلص منه تلميحا للدفاع عن القرآن الكريم من الشبه التي كان يُفترض أن تَلحقه من طرف المشركين وكذا الفُرق الكلامية فيما بعد، خصوصا مسألة كونه مخلوقا أم كلام الله عز وجل.

بعد هذا الإستقراء الواضح للقرآن الكريم - وهذا التعريف يشهد على ذلك - والتمحيص في آياته الكريمات، فإن النورسي رحمه الله يقرر بأن كل القرآن العظيم يهدف إلى هذه المقاصد الأربعة بل إنها منتشرة في كل سوره بل إنها مبثوثة حتى في كل آياته، فقد حدد النورسي تلك المقاصد من خلال هذا التعريف في أربعة.

وإذا أردنا أن نمثل لكون أن هذه المقاصد موجودة في كل سورة بل حتى في كل آية كما يشير إليه النورسي فلنستمع إليه حيث يقول: "إن قلت: أَرِني هذه

---

(٥) الكلمة الخامسة والعشرون من الكلمات ، ص:٤٢٢

المقاصد الأربعة في "بسم الله" وفي "الحمد لله". قلت: لما أنزل "بسم الله" لتعليم العباد كان "قُلْ" مقدّراً فيه. وهو الأمُّ في تقدير الأقوال القرآنيّة. فعلى هذا يكون في "قُلْ" إشارةُ الى الرسالة.. وفي "بسم الله" رمزُ الى الألوهيّة.. وفي تقديم الباء تلويحُ الى التوحيد.. وفي "الرحمن" تلميحُ الى نظام العدالة والإحسان.. وفي "الرحيم" إيماء الى الحشر. وكذلك في "الحمد لله" إشارةُ الى الألوهيّة.. وفي لام الاختصاص رمزٌ الى التوحيد.. وفي "ربّ العالمين" إيماء الى العدالة والنبوة أيضاً، لأنّ بالرسل تربية نوع البشر.. وفي "مالك يوم الدين" تصريح بالحشر. حتى إنّ صدف "إنّا أعطيناك الكوثر" يتضمن هذه الجواهر. هذا مثالُ فانسج على منواله"[(٦)]

وفعلا كما قال النورسي فكلمة "إنا أعطينا" تدل على التوحيد، وكاف الخطاب يدل على النبوة ونهر الكوثر هو نعيم الجنة الذي يدل على الحشر وعدالة الله تعالى، من هنا نرى أن ما أشار إليه النورسي رحمه الله من وجود المقاصد الأربعة في كل القرآن قد دل عليه بهذا المثال الواضح، وترك استخراج الباقي منها للقارئ عن طريق القياس، وقد أوضح سعيد النورسي بتفصيل هذه المقاصد في رسائله كلها وساق أمثلة حية لها.

فبالنسبة للحشر: انطلاقا من الآية الكريمة: ﴿فَانْظُرْ اِلى آثَارِ رَحْمَتِ اللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِي الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾،[(٧)] نجد الأستاذ يفصل في مسألة الحشر وفق فهم عامة الناس بطريقة سَلسة، وذلك بأمثلة مقنعة وتصوير رائع وأدلة قاطعة قصمت ظهر الملحدين وأسكتت أفواههم.

أما بالنسبة للتوحيد: فنجد النورسي قد بث في كل رسائل النور هذا الموضوع باعتباره الأساس والمنطلق الأول حيث رسائل النور مكتوبات إيمانية

(٦) إشارات الاعجاز ، ص:٢٤

(٧) سورة الروم الاية:٥٠

هدفها الأساس إنقاذ الناس من العدم وإخراجهم من ظلمات العبث إلى نور الايمان، فكان التوحيد والدلائل الساطعة التي أوردها النورسي له برهانا على وحدانية الله تعالى وقدرته.

أما بالنسبة للعدالة: فإن النورسي يراها من خلال الكون وتصميمه الدقيق، وعدالة الميزان كونية عنده لا يربطها بالعدالة الجزئية الدنيوية وإنما هي أكبر من ذلك.

أما بالنسبة للنبوة: فإن المعجزات الأحمدية التي تجاوزت الثلاثمائة معجزة، تعبير واضح على اهتمام النورسي بذلك المقصد القرآني الرفيع والإشارة الدائمة إلى تلك الشمس الساطعة في مختلف مباحث الرسائل، لهو الدليل الأقوى على أن تعامل سعيد النورسي مع القرآن الكريم وفهمه الثاقب هو الذي كان له الدور الكبير في تميزه في تحديد هذه المقاصد الأربعة الشاملة لكل المقاصد الذي أوردها العلماء من قبْله ومن بعده، حيث تتميز نظرة النورسي إلى المقاصد بالشمول والإحاطة، فجمْعُها في أربعة ليس اختصارا لها وإنما يدل على دقة النورسي، حيث ما أشار إليه يحيط ويشمل كل ما أشير إليه من قبْله ومن بعده، فلو كان ما أشار إليه اختصارا ما عبر بأن كل المقاصد التي قال بها مبثوثة في كل آيات القرآن الكريم، وفعلا المُدقّق والمتفحص في آياته لا يكاد يمر على آية من غير أن يجد فيها هذه المقاصد الأربعة.

إن الناظر في رسائل النور والمتمعن في جل مواضيعها يرى أنها تتناول مقاصد القرآن الأربعة مشيرة إليها في ثَناياها وفي كل مباحثها، فبالنسبة للمواضيع الأخرى مثل القدر والحشر وكل المواضيع العقدية أو حتى الفلسفية... نجد لها مبحثا منفصلا ومستقلا، غير أن المقاصد مبثوثة في الرسائل جميعِها، وفوق ما تبحثه رسائل النور من أمور الدعوة وقضية الايمان، فهي تبحث أيضا عن إعجاز القرآن الكريم وكذا المقاصد التي يهدف إليها، والمتأمل في هذا الموضوع يجد أنه قد تفرق في صفحات الرسائل.

توظيف اللغة العربية
في الكشف عن المقَاصد القَرآنية
عند النورسي

أ.د. عبدالرزاق عبدالرحمن السعدي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية
الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

الحمد لله القائل: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾، والصلاة والسلام على من بعثه الله رسولاً ونبياً، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن كان تقياً.

وبعد: فإنه تركي المنشأ واللغة، وكردي الأصل والعرق، تذوق حلاوة الإيمان، وتنوَّرَ بالعلم والمعرفة فأصبح عالماً اجتاز علماء عصره سعةً وأفقاً، وأصبح لغوياً تخطَّى أهلَ العربية تحقيقاً وتدقيقاً، وأصبح مجاهداً تقدم صفوف المجاهدين صبراً وإقداماً.

فللّه دره من إنسانٍ حازَ العلم والتقوى من أطرافها النائية، وأنعم النظر في كتاب الله المجيد فاستخرج منه كنوزاً على غير خافية، وجمع منه دُرراً على سواه عصيّة، وأفاض على الناس علوماً نافعةً وحكماً قرآنيةً.

ذلكم هو الإمام المجاهدُ والعالم البحرُ بديعُ الزمان سعيد النورسي طيَّب الله ثراه وجعل لفردوس الأعلى مثواه.

وقد كانت لي وقفةٌ عند باب لغته العربية، أدركت من خلالها سعة علمه بفنونها وفروعها نحواً وصرفاً وبلاغةً ولغةً وما إلى ذلك، ووجدته يستنبط من آيات الذكر الحكيم إعجازاً قرآنياً لغوياً من خلال قواعد هذه العلوم ويستخرج منه مفاهيم عظيمةً عبر اللغة العربية قلّ من يقوى على إدراكها أو يخوض غمار ساحلها.

ولمّا وصلني عَبر البريد الإلكتروني نبأُ قيام هذه الندوة العلمية الدولية، ورأيت محاورها تدور حول المقاصد القرآنية وحكم الآيات الربانية لتي توصَّل إليها النورسي واستنبطها من القرآن الكريم بطرق متعددة – قررتُ بعد التوفيق من الله تعالى أن أدلو بدلوي المتواضع في هذا الصدد لأُبرِز ما اكتشفه النورسي في القرآن من مقاصد عن طريق اللغة العربية، فإنَّ النورسيَّ كان يرى أنَّ اللغة العربية هي العمادُ المتينُ لفهم كتاب الله إدراكِ مقاصده وبها يُكشَفُ عن حِكَمِهِ وأحكامه لأنها لغته التي نزل بها.

وإذا كانت آراء النورسي في الكشف عن مقاصد القرآن عبر اللغة العربية مبثوثةً في كتبه الكثيرة فإنه من الأجدر أن تمتد أيادي الباحثين لتجمع ذلك وتُظهر ما قرره وأسداه للأمة حتى يكون منهجَ عملٍ لها في حياتها ومصدرَ إشعاع يُنيرُ الطريق أمامَها.

المقاصد القرآنية عند النورسي

للتشريع الإسلامي مقاصد وغايات يهدف إلى تحقيقها في هذه الحياة؛ وهي مقاصد ارتضاها الله تعالى لخلقه، وأمر بالعمل على إيجادها لتكون واقعاً حقيقياً ملموساً لا شعاراً مكتوباً أو منطوقاً فحسب، وذلك لينعم الانسان بسعادة الحياتين الدنيوية والأخروية.

ومقاصد الشريعة نِتاجُ تشريعات إلهية، أنزلها الله تعالى على رسوله محمد ﷺ بنصوص معجزة في صياغتها ومعانيها، وقد شكلت هذه النصوص مصدراً وحيداً للتشريع الاسلامي جاءتْ بكتاب الله المجيد وسنة رسوله محمد ﷺ فهما الأساسان المتينان والمصدران المعينان لتلك التشريعات الصالحة لكل زمان ومكان والتي حققت المصالح اللازمة للبشرية في تهذيب الفرد والجماعة وإقامة العدل والمساواة فيهم، وجلب المصالح والمنافع لهم، ودرء المفاسد والأضرار عنهم.

وإذا كان القرآن المجيد قانوناً سماوياً للبشرية تتبعه الأحاديث النبوية، وإنَّ لكل قانون لغتَه فمن البداهة أن يكون إتقان لغتهما أمراً حتمياً للوصول إلى فهمهما حَتَّى يصار إلى العمل بهما وتحقيق أهدافهما ومقاصدهما، وإلا فإِنَّ الجهل بلغة أي قانون يعني عدمَ الانتفاع به وإن اندثار لغته يتبعه ضياعه وإبعاده عن حيز التطبيق.

وإذا كانت لغة الكتاب والسنة هي العربيةَ الصحيحةَ الفصيحةَ وأنَّ مقاصد الشريعة مبنية عليهما فإنَّ الكشف عن هذه المقاصد متوقف على الإحاطة بعلوم اللغة العربية إحاطة تؤهل الفرد إلى حَلّ رموز اللغة ومعرفةِ أسرارها واستيضاح معاني مفرداتها ومركباتها واكتشاف عمقها الدلالي وبذلك يكون فهم العربية وسيلةً من وسائل تحقيق مقاصد الشريعة في العقيدة والعمل والأخلاق. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: ((أنا أَعْرَبُكُمْ، أنا من قُرَيش، ولساني لسانُ بني سعد بن بكر)).[١]

وعلوم العربية فنون كثيرة وأغصان متشعبة، ولمقاصد الشريعة علاقة وثيقة بتلك الفنون والغصُون جميعِها والبحث فيها يستغرق كمّاً كبيراً في الوقت والجهد والمساحة، غير أني سأقتصر على ما ذهب إليه النورسي من توظيف هذه

(١) الحديث صحيح رواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلاً، السيوطي، **الجامع الصغير**، ج١، ص١٦١.

العلوم العربية لإستنباط المقاصد القرآنية على المستوى الصرفي والنحوي والبلاغي واللغوي، وذلك لأن النظر في بنية الألفاظ أصلاً واشتقاقاً وتعليلاً مما يعنى به [علم الصرف]، وأن النظر إلى إعراب ما يتركب من الألفاظ ليصح المعنى مما يُعْنَى به [علم النحو](٢)، وأن النظر إلى أسرار هذا التركيب ودلالته مما يعنى به [علم البلاغة] فان كان التركيب مما يحترز به عن الخطأ في أداء المعنى الذي يريد المتكلم إيصاله إلى المخاطب فهو [المعاني] وإن كان مما يفضي إلى المعنى بطرق متعددة مع الوضوح وعدم التعقيد المعنوي فهو [البيان]، وإن كان مما يراد به تحسين الكلام وتجميله فهو [البديع]، فالمعاني والبيان يفيدان تحسين الكلام تحسيناً ذاتياً، وأما البديع فيفيد التحسين العرضي(٣)، وأما دلالة الالفاظ على معانيها وتطورها الدلالي مما عني به علم اللغة والمعاجم.

وللنورسي مذهب في تحديد المقاصد القرآنية، وجديرٌ بالبحثِ - قبل ذكرها - أن يعرف بالمقاصد القرآنية لغةً وإصطلاحاً، وهي بالضرورة تساوي المقاصد الشرعية التي تحدث عنها العلماء قديماً وحديثاً.

---

(٢) أبو الفضائل حسام الدين احمد بن علي بن مسعود، ت ٧٠٠هـ، **مراح الارواح في الصرف**، شرح وتحقيق د.عبدالملك عبدالرحمن السعدي، (دار الانبار للطباعة والنشر/بغداد)، ص١٤. والميساوي د. محمد الطاهر، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الاسلامية، (البصائر للانتاج العلمي، ط١، ١٤١٨/١٩٩٨)، ص٣٢.

(٣) الجرجاني أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن، ت ٤٧١هـ، **دلائل الاعجاز في علم المعاني**، تصحيح محمد رشيد رضا، (مكتبة علي صبيح واولاده بمصر، ط٦، ١٩٦٠)، ص١٢. **واسرار البلاغة في علم البيان**، تحقيق د. عبدالهادي هنداوي، (دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ٢٠٠١)، ص١٣. والقزويني جلال الدين محمد بن عبدالرحمن، ت ٧٣٩هـ، **الايضاح في علوم البلاغة**، تقديم وشرح د. علي بو ملحم، (دار مكتبة الهلال بيروت، ط٢، ١٩٩١) ص٢٧. والهاشمي السيد احمد، **جواهر البلاغة في علم المعاني والبيان والبديع**، (دار الفكر العربي بيروت، ١٤١٤/١٩٩٤) ص٥.

تعريف المقاصد القرآنية

((المقاصد)) في اللغة: جمع مفرده ((مَقْصَدٌ)).

والمَقْصَدُ: مصدر ميميّ فعله ((قَصَدَ يَقصِدُ)) ومصدره قَصْداً، فالمَقْصَدُ والقَصْدُ بمعنى واحدٍ، ويأتيان لمعانٍ عديدة منها:(٤)

- اعتماد الشيء وإتيانه، يقال: أقصده السهم إذا أصابه فقتله.
- استقامة الطريق، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ (النحل: ٩)، أي: الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.(٥)
- القرب والسهولة، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ (التوبة: ٤٢)، أي: موضعاً قريباً سهلاً.(٦)
- العدل والتوسط، قال تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ (لقمان: ١٩).

وقال الشاعر:

على الحَكَمِ المَأتِيِّ يَوماً إِذَا قَضَى *** قَضِيَّتَهُ أَنْ لا يَجُورَ ويَقصِدُ(٧)

و((القرآن)) في اللغة مصدر فعله ((قَرَأَ))، ويفسر النورسي القرآن بقوله: ((فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك: هو الترجمةُ الأزليةُ لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسرُ كتاب العالم، وكذا هو كشّافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض.... ألخ)).(٨)

---

(٤) الزبيدي، تاج العروس، ج٩، ص٣٥، (قصد).

(٥) القرطبي أبو عبدالله محمد بن احمد الانصاري، ت ٦٧١هـ، **الجامع لاحكام القرآن**، (دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٣/١٩٩٣)، ج٨، ص٣٨.

(٦) القرطبي، **الجامع لاحكام القرآن**، ج٦، ص١٤١.

(٧) البيت منسوب إلى اللحام التغلبي، وقيل: لعبدالرحمن بن الحكم، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، ت ٧١١هـ، **لسان العرب**، (دار صادر بيروت)، ج٣، ص٣٥٣ (قصد).

(٨) النورسي، بديع الزمان سعيد النورسي، **إشارات الإعجاز في مضان الإجاز**، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، ط٣، بمصر، سنة ٢٠٠٢م، ص ٢٠.

وقد أصبح لفظ ((المقاصد القرآنية)) عَلَماً يطلق على عِلْمٍ من علوم القرآن وهو المعروف عند الأصوليين بمقاصد الشريعة، وبعد أن كان هذا العلم فرعاً من فروع الفقه وأصوله، أصبح فناً مستقلاً من فنون الشريعة الإسلامية وعلوم القرآن فهو عَلَمٌ من الأعلام المركبة تركيباً إضافياً إذا قيل: ((مقاصد القرآن)) مثل ((عبد الله))، أو تركيباً تقييدياً إذا قيل: ((المقاصد القرآنية)) مثل ((العبد المؤمنُ)).

وقد عرف العلماء القدامى ((مقاصد الشريعة)) بالعدّ ولم يعرفوها بالحَدّ، فقد قال الغزالي: ((ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة ....))،[٩] وهكذا الأمر عند الشاطبي،[١٠] وغيره.

أما العلماء الذين جاؤوا من بعدهم ممن كانت لهم اهتمامات بالغة بمقاصد الشريعة فقد عرفوها بتعريفات متفاوتة.[١١]

وقد رأيت أن أخلص مما اطلعت عليه من تعاريف إلى هذا التعريف فأقول:

---

(٩) الغزالي ابو حامد محمد بن محمد بن محمد، ت ٥٠٥هـ، **المستصفى**، تحقيق محمد مصطفى ابي العلا، (شركة الطباعة الفنية المتحدة بمصر)، ص٢٥١.

(١٠) الشاطبي ابو اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، ت ٧٩٠هـ، **الموافقات في اصول الاحكام**، تحقيق عبدالله دراز، (دار الفكر العربي المكتبة التجارية الكبرى مصر)، ج١، ص٥٦.

(١١) ابن عاشور الشيخ محمد بن الطاهر بن عاشور، **مقاصد الشريعة الاسلامية**، (مصنع الكتاب للشركة التونسية، ط١، ١٩٧٨)، ص٥١، والفاسي علال بن عبدالواحد، ت ١٣٩٤هـ، **مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها**، (دار الغرب الاسلامي، ط٥، ١٩٩٣)، ص٧، والاشقر د.عمر سليمان الاشقر، **نظرات في اصول الفقه**، (دار النفائس الاردن، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص٢٢٣، اليوبي د.محمد سعد بن احمد بن مسعود اليوبي، **مقاصد الشريعة الاسلامية وعلاقتها بالادلة الشرعية**، (دار الهجرة للنشر والتوزيع الرياض، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ص٣٣-٣٨.

[مقاصد الشريعة: هي الأهداف والغايات التي قصدتها التشريعات العامة والخاصة المنزلة من الله تعالى لتحقق في كل حكم من أحكامها منفعة للخلق ومصلحة للعباد وتدفع عنهم المفاسد والاضرار]، وهكذا يمكن أن يقال في المقاصد القرآنية.

أما النورسي فإنه قد ذهب إلى أن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعةٌ:

١) التوحيد.
٢) النبوة.
٣) الحشر.
٤) العدالة.

ويعلل ذلك بقوله: ((لأنه لما كان بنو أدم كركبٍ وقافلةٍ متسلسلةٍ راحلةٍ من أودية الماضي وبلاده، سافرةٍ في صحراء الوجود والحياة، ذاهبةٍ إلى شواهق الإستقبال، متوجهةٍ إلى جناته، فتهتز بهم المناسبات وتتوجه إليهم الكائنات، كأنه أَرسلَتْ حكومةُ الخِلقةِ فنَّ الحكمةِ مستنطقاً وسائلاً منهم بـ(يا بني أدم من أين؟ إلى أين؟ ما تصنعون؟ مَنْ سلطانكم؟ من خطيبكم؟).

فبينما المحاورةُ، إذ قام من بين بني أدم – كأمثالهِ الأماثل من الرسل أولي العزائم – سيدُ نوع البشر محمدٍ الهاشمي ﷺ، وقال بلسان القرآن: (أيها الحكمةُ نحن معاشر الموجودات نجيءُ بارزين من ظلمات العدم بقدرةِ سلطان الأزل، إلى ظياء الوجود، ونحن معاشر بني أدم بُعثنا بصفة المأمورية ممتازين من بين أخواننا الموجودات بحمل الأمانة، ونحن على جناح السفر من طريق الحشر إلى السعادة الأبدية، ونشتغل الآن بتدارك تلك السعادة وتنمية الإستعدادات التي هي رأس مالنا، وأنا سيدهم وخطيبهم، فها دونكم منشوري، وهو كلام ذلك السلطان الأزلي، تتلألأُ عليه سكّة الإعجاز، والمجيب عن هذه الأسئلة الجوابَ الصوابَ ليس إلا القرآن، ذلك الكتاب – كان هذه الأربعة عناصره الأساسية)).[١٢]

(١٢) النورسي، بديع الزمان سعيد النورسي، **إشارات الإعجاز في مضان الإجاز**، تحقيق

ويذهب النورسي إلى أن المقاصد القرآنية تتجلى في القرآن كلهِ بسورهِ وآياتهِ وكلماتهِ فيقول: ((فكما تتراءى هذه المقاصد الأربعة في كلهِ، كذلك قد تتجلى في سورةٍ سورةٍ، بل قد يُلمحُ بها في كلامٍ كلامٍ، بل قد يرمز إليها في كلمةٍ كلمةٍ، لأن كل جزءٍ فجزءٍ كالمرآة لكلٍ فكلٍ متصاعداً، كما أن الكل يتراءى في جزءٍ فجزءٍ متسلسلاً، ولهذه النكتةِ – أعني أشتراك الجزء مع الكل – يُعرف القرآن المشخَّص كالكليِّ ذي الجزئيات))[١٣].

وقد نص النورسي على هذه المقاصد الأربعة بقوله: ((فاعلم أن المقصد الأصلي في القرآن إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات هي:- إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر، والعدالة.)).[١٤]

وعلى الرغم من أن النورسي حدد المقاصد القرآنية بالأربعة السابق ذكرها إلا أنه ذكر مقاصد أخرى للقرآن الكريم في ثنايا أحاديثه في مؤلفاته مثل مقصد حفظ الصلاة، ومقصد حفظ المال، ومقصد الدعوة إلى الله، وغيرها مما يشير إلى أنه جعل المقاصد الأربعة أساساً والمقاصد الأخرى متفرعة عنها.

أراء النورسي في علوم اللغة العربية

ذهب النورسي إلى أن القواعد النحوية والصرفية لها قيمة رفيعة جداً في فهم النصوص العربية وفي مقدمتها القرآن الكريم وفي ذلك يقول: ((إن للنحو فلسفته كما للبيان فلسفته، هذه الفلسفة تبين حكمة الواضع وهي مؤسسةٌ على المناسبات المشهودة المشحونة بها كتب النحو، فمثلاً لا يدخل عاملان على معمول واحد، وأن ((هل)) ما أن يرى الفعل إلا ويطلب الوصال بلا صبرٍ، وأن الفاعل قويٌ والقويُ يضم الضمة لنفسه، فهذه وأمثالها نظائر القوانين الجارية في الكائنات وفي الخارج، إن هذه المناسبات النحوية والصرفية التي هي حكمة

إحسان قاسم الصالحي، ط٣، بمصر، سنة ٢٠٠٢م، ص ٢٣-٢٤.

(١٣) المصدر السابق، ص ٢٤.

(١٤) المصدر السابق، ص ١٧٧.

الواضع وإن كانت لا تبلغ درجة فلسفة البيان إلا أن لها قيمة رفيعة جداً، فمثلاً تحول العلوم النقلية الثابتة بالإستقراء إلى صور العلوم العقلية)).[١٥]

كما كان النورسي يشيد بدور علم البلاغة في الكشف عن إعجاز القرآن ومقاصده، وقد أخذت قضية النظم من النورسي كل مأخذ، فهو يعمق الحديث فيها لأنه يرى أن إعجاز القرآن الكريم يرجع إلى بلاغته وحسن نظمه وقد صرح كثيراً في كتاباته بأن النظم هو أساس الإعجاز، فقال: ((إن مقصدنا من هذه الإشارات تفسير جملة من رموز القرآن، لأن الإعجاز يتجلى من نظمه، وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النظم))[١٦]، وفي موضع أخر يقول: ((إن منشأ نقوش البلاغة هو نظم المعاني دون نظم اللفظ كما جرى عليه اللفظيون المتصلفون، وصار حب اللفظ فيهم مرضاً مزمناً إلى أن رد عليهم عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة)).[١٧]

وقد عرف النورسي النظم بقوله: ((ونظم المعاني عبارة عن توخي المعاني النحوية فيما بين الكلمات، أي: إذابت المعاني الحرفية بين الكلم لتحصيل النقوش الغريبة، وإن أنعمت النظر لرأيت أن المجرى الطبيعي للأفكار والحسيات إنما هو نظم المعاني)).[١٨]

وقد نسب النورسي ضعف الحس البلاغي وانحراف الطبيعة البلاغية إلى انبهار الناس بالألفاظ وإنجذاب العجم إلى لغة العرب فصارت صنعة اللفظ عندهم أهم فقال: ((والسر في الإنحراف عن طبيعة البلاغة أنه لما أنجذب واستعرب العجم بجاذبة سلطنة العرب صارت صنعت اللفظ عندهم أهم، وفسد بالإختلاط ملكت الكلام المضري التي هي أساس بلاغة القرآن وتلون بعكس

---

(١٥) النورسي، **محاكمات عقلية**، لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، طبع بغداد ١٩٩١م،

(١٦) **إشارات الإعجاز**، ص ٣٩.

(١٧) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(١٨) المصدر السابق، ص ١٤٩.

أساليب القرآن الكريم، وإنما معدنها من حسيات قوم مضر ومزاجهم فستهوى حب اللفظ كثيراً من المتأخرين)).[١٩]

ويرى النورسي أن البلاغة أساس في الوصول إلى المقاصد القرآنية فيقول: ((إعلم ان من أساس البلاغة الذي به يبرق حسن الكلام تجاوب الهيئات وتداعي القيود وتأخذها على المقصد الأصلي وإمداد كلٍ بقدر طاقته للمقصد الذي هو كمجمع الأودية أو الحوض المتشرب من الجوانب بأن تكون مصداقاً وتمثالاً لما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحدٌ *** وكلٌ إلى ذاك الجمالِ يشيرُ)).[٢٠]

استنباط المقاصد القرآنية من البسملة والحمدلة

وظف النورسي قواعد اللغة العربية بدقةٍ متناهيةٍ لإستثمار المقاصد القرآنية، فقد صرح بأنه يكتب ما يعنُّ له بنيةٍ خالصةٍ ويطبق قوانين البلاغة ودساتير علوم العربية،[٢١] من قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وقوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ (الفاتحة: ١) فهو يرى أن البسملة والآية بعدها مقولانِ لقولٍ مقدر، وهما يتضمنانِ المقاصد القرآنية الأربعة، والأصل قل بسم الله والحمد لله، فيكون الجار والمجرور من ((بسم الله)) متعلقاً بفعلٍ مقدرٍ تقديره ((قل)) والخطاب للنبيّ ﷺ، أي: يا محمد قل بسم الله، وفي هذا إشارة إلى الرسالة والنبوة، وهي إحدى مقاصد القرآن الكريم، ويرى النورسي إيضاً أن تقديم حرف الجر ((الباء)) في ((بسم)) تلويحٌ إلى التوحيد ورمزٌ إلى الألوهية، وذلك من المقاصد القرآنية الأربعة، وفي نعت الله تعالى بالرحمن تلميحٌ إلى نظام العدالة والإحسان، وفي نعته تعالى بالرحيم ايماءٌ إلى الحشر، وبذلك يكون بسم الله تضمنت المقاصد القرآنية التي حددها النورسي بأنها أربعةٌ.[٢٢]

---

(١٩) المصدر السابق، ص ١٤٩، **محاكمات عقلية**، ص ١١٤.

(٢٠) **إشارات الإعجاز**، ص ٤٥، ١٢١، ٢٠٨. **محاكمات عقلية**، ص ٩٩، ١١٤، ١٢١.

(٢١) إشارات الإعجاز، ص ١٧

(٢٢) المصدر السابق، ص ٢٤.

وهكذا يذهب النورسي إلى أن المقاصد القرآنية الأربعةَ مجموعةٌ في قوله تعالى: {الحمد لله}، ويرى أن وجود حرف الجر اللام في ((لله)) يفيدُ الإختصاص إشارةً إلى الألوهية ورمزاً إلى التوحيد، وأن نعت الله تعالى برب العالمين إيماءٌ إلى العدالة والنبوة لأنه يكون بالرسل تربيةُ نوع البشر وكلمة ((رب)) مشتقة من التربية والله تعالى تولى تربية عباده بإرسال الرسل إليهم، ويرى في النعت الثاني ((مالك يوم الدين)) تصريحٌ بالحشر لأن كلمة الدين تعني الجزاء وذلك يكون عند حشر العباد في الأخرة.[٢٣]

في مقصد حفظ التوحيد

استنبط النورسي المقصد القرآني ((حفظ التوحيد)) من قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (الفاتحة: ٤) في ضوء القواعد اللغوية فهو يرى أن الضمير ((إياك)) مفعولٌ به مقدمٌ على فعله ((نعبد ونستعين)) والأصل: نعبدك ونستعينك، فلما تقدم الضمير جاء ضميراً منفصلاً والغرض من تقديمه تحقيق مقصدٍ قرأنيٍ وهو التوحيد الخالص الذي هو روح العبادة، ثم يرى النورسي أن تكرار أياك مع الفعلين يؤكد التوحيد ويزيد في لذة الخطاب والحضور، وهو مع كل فعلٍ له معناه فالإرادة غير الإستعانة لأن العبادة حق الله على العبد والإعانة إحسان الله على العبد وكلاهما مقصودٌ مع الله تعالى.[٢٤]

مقصد العدالة الإلاهية في القصاص

قرر النورسي أن ضوابط البلاغة العربية تؤدي إلى معرفة المقصد القرآني الأصلي وإن تنوعت العبارات وتعددت الهيئات، ففي قوله تعالى: ﴿ولئن مستهم نفحةٌ من عذاب ربك﴾ (الأنبياء: ٤٦) تهديد بالقصاص ممن يعصون الله تعالى ويخالفون أمره تحقيقاً لمقصد العدالة، وفي الآية تهويلٌ مستفادٌ من التقليل الذي تضمنته الاية وهو نوعٌ من إنعكاس الضد من الضد، ومظاهر التقليل تكمن في ما يأتي:

---

(٢٣) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٢٤) المصد السابق، ص ٣٠-٣١.

١- ((إن)) الشرطية تفيد التشكيك المؤدي إلى التقليل.
٢- ((المس)) عوض عن الإصابة والمس يفيد التقليل والتروّح.
٣- ((نفحةٌ)) فيها تاء الوحدة والتنوين الدال على التحقير مما يجعله ملوحاً بالقلة.
٤- ((من)) حرف جر فيها معنى التبعيض وهي تومؤ بالقلة.
٥- ((عذاب)) جاء عوضاً عن النكال ويرمز إلى القلة.
٦- ((ربك)) يرمز إلى الشفقة التي تفيد القلة.(٢٥)

مقصد حفظ الصلاة

ذهب النورسي إلى أن المحافظة على الصلاة مقصد قرآني، مستنبطاً ذلك من قوله تعالى: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ (البقرة: ٣) في ضوء اللغة العربية، ذلك أن تخصيصها بالذكر من بين أنواع الطاعات والحسنات الأخرى إشارةٌ إلى أنها فهرستُ كل الحسنات وأنموذجها، كالفاتحة في القرآن الكريم، وكالإنسان في هذا العالم، فالصلاة اشتملت على صيامٍ وحجٍ وزكاةٍ وغيرها واشتملت على أنواع عبادات المخلوقات الفطرية والإختيارية ومن الملائكة الراكعين الساجدين القائمين، ومن الحجر الساجد والشجر القائم والحيوان الراكع، فقوله تعالى ((يقيمون)) قائمٌ مقام ((المقيمين)) وجاء تعبير بالجملة الفعلية لما في الفعل من حركةٍ حياتيةٍ واسعةٍ وفيه تلويحٌ بالتجدد، ولم يعبر القرآن بما هو أكثر إيجازاً فلم يقل ((يصلون)) بل قال ((يقيمون الصلاة)) وذلك للإشارة إلى أهمية مراعات معاني الإقامة في الصلاة من ضبط الأركان والمداومة والمحافظة والجد وترويجها في سوق العالم.(٢٦)

---

(٢٥) المصدر السابق: ص ٤٥.
(٢٦) المصدر السابق، ص ٥٢.

مقصد حفظ المال

في قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ (البقرة: ٣) إشارة واضحة إلى مقصد قرآنيٍّ وهو حفظ الأموال من الضياع والإسراف، هذا ما اكتشفه النورسي من خلال اللغة العربية فلم يقل سبحانه: ((يتصدقون))، ولم يقل: ((يزكون))، لأن الإنفاق أعم من ذلك، لكن في مقابل هذا جاء حرف الجر ((من)) دالاً على التبعيض وعدم الإسراف، وفي تقديمها إشارة إلى كون الإنفاق يكون من مال نفسه، وجاء الضمير للجمع في ((رزقانهم)) للتأكيد أن الله تعالى يعطي الكثير ويرزق الكثير.[٢٧]

مقاصد النبوة

في قوله تعالى: ﴿وما أنزل من قبلك﴾ (البقرة: ٤) يذهب النورسي إلى أن قوله ((من قبلك)) تضمن المقاصد الخمسة المندمجه في مسألة النبوة المسوق لها هذه الآية، والمقاصد الخمسة هي أن محمداً عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، وأنه أكمل الأنبياء، وأنه خاتم الأنبياء، وأنه مرسلٌ للأقوام كافة، وأن شريعته ناسخةٌ للشرائع كلها وجامعةٌ لمحاسنها.

كما يرى النورسي أن نظم الآية وربطها بما قبلها يفيد أربعة لطائف هي:

الأولى:- إن هذه الآية معطوفة على قوله ((بما أنزل إليك)) من عطف المدلول على الدال، أي: يا أيها الناس إذا أمنتم بالقرآن فآمنوا بالكتب السابقة إيضاً، إذ أن القرآن مصدق لها وشاهد عليها بدليل قوله تعالى: ﴿مصدّقاً لما بين يديه﴾ (البقرة: ٩٧).

الثانية:- أن في الآية عطف الدليل على المدلول، أي: يا أهل الكتاب إذا أمنتم بالأنبياء السابقين والكتب السالفة لزم عليكم أن تؤمنوا بالقرآن، وبمحمدٍ عليه الصلاة والسلام لأن الأنبياء قد بشروا به.

---

(٢٧) المصدر السابق، ص ٥٣.

الثالثة:- أن في الآية إشارة قرآنية إلى أن مآل القرآن كشجرة أصلها ثابتٌ في أعماق الماضي، منتشرة العروق متشربة عن منابع حياتها وقوتها، وفرعها في سماء الإستقبال ناشرةً أغصانها المثمرة فهو آخذٌ بقرنيّ الماضي والإستقبال.

الرابعة:- إن في الآية تشويق أهل الكتاب على الإيمان وتأنيسهم والتسهيل عليهم كأنه يقول: ((لا يشقنَّ عليكم الدخول في هذا السلك، إذ لا تخرجون عن قشركم بالمرة بل إنما تكملون معتقداتكم وتبنون على ما هو مؤسسٌ لديكم، إذ القرآن معدلٌ ومكملٌ في الأصول والعقائد وجامعٌ لجميع محاسن الكتب السابقة وأصول الشرائع السالفة.[٢٨]

مقصد الدعوة إلى الله

من المقاصد القرآنية الدعوة إلى عبادة الله تعالى المنصوص عليها بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ (البقرة: ٢١) وقد وظف النورسي قواعد اللغة العربية لإستثمار هذا المقصد القرآني من هذه الإية، فهو يرى أن العبادة سببٌ لسعادة الدنيا والأخرة، وسببٌ لتنظيم المعاش والمعاد، وسببٌ للكمال الشخصي والنوعي، وهي النسبة الشريفة العالية بين العبد وخالقه، وقد أثبت النورسي أن صانع الكون هو الله تعالى من خلال قوله ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم)) واثبت النبوة من خلال قوله: ﴿وإن كنتم في ريب﴾ (البقرة: ٢٣) وأن هذه الآية إثبات لأول مقاصد القرآن الأساسية وهو التوحيد.[٢٩]

وذهب إلى أن التعبرَ بالناس يفيد التعميم لأنه يخاطب كل إنسانٍ من الفرق الثلاث المذكورين في الآيات السابقة وهم المؤمنون والكافرون والمنافقون، فكأنه يقول: أيها المؤمنون الكاملون اعبدوا الله على صفة الدوام والثبات والإزدياد، وأيها الكافرون افعلوا العبادة مع شرطها من الإيمان والتوحيد، وأيها

---

(٢٨) المصدر السابق، ص ٥٨-٥٩.

(٢٩) النورسي، **إشارات الإعجاز**، ص ١٦٥.

المنافقون اعبدوا الله على هيئة الإخلاص، وبذلك تكون دلالة العبادة كدلالة المشترك المعنوي.

ويرى النورسي أن المقصد القرآني من خلق هؤلاء الناس وكمالهم وما هيء لهم من استعداد وارزاق إنما هو التقوى والعبادة، وجاء حرف النداء ((يا)) بالإيقاض وجاء ((أيُّ)) للتوسم وذكر معها ((ها)) للتنبيه، فيكون الخطاب في هذه الأية رمزاً إلى ثلاث فوائد، مقابلةً لمشقة التكليف بلذة الخطاب وأن الإنسان يترقى من حضيض الغيبة إلى مقام الحضور بواسطة العبادة[٣٠]، ويرى النورسي أن معنى ((لعل)) الرجاء في المرغوب والإشفاق من المكروه في قوله تعالى ((لعلكم تتقون)).

إثبات النبوة مقصد قرآني

قال الله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريبٍ مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (البقرة: ٢٣) يرى النورسي أن هذه الأية إثباتٌ لثاني المقاصد القرآنية وهو نبوة محمد ﷺ بأكمل معجزاته وهو إعجاز القرآن، وإن طريق التحدي كان بالشرط وجوابه فقوله ((وإن كنتم)) شرطٌ يحتاج إلى جوابٍ وجزاء والجواب قوله تعالى ((فأتوا بسورة من مثله)) وهو جوابٌ ملازم لفعل الشرط، ولما كن الأمر تعجيزياً استلزم تقدير ((تشبثوا))، ولما كان الأمر إنشاءً والإنشاء لا يصير لازماً وهو الوجوب الذي هو من أصول معاني الأمر، ثم إن وجوب التثبت لا يظهر لزومه للريب والشك فاقتضى الكلام تقدير جملٍ مطلوبة تحت إيجاز الأية والتقدير: إن كنتم في ريبٍ أنه كلام الله يجب عليكم أن تتعلموا إعجازه فإن المعجز لا يكون من كلام البشر، ومحمد عليه الصلاة والسلام بشر، وإن اردتم ظهور إعجازه فجربوا أنفسكم ليظهر عجزكم فيجب عليكم التشبث بإتيان سورة من مثله.[٣١]

---

(٣٠) المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٣١) المصدر السابق: ص ١٨٢.

أما قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ (البقرة: ٢٤) فقد ذهب النورسي إلى إثبات مقصد التوحيد والنبوة من خلال الأمور اللغوية الأتية:

١- الواو في ((وإن كنتم)) تؤكد المناسبة القائمة بين المقصد المفهوم ومن الأية السابقة وهو التوحيد، وبين مقصد إثبات النبوة للنبي محمد ﷺ.

٢- ذُكرت ((إن)) الترددية بدلاً من إذا التي هي للقطع مع أن ريبهم مجزومٌ به إشارةً إلى أنه لإجل ظهور زوال الريب شأنه أن يكون مشكوك الوجود.

٣- ثم جاءت عبارة ((كنتم في ريبٍ)) بديلاً عن ((أرتبتم)) مع أنه أقصر إشارةً لأن منشاء الريب طبعهم المريض وجاء تنكير ((ريب)) للتعميم على أنواع الريب كله.

٤- قوله تعالى ((مما نزلنا)) تقديره: في شيء مما نزلنا، وذكر ((نزلنا)) إشارة إلى أن منشاء شبهتهم هو صفة النزول، ويكون الجواب القاطع بإثبات النزول فقط، وصيغة الفعل تدل على النزول التدريجي، أما صيغة الإنزال فتدل على النزول دفعة واحدة.[٣٢]

مقصد الإيمان بالأخرة وأن القرآن من عند اللّه تعالى

في قوله تعالى: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون﴾ (البقرة: ٤) يرى النورسي أن التركيب البلاغي في هذه الأية يحقق عدداً من المقاصد القرآنية، لأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وحال المخاطبين بالقرآن على طبقات متفاوتة وعصورٍ مختلفة، ولمراعاة هذه الطبقات ومجارات تلك العصور عمم القرآن الخطاب في هذه الأية ليعلن شرف من آمن من أهل الكتاب بالأخرة وبهذا القرآن الكريم أمثال الصحابي عبدالله بن سلام رضي الله عنه وكان يهودياً اسلم بالمدينة، ويشوق الأخرين لأنْ يأتموا به.

---

(٣٢) المصدر السابق، ص ١٨٦.

ويستنتج النورسي تحقيق هذه المقاصد من خلال توظيف اللغة العربية لذلك، ففي قوله تعال ((يؤمنون)) دلالة على تجدد الإيمان بتواتر النزول، ولم يقل ((المؤمنون)) لأن هذه الصيغة تدل على ثبوت الإيمان في زمانٍ معينٍ لا تعمم فيه.[٣٣]

وفي التعبير بـ((ما)) إيماءٌ إلى أن الإيمان مجملاً قد يكفي وإلى اشتمال الإيمان على الوحي الظاهر وهو القرآن والوحي الباطن وهو الحديث، وفي قوله ((أنزل)) بصيغة الماضي إشارة إلى تحقق وقوع الإنزال وهو يتلاقى مع الفعل المضارع ((يؤمنون)) بمعنى أن ماضوية ((أنزل)) إذا كانت لا تشمل مالم يتم نزوله فإن مضارعية ((يؤمنون)) تشمله.[٣٤]

وفي قوله تعالى ((إليك)) بدلاً من ((عليك)) رمزٌ إلى أن الرسالة كلف بها النبي ﷺ وتحملها بجزءه الإختياري، وإماءٌ إلى علوه بخدمة جبريل بالتقديم إليه، ولم يقل ((إلى محمدٍ)) لإثبات أن محمداً عليه الصلاة والسلام ما هو إلا مخاطبٌ والكلام كلام الله، ويرى النورسي أن قوله تعالى ((وما أنزل من قبلك)) من باب عطف المدلول على الدليل أي: يا أيها الناس إذا أمنتم بالقرآن فآمنوا بالكتب السابقة إذ القرآن مصدق لها وشاهد عليها.[٣٥]

وقوله تعالى ((وبالأخرة هم يوقنون)) تثبيت لمقصدٍ من المقاصد القرآنية التي يراها النورسي وهو ((مسألة الحشر)) ويقدم لذلك أدلة كثيرة متنوعة نذكر منها الجانب اللغوي، فهو يرى أن العطف بالواو وأن تقديم الجار والمجرور وأن تعريف الأخرة بالألف واللام وأن ذكر الضمير ((هم)) ثم ذكر ((يوقنون)) بدلاً من ((يؤمنون)) كل ذلك أدلة لغوية على تحقيق هذا المقصد، أما ((الواو)) ففيها تخصيص بعد التعميم للتنصيص على هذا المقصد القرآني وهو الإيمان

---

(٣٣) المصدر السبق، ص ٥٧.

(٣٤) المصدر السبق، ص ٥٧.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٥٨.

باليوم الأخر وهو أحد القطبين الذين تدور عليهما الكتب السماوية، وأما تقديم ((بالأخرة)) ففيه حصرٌ يعرض بأهل الكتاب الذين قالوا: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ (البقرة: ٨٠) وأنهم يجعلون أخرتهم أخرةً مجازيةً لا حقيقة، وأما تعريف الأخرة بالألف واللام فتشير إلى المعهود على اللسنة كل الكتب السماوية التي تبين حقيقة الأخرة، وأما قوله ((هم)) ففيه حصرٌ أيضاً وفي الحصر تعريض بأن إيمان من لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب ليس بيقين بل أنما يضنونه يقيناً وأما التعبير بـ((يوقنون)) لا بـ((يؤمنون)) مع ان الإيمان هو التصديق مع اليقين فلأجل أن يضع الإصبع على مناط الغرض قصداً لإطارة الشكوك إذ القيامة محشر الريوب.[٣٦]

مقصد إثبات الحشر

قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أموتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحيكم ثم إليه ترجعون﴾ (البقرة: ٢٨) وظف النورسي اللغة العربية في استنباط إثبات الحشر وهو مقصد قرآني في هذه الأية، فالإستفهام بـ((كيف)) يوجه ذهن المخاطبين إلى كفرهم القبيح من خلال إنكارهم ما كانوا عليه من موتٍ أعقبته حياتهم وكان عليهم ألايكفروا بل ينصفوا ويقروا، والخطاب في ((تكفرون)) إيماءٌ إلى شدة الغضب ولم يقل ((لا تؤمنون)) إشارةً إلى شدة تمردهم إذ يتركون الإيمان الذي عليه الدلائل ويقبلون الكفر الذي قامت البراهين على بطلانه، والواو في قوله ((وكنتم)) تشير إلى مقدرٍ إذ الجملتان ماضيتان والأخريان مستقبلتان والتقدير: والحال أنكم تعلمون أنكم كنتم أموتاً .... ألخ، والفاء في قوله ((فأحياكم)) دليل وجود الصانع وهو الإنقلاب من الجمادية إلى الحيوانية دفعةً من غير توسط سببٍ معقولٍ وذلك يلجئ الذهن إلى الإقرار بالصانع، وأما جملة ((ثم يحيكم)) وعطفها بثم إشارة إلى توسط عالم البرزخ ذي العجائب، وكذلك

(٣٦) المصدر السابق، ص ٦٦.

جملة ((ثم إليه ترجعون)) وعطفها بثم إشارة إلى توسط الغطاء العظيم وفي قوله ((ترجعون)) إشارة إلى كشف الغطاء وطرد الأسباب وإسقاط الوسائط.[٣٧]

بعض نتائج البحث والتوصيات

توصل البحث إلى نتائج عديدة أهمها ما يأتي:

١- إن سعيد النورسي بداء حياته العلمية بدراسة اللغة العربية والعناية بها عنايةً فائقةً ولم يكن يقراء سوى النحو والصرف والبلاغة على أيدي كبار العلماء في كتب النحو القديمة المعتبرة.

٢- للنورسي إجتهادات لغوية ومصطلحات في النحو واللغة والبلاغة جديرةٌ بالمناقشة والإهتمام.

٣- وظف النورسي علوم اللغة العربية في مؤلفاته لإكتشاف المقاصد القرآنية توظيفاً دقيقاً توصل من خلاله إلى إثبات تلك المقاصد وأثرها على الإنسان.

٤- ويوصي البحث بدراسة مؤلفات النورسي دراسةً محكمةً دقيقةً لإستخلاص المقاصد القرآنية التي كشف عنها من خلال علوم اللغة العربية.

٥- كما يوصي البحث طلاب الدراسات العليا بتقديم دراسات متخصصة عن النورسي ونجاحه في استثمار قواعد اللغة العربية في الكشف عن الجوانب البلاغية في القرآن وإثبات الإعجاز القرآني من خلالها وكذلك الكشف عن المقاصد القرآنية من خلال بلاغة النظم القرآني ودقة تركيبه الصرفي والنحوي.

---

(٣٧) المصدر السابق، ص ٢٢١.

الأخلاق عند العلامة النورسي
وأثرها في الفرد والمجتمع

د. عبدالرحمن محمد ميكا
الجامعة الإسلامية - النيجر

مقدمة:

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام، القائل في محكم تنزيله، في وصف نبينا محمد ﷺ، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) ،ثم الصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على النذير البشير، خاتم الأنبياء والمرسلين، القائل: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين الذين امتازوا بفضائل الأخلاق ومحاسن العادات، فكانوا للناس أئمة مهداة وقدوة، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الأخلاق الإسلامية من أهم ما جاءت الشريعة الإسلامية لترسيخها وتثبيتها بين الأفراد والمجتمع؛ لأن بها تستقيم الحياة وتنشر المودة والرحمة، والسعادة؛ ولهذا حث الإسلام عليها ورغب فيها وجعلها من كمال الإيمان، فركز على غرسها في نفوس أبنائه. وهي تشمل سلوك الإنسان في حياته الخاصة وحياته مع غيره في مختلف المجالات الاجتماعية والعلمية والسياسية وغيرها.

وهي أيضا ملازمة لقوة الإيمان فكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به؛ لذا فالدين القيم والأخلاق الفاضلة ضروريان لكل مجتمع ليرتفع بهما إلى أعلى المستويات ويرتقي بهما إلى أعلى الدرجات،وحين يتخلى أي مجتمع عنهما يرتكس إلى أسفل الدركات.

ونظرا إلى أهمية الأخلاق في الإسلام فقد أفردها علماء المسلمين بالتأليف والتصنيف قديما وحديثا، وبينوا أهميتها ومكانتها وأثرها في الفرد والمجتمع.

ويعتبر العلامة النورسي، بديع زمانه وفريد دهره ووحيد عصره من أهم العلماء المعاصرين الذي اهتم بموضوع الأخلاق، فخصص لها حيزا كبيرا في رسائله القيمة وبين أهميتها ومكانتها وفوائدها ومقاصدها، ودورها في تقدم المجتمع وتقهقره، وأعطاها مفهوما واسعا شاملا لا تكاد تجده عند غيره وتناولها بشكل متميز حري أن يدرس؛ ولهذا رأينا أن نشارك في هذه الندوة العلمية الدولية التي تنظمها كلية الشريعة بتعاون مع مركز الثقافة والعلوم بإستنبول حول النورسي ،بهذه المساهمة المتواضعة التي بعنوان: " الأخلاق عند النورسي وأثرها في الفرد والمجتمع ". وقد تناولنا الموضوع في أربعة مباحث وخاتمة

ففي المبحث الأول تحدثنا عن تعريف الأخلاق، وأهميتها في الإسلام.

وفي المبحث الثاني : بينا مصادر الأخلاق ومبادئها عند العلامة النورسي

وفي المبحث الثالث: ذكرنا أثر الأخلاق في الفرد والمجتمع من خلال رسائل النور.

وفي المبحث الرابع : تعرضنا لوسائل اكتساب الأخلاق الفاضلة من خلال كليات رسائل النورسي.

أما في الخاتمة فقد دونا فيها أهم ما توصلنا إليه من نتائج

المبحث الأول: تعريف الأخلاق وأهميتها في الإسلام:

أولا- تعريف الأخلاق:

١-تعريف الأخلاق لغة:

قال الراغب الإصفهاني في تعريف الأخلاق: الخلق أصله : التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (١) أي أبدعهما...

ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (٢)

الخلق بفتح الخاء وسكون اللام والخلق بضم الخاء في الأصل واحد.... لكن خص الخلق – بفتح الخاء وسكون اللام – بالهيآت والأشكال والصور المدركة بالبصر... وخص الخلق بضم الخاء بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة(٣)،﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾:(٤)

وقال الجوهري في الصحاح: " ... والخلق بسكون اللام وضمها: السجية، وفلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه " (٥)

وفي لسان العرب : "... الخلقة – بكسر الخاء - : الفطرة ... والخلق – بفتح الخاء وسكون اللام – والخلق – بضم الخاء واللام- السجية.. الخلق- بضم اللام وسكونها : هو الدين والطبع والسجية. وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها.."(٦)

إذًا الأخلاق لغة هي:" التصرفات الإنسانية الصادرة عن أوصاف النفس وسجاياها الباطنة. أو هي سيماء النفس وصورتها الباطنة " (٧)

---

(١) سورة السجدة آية:٤
(٢) سورة النساء آية:١
(٣) مفردات الراغب الإصفهاني: ص: ١٥٧-١٥٨ كتاب الخاء مادة خلق
(٤) سورة القلم آية: ٤
(٥) الصحاح للجوهري ج٤ ص ١٤٧١ باب القاف فصل الخاء مادة خلق
(٦) لسان العرب لابن منظور ج ١٠ ص :٩٦ باب القاف فصل الخاء مادة خلق
(٧) العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور- البحوث العربية- ص: ٢٠٤

٢- تعريف الأخلاق اصطلاحا:

أ- عرفه الإمام الغزالي بقوله:

"... الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت ذلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا..." (٨) وهذا يعني أن الأخلاق تنقسم إلى قسمين: أخلاق محمودة وهي التي تهمنا هنا، وأخلاق مذمومة.

ب- وصفه ابن المبارك بقوله : " الخلق الحسن هو بسط الوجه وبذل المعروف وكف الأذى " (٩)

ج- أما عند العلامة النورسي فـ"هي:نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة،لاكتساب معناها الكوني" (١٠)

وعلى هذا يمكن القول بأن الأخلاق عبارة عن صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة.(١١)

ثانيا- : أهمية الأخلاق في الإسلام:

إن الإسلام يحث على الأخلاق الحميدة ويرغب فيها، بل يجعلها من كمال الإيمان. وهي ضرورة لسعادة الشعوب وازدهارها وقيام الدول وبقائها؛ ولذا ركز الإسلام على غرسها في نفوس المسلمين. ولا تجد آية في القرآن إلا وفيها حض على التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي بالأخلاق المذمومة، يقول العلامة

---

(٨) إحياء علوم الدين ج٣ ص: ٥٨

(٩) سنن الترمذي ج٤ ص ٣١٩ كتاب البر والصلة , باب ما جاء في حسن الخلق

(١٠) العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور – البحوث العربية- ص: ٢٠٦

(١١) الأخلاق الإسلامية وأسسها : عبدالرحمن حبنكة الميداني ص: ١٠

النورسي: " لا تجد في القرآن آية إلا وتوحي بمحبة شديدة لله... وفيه حث كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي... وفيه دعوة كبير إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدا لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن...إنه أبصر كل شيء.." (١٢)

ومما يدل على أهمية الأخلاق وقيمتها في الإسلام النصوص الواردة في ذلك منها:

ما رواه الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: " ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء "(١٣)

وروى أبو داود عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم " (١٤)

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: تقوى الله وحسن الخلق " (١٥)

وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: إن من أحبكم إلي و أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون و المتفيهقون ..."(١٦)

---

(١٢) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص: ٢٧٢

(١٣) سنن الترمذي ج ٤ ص:٣١٨ حديث رقم: ٢٠٠٢ كتاب البر والصلة , باب ما جاء في حسن الخلق/ سنن أبي داود ج٤ ص:٢٥٣ كتاب الأدب , باب في حسن الخلق.

(١٤) سنن أبي داود ج٤ ص:٢٥٢ حديث رقم:٤٧٩٨ كتاب الأدب, باب في حسن الخلق.

(١٥) سنن الترمذي ج٤ ص:٣١٩ حديث رقم:٢٠٠٤ كتاب البر والصلة, باب ما جاء في حسن الخلق.

وروى الترمذي أيضا عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا " (١٧)

ولا شك أن هذه النصوص وغيرها التي لم نسردها لضيق المجال تبين المكانة التي يحتلها حسن الخلق في الإسلام؛ ولهذا جعلها العلامة النورسي الوظيفة الأساسية لوجود الإنسان في هذا الكون : " إن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة – التي يأمر بها الله سبحانه– وأن يعلم الإنسان عجزه فيلتجئ إلى قدرته تعالى ويرى ضعفه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبح ويقدس كماله تعالى" (١٨)

ويوضح العلامة النورسي هذا المعنى ويؤكده في مكان آخر من كلماته بقوله: "... من القواعد المقررة للنبوة في حياة الإنسان الشخصية، التخلق بأخلاق الله أي كونوا عباد الله المخلصين، متحلين بأخلاق الله محتمين بحماه معترفين في قرارة أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم " (١٩)

ولما كان الرسول ﷺ أعظم من يجسد حسن الخلق في الإنسانية جمعاء جعله العلامة النورسي أكبر معجزة أعطي النبي ﷺ بعد القرآن في إشارته السابعة عشرة: " إن أعظم معجزة للرسول الكريم ﷺ بعد القرآن الكريم هو ذاته المباركة أي ما اجتمع فيه ﷺ من الأخلاق السامية والخصال الفاضلة، وقد اتفقت الأعداء، والأولياء على أنه أعلى الناس قدرا وأعظمهم محلا وأكملهم محاسن وفضلا..."(٢٠)

---

(١٦) نفسه ج٤ ص:٣٢٥ حديث رقم:٢٠١٨، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق.
(١٧) نفسه ج٤ باب ما جاء في حق المرآة على زوجها
(١٨) الكلمات ص: ٦٤٢
(١٩) نفسه ص: ٦٤٣
(٢٠) المكتوبات ص : ٢٣٦

ولأهمية مكارم الأخلاق في حياة البشرية عامة وفي حياة المسلمين خاصة يعتبر العلامة النورسي أن ما يعانيه المسلمون اليوم من أزمة إنما هو أزمة أخلاق. ولا يمكن الخروج من هذه الأزمة إلا إذا أصلحنا أخلاقنا ورجعنا إلى ما يأمرنا به الله ورسوله و الامتثال بأوامر هما .

هكذا يظهر لنا من خلال هذه النصوص المقتطفة من كليات رسائل النور كيف أعطى الأخلاق أهمية كبيرة في مكتوباته وكلماته وغيرهما من مؤلفاته القيمة وبين أنها من أهم ما ينبغي أن يعتمد عليه الأمة الإسلامية ليتقدم، وأعزى تقهقر الدعوة الإسلامية وتخلف المسلين إلى تخليهم عن مكارم الأخلاق التي يدعو إليها الإسلام، ولله دره حيث يقول: "... ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا، بل ربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام.." [٢١]

المبحث الثاني : مصادرها ومبادئها عند العلامة النورسي:

إن المنظومة الأخلاقية عند النورسي منظومة متكاملة تستقي قوتها من القرآن والسنة النبوية، وتتسم بالعمومية والشمولية والنسقية والتكاملية. وتعتمد على عدة مبادىء وأسس التي تجعلها منظومة أخلاقية متكاملة مترابطة لا غنى لأي مسلم عنها.

أولا- مصادر الأخلاق عند العلامة النورسي:

يلاحظ في رسائل العلامة النورسي أن من أهم مصادر الأخلاق ما يلي:

١- الفطرة:

الفطرة هي طبيعة الإنسان وأخلاقه التي بها خلق منذ نشأته الأولى، قبل أن تغيره البيئة وتؤثر فيه، فكل إنسان مولود على الفطرة لكن البيئة أو المجتمع هو الذي يؤثر على طبيعته الأخلاقية وتدينه فتغيره من حسن إلى أحسن أو من

(٢١) الخطبة الشامية ص:٢٧

طبيعته الفطرية الحسنة إلى طبيعة سيئة، يقول سبحانه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) ويقول النَّبِيُّ ﷺ: " كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ.." (٢٣)

إن هذين النصين يؤكدان على أن الإنسان يولد على الفطرة؛ ولذا يرى العلامة النورسي أن الأخلاق الحميدة فطرية في الإنسان، وأنها مركوزة في داخله ومقوم أساسي من مقومات ذاتيته، فهو يحب الخير ويحب الصدق ويكره الكذب فطريا، فهذا يؤكد أن الأخلاق الحميدة فطرية في الإنسان . أما الأخلاق المذمومة، وإن وجدت في الإنسان، فإنما هي بالتبعية وليس بالأصالة. وفي هذا يقول العلامة النورسي: "... ما دام الميل نحو الكمال قانونا فطريا في الكون، وقد أدرج في فطرة البشرية، فإن الحق والحقيقة سيظهران في المستقبل على يد العالم الإسلامي... ثبت بالبحث والتحري الدقيق والاستقراء والتجارب العديدة للعلوم : أن الخير و الحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته، أي هو المقاصد الحقيقية للصانع الجليل... كما أن الاستقراء التام والتجارب الشاملة يثبت أن الشر والقبح والباطل والسيئات جزئي وتبعي وثانوي في خلقة الكون... الشرور والقبائح الجزئية خلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين.." (٢٤)

ومما يؤكد عند العلامة النورسي فطرية الأخلاق في الإنسان أن كلمتي (الخلق) – بفتح الخاء وسكون اللام- و(الخلق) – بضم الخاء واللام – في اللغة مشتقان من فعل واحد وهو (خلق)(٢٥)

---

(٢٢) سورة الروم أية: ٣٠

(٢٣) صحيح البخاري ج٥ ص: ١٨٢ حديث رقم: ١٢٩٦ باب ما قيل في أولاد المشركين/ صحيح مسلم ج١٣ ص: ١٢٦ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٢٤) الخطبة الشامية ص:٣٩-٤١

(٢٥) يراجع: ممارسة حياة إيمانية فاعلة في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات من خلال

٢ - المصدر الثاني: القرآن

يرى العلامة النورسي أن القرآن الكريم هو أهم مصدر للأخلاق؛ لأنه دستور المسلمين الذي ينبغي الاعتماد عليه واستمداد كل شيء منه، فأي أخلاق استقي خارج القرآن فليس أخلاقا معتبرة شرعيا، ولذا يصور الأخلاق من خلال رسائله بأنها : " نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة لاكتساب معناها الكوني "[٢٦].

وبما أن القرآن هو المصدر الأساسي للأخلاق فكل من نهل من معينه فلا بد أن يتأثر به ويتخلق بأخلاق الكون السائر إلى الله يقول تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١). ثم إن القرآن لما جاء بمنظومة أخلاقية متكاملة شاملة فإنه حوى كل ما جاءت به الكتب السماوية الأخرى من أخلاق سامية وأزيد مما جاء فيها . [٢٧]

٣- المصدر الثالث: الرسول

يعتبر الرسول ﷺ الذي جاء متمما لمكارم الأخلاق أعظم من يجسد أخلاق القرآن حتى وصفته عائشة رضي الله عنها بقوله (كان خلقه القرآن)، وسيرته التي تعتبر تجليا وتطبيقا للأخلاق القرآنية، من أهم مصادر الأخلاق. يقول العلامة النورسي: " إن آثار محمد ﷺ وسيرته المباركة وتاريخ حياته تشهد – مع تسليم أعدائه – بأنه لعلى خلق عظيم، وأنه قد اجتمعت فيه الخصال العالية كافة ..."[٢٨] و مما يؤكد ذلك محاسن الأخلاق في دينه القويم. [٢٩] ولهذا فكل مسلم مأمور بالتخلق بأخلاقه وإحياء سنته الغراء.

رسائل النور ص:٣٨٣-٣٨٤

(٢٦) مفاتح النور للدكتور فريد الأنصاري، ص: ٣١٨، طبعة ٢٠٠٤، منشورات معهد الدراسات المصطلحية بفاس – المغرب ومركز النور للدراسات والبحوث استانبول- تركيا.

(٢٧) إشارات الإعجاز ص: ٢٨٥

(٢٨) صيقل الإسلام ص: ١٤٣

(٢٩) المكتوبات ص: ٢٧٦-٢٧٧

وإذا كان الرسول ﷺ هو أعظم من يجسد ما بينه القرآن من محاسن الأخلاق، وهو أفضل من تمثلت فيه تلك الأخلاق، بل خلق فطرة على تلك المحاسن فإن هذا يعني أنه لا تكتمل محبته إلا باتباع سنته، وأن مقياس هذا الاتباع رهين بدرجة التخلق بأخلاقه ذلك أن الله " سبحانه لحبه أخلاق مخلوقاته يحب محمد ﷺ إذ هو في ذروة الأخلاق الحميدة كما اتفق عليه الأولياء والأعداء، ويحب كذلك من يتشبهون به في الأخلاق كل حسب درجته.." [٣٠] ثم إن التشبه به؛ يعني التحلي بأسمى مكارم الأخلاق والاعتراف بالعبودية لله تعالى، يقول العلامة النورسي : "... من القواعد المقررة للنبوة في حياة الإنسان الشخصية التخلق بأخلاق الله، أي كونوا عباد الله المخلصين، متحلين بأخلاق الله محتمين بحماه معترفين في قرارة أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم..."[٣١] وهذا التخلق يظهر في السلوك والتعامل مع الناس.

ولا شك أن هذه النصوص تؤكد و تبين أن القرآن والسنة من أهم مصادر الأخلاق بالنسبة للمسلم،كما يستنبط منها أن هذين المصدرين وجهان لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما في مجال التنظير والممارسة الأخلاقية، كما لا يمكن التفريق بينهما في مجال التشريع، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران: ٣١) ويقول الرَسُولِ ﷺ: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ..."[٣٢]

ثانيا- مبادىء أو أسس الأخلاق عند النورسي:

إن نظرية الأخلاق من خلال رسائل العلامة النورسي تعتمد على عدة مبادىء منها:

---

(٣٠) المكتوبات ص: ٣٩٣

(٣١) الكلمات ص: ٦٤٣

(٣٢) سنن أبي داود باب لزوم السنة

١ - مبدأ التدين:

يظهر من خلال بعض رسائل النورسي أن من أهم مبادىء أو أسس الأخلاق التدين؛ لأن الدين الصحيح هو الذي يقوي الأخلاق في الإنسان، ويرفعه إلى أعلى المستويات، ويرتقي به إلى أسمى الدرجات ؛ولذا فالدين والأخلاق الفاضلة ضروريان لنجاح أي مجتمع فلا أخلاق بدون دين ولا دين بدون أخلاق.

ونظرا لهذا التلازم بين الدين والأخلاق يرى العلامة النورسي، " أن إصابة الأمة في قلبها إنما هو من ضعف الدين، ولن تنعم بالصحة إلا بتقوية الدين..."[٣٣] ويوضح هذا المعنى في مكان آخر بقوله : " إن الإيمان يقيم دائما في القلب والعقل حارسا معنويا، أمينا؛ لذا كلما صدرت ميول فاسدة عن تطلعات النفس والنوازع والأحاسيس المادية قال لها ذلك الحارس الرادع: محظور.. ممنوع... فيطردها ويهزمها.." [٣٤].

وهكذا يظهر أن الدين من أهم مبادىء الأخلاق وأنه لا يمكن الفصل بينهما، وأن الدين إنما جاء لتثبيت الأخلاق، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاجه: " والله فطر عباده على معرفة الحق والرسل بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة..." [٣٥]

ويقول الدكتور عبد الله دراز :" لن يكون دور هذه الشريعة الجديدة -بلا ريب- أن تبطل قانون الفطرة؛ لأنهما حقيقتان، ما كان لهما أن تتعارضا ولكن دور الشريعة الإلهية أن تثبت قانون الفطرة وأن تمنحه سندا متينا وذلك بعد أن تستخلصه بكل نقائه وطهارته..." [٣٦] ويقول الرسول الكريم ﷺ:" بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ " [٣٧]

---

(٣٣) الخطبة الشامية ص: ٨٥

(٣٤) نفسه ص :٧٣

(٣٥) منهاج السنة النبوية ج١ ص:٣٠٠

(٣٦) دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز ص:٤٠٥

(٣٧) موطأ الإمام مالك ج٢ ص: ٩٠٤ كتاب حسن الخلق/مسند الإمام أحمد مسند أبي هريرة

وخلاصة القول: إن الأخلاق مبنية على الدين ولا يمكن الفصل بينهما. فهي فطرة في الإنسان وجاء الدين ليثبتها ويغرسها فيه، و أي خلل في أحدهما يؤثر في الآخر.ولله در الحكيم الهندي غاندي حين قال: " إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال ... ولا يفترق بعضها عن بعض فهما وحدة لا يتجزآن، وأن الدين كالروح للأخلاق، والأخلاق كالجسم للروح، وبعبارة أخرى، الدين يغذي الأخلاق وينميها وينعشها كما أن الماء يغذي الزرع وينميه"[(٣٨)]

وصدق الرسول ﷺ إذ يقول: " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ "[(٣٩)]

٢- **مبدأ الشمولية ونبذ الأنانية:**

إن المنظومة الأخلاقية من خلال رسائل النورسي تتسم بالشمولية والعمومية، فهي شملت جميع قطاعات الحياة التي تتمثل في علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان مع أفراد مجتمعه وعلاقته مع الكائنات الحية التي تعيش معها في عالم واحد.

ومن هذا المنظور تحدث عن الشورى والعدل والصدق والتعاون والأخوة والمواساة ومساعدة الآخرين والتقدم والتطور وغيرها من الصفات الحميدة التي يدعو إليها الإسلام ويحض المسلمين عليها[(٤٠)]

كما أن هذه المنظومة الأخلاقية تتسم بنبذ الأنانية والنفعية والانتهازية، فالعلامة النورسي يرى أن جميع الأخلاق الرذيلة تنبع من الأنانية وحب الذات وكراهية الغير. ونقتطف شيئا من كلماته الرائعة تؤكد ما قلنا،يقول العلامة

---

(٣٨) الإعداد الروحي والخلقي للمعلم والمعلمة: الدكتور محمد جميل بن علي الخياط ص:٦٩

(٣٩) مسند الإمام أحمد : ج٣ مسند أنس بن مالك رضي الله عنه

(٤٠) المكتوبات ص: ٦٠٦-٦٠٨ / صيقل الإسلام ص:٥٠٦-٥١٠ / اللمعات ص:٢٩-٣٠ , ٢٤٠ وما بعدها/ إشارات الإعجاز ص: ٢٧٢

النورسي: "... لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظرا تاريخيا وتأملت في مساوي جمعية البشر لرأيت أس أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط:

أحداهما: " إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع "

والثانية: " اكتسب أنت لآكل أنا. واتعب أنت لأستريح أنا "

فالكلمة الأولى الغدارة النهمة الشنعاء هي التي زلزلت العالم الإنساني فأشرف على الخراب. والقاطع لعرق تلك الكلمة ليس إلا الزكاة.

والكلمة الثانية الظالمة الحريصة الشوهاء هي التي هارت بترقيات البشر فأوشك أن تنهار بها في نار الهرج والمرج . والمستأصل والدواء لتلك الكلمة ليس إلا " حرمة الربا"..."[٤١]

وهكذا يتبين أن المنظومة الأخلاقية عند العلامة النورسي يتميز بالشمولية حيث تناول جميع القطاعات والمجالات، ويتسم بنبذ الأنانية حيث يرى أن الأنانية منبع جميع الأخلاق المذمومة، ولتجنب هذه الآفات قدم مجموعة من الحلول والبدائل، إذا اتبعها المسلم سلم من هذه الآفات.

على أن العلامة النورسي بهذه الطريقة الواقعية التي تتميز بتشخيص الداء، وتقديم الدواء الناجع له، يظهر بمظهر المصلح المخلص الواعي، الذي يؤرقه هموم مجتمعه، والذي في تفكير دائم لإيجاد الحلول المناسبة لمشاكل مجتمعه، وبهذا استطاع أن يؤثر في مجتمعه، وكل من قرأ رسائله.

ولا ريب أن هذا المنهج القويم الذي يربط بين العلم والتطبيق وبين تشخيص الداء وتقديم الدواء الناجع له ويطرح القضايا ويعطي الحلول المناسبة هو الذي يحتاج إليه دعاة هذا العصر؛ لأننا نعيش في مجتمع لا يكفي أن تطرح قضية أو تمنعها دون إعطاء حلول أو بدائل، بل لابد من تقديم حلول وبدائل

---

(٤١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص:٥٤

مناسبة للقضايا التي تطرحها. ولعل غياب هذا المنهج القويم في دعوة كثير من دعاتنا هو سبب فشل كثير منهم في مهمتهم الدعوية. ولهذا نرى أن رسائل النورسي تعتبر مراجع مهمة لكل داعية يريد أن ينجح في مهمته، ويؤثر في مجتمعه.

٣- مبدأ النسبية:

إن المنظومة الأخلاقية عند النورسي تعتمد على مبدأ النسبية حيث نجد العلامة النورسي ينص في بعض رسائله على نسبية الأخلاق، ومن ذلك قوله: "...إن الفضائل والأخلاق، وكذا الحسن والخير أغلبها أمور نسبية، تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر، وتتباين كلما نزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدلت مكانا بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة، ومن الشخص إلى الأمة.

فمثلا : الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوزِ والوقاحة وخرق حقوق الزوج.

ومثلا: إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذلك التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذللا. "[٤٢]

ويقول في مكان آخر: "... وحيث إن الحسن النسبي والخير النسبي كثير جدا.."[٤٣]

على أن ما ينبغي التنبيه إليه هنا أن نسبية الأخلاق التي نتحدث عنها هنا يعني في التوظيف، وليس في اعتبار أصول الأخلاق.

---

(٤٢) صيقل الإسلام ص:٣٣٣

(٤٣) نفسه ص: ٣٣٤

ذلك إن أصول الأخلاق ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، لكن توظيفها أو التحلي بها قد يتغير من حال إلى حال ومن شخص إلى آخر، ومن مكان إلى مكان. أما القيم الأخرى غير الأصول فهي نسبية في أصلها مثل الحسن والقبح.

٤- مبدأ الواقعية أو مراعاة الحال:

هذا المبدأ كأنه توكيد أو توضيح للمبدأ السابق من جهة. ذلك أن التحلي بمكارم الأخلاق مطلوب لكن إذا أدى توظيفها إلى مفسدة راجحة أو فتنة فإنه ينبغي التخلي عنها ولو مؤقتا.

فمثلا: التحلي بالصدق والتصريح به مطلوب لكن إذا أدى التصريح به إلى مفسدة راجحة ينبغي عدم التصريح به . وفي هذا يقول العلامة النورسي: "... عليك أن تصدق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت. أما الكذب فلا يسمح له قطعا.عليك أن تقول الحق في كل ما تقوله ولكن لا يحق لك أن تقول كل حق، لأنه إن لم يكن الحق خالصا فقد يؤثر تأثيرا سيئا فتضع الحق في غير موضعه."(٤٤)

لا ريب أن هذا المبدأ سليم، ينبغي لكل داعية أو مصلح أن يراعيه في دعوته وفي إصلاحه. وهذا المبدأ كان معروفا عند العلماء القدامى بمراعاة مآلات الأفعال التي اعتبرها الإمام الشاطبي أصلا من أصول التشريع.(٤٥)

٥- مبدأ النسقية أو الترابط والانسجام:

نعني بهذا المبدأ أن الكيفية التي طرح بها العلامة النورسي الأخلاق في رسائله القيمة تؤدي إلى الانسجام والترابط بين القول والعمل وبين النظر والتطبيق. ذلك أنه لا يمكن التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي بها في نفس

---

(٤٤) الخطبة الشامية ص :٥٠/صيقل الإسلام ص: ٥٠٨

(٤٥) الموافقات للعلامة الإمام الشاطبي ج ٤ ص : ١٤٠-١٤٤

الوقت؛ لأن هذا يؤدي إلى التناقض. فالإنسان لا يمكن أن يكون متخلقا بخلق حسن، ثم يصدر منه بعض التصرفات المشينة، كما أنه لا يعقل أن يأمر بشيء ولا يأتيه أو ينهى عن شيء ثم يرتكبه، يقول سبحانه وتعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (٤٦) ويقول تعالى أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (٤٧).

يقول الشاعر: لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وانطلاقا من هذا المبدأ رأى العلامة النورسي أن سبب تأخر المسلمين، وكل ما هم فيه من المشاكل والأزمات في الوقت الراهن يرجع إلى عدم التحلي بهذا المبدإ الذي يقتضي ربط القول بالعمل والتناسق والانسجام بين أفعالنا وما يأمرنا به ديننا الحنيف الذي هو الإسلام.

علما أن تطبيق هذا المبدأ هو الذي أدى إلى تقدم أسلافنا ونجاحهم في مهمتهم الدعوية وتأثيرهم في جميع الناس. يقول العلامة النورسي: "... إن الأخلاق العالية إنما تتصل بأرض الحقيقة " بالجدية " وأن إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هي " بالصدق " ومتى انقطعت عرى الصدق والجدية منها صارت كهشيم تذروه الرياح." (٤٨) كما يرى أن "... الأخلاق السامية كذلك لا تسمح أصلا بتداخل الحيلة والكذب بينها، بل تتنزه وتتبرأ وتترفع عنها بحكمة التضاد فيما بينها..." (٤٩) ويقول أيضا: "... نريد أن تصدقوا قولكم بفعلكم..."(٥٠)

---

(٤٦) سورة البقرة أية ٤٤
(٤٧) سورة الصف آية :٢-٣
(٤٨) صيقل الإسلام ص:١٤٣
(٤٩) صيقل الإسلام ص: ١٤٣
(٥٠) نفسه ص:٤٢٧

وهكذا يظهر أن العلامة النورسي يعتبر الأخلاق علما وعملا وفكرا وسلوكا، بل يرى أن المسلمين لو التزموا بمكارم الأخلاق التي يحث عليها الإسلام لكانوا سادة العالم اليوم ولأعتنق كثير من الناس الإسلام . ونقتطف من رحيق كلامه ما يؤيد ما قلنا وينير دروبه: " ... لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا . بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام."[٥١]

٦- مبدأ العبودية للّه:

إن منظومة الأخلاق من خلال رسائل النور تتسم بمبدإ العبودية لله تعالى، ونعني بالعبودية هنا أن التحلي ببعض مكارم الأخلاق يعتبر عبادة لله تعالى حينما يحتسب المتحلي بها أجره من الله.

فمثلا: الصبر على الشدائد والعفو عند المقدرة ومساعدة العاجزين والسعي في قضاء حوائج الناس صلاحا وإصلاحا، وغيرها من الأخلاق التي تتعدى منفعتها إلى الآخرين تعتبر عبادة في حد ذاتها. ومن كلامه العذب السلسبيل الذي يؤكد ما قلنا قوله: "... ما دامت الدنيا دار عمل ومحل عبادة فالأمراض والمصائب عدا الدينية منها وبشرط الصبر عليها تكون ملائمة جدا مع ذلك العمل، بل منسجمة تماما مع تلك العبادة حيث إنها تمد العمل بقوة وتشد من أزر العبادة فلا يجوز التشكي منها بل يجب التحلي بالشكر لله بها حيث إن تلك الأمراض والنوائب تحول كل ساعة من حياة المصاب عبادة ليوم كامل."[٥٢] ويقول أيضا : "... فإذا ما تجمل المصاب بالصبر وفكر في ثواب ضره عند الله وجميل أجره عنده وشكر ربه عليها تحولت عندئذ كل ساعة من ساعات عمره كأنها يوم من العبادة، فيغدو عمره القصير جدا مديدا طويلا، بل تتحول – عند بعضهم – كل دقيقة من دقائق عمره بمثابة يوم من العبادة..."[٥٣]

---

(٥١) الخطبة الشامية ص: ٢٧

(٥٢) اللمعات ص: ١٣

(٥٣) اللمعات ص :١٣

وهكذا يظهر أن التحلي بمكارم الأخلاق يحول حياة المسلم اليومي إلى عبادة ما دام يبتغي بهذا الانضباط الخلقي التقرب إلى الله تعالى.

٧- مبدأ التأسي والقدوة بالنبي ﷺ:

ونقصد بهذا أن مفهوم الأخلاق تقوم على مبدأ التأسي والقدوة بالنبي ﷺ لأنه أعلى من يجسد أخلاق القرآن . فأي إنسان لا بد أن يقتدي بالنبي ﷺ في أخلاقه وتصرفاته، لأنه (... متصف بأسمى مراتب محاسن الأخلاق باتفاق الأولياء وأنه ﷺ هو المصطفى المختار من بين بني البشر وهو أشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع.. وما دام هو أكمل إنسان، بل هو أكمل قدوة ومرشد بدلالات آلاف المعجزة ... وما دام ملايين من أهل الكمال قد سموا في مراتب الكمالات وترقوا فيها بثمرات اتباعه فوصلوا إلى سعادة الدارين ... فلا بد أن سنة هذا النبي الكريم ﷺ وحركاته هي أفضل نموذج للاقتداء وأكمل مرشد للاتباع والسلوك وأحكم دستور، وأعظم قانون يتخذه المسلم أساسا في تنظيم حياته. فالسعيد المحظوظ هو من له أوفر نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة.)[٥٤]

ومن درر لمعاته ما يؤكد هذا الكلام: "...إن محمدا ﷺ هو المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن وهو أفضل من تمثلت فيه تلك المحاسن بل إنه خلق فطرة على تلك المحاسن . ففي الوقت الذي ينبغي أن يكون كل من أفعال هذا النبي العظيم ﷺ وأقواله وأحواله وكل من حركاته نموذج اقتداء للبشرية فما أتعس أولئك المؤمنين من أمته الذين غفلوا عن سنته ﷺ ممن لا يبالون بها أو يريدون تغييرها فما أتعسهم وما أشقاهم." [٥٥]

نعم ما أشقى وما أتعس من يطلب هديا في غير هديه ﷺ أو يستقي خلقا في غير مصدر خلق النبي ﷺ.

---

(٥٤) نفسه ص: ٩٤-٩٥/ صيقل الإسلام ص:٥٠٣

(٥٥) اللمعات ص: ٩٥

وهكذا يمكن القول بأن الأخلاق الإسلامية ربانية في مصدرها وغاياتها، وأن أغلبها مبنية على أسس وقواعد وقيم ثابتة لا تتغير ولا تتبدل بتغير الظروف والأحول والمكان والزمان.

هذا بعض ما تيسر قطفه في بيان مصادر الأخلاق عند العلامة النورسي والمبادئ التي تقوم عليها منظومته الأخلاقية من خلال بعض رسائله.

المبحث الثالث: أثر الأخلاق في الفرد والمجتمع:

إن أي مجتمع لا يمكن أن يعيش أفرادها بأمان وانسجام ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية؛ لأن بها يتم إصلاح الفرد الذي هو الخطوة الأولى في إصلاح المجتمع كله، وصدق القائل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إذ كيف يكون هناك ثقة متبادلة بين أفراد المجتمع لولا فضيلة الصدق التي اعتبرها العلامة النورسي أس أساس الإسلام، وعقد الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية. [٥٦]

وكيف يكون تعايش بين الناس في أمن وسلام لولا فضيلة الأمانة . وكيف نتصور مجتمعا مثاليا، قادرا على قيادة العالم نحو الأفضل بدون مكارم الأخلاق؟

إذا فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية في كل عصر من العصور حتى تصير أفراد المجتمع أفرادا مسئولا وواعيا.

فالفرد المتخلق بمكارم الأخلاق لابد أن يؤدي ما عليه من حقوق الله عز وجل، وحقوق الناس، فإن كان موظفا أو مسئولا فلا بد أن يتقي الله في رعيته

---

(٥٦) الخطبة الشامية: ص:٤٦

وفي أسرته، وأن يؤدي لكل ذي حق حقه. فكل إنسان مكلف ومأمور بالتخلق بأخلاق النبي ﷺ وإحياء سنته الشريفة.

وفي رسائل العلامة النورسي نصوص عديدة تبين أهمية الأخلاق وضرورتها في المجتمع وأثرها في الفرد والمجتمع.

فيرى أن نبينا محمد ﷺ - الذي يجسد أخلاق القرآن العالية- ما أثر في أصحابه ومجتمعه إلا بأخلاقه السامية. فقد استطاع- بخلقه العالية- أن يغير قبائل العرب من أخلاق البداوة والتوحش إلى أخلاق السيادة والقيادة، حتى صاروا أعظم خَلق في العالم. يقول العلامة النورسي في رشحته السابعة: "... ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة المتعصبين لعاداتهم المعاندين في عصبيتهم وخصامهم كيف رفع هذا الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة ؟ وجهزهم بأخلاق حسنة عالية؛ فصيرهم معلمي العالم الإنساني وأساتيذ الأمم المتمدنة." (٥٧) وبأخلاقه السامية أيضا "... غلب على الأفكار، وتحبب إلى الأرواح، وتسلط على الطبائع وقلع من أعماق قلوبهم العادات والأخلاق الوحشية المألوفة الراسخة المستمرة الكثيرة . ثم غرس في موضعها في غاية الأحكام والقوة – كأنها اختلطت بلحمهم ودمهم- أخلاقا عالية وعادات حسنة .. وقد بدل قساوة قلوب قوم خامدين في زوايا الوحشة بحسيات رقيقة وأظهر جوهر إنسانيتهم، ثم أخرجهم من زوايا النسيان ورقى بهم إلى أوج المدنية وصيرهم معلمي عالمهم وأسس لهم دولة عظيمة في زمن قليل . فأصبحت كالشعلة الجوالة والنور النوار بل كعصا موسى تبتلع سائر الدول وتمحوها . فاظهر صدقه ونبوته وتمسكه بالحق إلى كل من لم تعم بصيرته. " (٥٨)

ويرى العلامة النورسي أن التحلي بمكارم الأخلاق يؤدي إلى إزالة كثير من الأمراض المنتشرة في المجتمع، "..إن الصدق هو أس أساس الإسلام ... فعلينا

---

(٥٧) الكلمات ص: ٢٥٨/ المثنوي العربي النوري ص: ٥٩-٦٠

(٥٨) صيقل الإسلام ص: ١٤٨

إذا أن نحيي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا "[٥٩] كما يرى أن الصدق " أرواج مال وأقوم متاع بل هو مفتاح جميع الحقائق ومرقاة عروج محمد ﷺ إلى أعلى العليين..." [٦٠]

وأنه لا نجاة ولا سعادة إلا التمسك بحقائق الإسلام التي تتمثل في التحلي بمكارم الأخلاق واتباع شريعته،يقول العلامة النورسي: "... لا سعادة لأمة الإسلام إلا بتحقيق حقائق الإسلام وإلا فلا، ولا يمكن أن تذوق الأمة السعادة في الدنيا أو تعيش حياة اجتماعية فاضلة إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية، وإلا فلا عدالة قطعا ولا أمان مطلقا إذ تتغلب عندئذ الأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة، ويبقى الأمر معلقا بيد الكذابين والمرائين..."[٦١]

كما يبين العلامة النورسي في رسائله أن التزام الناس بمكارم الأخلاق يؤدي إلى تقدم المجتمع وسعادته، وأن الغرب ما تفوقوا علينا إلا باتخاذهم ببعض المكارم التي يأمر به ديننا الحنيف، " ...و هنا أنبه ببالغ الأسى والأسف إلى أن قسما من الأجانب كما سلبوا أموالنا الثمينة وأوطاننا بثمن بخس دراهم معدودة مزورة كذلك فقد سلبوا منا قسما من أخلاقنا الرفيعة وسجايانا الحميدة والتي بها يترابط مجتمعنا، وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقيهم وتقدمهم، ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طبائعهم وسفاهة أخلاقهم. فمثلا: إن السجية الملية التي أخذوها منا هي قول واحد منهم : إن مت فلتحيا أمتي، فإن لي حياة باقية " هذه السجية أقوى أساس وأمتنه لرقيهم وتقدمهم قد سرقوها منا؛ إذ هذه الكلمة إنما تنبع من الدين الحق ومن حقائق الإيمان، فهي لنا وللمؤمنين جميعا، بينما دخلت فينا أخلاق رذيلة وسجايا فاسدة فترى ذلك الأناني الذي فينا يقول: إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر و "إن لم أر السعادة فعلى الدنيا العفاء" فهذه الكلمة الحمقاء إنما تنبع من عدم وجود الدين ومن عدم معرفة الآخرة، فهي دخيلة

---

(٥٩) الخطبة الشامية ص: ٤٦

(٦٠) نفسه ص: ٤٨

(٦١) نفسه ص:٧١

علينا تسمّمنا. ثم إن تلك السجية الغالية عندما سرت إلى الأجانب اكتسبت كل فرد منهم قيمة عظيمة حتى كأنه أمة واحدة؛ لأن قيمة الشخص بهمّته، فمن كانت همته أمته فهو بذاته أمة صغيرة... وبحكم أخذنا الأخلاق الفاسدة من الأجانب فإن هناك من يقول: نفسي نفسي مع ما في أمتنا الإسلامية من سمو وقدسية. فألف رجل مثل هذا الشخص الذي لا يفكر إلا بمصلحته الشخصية ولا يبالي بمصلحة الأمة إنما ينزل بمنزلة شخص واحد. " (٦٢)

كما يرى العلامة النورسي أن التزام الناس بمبدإ الشورى يؤدي إلى انتشار الإخلاص والتساند في المجتمع ومن درر كلامه في هذا المبدإ:

".. إن الشورى الحق تولد الإخلاص والتساند، إذ إن ثلاث ألفات هكذا (١١١) تصبح مائة وإحدى عشرة، فإنه بالإخلاص والتساند الحقيقي يستطيع ثلاثة أشخاص أن يفيدوا أمتهم فائدة مائة شخص. ويخبرنا التاريخ بحوادث كثيرة أن عشرة رجال يمكنهم أن يقوموا بما يقوم به ألف شخص بالإخلاص والتساند الحقيقي والشورى فيما بينهم."(٦٣) كما يؤكد في رسائله أن التحلي بمكارم الأخلاق يدفع إلى الاعتزاز بالنفس والتواضع في نفس الوقت والترفع عن السفاسف، " ومن شأن امتزاج كثرة من تلك الأخلاق وتجمعها وإحاطتها توليد عزة نفس التي تولد شرفا ووقارا يترفعان عن سفاسف الأمور، كترفع الملائكة وتنزههم عن الاختلاط بالشياطين..." (٦٤)

ولبيان أثر الأخلاق أيضا يوضح العلامة النورسي أن أسلافنا ما نجحوا في مهمتهم الدعوية إلا بأخلاقهم السامية، وأن المسلمين اليوم لو تشبعوا بأخلاق القرآن لساد الإسلام في العالم ولدخل الناس في دين الله أفواجا، ومن درر كلامه في هذا : ".. ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم الأخلاق الإسلام

---

(٦٢) الخطبة الشامية ص: ٥٦-٥٧

(٦٣) نفسه ص: ٦٠

(٦٤) صيقل الإسلام ص : ١٤٣

وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا . بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام..." [٦٥]

ولا شك أن هذه النصوص التي جلبنا من رسائل العلامة النورسي وغيرها من النصوص التي تركنا خوف الإطالة، والتي تقوي بعضها بعضا كالبنيان المرصوص تؤكد أن الأخلاق عند العلامة النورسي ضرورة اجتماعية، وأنه لا يمكن لأي مجتمع يريد التوازن في حياته أن يعيش بدونها، وأن التحلي بمكارم الأخلاق يؤدي إلى سعادة المجتمع وتقدمه وانسجامه والاعتزاز بالنفس والتواضع، وأن أي خلل فيها، يؤدي إلى خلل في المجتمع وفساده وأن الأمة الإسلامية لو التزموا بمكارم الأخلاق التي يدعو إليها الإسلام لأصبحوا سادة العالم، ولما بقي أحد على وجه الأرض إلا وتبنى هذا الدين. وأن هذه الخصال الحميدة تبقى حصنا حصينا للمسلم في هذا الوقت الذي يتسم بالدمار، أخلاقيا وروحيا، وبإثارة هوى النفس الأمارة بالسوء وبإطلاق الهوى من عقالها.[٦٦] وهكذا يظهر أثر الأخلاق في الفرد والمجتمع وضرورتها في الحياة، من خلال بعض رسائل العلامة النورسي.

المبحث الرابع : وسائل اكتساب مكارم الأخلاق من خلال رسائل النورسي:

لقد خلق الله البشر على طبائع مختلفة، ووهبهم،أو أودع فيهم- فطريا- مكارم الأخلاق، لكنهم متفاوتون في هذه الهبة الإلهية.

وهذه المكارم التي جبلوا عليها منها ما هو غريزي ومنها ما هو مكتسب، ينمى ويربى، بعدة وسائل.

وفي رسائل العلامة النورسي نصوص عديدة نيرة تبين الوسائل الناجعة لاكتساب مكارم الأخلاق وتنميتها، ومن هذه الوسائل:

---

(٦٥) صيقل الإسلام ص:٤٩٤

(٦٦) الملاحق ص: ١٦٩

١-**سلامة العقيدة**: إن العقيدة السليمة لها أثر كبير في تهذيب النفس وتقويم اعوجاجها وقلع كل ما فيها من الرذائل وتوجيهها إلى نهج السلوك القويم،حتى يصبح ديدنة في الإنسان.إذًا الإيمان القوي النابع من العقيدة السليمة تثبت الأخلاق الفاضلة وتغرسها في نفس الإنسان.يقول العلامة النورسي: " ..إن الإيمان دائما يقيم في القلب والعقل حارسا معنويا، أمينا،..."[٦٧] كما أن الإيمان يعطي الإنسان قوة معنوية يصارع بها جميع الحوادث والمصائب، ويكسب الإنسان عزة النفس والشفقة في نفس الوقت والترفع عن الدنايا[٦٨]

٢-**الإقناع الفكري**: إن إقناع الإنسان بالمفاهيم الإيمانية والأخلاقية التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف عن طريق النظر في تعاليمه ومقاصده يدفع الإنسان إلى التحلي بهذه الأخلاق الفاضلة التي يدعو إليها الإسلام ويحث عليها، والتخلي برذائلها التي ينفر منها.

٣-**التدريب العملي والرياضة النفسية:** إن التدريب العملي والممارسة التطبيقية لفضائل الأخلاق ومجاهدة النفس فيها، مما يكسب الإنسان مكارم الأخلاق؛ ولذا اعتمد الإسلام على المجاهدة في تربية المسلمين في بعض المواقف، فرغب في بعض الأعمال التي تبدو شاقة لتهذيب النفس وتطهيرها ونفر من بعضها. يقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٦٩] فمن جاهد نفسه لاكتساب فضائل الأخلاق اكتسبها ؛لأن الأخلاق منها ما هو غريزي فطري ومنها ما هو اكتسابي يأتي بعد الدربة والممارسة. وفي تنمية الأخلاق بالممارسة والمجاهدة يقول العلامة النورسي: إن " .. نشوء الحسيات العالية، ونمو الأخلاق إنما هو بالمجاهدة، وتكمل الأشياء إنما هو بمقابلة الأضداد ومزاحمتها. ألا ترى أن حكومة إذا جاهدت ينمو فيها الجسارة، وإذا تركت انطفأت.."[٧٠]

---

(٦٧) الخطبة الشامية ص:٧٣/ إشارات الإعجاز ص:١٤٧

(٦٨) إشارات الإعجاز ص: ٥١-٥٢, ١٠٦

(٦٩) العنكبوت أية ٦٩

(٧٠) إشارات الإعجاز ص: ٢٠٧

٤-**اختيار البيئة الصالحة:** إن البيئة لها دور كبير في تكوين الشخص خلقيا وعلميا وثقافيا واجتماعيا، وقديما قالوا: " الإنسان ابن بيئته "، ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار البيئة الصالحة لتنمية أخلاقه، عن طريق التحلي بالعادات الحسنة ومحاكاة الطيبين من الناس، حتى يصبح الخلق الحسن عادته وديدنه ويمسي جزءا منه.

٥- **القدوة الصالحة**: إن القدوة الصالحة هي المثال الواقعي للسلوك الأمثل، وهذا المثال قد يكون حسيا يقتدى به وقد يكون حاضرا في الذهن بأخباره وسيره؛ ولهذا يرى العلامة النورسي أن إدامة النظر في سيرته ﷺ الذي يعد أفضل نموذج للاقتداء وأكمل مرشد للاتباع والسلوك و إجالة النظر في سيرة أصحابه رضوان الله عليهم مما يكسب الإنسان مكارم الأخلاق، كما يرى أنه يجب على كل إنسان يريد أن يتخلق بأخلاق القرآن أن يتبع سيرته ﷺ وسنته الشريفة. [٧١] ويقول سبحانه وتعالى﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)

٦-اللزوم على العبادات والمحافظة عليها:

إن اللزوم على العبادات والمواظبة عليها مما يهذب النفس وينقيها ويبعد عنها الرذائل، ويرسخ فيها العقائد ويربيها وينميها، وبدون اللزوم على العبادات يكون آثار العقائد ضعيفة.

فالمواظبة على الصلاة مثلا وأدائها في وقتها وفي الجماعة بخشوع وتدبر مما يربي في الإنسان الأخلاق الفاضلة وينميها ويبعدها عن ارتكاب المعاصي يقول سبحانه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ كما أن المواظبة على الصيام مما يهذب النفس ويقوم السلوك، وينشئ الأخلاق الفاضلة في الإنسان من رحمة وبر وصلة وانضباط.

---

(٧١) اللمعات ص:٩٤-٩٦/ الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة الميداني ج١ص: ٢١٤-٢١٦

كما أنه يقوي الأمانة والعزيمة والإرادة ويعلو الهمة، ويؤدي إلى التقوى الذي يحتاج إليه المسلم في كل أحواله.

ومن آراء العلامة النورسي النيرة في هذا إن صيام رمضان، تتوجه إلى تربية النفس وتزكيتها وإلى القيام بالشكر تجاه النعم الإلهية.. وإلى تهذيب النفس الأمارة بالسوء، وتقويم أخلاقها، وجعلها تتخلى عن تصرفاتها العشوائية، وأن بالصوم يروض الإنسان لسانه على الصوم من الكذب والغيبة ويرطب لسانه بتلاوة القرآن وذكر الله سبحانه والتسبيح بحمده ويغض بصره عن المحرمات ويسد أذنه عن الكلام البذيء وغيرها من الذنوب والصغائر التي تؤثر في عمل الإنسان. فالصوم إذن علاج ناجع لهلع الإنسان وقلة صبره، ووسيلة فعالة لتهذيب النفس وكسر شهوتها وكسب مكارم الأخلاق.[٧٢]

كما أن إعطاء الزكاة إلى مستحقيها وانشراح الصدر عند إخراجها مما يكسب الإنسان مكارم الأخلاق ويقلع فيه الأخلاق الرذيلة، ويجعله يتعود على البذل والعطاء ويتخلق بأخلاق الله تعالى.[٧٣]

٧-**اتخاذ مبدأ الشورى في الحياة** مما يكسب الإنسان بعض الأخلاق الفاضلة وفي هذا يقول العلامة النورسي: " ...إن الشورى الحق تولد الإخلاص والتساند ... ويخبرنا التاريخ بحوادث كثيرة أن عشرة رجال يمكنهم أن يقوموا بما يقوم به ألف شخص بالإخلاص والتساند الحقيقي والشورى فيما بينهم "[٧٤]

٨-**الامتثال بالأوامر واجتناب النواهي** مما يكسب الإنسان الخلق الحسن ويرسخ في قلبه الأخلاق الفاضلة.

٩-**إيثار الحياة الأخرية على الحياة الدنيوية** وتذكرة الموت وملاحظة فناء الدنيا وزوالها،مما يكسب الإنسان القناعة ويكسر فيه شهوة حب الدنيا والطمع في زهرتها.

---

(٧٢) المكتوبات ص:٥١٣-٥٢١

(٧٣) إشارات الإعجاز ص:٥٤-٥٥

(٧٤) الخطبة الشامية ص: ٦٠

١٠-**معرفة الشخص بقصوره في قرارة نفسه**، وترك الإعجاب بالنفس والغرور مما يكسب الإنسان مكارم الأخلاق.

١١-**الافتخار بصحبة السالكين في منهج الحق**، وربط عرى المحبة معهم، والسير خلفهم، وترك شرف الإمامة لهم مما يكسب الأخلاق الفاضلة.

١٢-**ترك دواعي الحسد والمنافسة** والأحاسيس النفسانية التافهة التي تؤدي إلى التباغض والتناحر.[٧٥]

١٣- **قراءة القرآن بتدبر وتعقل و إدامة النظر فيه** مما يهدي الإنسان إلى الحق وإلى الطريق المستقيم والتحلي بمكارم الأخلاق ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩)

١٤- **إدامة النظر في رسائل النور** التي تعد تفسيرا مهما للقرآن وبرهانا باهرا له ولمعة براقة من لمعات إعجازه ورشحة من ذلك البحر الذي لا ساحل له مما يرقق القلب ويكسبه مكارم الأخلاق.[٧٦]

الخاتمة:

هذا بعض ما تيسر قطفه من رسائل بديع الزمان النورسي في هذا الموضوع وهي رسائل حافلة بنصوص قيمة في مجال الأخلاق وغيرها من الموضوعات التي تعد مواضيع ذات أهمية بالغة لتقدم المجتمع وحل قضاياه في هذا الوقت الراهن.

وبعد هذه الجولة السريعة التي قمنا بها في رياض كليات رسائل النورسي نقرر ما يلي:

١- أن مفهوم الأخلاق عند العلامة النورسي يعني التخلق بكل ما جاء به

---

(٧٥) اللمعات ص: ٢١٢- ٢٤٧ / إشارات الإعجاز ص: ١٤٧

(٧٦) الملاحق ص: ١٤٦-٢٢٥

القرآن والسنة، و كل سلوك خيّر يقوم به الإنسان بإرادة خيّرة، لغاية خيرة. وأن مفهومها واسع جدا يدخل في إطارها جميع العلاقات الإنسانية، وحتى علاقات الإنسان مع غيره من الكائنات.

٢- إن أهم ما ينبغي أن يتحلى به الإنسان في الوقت الراهن الذي يتسم بإثارة الشهوات هو التقوى، والصدق الذي يعد أس أساس الإسلام وواسطة العقد في حياة الإسلام الاجتماعية.

٣- إن الأخلاق الإسلامية لها علاقة وطيدة بالعقيدة والعبادات،لذا لا ينبغي الفصل بينها.

٤- إن التحلي بمكارم الأخلاق، يؤدي إلى تقدم المجتمع الإسلامي، وإلى سعادته، وخروجه من هذه الأزمة التي يعيشها، وأن الالتزام بها هو الترياق لكل المعضلات التي يعاني منها المسلمون حاليا.

٥- إن التحلي بالأخلاق الإسلامية وتطبيقها في الوقع العملي لهو أفضل وسيلة لانتشار الإسلام واستقطاب الآخرين إليه.

٦- إن أفضل عمل مؤثر يقدمه المسلمون للآخرين وأجمل صورة يرسمها المسلمون للإسلام، وأغلى هدية يهديها المسلمون اليوم للعالم هي التخلق بأخلاق القرآن والالتزام بها قولا وفعلا وسلوكا.

٧- إن الأخلاق الإسلامية ربانية في مصدرها، وفي غايتها، ومبنية على أسس متينة وقواعد ثابتة لا تتبدل ولا تتغير.

٨- إن القدوة بالنبي ﷺ واتخاذه النموذج الأمثل في حسن الخلق يجعل المسلمين قدوة للبشرية جمعاء.

٩- يعتبر الخلق الحسن من أهم معجزة أعطيت للنبي ﷺ بعد القرآن الكريم ؛لذا ينبغي الاقتداء به في كل سلوكه.

١٠- إن رسائل النورسي تشخص مدى تأثر صاحبها بالقرآن الكريم والسيرة النبوية العطرة،وهي رسائل لها أثر كبير على كل من وقرأها وتأملها. وقد أدت

دورا مهما في توجيه الحياة الاجتماعية توجيها سليما في عصر النورسي وبعده. وهي أيضا رسائل قيمة لا يستغني عنها أي داعية أو باحث في مجال الأخلاق حيث تربط النظرية بالتطبيقية والقول بالعمل وتشخص الداء وتقدم الدواء الناجع، وتبين المشاكل والمعضلات وتقدم الحلول والبدائل المناسبة. كما أنها مراجع مهمة في الأخلاق، تحث على التحلي بمكارم الأخلاق وتبين فوائدها وثمارها وطريقة كسبها وترسيخها وتنفر من الأخلاق المذمومة وتشخص مضارها وأثرها في الفرد والمجتمع. إنها بحق رسائل عالية تناولت الأخلاق بعمق وجدية نادرة وبشكل متميز

ومن صاحبها فسيدرك في الحقيقة أنه في " .. روضة يانعة الأزهار، دانية القطوف والثمار، متنوعة الرياحين والأشجار، عذبة السلسبيل، شهية المورد، متفتحة الأقحوان، مفعمة بعطاء غير مكدر ونظرة غير مشوبة بالقصور، تغدق على الجوال بين ربوعها آيات الحكمة، وعظات اليقظة وترياق الغفلة فهي سر مكنون، وكنز مأمون، وتجارة لن تبور..."[٧٧] جزى الله مؤلفها عن المسلمين خير الجزاء وأجزل ثواب ناشريها، ونفع بها طلابها وجميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وجعلهم هداة مهتدين آمين.

---

(٧٧) العولمة والأخلاق ص: ٩٥

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم: مصحف المدينة النبوية، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

٢- الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني الطبعة الخامسة ١٤٢٠ هجرية/ ١٩٩٩م دار القلم – دمشق

٣- أبحاث المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان سعيد النورسي: العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور (البحوث العربية) طبعة شركة نسل للطبع والنشر ٢٠٠٤ استنبول – تركيا

٤- أبحاث المؤتمر العالمي السابع لبديع الزمان النورسي التي نظمها مؤسسة الثقافة والعلوم بإستنبول، بعنوان: ممارسة حياة إيمانية فاعلة في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات من خلال رسائل النور الطبعة الأولى ١٤٢٥/٢٠٠٤، شركة نسل للطبع والنشر استنبول- تركيا

٥- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي طبعة الدار المصرية اللبنانية

٦- الإعداد الروحي والخلقي للمعلم والمعلمة: إعداد الدكتور محمد جميل بن علي الخياط طبعة دار الفيلة للثقافة الإسلامية.

٧- الخطبة الشامية للعلامة بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة وتحقيق إحسان قاسم الطبعة الأولى ١٤٠٢١/ ٢٠٠١ منشورات الأحمدية للنشر

٨- دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز تعريب وتحقيق وتعليق دكتور عبد الصبور شاهين الطبعة العاشرة ١٤١٨/١٩٩٨م مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان

٩- سنن أبي داود، راجعه وضبطه وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر

١٠- سنن الترمذي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر طبعة المكتبة الفيصلية مكة المكرمة.

١١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الرابعة ١٩٩٠ م دار العلم للملايين بيروت لبنان

١٢- صحيح البخاري طبعة عالم الكتب بيروت بدون تاريخ

١٣- صحيح مسلم حقق نصوصه وصححه محمد فؤاد عبد الباقي طبعة المكتبة الفيصلية مكة المكرمة.

١٤- مفاتح النور للدكتور فريد الأنصاري طبعة ٢٠٠٤ منشورات معهد الدراسات المصطلحية بفاس ومركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول – تركيا.

١٥- كليات رسائل النور: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر

١٦- سيرة ذاتية: بديع الزمان النورسي، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر. فرع القاهرة- مصر

١٧- الشعاعات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر

١٨- صيقل الإسلام : بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر

١٩- الكلمات : بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر

٢٠- اللمعات : بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي،، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر

٢١- كليات رسائل النور: المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي،، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣ منشورات شركة سوزلر للنشر فرع القاهرة- مصر.

٢٢- المكتوبات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر

٢٣- الملاحق في فقه دعوة النور: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر

٢٤- لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور طبعة دار صادر بيروت

٢٥- مسند الإمام أحمد وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال طبعة المكتب الإسلامي بدون تاريخ

٢٦- منهاج السنة النبوية لابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم الطبعة الأولى ١٤٠٦/ ١٩٨٦ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

٢٧- الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي شرحه وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ عبد الله دراز ووضع تراجمه الأستاذ محمد عبد الله دراز طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٢٨- الموطإ للإمام مالك صححه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي طبعة دار إحياء الكتب العربية.

العدل مقصدا من مقاصد الشريعة
في فكر بديع الزمان النورسي

د. محمد الوثيق
جامعة القرويين- كلية الشريعة
أكادير- المغرب

تقديم

مبدأ العدل في فكر وتراث السيد بديع الزمان النورسي رحمه الله مبدأ مركزي، وهو ما يمكن لمسه بسهولة لقارئ رسائل النور؛ إذ يجدها تردد كثيرا مقاصد أربعة في نسق واحد يعتبرها أهم مقاصد القرآن هي إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدل.

وهذه الورقة تهدف إلى ربط فكر الإمام النورسي بأصول الشريعة ورصد تطبيقات ما عرف لدى علماء الأصول بـ "علم مقاصد الشريعة" في كتاباته، والتأكد من استحضاره لهذه الغايات والحكم.

وبالرغم من أن علماء الأصول لم ينصوا على "العدل" كمقصد قائم من المقاصد الشرعية غير أن حديثهم عن استهداف الشريعة لحماية الدين والنفس والعرض والمال هو في حقيقته تحقيق للعدل.

الخلاصة أن هذه الورقة ستدرس موضوعها دراسة تنحو نحو بلورة مدى حضور منهج استنباط الأحكام الشرعية من النصوص كما هو مقنن عند أهله، وترصد مدى حضور الفكر المقاصدي في تراث الإمام النورسي رحمه الله.

المبحث الأول: حضور البعد المقاصدي في رسائل النور

من الطبيعي جدا، بل من الضروري في كتابات الأستاذ النورسي الذي نصب نفسه مدافعا عن الإيمان، وهادفا إلى إنقاذ العقل المعاصر من نفسه ومن الفلسفات المضلة، أن يخاطب هذا العقل بلغة علمية مقاصدية تركز على استحضار مآلات الأمور، وتربط الإنسان بحقيقته، وتذكره بموقعه ورسالته وبمصيره...ولذلك كانت اللغة العلمية والعقلية والحجاجية حاضرة إلى جانب الأسلوب الروحي الإيماني الوعظي ...

وكما يلاحظ المطالع لرسائل النور فإن المؤلف-رحمه الله- يمزج، وهو بصدد التناول لأي موضوع- بين المقاصد الكبرى والمقاصد الجزئية، بين فهم الظواهر الكونية وتعليلها، وبين تقصيد الأحكام الشرعية وتوجيهها وبيان الحكم التي تستهدف بلوغها. وهو ما ينبئ عن عقل جبار تجاوز مستوى التفسير الفقهي إلى مستوى التحليل الشمولي للظواهر والأشياء.

ومثال هذا البعد المتكامل في التحليل تجده في حديثه عن القرآن الذي هو دستور الحياة الإيمانية، ولهذا كان لا بد أن يستوعب الفلسفة الإيمانية الكبرى في الوجود والكون والحياة، وبالأحرى هو مستوعب لغايات الإنسان ومقاصده في مفردات حياته اليومية البسيطة، فالقرآن يرى جميع الدساتير التي تحقق سعادة الدارين ويبيّنها مع بيانه كل ركن من أركان الإيمان الستة بالتفصيل، وكل ركن من أركان الإسلام الخمسة بقصدٍ وجدّ، محافظاً على الموازنة فيما بينها جميعاً، مديماً تناسبها. فينشأ من منبع الجمال والحسن البديع الحاصل من تناسب مجموع تلك الحقائق وتوازنها إعجاز معنوي رائع للقرآن[1]. وأبهر دليل على ذلك هو كمال انتظام الشريعة العظمى النابعة من نصوص ذلك القرآن الجامع ومن إشاراته ورموزه[2]. وتضمن طراز بيانه جميع دساتير سعادة الدارين،

---

(١) الكلمة الخامسة والعشرون ص: ٥١٤.

(٢) الكلمة الثالثة عشرة ص: ١٥٤ .

ودواعي الأمن والاطمئنان، وروابط الحياة الاجتماعية، ووسائل التربية، وحقائق الأحوال"[(٣)]

ويجد القارئ انعكاس هذه النظرة على كلام النورسي حين يتحدث عن موضوع المقاصد بشكل مباشر، فهو يذكر مقاصد ليست من قبيل المتداول بين علماء الشريعة والكاتبين في أصول الفقه، وإنما ينطلق من مقاصد الخالق من الخلق محصيا إياها ومحددا لها في أربعة. وفي الوقت ذاته لا يغفل استحضار المقاصد المعروفة في علم أصول الفقه، بل لا تكاد تخلو منها رسائل النور.

وهذه الازدواجية هي ما يمكن استعراضه في نقطتين:

الأولى: **المقاصد الكبرى**

وهي تلك التي اعتبرها النورسي رحمه الله مقاصد القرآن الأساسية ونص على ذلك صراحة في غير مناسبة بقوله:

"إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية المنبثة في كل جهاته أربعة: إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدل"[(٤)].

ومن استقرائه للقرآن وجد أن هذه المقاصد لا تخلو منها سورة، ومن السور ما يعالج مقاصد إضافية، غير أن هذه أكبرها جميعا، فإن "أغلب السور المطولة والمتوسطة - التي كل منها كأنها قرآن على حدة - لا تكتفي بمقصدين أو ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة - وهي التوحيد، النبوة، الحشر، العدل مع العبودية - بل كل منها يتضمن ماهية القرآن كلها والمقاصد الأربعة معاً؛ أي كل منها كتاب ذكر وإيمان وفكر، كما أنه كتاب شريعة وحكمة وهداية. فكل سورة من تلك السُوَر تتضمن كُتباً عدة، وترشد إلى دروس مختلفة متنوعة. فتجد أن كل مقام - بل حتى الصحيفة الواحدة - يفتح أمام الإنسان أبواباً للإيمان يحقق بها إقرار مقاصد أخرى حيث إن القرآن يذكر ما هو مسطور في كتاب الكون الكبير ويبينه

---

(٣) الكلمات- اللوامع ص: ٨٨١.

(٤) صيقل الإسلام،محاكمات ص: ٢٩.

بوضوح، فيرسخ في أعماق المؤمن إحاطة ربوبيته سبحانه بكل شيء، ويريه تجلياتها المهيبة في الآفاق والأنفس. لذا فإن ما يبدو من مناسبة ضعيفة، يبنى عليها مقاصد كلية فتتلاحق مناسبات وثيقة وعلاقات قوية بتلك المناسبة الضعيفة ظاهراً، فيكون الأسلوب مطابقاً تماماً لمقتضى ذلك المقام..."(٥).

وكما هو ملاحظ فإن مقصد العدل أقرب المقاصد الأربعة إلى المجال الذي يبحثه علماء الشريعة في حديثهم عن علم المقاصد، مع أن الأستاذ النورسي تحدث عنه أيضا في بعده الكلي وربطه بالقصد الإلهي من الخلق مطلقا...

ومن هنا يمكن الانتقال إلى المستوى الثاني للتناول المقاصدي في فكر النورسي.

الثانية: **المقاصد القريبة**

وتتجلى في التناول الأقرب إلى علم المقاصد عند علماء الشريعة، وهو ما يمكن تلمسه في قوله محددا المقصود بها بأنها: "...المقاصد الخادمة لمصلحة الإنسان عموما وفي هذه الحياة الدنيا خصوصا"(٦).

وهي مقاصد أغنت الإنسان عن البحث عن سبل السعادة في الفلسفات الأرضية، فهو "لضعف علمه وقلة تجربته يحتاج إلى شريعة إلهية حية خالدة تحقق له سعادة الدارين معاً، مادةً ومعنىً، وتتوسع حسب قامة استعداداته ونموها..(٧) فيتحقق بهذه الشريعة العادلة رقي البشرية وسمو نظامها ودقة اتزانها(٨). كيف وهي شريعة كافلة لسعادة الناس كافة... كأنها زبدة وخلاصة من جميع العلوم الإلهية والفنون الحقيقية...وتلك الشريعة ذات حياة لا كاللباس، بل كالجلد تتوسع بنموّ استعداد البشر، وتثمر سعادة الدارين، وتنظم أحوال نوع

(٥) الكلمة الخامسة والعشرون ص: ٥٣٣، الشعاع الحادي عشر ص: ٣١٠، وقريب من هذا أيضا في إشارات الإعجاز ص: ٤٠.

(٦) صيقل الإسلام،محاكمات ص: ١٣٨.

(٧) صيقل الإسلام،محاكمات ص: ١٣٨.

(٨) صيقل الإسلام،محاكمات ص: ٢١.

الإنسان كأهل مجلس واحد. فإن سُئلتْ قوانينُها من أين إلى أين؟ لقالت بلسان إعجازها: نجئ من الكلام الأزليّ ونرافق فكر البشر إلى الأبد، فبعد قطع هذه الدنيا نفارق صورةً من جهة التكليف، ولكن نرافق دائما بمعنوياتنا وأسرارنا، فنغذي روحهم ونصير دليلهم..."[٩].

ومن ميزات هذه الشريعة "الاستيعاب في الأحكام، ومن مقاصدها تحقيق الأمن والاطمئنان، وروابط الحياة الاجتماعية، ووسائل التربية، وحقائق الأحوال[١٠]. ولاسيما أن لمتصّرف هذا العالم حكمةً عامةً عاليةً، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء ...كما يشاهد أن له عدالة محضة حقيقية بشهادات وضعه كل شيء في الموضع اللائق، وإعطاء كل ذي حق حقه الذي يستعد له؛ وإسعاف كل ذي حاجة حاجته التي يطلبها لوجوده أو حفظ بقائه، وإجابة كل ذي سؤال سؤاله..."[١١].

المبحث الثاني: شمولية النظرة النورية لمبدإ العدل

عندما يرصد الراصد تصور الأستاذ النورسي للعدل كأحد المقاصد التي تهدف الشريعة الإسلامية إلى تحقيقها على المستوى التشريعي وفي حياة الإنسان اليومية، يجده لا يحصر نفسه في هذا الإطار الضيق، بل ينطلق من نظرة أشمل من ذلك هي الأصل وهي المنطلق والموجه؛ إنه يجعل الخلفية التي ينظر منها إلى العدل التشريعي هي المقصد الأكبر والأساس من الخلق، وهذا ما يمكن معالجته على مستويين:

أولا: **العدل الإلهي في خلق الكون**

إن خلق الكون والحياة له أهداف هي أساسا أهداف الخير والجمال

---

(٩) إشارات الإعجاز ص: ١٧٤.

(١٠) اللوامع ص: ٨٨١ وانظر إشارات الإعجاز ص: ١٥٠.

(١١) المثنوي العربي النوري ص: ٩١.

والكمال (والعدل من هذه)، وهو المضمون العام للآية القرآنية: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: ٧). يقول الأستاذ النورسي: "لقد ثبت بالبحث والتحري الدقيق، والاستقراء والتجارب العديدة للعلوم، أن الخير والحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته؛ أي هو المقاصد الحقيقية للصانع الجليل، بدليل أن كل علمٍ من العلوم المتعلّقة بالكون يطلعنا بقواعده الكلية، على أن في كل نوع وفي كل طائفة انتظاماً وإبداعاً بحيث لا يمكن للعقل أن يتصور أبدع وأكملَ منه"[١٢].

ويكرر النظرة ذاتها عندما ينظر إلى سيمفونية الخلق من الجهة المعاكسة؛ يقول: "كما أن الاستقراء التام والتجارب الشاملة يثبت أن الشر والقبح والباطل والسيئات جزئي وتَبَعي وثانوي في خلقة الكون. فالقبح مثلاً في الكون والمخلوقات ليس هدفاً لذاته وإنما هو وحدة قياسية، لتنقلب حقيقةٌ واحدة للجمال إلى حقائق كثيرة. والشر كذلك، بل حتى الشيطان نفسه إنما خلق وسلّط على البشرية ليكون وسيلة لترقيات البشر غير المحدودة نحو الكمال التي لا يُنال إلاّ بالتسابق والمجاهدة. وأمثال هذه الشرور والقبائح الجزئية خُلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين.

وهكذا يثبت بالاستقراء التام أن المقصد الحقيقي في الكون والغاية الأساسية في الخلق إنما هو الخير والحسن والكمال..."[١٣].

وكعادة الأستاذ النورسي تراه يستثمر أسماء الله الحسنى ودلالاتها العميقة فيستنبط منها هذه النظرة الشمولية الإلهية في خلق الكون، يستثمر دلالات الأسماء الحسنى: الحكيم، والعدل، والقدوس، يقول: "نعم، إن الحكمة العامة المهيمنة في الكون والتي هي تجلٍ أعظم لاسم الحكيم إنما تدور حول محور الاقتصاد وعدم الإسراف، بل تأمر بالاقتصاد. وإن العدالة العامة الجارية في

---

(١٢) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية ص: ٥٠٢.

(١٣) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية ص: ٥٠٢.

الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم العدل إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل. وإن ذكر الميزان أربع مرات في سورة الرحمن إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب، وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمته العظمى في الكون. وذلك في قوله تعالى: ﴿والسماء رفَعها وَوَضَع الميزان ألاَّ تَطْغَوا في الميزان وأقيموا الوزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾ (الرحمن: ٧- ٩).

نعم، فكما لا إسراف في شيء فلا ظلم كذلك ظلماً حقيقياً في شيء، ولا بخسَ في الميزان قط، بل إن التطهير والطهر الصادر من التجلي الأعظم لاسم القدوس يعرض الموجودات بأبهى صورتها وأبدع زينتها، فلا ترى ثمة قذارة في موجود، ولا تجد قبحاً أصيلا في شيء ما لم تمسّه يد البشر الوسخة.

فاعلم من هذا أن العدالة والاقتصاد والطهر التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالا في أعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقة وأصالة! وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرىً وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته..."[١٤].

وزبدة هذا الدليل -كما يقول- هي "إتقان الصنع في النظام الأكمل في الكائنات وما فيها من رعاية المصالح والحكم؛ إذ النظام المندمج في الكائنات وما فيه من رعاية المصالح والحكم، يدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفياً قاطعاً وهمَ المصادفة والاتفاق الأعمى؛ لأن الإتقان لا يكون دون اختيار. فكل علم من العلوم الكونية شاهد صدق على النظام، ويشير إلى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في أغصان الموجودات، ويلوح في الوقت نفسه إلى الحكم والفوائد المستترة في ثنايا انقلاب الأحوال وتغيّر الأطوار"[١٥].

---

(١٤) اللمعة الثلاثون ص: ٥٢٦ .

(١٥) المثنوي العربي النوري ص: ٤٢٨.

وقد كرر الأستاذ النورسي هذه الحقائق وأكد عليها في غير ما موضع من رسائل النور[١٦].

ثانيا: **العدل الإلهي في تشريع الشريعة**

إذا كان العدل بين طرفين هو التسوية والموازنة بينهما ومراعاة الخط الوسط، فقد لا يحتاج الناظر لأن يبرهن على أهمية مقصدية العدل في الشريعة؛ إذ القرآن صريح في بيان مركزية هذا المقصد في كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ (النساء ٥٨).

ومن ذلك أيضا قوله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ (الحديد ٢٥).

وقد استقرأ ابن القيم من نصوص القرآن وكلياته أن الشريعة عدل كلها ورحمة كلها... فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور فليست منها[١٧].

وقال ابن تيمية قبله مقولة سننية جديرة بالتأمل هي: إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، والدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام[١٨].

ومن الأدلة التي ساقها الأستاذ النورسي على مراعاة العدل في الشريعة ما استقرأه من حكمة المتصّرف في هذا العالم العامة العالية، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء، وبدلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات...[١٩]. ويستدل - رحمه الله - لهذه المراعاة بأكثر من نص من نصوص الكتاب الكريم:

---

(١٦) انظر على سبيل المثال: إشارات الإعجاز، ص: ١٥٠ والشعاع الثالث، ص: ٦٦ واللمعة التاسعة والعشرون، ص: ٤٧٩ الكلمة الثلاثون، ص: ٦٦٣.

(١٧) إعلام الموقعين: ٣،١ ٤١.

(١٨) الحسبة ص: ٩.

(١٩) المثنوي العربي النوري ص: ٩١.

١- مثل قوله تعالى الجامع لحقيقة العدل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ (النحل: ٩٠)، وأمثالها من الآيات الكريمة التي تضم الدساتير الدنيوية والأخروية والعلمية والعملية[٢٠]. وقد قال ابن مسعود عن آية النحل هذه: هي أجمع آية للخير والشر في القرآن، لو لم يكن فيه غير هذه لكفت.

٢- ومثل قوله عز وجل: ﴿...الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)، والصراط المستقيم هو العدل الذي هو ملخص الحكمة والعفة والشجاعة اللاتي هي أوساطٌ للمراتب الثلاث للقوى الثلاث...[٢١].

٣- ومثل قوله تعالى: ﴿والسماء رفَعها وَوَضَع الميزان ألا تَطْغَوا في الميزان وأقيموا الوزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ﴾ (الرحمن: ٧- ٩) "، فإن ذكر الميزان أربع مرات في سورة الرحمن إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب، وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمته العظمى في الكون"[٢٢].

وهكذا جاءت الشريعة مستوعبة لمقاصد الحق من الخلق؛ إذ قد"تضمنت جميع دساتير سعادة الدارين، ودواعي الأمن والاطمئنان، وروابط الحياة الاجتماعية ووسائل التربية، وحقائق الأحوال[٢٣]. فكمال انتظام هذه الشريعة الغراء وجمال توازنها الدقيق وحسن تناسب أحكامها ورصانتها، كل منها شاهِدُ عدلٍ لا يجرح وبرهان قاطع باهر لا يدنو منه الريب أبداً على أحقية القرآن الكريم"[٢٤].

ومن التجليات البارزة للعدل ما يمكن ملاحظته في موقف الشريعة من مبدإ المساواة في الحقوق؛ "فالسلطان الملك، والفقير المسكين، كلاهما سيّان في

---

(٢٠) الكلمة الخامسة والعشرون ص: ٥١٤.

(٢١) إشارات الإعجاز ص: ٣٢.

(٢٢) اللمعة الثلاثون ص: ٥٢٦.

(٢٣) اللوامع ص: ٨٨١.

(٢٤) الكلمة الثالثة عشرة ص: ١٥٤، الكلمة الخامسة والعشرون ص: ٥٠٨.

الحقوق... فيا للعجب! إن الشريعة التي نهت عن تعذيب نملة وأمرت ألاّ تداس عمداً، أتهمل حقوق بني آدم؟ كلا" ![٢٥].

ألا وإن العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة أصلا... [٢٦]

ألا وإن الشريعة سبب السعادة وهي العدالة المحضة وهي الفضيلة[٢٧].

المبحث الثالث: نماذج تطبيقية

كما أن الأستاذ النورسي بلور الحضور المركزي لمبدإ العدل في الكون وفي الشريعة معا، وكما أنه بلور كذلك أهمية هذا المبدإ مقصدا أساسيا من مقاصد الشريعة، فقد شفع ذلك كله بنماذج منتزعة من الواقع، واختار قضايا ذات أهمية، واصطفى منها أمثلة حساسة في وقته جعلها موضعا للنقاش مع المخالفين، وأثبت بها صوابية الأحكام الشرعية، واستنبط منها الفلسفات المؤطرة والموجهة لهذه الأحكام الإلهية المستهدفة لتحقيق سعادة الدارين، والمحافظة على الأمن والاطمئنان، وروابط الحياة الاجتماعية..." فما أشد هذه إيغالاً في أعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقة وأصالة"!![٢٨].

أولا: **نماذج من الحياة السياسية**

كان واقع الأستاذ النورسي على الصعيد السياسي واقعا مرا؛ استجد فيه على الأمة نظام الحكم الغربي الغريب في مرجعيته وفي أسلوبه، مع اقتصاره في الأهداف التي يصبو إلى تحقيقها للإنسان على هذه الحياة الدنيا. وكان أهم إخفاقاته الباكرة ما أوقع فيه العالم كله جراء حربين عالميتين لم تبقيا ولم تذرا. فكان على الأستاذ أن يبرهن للمتغربين على أصالة مبادئ الحكم التي أتت بها الشريعة وعلى نبل مقاصدها في ذلك، كما كان عليه أن يجتهد لإزالة ما ران على هذه المبادئ السامية من عفن بحكم التطبيق المشوه بالهوى البشري، وأن

---

(٢٥) صيقل الإسلام،المناظرات ص: ٣٩٨.
(٢٦) اللوامع ص: ٨٧٣، نوى الحقائق ص:٦١١.
(٢٧) صيقل الإسلام،المحكمة العسكرية العرفية ص: ٤٤٠.
(٢٨) اللمعة الثلاثون ص: ٥٢٦.

يستعرض بعض تجاربه في ذلك، يقول: "لقد قمت بإلقاء خطب عدة على العلماء عامة، وعلى كثير من طلاب الشريعة، وذلك في كل من جامع أياصوفيا وبايزيد والفاتح والسليمانية، وبينت العلاقة الحقيقية بين الشرع الحقيقي والمشروطية[٢٩]. وأوضحت أن الاستبداد المتعسف لا صلة له بالشريعة الغراء، وأن الشريعة قد أتت لهداية العالم أجمع كي تزيل التحكم الظالم والاستبداد كما هو مضمون الحديث الشريف: سيد القوم خادمهم"[٣٠].

وكان من أهم ما ركز عليه في كتاباته في هذا الباب مقصد العدل المسهم في تحقيق المساواة بين الناس، بعيدا عن أي صارف عن ذلك من الصوارف الإيديولوجة أو القومية العنصرية. ويبدو أنه رحمه الله قد انزعج من ظهور التيار القومي والنزعة العرقية واشتم رائحة احتراق المسلمين بفتنتها، فانبرى لشرح المبادئ الإسلامية الإنسانية لمواجهة هذا التوجه؛ يقول: "إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق؛ إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة؛ لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأنَّى له أن يبلغ العدالة! بينما الإسلام يجبّ ما قبله من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما، فلا يمكن إقامة رابطة القومية بدلاً من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الجازم؛ إذ لا تكون هناك عدالة قط، وإنما تهدر الحقوق ويضيع الإنصاف"[٣١].

وفي ذات الاتجاه عقد مقارنة أبرزت الفوارق بين المبادئ الدينية الإنسانية العادلة المحايدة وبين المبادئ العنصرية المتعصبة لينتهي إلى مدى ما يحققه كلاهما من عدل أو ظلم: "إن نقطة استناد الشريعة هي الحق بدلاً من القوة. والحق من شأنه العدالة والتوازن، وهدفها الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة

---

(٢٩) يعني الدستور.
(٣٠) صيقل الإسلام،المحكمة العسكرية العرفية ص: ٤٤٢.
(٣١) المكتوب الخامس عشر ص: ٦٨.

من شأنها المحبة والتجاذب. وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدلاً من العنصرية. وهذه شأنها الأخوة الخالصة، والسلام والوئام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب. ودستورها في الحياة التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على الخدمات التي تقدم للبشر، وشأن الهدى رفع الإنسانية إلى مراقي الكمالات، فهي إذ تحدد الهوى وتحدّ من النزعات النفسانية تُطمئن الروح وتشوقها إلى المعالي"(٣٢).

وكأنه في هذا الكلام يخاطب المتعصبين العنصريين: "إن الآية الكريمة: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ (الأنعام:١٦٤) تفيد العدالة المحضة؛ أي لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة غيره. فترى القرآن الكريم ومصادر الشريعة الأخرى وآداب أهل الحقيقة والحكمة الإسلامية كلها تنبهك إلى أن إضمار العداء للمؤمن والحقد عليه ظلم عظيم؛ لأنه إدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف بها المؤمن بجريرة صفة جانية فيه. ولا سيما امتداد العداء إلى أقاربه وذويه بسبب صفة تمتعض منها، فهو ظلم أعظم، كما وصفه القرآن الكريم بالصيغة المبالغة: ﴿إِنَّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ﴾ (إبراهيم:٣٤). أفبعد هذا تجد لنفسك مبررات وتدعي انك على حق"؟(٣٣).

إن "المساواة ليست في الفضيلة والشرف، بل هي في الحقوق، فالسلطان الملك والفقير المسكين كلاهما سيّان في الحقوق.. فيا للعجب إن الشريعة التي نهت عن تعذيب نملة وأمرت ألاّ تداس عمداً، أتهمل حقوق بني آدم؟ كلا"!(٣٤).

إن العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة أصلا...(٣٥).

---

(٣٢) صيقل الإسلام،السانحات ص: ٣٥٩.

(٣٣) المكتوب الثاني والعشرون، ص: ٣٤٢.

(٣٤) صيقل الإسلام، المناظرات، ص: ٣٩٨.

(٣٥) اللوامع، ص: ٨٧٣ نوى الحقائق، ص:٦١١.

إنه لا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة، إنها رحمة مهداة نزلت من سماء القرآن العظيم[٣٦].

ثانيا: **الحياة الاجتماعية**

يشكل المجال الاجتماعي- إلى جانب نظيره السياسي- أهم مجالين يمكن تلمس مدى حضور مبادئ وحقوق الإنسان من خلالهما بسهولة في أي مجتمع، فغياب العدل الاجتماعي يفرز الطبقية البغيضة، وغياب التضامن يضطر الطبقة المسحوقة للخضوع لاستغلال الطبقة المترفة. وهذا عين ما قرره الأستاذ النورسي في قوله: "اعلم أن شرط انتظام الهيئة الاجتماعية أن لا تتجافى طبقات الإنسان، وأن لا تتباعد طبقةُ الخواص عن طبقة العوام، والأغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيط الصلة بينهم. مع أن بإهمال وجوب الزكاة وحرمة الربا انفرجت المسافة بين الطبقات، وتباعدت طبقات الخواص عن العوام بدرجة لا صلة بينهما"[٣٧].

ويستند لاستقراء التجربة التاريخية للإنسان ليثبت من خلالها أن جل المظالم البشرية نتاج غياب ميزان العدل هذا، "نعم! في وجوب الزكاة وحرمة الربا حكمة عظيمة ومصلحة عالية ورحمة واسعة؛ إذ لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظراً تاريخياً وتأملت في مساوئ جمعية البشر لرأيت أسّ أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط:

إحداهما: إن شبعت أنا فلا علي أن يموت غيري من الجوع.

والثانيـة: اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا.

فالكلمة الأولى الغدارة النَهِمَة الشنعاء هي التي زلزلت العالم الإنساني فاشرف على الخراب. والقاطعُ لعرق تلك الكلمة ليس إلا الزكاة.

والكلمة الثانية الظالمة الحريصة الشوهاء هي التي هارت بترقِّيات البشر

---

(٣٦) اللوامع، ص: ٨٥٥.

(٣٧) إشارات الإعجاز ص: ٥٤.

فأوشك أن تنهار بها في نار الهَرْج والمَرْج. والمستأصِلُ والدواء لتلك الكلمة ليس إلاّ حرمة الربا، فتأمل!.. "[٣٨].

وهو إذ يثبث بهذا ما يتحقق من العدل الاجتماعي بفضل تشريع فريضة الزكاة والأمر بالقرض الحسن مع منع الربا، يضيف مقصدا آخر أعمق وهو الفائدة النفسية والروحية المتغياة من فريضة الزكاة، وهي تحقيق الحياة الطيبة في هذه الدنيا؛ فالمزكي والمتصدق يشعر بقدر عظيم من الراحة الداخلية وهو ينزع عنه ما ليس منه ويتخلص من أوساخ الناس – كما في التعبير النبوي - ذلك " لأنكم إن لم تمنحوها وتحسنوا بها في سبيل الله وباسم الله فانكم بلا شك ستبدون منّةً وتفضلاً ...فتجعلون الفقير تحت أسارة المنَّة وتكبلوه بأغلالها. ومن ثم تظلون محرومين من دعائه الخالص المقبول، فضلاً عن أنكم تكونون جاحدين بالنعمة لما تظنون أنكم أصحاب المال. وفي الحقيقة لستم إلا مستخلفين مأمورين تقومون بتوزيع مال الله على عباده. ولكن إذا أدّيتم الإحسان في سبيل الله باسم الزكاة فإنكم تنالون ثواباً عظيماً، وتكسبون أجراً عظيما، لأنكم قد أديتموه في سبيل الله. وأنتم بهذا العمل تبدون شكراً للنعم التي أسبغها الله عليكم. فتنالون الدعاء المقبول من ذلك المحتاج المعوز حيث لم يضطر إلى التملّق والتخوف منكم فاحتفظ بكرامته وإبائه فيكون دعاؤه خالصاً"[٣٩].

وهكذا "فالحل الوحيد والدواء الناجع للأمراض الاجتماعية هو تطبيق الزكاة في المجتمع وفرضها فرضاً عاماً، وتحريم الربا كلياً؛ لأن أهمية الزكاة لا تنحصر في أشخاص وجماعات معينة فقط، بل إنها ركن مهم في بناء سعادة الحياة البشرية ورفاهها جميعاً، بل هي عمود أصيل تتوطد به إدامة الحياة الحقيقية للإنسانية، ذلك لأن في البشرية طبقتين: الخواص والعوام. والزكاة تؤمّن الرحمة والإحسان من الخواص تجاه العوام وتضمن الاحترام والطاعة من العوام تجاه

---

(٣٨) إشارات الإعجاز ص: ٥٤.
(٣٩) المكتوب الثاني والعشرون ص: ٣٥٦.

الخواص. وإلا ستنهال مطارق الظلم والتسلط على هامات العوام من أولئك الخواص، وينبعث الحقد والعصيان اللذان يضطرمان في أفئدة العوام تجاه الأغنياء الموسرين. وتظل هاتان الطبقتان من الناس في صراع معنوي مستديم، وتخوضان غمار معمعة الاختلافات المتناقضة، حتى يؤول الأمر تدريجياً إلى الشروع في الاشتباك الفعلي والمجابهة حول العمل ورأس المال كما حدث في روسيا وإنما تهدر الحقوق ويضيع الإنصاف"[٤٠].

ثالثا: **الحياة الأسرية**

لم تتعرض الأسرة المسلمة عبر تاريخها لمثل ما تعرضت له في القرن العشرين، وهو ما جعلها تتزحزح عن جذورها وتنغمس في الدعوات التحررية الغربية، وهذا أيضا ما جعل الأستاذ النورسي يدافع عن المقاصد الشرعية من النموذج الإسلامي في بناء الأسرة وفي أسلوب العلاقات الأسرية والتربوية، وهو أيضا ما حمله على بيان فلسفة بعض الأحكام التشريعية التي تبدو في الظاهر منحازة للرجل كالميراث فبين أن هذه الأحكام عين العدل لو كانت النظرة إليها أشمل وفي سياقاتها المختلفة:

"إن الحكم القرآني: ﴿فللذَّكر مثلُ حظِّ الانُثيين﴾ (النساء: ١٧٦) محض العدالة وعين الرحمة في الوقت نفسه. نعم، إن ذلك الحكم عدالة؛ لأن الرجل الذي ينكح امرأة يتكفل بنفقتها كما هو في الأكثرية المطلقة. أما المرأة فهي تتزوج الرجل وتذهب إليه، وتحمّل نفقتها عليه، فتلافي نقصها في الإرث. ثم إن الحكم القرآني رحمة؛ لأن تلك البنت الضعيفة محتاجة كثيراً إلى شفقة والدها وعطفه عليها والى رحمة أخيها ورأفته بها، فهي تجد تلك الشفقة عليها من والدها وعطفه دون أن يكدرها حذر؛ إذ ينظر إليها والدها نظرة من لا يخشى منها ضرراً، ولا يقول بأنها ستكون سبباً في انتقال نصف ثروتي إلى الأجانب والأغيار. فلا يشوب تلك الشفقة والعطف الأبوي الحذر والقلق. ثم إنها ترى

---

(٤٠) المكتوب الثاني والعشرون ص: ٣٥٥.

من أخيها رحمة وحماية لا يعكرّها حسد ولا منافسة؛ إذ لا ينظر إليها أخوها نظر من يجد فيها منافساً له يمكن أن تبدد نصف ثروة أبيهما بوضعها في يد الأجانب. فلا يعكر صفو تلك الرحمة والحماية حقد وكدر(٤١).

والنظرة المتمعنة في الواقع تؤدي إلى العدل والمساواة الحقيقين، "فاذا ما أخذت الأنثى الثلث من أبيها؛ أي نصف ما أخذه الزوج من أبيه، فان زوجها سيسد حاجتها. بينما إذا اخذ الرجل حظين من أبيه فانه سينفق قسطاً منه على زوجته، وبذلك تحصل المساواة، ويكون الرجل مساوياً لأخته. وهكذا تقتضي العدالة القرآنية(٤٢). فتلك البنت اللطيفة الرقيقة فطرة، والضعيفة النحيفة خلقة، تفقد في هذه الحالة شيئاً قليلاً في ظاهر الأمر. إلا أنها تكسب - بدلاً منه - ثروة لا تفنى من شفقة الأقارب وعطفهم عليها ورحمتهم بها. وإلا فان إعطاءها نصيباً أكثر مما تستحق بزعم أن ذلك رحمة في حقها أزيد من رحمة الله سبحانه، ليس رحمة بها قط، بل ظلم شنيع في حقها، ربما يفتح سبيلاً أمام الحرص الوحشي المستولي على النفوس في هذا الزمان لارتكاب ظلم أشنع، يذكّر بالغيرة الوحشية التي كانت مستولية على النفوس في زمن الجاهلية في وأدهم البنات. فالأحكام القرآنية كلها تصدّق- كما يصدّق هذا الحكم - قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء:١٠٧)... وكذا الشأن في قوله تعالى: ﴿فلأمّه السُدُس﴾ (النساء:١١)... فإن شفقة الوالدة وحنانها الذي هو ألطف جلوة من رحمته تعالى بل ألذها وأجدرها بالاحترام، أسمى وأكرم حقيقة من حقائق الوجود. والوالدة هي بالذات أكرم صديقة عزيزة وأرحم مضحية، بل إنها تضحي بدنياها وحياتها وراحتها لولدها بدافع من حنانها وعطفها. حتى إن الدجاجة- التي هي في أبسط مراتب الأمومة وتحمل بصيصاً من تلك الشفقة- لا تتردد في الهجوم على الكلب والصولة على الأسد دفاعاً عن فراخها، رغم خوفها وجبنها.

---

(٤١) المكتوب الحادي عشر ص: ٤٨.

(٤٢) الكلمة الخامسة والعشرون ص: ٤٧٥.

فحرمان الوالدة التي تطوي جوانحها على مثل هذه الحقيقة العزيزة وإلى هذا الحد، من تركة ولدها، ظلم مريع وعمل إجرامي، وإهانة بحقها، وكفران نعمة إزاء الحقيقة الجديرة بالتوقير، بحيث يهتز له عرش الرحمة. وفوق ذلك فهو دسّ للسم في الترياق النافع لحياة البشر الاجتماعية. فان لم يُدرك هذا وحوش البشرية الذين يدّعون خدمتها، فان الناس الحقيقيين الكاملين يعلمون أن حكم القرآن الحكيم في قوله تعالى: ﴿فلأمه السدس﴾ عين الحق ومحض العدل(٤٣).

المبحث الرابع: مقارنة واقعية

إلى جانب التحليل النظري واستعراض الأدلة النصية والحجج العقلية على الحضور القوي للعدل مقصدا شرعيا في الأحكام الشرعية على اختلاف مستوياتها، فإن الأستاذ النورسي لجأ إلى الواقع المنظور ليستقي منه الدليل الواضح على مدى النجاح العملي في التجربة التاريخية الإسلامية، من خلال سيرة النبي ﷺ والتجربة الصحابية المثلى، وعلى طول خمسة عشر قرنا من التعاطي مع شريعة الإسلام العادلة. ثم هو يقارن مع واقع الحضارة الغربية المتشدقة بالعدل والحرية وأيديها ملطخة بدماء عشرات الملايين من الضحايا، وسجلها أسود بتاريخ استعماري يندى له الجبين، فأي الفريقين أحق بالعدل؟

"إن الشريعة التي تجلّت من أمّي ﷺ وأدارت خمس البشرية على اختلافها منذ أربعة عشر قرناً إدارة قائمة على الحق والعدل بقوانينها الدقيقة الغزيرة، لا تقبل مثيلاً أبداً... وكذا الإسلام الذي صدر من أفعال مَن هو أمّي ﷺ ومن أقواله، ومن أحواله، هو رائد ثلاثمائة مليون من البشر ومرجعهم في كل عصر، ومعلم لعقولهم ومرشد لها، ومنوّر لقلوبهم ومهذّب لها، ومربٍ لنفوسهم ومزكٍ لها، ومدار لانكشاف أرواحهم ومعدن لسموها، لم يأت ولن يأتي له مثيل(٤٤).

---

(٤٣) المكتوب الحادي عشر ص: ٤٩.

(٤٤) المكتوب التاسع عشر ص: ٢٨١، الشعاع الخامس عشر ص: ٦٥٦، الكلمة الحادية والثلاثون ص: ٦٨٩.

ونرى- من الصحابة- الإمام علياً (رضي الله عنه) في أيام خلافته يمثل أمام المحكمة مع يهودي ليتحاكما.

وقد شاهد أحدُ مسؤولي العدل أن أحد الموظفين احتد وغضب على سارق ظالم وهو يقطع يده فاصدر أمره بعزل ذلك الموظف في الحال، وقال آسفاً: من خلط مشاعره الذاتية بإجراء العدالة فقد اقترف ظلماً كبيراً[٤٥].

وكذا كان بقية الصحابة حين "أداروا العالم من الشرق إلى الغرب بالعدل والقسطاس المستقيم بعد أن تنوّروا بنور محمد ﷺ في فترة قصيرة برغم كونهم بدواً وأميين. وظهروا على الدول العظمى وغدوا أساتذة الأمم الراقية ذات الحضارات والعلم والسياسة، ومعلمين لها وسياسيين حكماء عادلين، فحوّلوا ذلك القرن إلى خير القرون وعصر السعادة"[٤٦].

"فإذا تفهمت هذا، تأمل في حقائق الشريعة مع تلك المصادمات العظيمة والانقلابات العجيبة، وفي هذه الأعصار المديدة تَرَها قد حافظت على موازنة قوانين الفطرة وروابط الاجتماعيات اللاتي بدقتها لا تتراءى للعقول مع كمال المناسبة والمصافاة معها. فكلما امتد الزمان تظاهر الاتصال بينها. ويتظاهر من هذه الحالة أن الإسلامية هي الدين الفطريّ لنوع البشر وأنها حق، لهذا لا ينقطع إن رقّ. ألا ترى أن الترياق الشافي للسموم القاتلة في الهيئة الاجتماعية إنما هو أمثال حرمة الربا ووجوب الزكاة اللتين هما مسألتان في ألوف مسائل تلك الشريعة؟"[٤٧].

أما واقع الحضارة المادية المعاصرة فإنه "بسبب التعصب العنصري والأنانية التي نشأت في هذا العصر العاصف من المدنية الغادرة، والدكتاتورية العسكرية

---

(٤٥) الشعاع الرابع عشر ، ص: ٤٤٨، المكتوب الثاني والعشرون، ص: ٣٤٨.

(٤٦) الشعاع الخامس عشر، ص: ٦٦٢، صيقل الإسلام، محاكمات، ص: ١٤٤، صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية العرفية، ص: ٤٦٧، صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية العرفية، ص: ٤٧١.

(٤٧) إشارات الإعجاز ، ص: ١٧٠.

التي أعقبت الحرب العالمية، وما أفرزته الضلالة من القسوة وعدم الرحمة، ساد أشد أنواع الظلم واشد أنواع الاستبداد..."(٤٨).

" إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي السمعَ كلياً إلى الأديان السماوية؛ لذا أوقعت البشرية في فقرٍ مدقع، وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سُبل الظلم وارتكاب المحّرمات. زد على ذلك فقد ألقت بذلك الإنسان المحتاج المسكين في أحضان الكسل والتعطيل المدمّر، بعد أن شجعته على وسائل السفاهة. وهكذا بددت الشوق لديه إلى السعي والعمل، فأضاع الإنسان عمره الثمين سدىً باتباعه هوى المدنية الحاضرة وبسيره وراء سفاهتها ولهوها"(٤٩).

"ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة مموهة زائفة. وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك. علماً أن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية؛ بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس"(٥٠).

ويختم هذا الجدال بمقارنة أقرب لفهم القارئ بين منطلقات وأهداف كلا المنظومتين، الدينية والوضعية:

تأسست المدنية الحاضرة على خمسة أسس سلبية:

١ـ نقطة استنادها وركيزتها القوة، وهذه من شأنها التجاوز والاعتداء.

٢ـ هدفها وقصدها المنفعة، وهذه من شأنها التزاحم.

٣ـ دستورها في الحياة الجدال والصراع، وهذا من شأنه التنازع.

٤ـ رابطتها بين الكتل البشرية هي العنصرية والقومية السلبية التي تنمو وتتوسع بابتلاع الآخرين، وشأنها التصادم الرهيب.

---

(٤٨) الشعاع الثاني عشر ص: ٣٤٦.

(٤٩) الملاحق، ملحق أميرداغ، ٢، ص: ٣٨٠.

(٥٠) صيقل الإسلام،السانحات ص: ٣٥٧.

٥ـ خدمتها للبشرية خدمة جذابة؛ تشجيع الهوى والهوسات وتلبية رغبات النفس الأمارة، ذلك الهوى الذي هو سبب لمسخ الإنسان مسخاً معنوياً.

أما المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمر بها فإن نقطة استنادها الحق بدلاً من القوة، والحق من شأنه العدالة والتوازن.

وهدفها الفضيلة بدلاً من المنفعة. والفضيلة من شأنها المودّة والتجاذب.

وجهة الوحدة فيها الرابطة الدينية والوطنية والصنفية بدلاً من العنصرية والقومية، وهذه الرابطة من شأنها الأخوة المخلصة والمسالمة الجادة والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي.

ودستورها في الحياة التعاون بدلاً من الجدال والصراع، والتعاون من شأنه الاتحاد والتساند.

وتضع الهدى بدلاً من الهوى، والهدى من شأنه رفع الإنسان روحياً إلى مراقي الكمالات.

فلا ترخِ يدك عن الإسلام الذي هو حامي وجودنا، واستعصم به، وإلاّ هلكت"[٥١].

والخلاصة أن من تتبع نظرة الأستاذ النورسي إلى موضوع العدل يجده منطلقا من خلفية تعمقت في فهم حكمة الدين، واستثمرت خلاصات الفكر الإنساني، ومزجت ذلك بالتجارب البشرية. فخرجت بنظرة ناضجة وخلصت إلى نتائج بعد المقارنة خلاصتها أن البشر قصير النظر فطير الفكر، في مقابل الأمر الإلهي والشرع الرباني.

كما أن قارئ إنتاج الأستاذ النورسي يلمس آثار هذا الفهم العالي في تناوله لمثل هذه المبادئ السامية الإنسانية المثلى، إذ كما يرجع في بناء مرجعيته إلى الجذور تجده ينظر وهو يحلل ويركب إلى الآفاق البعيدة ويقرأ عالم الخلق في ذات الوقت الذي يرشح فيه فكره بآثار الوحي.

---

(٥١) نوى الحقائق ص:٦٠٧، اللوامع ص: ٨٥٥، صيقل الإسلام،السانحات ص: ٣٥٩.

ولذلك تراه واضح الرؤية مستوعب الفكرة قوي الحجة منطقي النتيجة، مازجا بين العقل والنقل في مشكاة واحدة. أو ليست هذه هي الفطرة؟

إن تناوله لمبدإ العدل خصوصا وفي كل كتاباته عموما- بغض النظر عما يمكن أن يلاحظ على منهجه مما قد يكون مرجعه ظرفه الزماني أو ظرفه المكاني أو ظرفه الشخصي- يبلور شخصية فذة وفكرا ساميا ومرآة صافية وإيمانا عميقا؛ لذلك انسابت أفكاره كلمات مكتوبات، وشعاعات لمَّاعات، تقصد إلى بيان إشارات إعجاز القرآن للعالمين بالدليل الباهر والمثنوي العربي النوري القاهر، وصيقل الإسلام الظافر. رحمه الله.

الفكر التربوي ومقاصده في الحياة
عند بديع الزمان سعيد النورسي

د. عزالدين جوليد
كلية الشريعة/ اكادير

أحمد الله سبحانه وتعالى، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

تقديم

درس هذا البحث جانبا هاما من جوانب الفكر التربوي ومقاصده في الحياة عند بديع الزمان سعيد النورسي. ولعل أهمية هذه الدراسة تتحدد في نقطتين:

أولا: أنها بينت أن رسالة بديع الزمان سعيد النورسي التربوية هي رسالة مؤسسة ومؤصلة تأصيلا شرعيا.

ثانيا: عرضت درسا يفيد في تأصيل الثقافة التربوية الإسلامية في ساحة الفكر الإسلامي عموما.

لقد تصدى هذا البحث إلى دراسة اصطلاح مفهوم التربية عند سعيد النورسي، وهو لفظ كثيرا ما أطلقه سعيد النورسي من خلال رسائله عن طريق ألفاظ مختلفة، فعالج من خلاله وظيفة الإسلام التربوية معالجة واضحة المعالم، محددة الأهداف.

أبعاد الفكر التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي

قدم الفكر التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي تحديدات هامة لفهم فعالية المجهود التربوي، وهذه التحديدات تحملنا على التصريح بأن تأملات سعيد النورسي في التربية تكونت في ظل ما تروم إليه مقاصد الشريعة. وللاستدلال على ما نقول نشير إلى أن اصطلاح التربية عنده له مساحة كبيرة، وذلك لعلاقته بميادين الحياة كلها سواء أكانت سياسية، أم اقتصادية، أم اجتماعية.

لقد سلك سعيد النورسي مسلكا منهجيا وهو يعالج هذا الاصطلاح معالجة تتماشى ومقاصد الشريعة الإسلامية. فمن الملاحظ على سير معالجته أنها قدمت للقارئ إيضاحات أولية تحدد معاني التربية الإسلامية، ومن ثم وضعت القارئ على الجادة من خلال هذه المعالم.

إن هذا الخطاب التربوي كان بالخصوص معالجا بإطار فهم الجمهور، حيث قدم لنا أفكارا تربوية تفيد في التأصيل لمعنى التربية في ثقافتنا المعاصرة. ومن هنا نستطيع أن نقرر أن أهمية مراجعة التراث الإسلامي من زاوية تربوية، وبذلك يكون التراث رافدا لا ينضب يزودنا بزاد ثقافي يُسهم مع روافد أخرى في تشكيل أسس فكرنا التربوي المعاصر.

ومن خصائص الفكر التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي نقول:

١- إن خطابه التربوي له هدف وغاية، بحيث ينبغي أن يكون موجها لإنجاز غرض في الحياة، لأنه فعل مقصود.

٢- إن فكره التربوي يعترف بالتكرار في العمل التربوي، ذلك أن تشكيل شخصية الإنسان موضوع التربية يتحقق عن طريق التعويد، والتعويد فعل تربوي يعني تكرار وإعادة بناء شخصية الإنسان وفق جدول القيم الإسلامية.

٣- مفهوم التربية عند بديع الزمان سعيد النورسي يعني - من خلال رسائله كلها رحمه الله- ترتيب شخصية الفرد فكرا وسلوكا، وذلك يعني إيجاد ترجمة

واقعية للموجهات التربوية الإسلامية، ولنسمع بديع الزمان سعيد النورسي كيف فهم هذا الأمر: «ومن هذا السر الجاري في الكائنات المسمى بـ"سنة الله"، ومن هذا الدستور العظيم، يكون العاطل الكسلان الطريح على فراش الراحة أشقى حالا، وأضيقَ صدرا من الساعي المجدّ، ذلك لأن العاطل يكون شاكيا من عمره، يريد أن يمضي بسرعة في اللّهو والمرح؛ بينما الساعي المجد شاكر لله وحامد له، لا يريد أن يُمضي عمره سُدى، لذا أصبح دستورا عاما في الحياة» (١).

فالمقصود من خلال هذا، تربية المسلم، بحيث يلتزم بالقيم والضوابط الإسلامية، وينقاد إلى أوامرها ويخضع لما تقرره مقاصدها وهو حي يُرزق.

ونقف هنا ونذكر بحق أن الفكر التربوي لبديع الزمان سعيد النورسي سجل سابقة فريدة من نوعها في تاريخ الأمة الإسلامية لما تميز به صاحبه من صدق في الأفكار والأحاسيس وإخلاص في العمل.

الوظيفة الاجتماعية لمفهوم الفكر التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي

يلاحظ الدارس لرسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي أن فكره التربوي يحمل كشفا عن الطريقة المثلى التي يتم من خلالها بناء شخصية المسلم، وهو فعل من أفعال التدبير التربوي الإسلامي، وهنا يمكن أن نقول إن هذا التدبير يخلق الرادع والوازع الأخلاقيين من خلال معرفة الإنسان بما له من حقوق وما عليه من واجبات، فلا يعتدي ولا يظلم ولا يطلب أكثر مما يستحق، إن هذا التدبير التربوي يشكل شخصية المؤمن الأنموذج للأمة المسلمة، وهذا التوجيه التربوي يقوم على مرتكز فقه المقاصد، ولعل البعد التربوي عند بديع الزمان يتكشف في تخطيطه الذي اعتمد فيه تحليلا لقيمة الإيمان وذلك في بيان مردوداته الأخلاقية على واقع الأمة؛ فقد نظر رحمه الله في نوعين من العمل: العمل الفاضل، وغير الفاضل، ومن المعلوم لديه رحمه الله أن العمل هو جهد إنساني، ويترتب على هذا خلق بناء للشخصية المطلوبة في واقع الأمة، وبعكس

---

(١) حقائق الإيمان، للنورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص. ٩٨.

ذلك يكون العمل غير فاضل، وهو مجهود إنساني غير فاضل يُسهم في خلق شخصية مزدوجة السلوك والتفكير، مما يكون له انعكاس خطير في واقع الأمة.

يقول رحمه الله: «أيها المبتلى المسكين، لا تخف، ولا تضطرب، لأن ما مر أمام مرآة ذهنك ليس شتما ولا سبا، وإنما هو مجرد صور وخيالات تمر مرورا أمام مرآة ذهنك، وحيث إن تخيل الكفر ليس كفرا، فإن تخيل الشتم أيضا ليس شتما؛ إذ من المعلوم في البديهية المنطقية أن التخيل ليس بحكم بينما الشتم حكم. فضلا عن هذا فإن تلك الكلمات غير اللائقة لم تكن قد صدرت من ذات قلبك، حيث إن قلبك يتحسر منها ويتألم، ولعلها آتية من لمة شيطانية قريبة من القلب. لذا فإن ضرر الوسوسة إنما هو في توهم الضرر، أي إن ضرره على القلب هو ما نتوهمه نحن من أضرارها، لأن المرء يتوهم تخيلا لا أساس له كأنه حقيقة، ثم ينسب إليه من أعمال الشيطان ما هو بريء منه، فيظن أن همزات الشيطان هي من خواطر قلبه هو، ويتصور أضرارها فيقع فيها، وهذا هو ما يريده الشيطان منه بالذات» [٢].

كما أن من خصائص منهجه التربوي رحمه الله، أنه كان يقوم على تحليل اجتماعي لفعل التربية في واقع الأمة لما قدمه من تشخيص للعلل التي تصيب جسم الأمة فيتصدع كيانها فتظهر المشكلات، وهذا -برأيه رحمه الله- مشكل تربوي أسهمت في خلقه أسباب عدة. إن هذا يكشف بتقديره عن فشل البرنامج التربوي السائد في واقع الأمة، ولذلك وجدناه رحمه الله يدعو للتأمل الواقعي لتشكيل أركان برنامج تربوي بديل يساعد الأمة للخروج من مأزقها.

إن بديع الزمان يقدم لنا إشارة هامة يعلن من خلالها أن احتدام الصراع في داخل الأمة يكون بتسلل أفكار غريبة، فتأخذ في النهش في جسمها، ولتفادي هذا القلق يقول رحمه الله: «حينما سئل: ما حكمة تلك الفتنة التي أصابت الأمة الإسلامية في عصر الراشدين، وخير القرون، حيث لا يليق بهم القهر ونزول المصائب؟ وأين يكمن وجه الرحمة الإلهية فيها؟

(٢) كلمات صغيرة، للنورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص. ٨٦-٨٧.

الجواب: كما أن الأمطار الغزيرة المصحوبة بالعواصف في الربيع تثير كوامن قابليات كل طائفة من طوائف النباتات وتكشفها، وتثير البذور وتطلق النوى، فتتفتح أزهارها الخاصة بها، ويتسلم كل منها مهمته الفطرية (...)، كذلك الفتنة التي ابتلي بها الصحابة الكرام والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين، أثارت بذور مواهبهم المختلفة، وحفزت نوى قابلياتهم المتنوعة»[٣].

فالملاحظ أن الرؤية التربوية عند بديع الزمان قد هدفت إلى تصحيح كيان الإنسان المسلم، فهي تربية تنشد إعادة بناء شخصيته بعد أن أصابها الانحراف والاعوجاج، وهو أمر نستشعر من خلاله صدى الاتجاه الطبيعي للتربية الإسلامية الحقيقية، وهو ما يحملنا أن نقول إن معنى التربية عنده هو إعادة الصحة للإنسان المؤمن الموحد، وإعادة السعادة له، فالتربية جهد لعودة الصحة بعد فقدانها، وبناء للإنسان الموحد بناءً إيمانيا سليما.

يقول رحمه الله: «فما أحوج روح البشر العاجزة الضعيفة الفقيرة إلى حقائق العبادة والتوكل، وإلى التوحيد والاستسلام، وما أعظم ما ينال منها من ربح وسعادة ونعمة، فمن لم يفقد بصره كليا يرى ذلك ويدركه» [٤].

ملامح نظرية الملكات التربوية وطريق اكتسابها عند بديع الزمان سعيد النورسي

يشعر القارئ وهو يتأمل رسائل النور لبديع الزمان أنه أمام اتجاه تربوي أصيل مصبوغ بصبغة تهذيبية، مشغول بمعالجة الجوانب الحسية والفكرية لدى الإنسان، ويضع على هذا الأساس برنامجا تعليميا لإحداث ترقية للنفس الإنسانية من أجل أن يستخدمها الإنسان استخداما صحيحا يحقق له اندماجا للتشكيل الاجتماعي، وفكره التربوي رحمه الله كشف من خلاله عن أفعال يتفرد

---

(٣) المعجزات الأحمدية (الإشارة الخامسة)، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص.

(٤) انظر كلمات صغيرة، للنورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص. ٢٠.

بها الإنسان عن بقية الحيوانات، وهذه الأفعال تعود إلى أنها من اختياره، وما دام الأمر كذلك فعليه أن لا يناقض بها المقاصد التربوية الشرعية التي تتماشى والشريعة الإسلامية.

يقول رحمه الله مخاطبا النفس البشرية: «ولا تظني نفسك سارحة مفلت الزمام، ذلك لأنك إذا ما نظرت إلى دار ضيافة الدنيا هذه، نظر الحكمة والروية (...) فلن تجدي شيئا بلا نظام ولا غاية، فكيف إذًا تبقين أنت وحدك بلا نظام ولا غاية، فحتى الحوادث الكونية والوقائع الشبيهة بالزلازل ليست هي ألعوبة بيد الصدفة» [٥].

وعموما، فإن الفكر التربوي عنده يهدف إلى تنمية الأفعال الاختيارية بحيث تعبر عن شخصية الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا غير منعزل لندرك في الأخير أن تسمية هذه الأفعال عن شخصية هذا الإنسان ينبغي أن تكون مشروطة بضرورة اجتماعية يحددها جدول القيم العام، لذلك نلحظ ربطا لأفعال الاختيار بمجموعة فضائل ينبغي أن يفعلها الإنسان إذا أراد أن يرتقي في الحياة وفق مقصد الشريعة الإسلامية العام، وهنا يلوِّح رحمه الله لفكرة التعاون التي تقتضي حدوث نوع من الإلزام الأخلاقي والاجتماعي بحقوق الجماعة. يقول رحمه الله: «فإن كان لديك ذرة من الحمية والشهامة تجاه هذه الأمة وإن كنت صادقا في دعواك إلى التضحية والفداء والإيثار، فعليك بمد يد المساعدة إلى أولئك القلة من الداعين إلى الحياة الباقية، وإلا فإن عاونت الكثرة وكممت أفواه أولئك الدعاة القلة، فقد أصبحت للشيطان قرينا فساء قرينا» [٦].

إن كتابات بديع الزمان عموما لا تخلو من نزعة تعليمية تهدف إلى السيطرة على ذهنية المتعلم، ومن ثم إعادة ترتيبها وفق سياق الهدف الذي رسمته مقاصد الشريعة، ولعل الناظر في نصوصه التعليمية يقف على دقائق هذا الاتجاه، حيث

---

(٥) انظر: كلمات صغيرة، للنورسي، ص. ٩٨.

(٦) انظر: حقائق الإيمان، للنورسي، ص. ٩٤.

تتحدث نصوصه عن طرائق اكتساب المعرفة وتقدم أمثلة دالة على صور المعرفة التي نحصل عليها أو نكونها عن طريق هذه الوسائل المعرفية.

أنماط التربية وعمر الإنسان عند بديع الزمان سعيد النورسي

إن العملية التربوية وخاصة الجانب التعليمي منها بالتحديد، كثيرا ما ترتبط فاعليتها ونتائجها بسن المتعلم، وذلك من حيث المواد التعليمية، والأساليب المتبعة، والمربي الكفؤ كثيرا ما يراعي سن المتعلم وهو يختار له المواد التعليمية من فضائل وقيم في برنامجه التعليمي، وعلى ضوء هذا نجد المربي الكبير بديع الزمان سعيد النورسي قد أدلى بمجموعة أفكار تتيح لنا الفرصة للقول إنه انتبه إلى مسألة ضرورة مراعاة سن المتعلم، ليوجه لهذا أنظار المربين في إشارته إلى وضع البرنامج التعليمي الخاص لكل فئة من الفئات حسب السن.

كما يلاحظ الباحث أن اتجاهات التربية عنده سارت باتجاه معرفي الغرض منها القيام بفعل تثقيف العامة باستخدام الأدوات المعرفية التي يمتلكها الإنسان، قال رحمه الله تعالى: «إن كمية كلفة تربية الشجرة المثمرة تساوي كلفة ثمرة واحدة في السهولة، لوحدة التربية واتحاد التدبير؛ إذ لاتحاد المركز ووحدة القانون ووحدانية التربية تخففت الكلفة والمشقة والمصرف، وتسهلت بدرجة لا فرق بين الشجرة ذات الثمرات الغير المعدودة، وهي في يد الوحدة وبين الثمرة الواحدة وهي في يد الكثرة، فالشركة وتعدد المركز تحتاج لتربية ثمرة واحدة إلى كل ما يحتاج إليه تمام الشجرة بأثمارها من جهة كمية الجهازات، ولا فرق إلا في الكيفية» [٧].

(٧) المثنوي العربي النوري، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، ص. ٥١.

الخاتمة

وختاما، نقول: يظهر من خلال الفكر التربوي لبديع الزمان سعيد النورسي أن برنامجه فيه تأمل نقدي لأوضاع التربية في واقعه المعيش، فاتجه رحمه الله نحو الذات ليسقط منها كل ما استقر من تقاليد وأعراف، ليضع قائمة قيم جديدة، وتصورات عامة لاتجاهات تربوية لا علاقة لها بأنماط التفكير السابقة، فصاغ رحمه الله اتجاها تربويا جديرا بالتأمل والبحث للتجاوب مع العصر، ورافضا في الوقت نفسه حالة التقليد والجمود.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الفهرس